297.15: W14iA Vol 2
وجدي - محمد فريد
الاسلام في عصر العلم
JAN 13 4057
MAR 22 3545
MAY 28 4036
4 MAR 71
69-3326
18. 12. 78
22L
297.15
W14iA
V.2
Jan 12 '59
J. LIB.
23 AUG 1981
JAFET LIB.
- 1 JUN 1982
JAFET LIB.
18 FEB 1991

297.15
W14iA
v.2:c.1

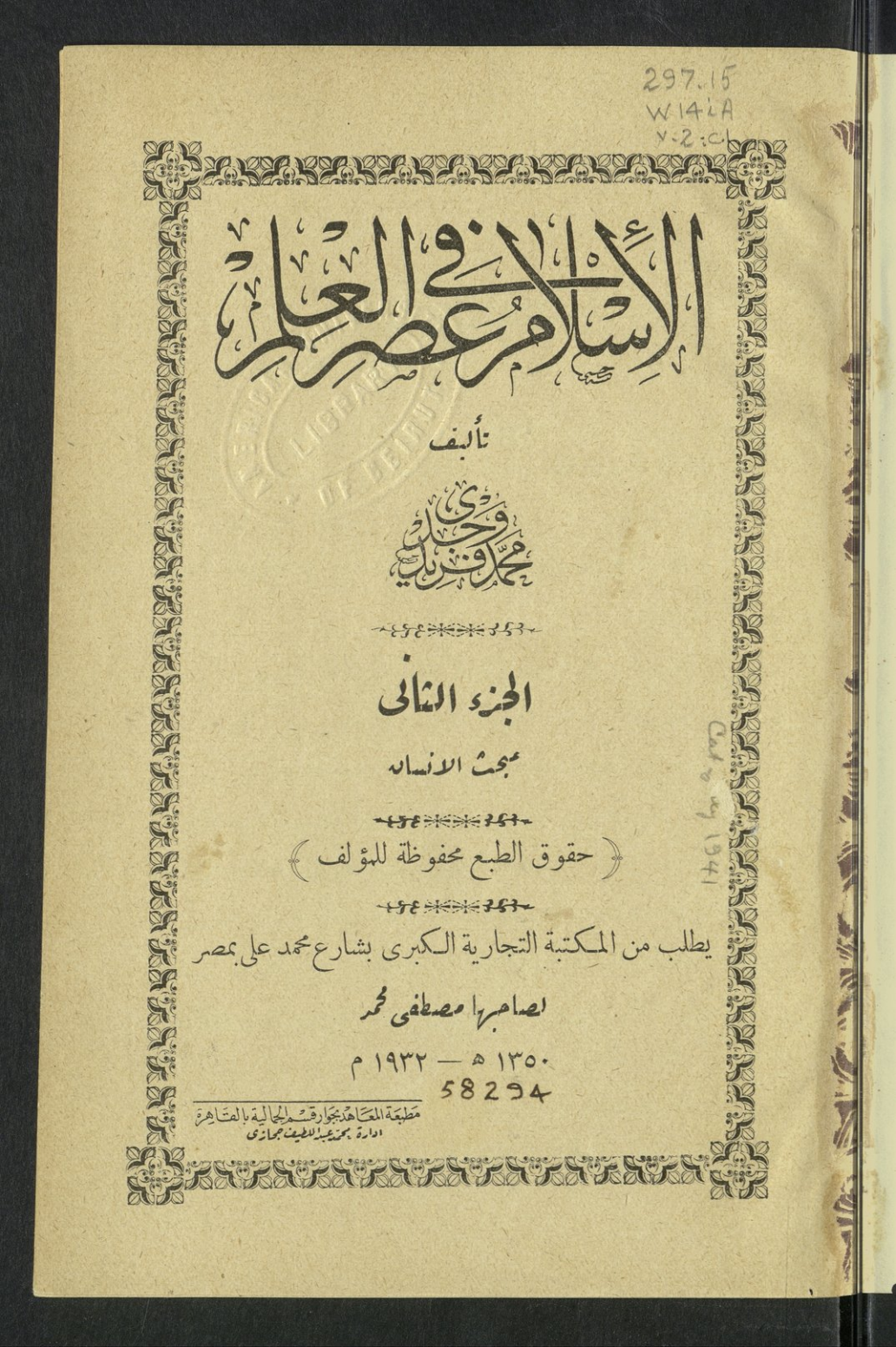

الإسلام في عصر العلم

تأليف

محمد فريد وجدي

الجزء الثاني

بحث الانسان

﴿ حقوق الطبع محفوظة للمؤلف ﴾

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بشارع محمد على بمصر

لصاحبها مصطفى محمد

١٣٥٠ هـ — ١٩٣٢ م

58294

مطبعة المعاهد بجوار قسم الجمالية بالقاهرة
ادارة محمد عبد اللطيف حجازى



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى وفقنا لخدمة دينه القويم ، وهدانا بنوره العميم الى صراطه المستقيم ، وأصلى وأسلم على رسوله الكريم ، وأمينه الصميم ، محمد خاتم النبيين ، وامام المتقين ، وعلى آله وصحبه أجمعين إلى يوم الدين .

(أما بعد) فاننا بحول الله وقوته أتممنا الجزء الأول من (الاسلام فى عصر العلم) فلنبدأ فى الجزء الثانى منه معتمدين على واهب القوى والقدر ، ومانح البصيرة والبصر ، راجين منه سبحانه وتعالى أن يأخذ بيدنا لاتمام هذا الصرح الفخيم ، الذى تصدينا لتشييده لدينه القويم ، خدمة لأنفسنا معشر أبناء هذا العصر الذى انصبت فيه العلوم المادية انصباباً مريعاً ، وبلغت فيه المدارك الالحادية مبلغاً عجيباً ، ولعبت فيه الشبه بالعقول ، ولا لعب الشمول ، وهاجمت فيه الشكوك معاقد الايمان من سرائر النفوس ، وضمائر القلوب ، هجوما شعر به الانسان شعوراً أزعجه إزعاجاً ، وبرح به تبريحاً ، وصاح كل منا صيحة دلت على قدر ألمه ، ومقدار وجعه . فمنا من استكان للعلة وظنها لازما من لوازم العلم العصرى فجعل الشك دينه ، وظن كما يظن اللاأدريون أن

الوصول الى صميم الحقيقة محال على الانسان ، فقنعوا بهذا المركز المضطرب وخالوه نهاية مايبلغه العقل القوى والفكر السليم ؛ ومنا من هاجمته تلك الشكوك هجوما عنيفا ولم تجد من فطرته ما يقاوم تاراتها فجلا الايمان منها جلاء ، وحل محله غيهب الكفر المطبق فساق ذلك المسكين أمامه الى أغراض الشهوات ، ومتاهات الأهواء ، يسلك به من مفازة فتنة ، الى متاهة ريبة ، ويخرج به من مهواة شهوة الى تهور شراهة ، حتى ينتهى وجوده الدنيوى على حال لا يرضاه لنفسه فكيف يرضاه له غيره ؟

ومنا من توهم أنه سلم من أفاعيل هذا التيار الجارف ، تيار العلم الاوربى المادى ، بقطع علائقه به ، والتفانى فى الهرب منه ، فهو كلما صادفه ذلك التيار من وجهة ، ارتد على عقبه ، وسلك طريقا غير طريقه ، حتى اذا توسطه وكاد يجتازه لاحت له طلائع ذلك التيار عن بعد ، فرجع أدراجه ، وتلمس منهاجا للحياة آخر . وهلم جرا ؛ فهو يقضى حياته حائرا لايعرف له وجهة يتوجه اليها ، ولا يدرى له غاية يتيممها ، فيقف ظانا أن فى الوقوف راحة له من بعض ذلك الهم الناصب ، ولكنه لايكاد يطمئن فى نفسه حتى تغشاه غواشى ذلك التيار المتدافع من سائر جهاته ، فيضطرب طلبا للنجاة ، ويتخبط بحثا عن منفذ ! والى أين ؟ لقد أحاط التيار به من كل جانب ، وقارب أن يحيق به من كافة أرجائه ، جزاء ما أصر على مجافاته ، فلا يرى له ملاذاً إلا إحدى جهتين : إما أن تغوص به الأرض فيأمن عادية

ذلك البـلاء المتواتر ، وإما أن يرفعه الهواء الى مسـارح الأطيـار ، ومدارج الأفلاك ، فيرى أن الوجه الأخير أقرب للسلامة ، وأشـفى للنفس اللوامة ، فيشرئب برأسه ، ويتطاول بعنقه ، وكلما أحس بشدة الخطر الذى هو فيه ، تبسم الأمل فى وجهه . ونفحه الرجاء بنسيمه ، فتوهم أن ذلك الاشرئبـاب قـد رفعه الى فوق ، وأمنه الخوض فى اللجة . . . . .

بينما يكون ذلك التيار المتدفق عليه من كل مكان قد أحاط به إحاطة القيد برجلى الأسير ، وفعل به عين مافعل باخوانه المستسلمين ولافرق بينهم وبينه الا أنهم سلموا لعدوهم قبـل أن يحيط بهم ، أما صاحبنا هذا فلم يزل يزوغ منه ويروغ حتى سد دونه المسالك ، وأخذه أخذاً عنيفاً أذهله عن نفسه وأوهمه ذلك الذهـول أنه ارتفع عنه الى مسابح الطيور ، ومسابح النور .

ومنا من من الله عليه بروح خاصة أقامته على الصراط السوى ، فى وسط هذا الحال الردى ، وهم من قلة العدد بحيث لايعرفوون ، ولا يتوهم اليائسون أنهم موجودون .

هذه أقسام أربعة لايخلو واحد منا من أن يكون تابعاً لقسم منها فى هذا الجيل العجيب . فهو اما أن يكون ممن منحهم الله روحا من عنده ، ونفحهم بنفحة من رحمته ، فقاموا على طريق الصالحين الأولين ، والأولياء الطيبين ، على قدم الأنبياء المرسلين ، عليهم الصلاة والسلام أجمعين . فهو مؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر

وقضائه خيره وشره ، إيمـانا ذاتياً ذوقياً بغير تأويل ولا تصريف .

وإما أن يكون مكذبا بكل ذلك

وإما أن يكون شاكا فى صحة كل ذلك

وإما أن يكون موهما نفسه أنه معتقد بكل ذلك

لنا على كل صنف من هذه الأصناف كلام لايجوز لنا اغفاله فى مقدمة المجلد الثانى للاسـلام فى عصر العلم لأن ما سيجىء ان شـاء الله فى أثناء هذه السنة يقتضيه ويناسبه ، بل يجب علينا أن نقدمه أمام الكلام فى هذه المناسبة بيانا لوظيفة الاسلام فى عصر العلم ، واشارة للمهمة التى ندبناه لها خدمة لاخواننا الأعزاء فنقول :

حال المكذب منا بالعقائد

المكذبون بالعقائد فى كل أمة وفى كل زمان ومكان ثلاثة أقسام :

(١) قسم كافر بفطرته خلق فؤاده مطموساً ، ونوره مطفئاً (٢) وقسم جامد بفطرته لاتهمه العقائد ، ولا يهمه عدمها ، فهو كتلة مادية ذات صورة انسانية ليس الا ، وهو يتقلب بتقلب الوسط الذى يعيش فيه فان وجد المحيطين به مؤمنين فهو مؤمن فيما بينهم ، وان وجدهم على الضد من ذلك فهو معهم يفعل مايفعلون ، ويسـلك من طرق الحياة ما يسلكون .

هذا القسم والذى قبله قد أشبعنا فيهما القول فى فصل متقدم من

كتاب خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم فليرجع اليه من شاء .

بقى القسم الثالث من المكذبين وهو من لايكون كافرا ولاجامدا بفطرته ، وانما عرض له التكذيب بالعقائد من شبه علقت بذهنه من مثافته للمعارف الالحادية ، ومجالسته لبعض حملتها ، فتشبع فكره بذلك السم القاتل وتمثل به فصار عسر العلاج جدا .

افراد هذا القسم كانوا مؤمنين نشأوا تحت سماء الشرق ، ودرجوا من مهاده الوثيرة ، وهو كما لايخفى فى هذا الدور ، دور الانحطاط والقهقرى فى الصنائع والعلوم ، وهى سنة الله فى خلقه « وتلك الأيام نداولها بين الناس » ولقد كانت لنا الدولة على غيرنا كما هى اليوم لغيرنا على أكثرنا ولم تبلغ أمة منا مثل مابلغنا من سائرهم ، وسيؤوب الينا إن شاء الله مجدنا القديم ، على يد ديننا القويم ، وسنكون فى نهايتنا مثل ما كنا فى بدايتنا خير أمة أخرجت للناس نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ونؤمن بالله ونحمل للعالم نور الحق ، ولألاء الفضيلة ، ودرياق العقيدة ، ومن يعش ير العجب .

دعنا الآن من هذا ولنعد إلى ما كنا فيه . قلنا نشأ أفراد هذا القسم مؤمنين تحت سماء الشرق وهو فى دور الانحطاط والقهقرى ، فدعتهم دواعى الأحوال الاجتماعية إلى درس العلوم الأجنبية ، والسفر إلى بلادها القصية ، فماذا رأوا ؟ رأوا من زخارف الصناعات ، وبدائع المخترعات وعجائب الفنون ، وغرائب الشؤون مايذهل الناظر عن نفسه ، ويسلب العقل من رأسه ، مبانى تسامر الكواكب وتناغى السحائب ،

ومعاهد طرب ولهو تأخذ الأفئدة من بين الجوانح ، وتسترق النواظر من داخل المحاجر ، وأشياء وأشياء يطول عدها ، ولا يغيب عن قارئنا أمرها . فلما رآها أولئك الشبان وقارنوها بما عهدوه فى بلادهم من المعاهد الساكنة الخاوية ، والمشاهد المحزنة المتداعية ، جال فكرهم واضطرب ، وأتت لهم الهواجس بالعجب .

كانوا يتعلمون فى مدارس بلادهم أن دينهم دين السعادتين ، وملاك الحياتين ، وأن متبعه فائز بالصفقتين ، ومتمتع بالنعمتين ، فرأوا رأى العين أن تلك الأمم أعلا من أمتهم فى الحضارة كعباً ، وأرجح منها فى الوجود وزناً ، وأفوز منها من السعادة سهماً ،

كانوا يتعلمون أن الدين يدعو إلى الكمال ، ويحلى متبعه بشرائف الخصال ، وكرائم الخلال ، فرأوا أن أمتهم من هذه الجهة ليس لها مركز خاص بين الأمم ، بل رأوا أن آداب تلك الأمم فى الجملة أرقى من آدابها

كانوا يتلقون من آبائهم ومعلميهم أن أمتهم سيدة الأمم ، وصاحبة السيف والقلم ، ومكانها فى العالم مكان القلب من الصدر أو العين من الرأس ، فرأوا هنالك أن لا محل لفرض ذلك القول ، وأن تلك الأمم أكثر من أمتهم جنوداً وسفيناً ، وأغزر منها مالا وعيوناً ، وأقدر على استخدام قوى الطبيعة ، وأمهر منها فى استعمال أسلحتها

رغماً عن هذه المشاهد المدهشة كلها رأوا أن تلك الأمم تنابذ الأديان وتثبت بطلانها ، وتشاكس الكهان وتهدم معاهدها ، وتراقب الرهبان وتوصد مدارسها ، وتفتح لأفرادها مجالات الحرية فى الطعن

على موروثات العقائد ، ومقدسات الآباء فى الأجيال الغوابر

رأوا كل هذا بأعينهم ، وجال فى تيار ضمائرهم ، ووقف بهم موقفاً ماأصعبه على الفؤاد الحساس ! وجدوا أنفسهم من جهة مسوقين بل مرغمين على ترك العقائد ، لأن كل ماوقعوا فيه من ذلك الاضطراب الذى صورناه لك يستدعيه ، ولكنهم من جهة أخرى عز عليهم أن يكشطوها من ضمائرهم وهى التى كانت لهم أيام الشبوبية الأولى عزاء فى المصائب ، وتسلية فى المتاعب ، ومعتصما فى المخاوف ! صعب عليهم أن يهجروها وهى التى طالما هاموا بنشيدها فى المكاتب وطربوا بالترنم بها فى المحافل .

هذا الحنين الذى طرأ عليهم من جراء هذا التناقض الذى أشرفوا عليه كان يكفى لأن يقودهم الى طريق الوسط ، ويريهم وجه الحق فيما هم بصدده ؛ ولكن هيهات ! فانهم لم يكادا يئنون أنة أو أنتين حتى دهمهم تيار تلك المدنية الساحرة فداروا فيه مع الدائرين ، ولم يزالوا بين تلق ولهو ، يجذبهم العلم يوماً ، وتسحرهم السواحر يوماً ، حتى جازوا دور الشبوبية وشارفوا دور الكهولة ، فجمدوا على ماعلق بفكرهم وجزموا بصدق استدلالهم وانقطع عنهم ذلك الحنين الاولى وعدوه من بقايا سن الطفولية ، وآثار الحياة المنزلية ، فآبوا وكأنهم أجانب عن الوطن والدين ، لا يتكلمون إلا بالفرنسية ، ولا يلبسون الطرابيش إلا فى البلاد المصرية .

قلنا ان هؤلاء الناس ليسوا كافرين بالفطرة ، وانما عرض لهم

التكذيب من العوارض التى قصصتها عليك ، وهى عوارض تمكن ازالتها بالطرق العلمية ، فانهم متى عرفوا حقيقه الدين وحقيقة الاسلام ، لخفوا اليه سراعا فكانوا أعز أنصاره ، وأقوى أعوانه . ولكن كيف السبيل اليهم ؟ انهم يعتقدون اعتقاداً جازما انه لا يمكن أن يصل الشرق إلى أكثر مما وصلوا اليه من العلم ، ويستنتجون من ذلك انه لا يمكن أن يرجعهم واحد من أبناء جلدتهم عماهم فيه ، فكيف نطمع بعد هذا أن يؤوبوا الينا وهم فى جماحهم يهيمون ، وفى خيلائهم تائهون . أللهم إلا أن يكون لله فيهم شأن لا نعرفه

لهذا قلنا ان هذا القسم عسر الشفاء جداً مما هو فيه من داء الالحاد لا لكونه كافراً بالفطرة ولكن لكونه شديد الجموح عن السمع ، كثير الهرب من التأمل

قسم الموهمين أنفسهم بالعقيدة

أكثر أفراد هذا القسم من الذين لم يتعلموا العلوم الحديثة ولم يذقوا حلوها ومرها ، لذلك يراهم أصحاب القسم المتقدم كأنهم من قوم غيرهم لمخالفتهم لهم عقلا وعلما ولبساً وان كان منهم من هم آباء أو اخوان لكثير منهم

أفراد هذا القسم لا يعرفون من الخطر المحدق بهم وبأمتهم من جراء التيار الغربى الا ما يرونه من بعض آثاره حولهم ككثرة معاهد اللهو ، وانصباب الشبان فى الترف والقصف ، وخراب بيوتات الحسب

القديم ، والنسب التالد ، وقلة المتمسكين بفضائل الدين ، وانتشار الفجور ، والفسق بين الطبقات العليا والوسطى ، وذهاب أكثر أطيان القطر المصرى من يد أهله إلى طائفة من أصحاب البنوك ، وتبدل بيوتات المجد فى بلاد الفلاحين إلى معاهد شراب ومقامرة وانتهاء الأمر بذهاب تلك الالوف المؤلفة من الأفدنة إلى من لا يرحم أصحابها ولا يواسيهم بشربة ماء .

كل هذا يراه أصحاب هذا القسم ويحسبونه كل ما فى المدنية الأوروبية فيسلقونها بألسنة حداد ، ويطعنون عليها فى كل ناد ، وينبزونها بالألقاب . يعادون علومها وصنائعها ، ويكرهون زخارفها وبدائعها ، وماذا تفيد كل هذه الكراهة والعداوة وهم لا يدرون جهات قوتها وضعفها ، ولا أمكنة حياتها وموتها . وهل نبعد فى التشبيه لو قلنا انهم كالذين رأوا ناراً تلتهم بيتهم فخرجوا منه ووقفوا بعيداً وأخذوا يسبونها ويشتمونها ، ويندون بها ويزدرونها ، ولا يزالون كذلك حتى تأكل النار بيتهم وتدعهم طعمة لقوارص الجو ، وأفاعيل الخلاء .

يعلم هؤلاء الناس أن فى علوم تلك المدنية شبهاً أضرت بعقائد بعض الناس ، واستشكالات على الأديان تعوز حلا دقيقاً فلا يخفون لمطالعتها ، ولا يرضون أن يطلعهم أحد عليها ، خوفاً على عقائدهم ، وابقاء على يقينهم ، ويكتفون بسب من قال بها وتكفير من يجاريهم فى ذلك ، والادعاء بأنها ضلالات وأوهام ، وخرافات وأحلام ، لا حقيقة لها إلا فى أدمغة قائليها مع أنها قد تكون حقائق طبيعية ، ومشاهدات وجودية . يفعلون

هذا ولا يدرون انه أكبر جرم يرتكبونه ضد الناشئة الجديدة ، لأنها متى رأت أن عقلاء أمتها يكذبون بحقائق الكون الثابتة ، ويسلمون بأنها خطر على العقائد ، ويدعونها لها بدون حل غير التسفيه والتنديد ، علمت أنهم يعجزون عن دحضها ، ولم لا تحل الشكوك بعد ذلك معاقد ايمانها ، وتختلط سموم الالحاد بوجدانها ؟

افراد هذا القسم يتوهمون انهم خلصوا بهذا المسلك الاعتزالى من ضرر هذا التيار الجارف ويزعمون انهم هم وحدهم الذين أقاموا على السنة ، وقاوموا هجمات البدعة ، وهم فى هذا الرغم واهمون ، فان ذلك التيار قد استاقهم كما استاق غيرهم ، ونفث فى البابهم من الشبه والشكوك مانفثها فى البـاب من عداهم من المتعرضين لأفاعيله ولـكن مع فارق صغير اقتضته الأحوال . وأوجدته بعض الحواجز على أن تلك الأحوال تتلاشى يوما بعد يوم ، وتلك الحواجز ترق من آن لآخر ، وسينتهى الأمر بهم الى مساواة غيرهم ، ان لم تدفعهم القوارع الى أبعد مما عليه اخوانهم

قسم الشاكين

أما الشاكون منا فأكثرهم من طائفة المرتشفين لباب المعارف الجديدة ، وقعوا من الحيرة بين العقائد الموروثة ، والمشاهد المحسوسة فى مثل ما وقع فيه سابقوهم من المكذبين ولـكنهم وجـدوا

من فطرتهم قوة قاومت تارات تلك الشبه ، وقاومت هجمات تلك التناقضات فلم ينزلوا الى حضيض التكذيب المطلق ، بل رجوا أن يكون لهم مما هم فيه مخلص ، فتراهم ينشدون الهداة فى كل ناد ، ويترقبون المرشدين فى كل آن ، رجاء أن يجدوا ضالتهم من العقيدة النقية ، ويوفقوا بين ما يميلون بفطرتهم اليه ، وما تهجم بهم الدواعى المعاشية عليه .

هذا القسم هو أحيانا فؤادا ، وأسمانا عقلا . وأقر بنا الى الخير بعد القسم الأول . ذلك لان شكه دل على شعوره بوجود التناقض بين اوهامه القديمة ، ومشاهداته الجديدة ، ووقوفه فى مقام الشك بدل السقوط الى هاوية التكذيب المطلق ، اعرب عن كبر فؤاده ، وثبات جأشه ، ورباطة احساساته ، لأن فى التكذيب المطلق خفة وطيشا ونزقا يعلو عنها من له عقل راجح ، وتصور سليم .

كيف نحن بين هذه الاقسام ؟

تخيل أمة رابطتها الدين ، وجامعتها الايمان واليقين ، تنقسم من حيث عقائدها الى هذه الأقسام الأربعة ، ثم اسرد لى مايحل بها من فشل وخذلان ، وما يفشل فيها من خلل واضطراب ، وما يحتوشها من تشوش واختباط ، ومايعترى أفرادها من الدهشة والذهول عن أقدس واجباتهم ، وأمس الأشياء بحياتهم ؟

هذا الانقسام فى العقائد لايضر فى أمة رابطتها غير الدين كاحدى

الأمم الاوربية مثلا ، فلا يضر فرنسا أن تنقسم الى عشرين قسماً فى الدين تكذيباو تصديقا ، ولا يضر انجلترا ذلك كذلك ، ولكن يضرهما أن ينشقا فى الوطنيةوالجنسية ، أو ينقسما فى شئونهما الحكومية ، لأن رابطتهما ليست دينية

وبناء على هذا فكل طبيب يعالجنا من غير الوجهة الدينية التى هى رابطتنا الأصلية ، فلا يصادف دواؤه المرض الحقيقى ، بل ولا أعراضه الحقيقية وينتهى أمره باتهام الامة بالموت جهلا منه بمرضها ، ويأساً من تطبيبه ما بها ،

إذا تقرر هذا كله فلا دواء لنا إلا جمعنا على عقائدنا ، وردنا الى كتابنا . وكيف يتأتى لنا ذلك وهذا التيار الغربى يساورنا من كل مكان تارة حلا لروابطنا ، وطورا محواً لمعالمنا ، وآنا مزاحمة للغتنا ، وآخر تغييرا لأخلاقنا . ويوما سما لفطرنا بلهوه وقصفه ، وحيناً سحرا لألبابنا بعلمه وبدعه ؟ اليك كلمة فى هذا الاجمال :

كيف نقاوم هذا التيار

التفاعل بين الكائنات سنة من سنن الوجود ، ومعنى هذا التفاعل التصارع بين القوة والضعف ، بين النظام ، والخلل بين البسيط والمركب ، بين الكامل والناقص ، ونتيجة هذا التصارع قيام أمر هذه الحياة الكونية بمعناها الأعم ومغزاها الأكمل .

غرز فى طبيعة كل كائن حى قوتان مختلفتان ، قوة التمثيل وقوة

المقاومة . الأولى هى باعث يبعثه لتحليل كل مايلائمه من الوسط الذى يحيط به واضافة مايناسبه من عناصره الى ذاته . والثانية روح أودعت فى صميم كيانه تنهض به لدفع الغوائل عنه بكل مافى طبيعته من حول ومن حيلة . اغرس نباتين بجانب بعضهما تر أن الاقوى منهما يستولى بقوة التمثيل على المواد اللازمة لمجاوره الضعيف فيمنعه من اتمام وظيفة التغذية ولا يزال به حتى يضمر ثم يهلك ، ويأليته يدعه بعد ذلك بل لا يبرح يساوره حتى يحلل عناصره تحليلا فيأخذ مايليق به منها ويدع الفضلة لسافيات العواصف . وضع حيوانين فى حظيرة واحدة وأمدهما معاً بالغذاء تجد الأقوى لايدع للأضعف الا الفضلات التافهة ولا ينفك عن منابذته فى أمر حياته حتى يهزل ويموت ويترك الجو لخصمه .

هذه قوة التمثيل ، أما قوة المقاومة التى قلنا انها روح أودعت فى طبائع الكائنات الحية تدفع بها عن نفسها الغوائل فهى من المشاهدات المحسوسة ، فان النبات الذى ضربناه مثلا لم يستسلم لخصمه من أول وهلة ، بل ما برح يحاول ويصاول حتى فنيت مادة حيله ولم يعد قادراً على شىء من الوسائل . وكذلك كان شأن الحيوان فانه ماانفك يستثير كوامن الحيل ، ويستجيش غرائب الأساليب حتى عجز واستسلم .

هذا بعينه يحصل بين افراد الأمة الواحدة ويحصل بين الأمم المختلفة . أما حصوله بين أفراد الأمة الواحدة فتابع من حيث الشدة والضعف لعقائد الأمة ومبلغ علمها . فان كانت ذات عقيدة تبعثها لاحترام الضعفاء ، وذات علم يريها أن الحياة يجب أن تكون بالتضامن ، قل

تأثير قوة تمثيل الأقوياء الضعفاء وصار الكل يداً واحدة للحصول على مقومات الحياة مع امتيازات بين الافراد لابد منها .

أما مايحصل بين الأمم المختلفة من هذا التفاعل ، فهو على أشد درجاته، فهى فى الحقيقة فيما بينها فى حرب مستمرة وان كان السلم ناشراً أجنحته عليها فى الظاهر ، بل ربما نالت الأمة من خصيمتها تحت ستار السلم مالم تنله فى مضمار الحرب ومواقف الطعن والضرب

هـذه الحرب المستمرة تظهر فى الأجيال الانسانية على حسب درجات الناس فى العـــلم وسعة القوة الفكرية ، فبينما تراها بين القبائل المتبدية على أصرح حالاتهـا ، كالغارات والسلب والسبى ، تراها لدى الأمم الراقية تحصل بوسـائل وأساليب غاية فى الدقة والخفاء وإن كانت نتائجها أنكى فى الجسوم والعقول من نتائج الحديد والنار . والأمم المرتقية تعرف ذلك تمام المعرفة وتعمل عليه كل يوم رغما عما يثرثر به كتابها من الألفاظ المعتادة (كالتقرب بين الأمتين) و (مظاهرات الحب والوداد) الخ من الجمل الطنانة الرنانة التى تكتب فى جرائدها وتلوكها ألسنة خطبائها فى أنديتهم ، أما الشرقى الذى هبط من أفق عظمته الأولية ، وحكم عليه أن يحمل نير سلطة غيره تأديباً له على مافرط وأفرط ، فمركزه وسط هذا التفاعل الحيوى العام من أغرب المواقف وأحرجها ، ولو طال عليـه أمد هـذه الفتنة لذهبت به إلى مدى بعيد

يتذكر أنه تريكة قوم ملكوا زمام المعمورة وأثروا فيهـا آثارا

لا تندثر ، وتركوا خلفهم ذكرا لا ينمحى . ثم هو مع ذلك يشعر أنه ليس على سمتهم ، ولا من الحال على مثل حالهم ، يود أن يجد السلسلة التى تصله بهم ، فيعييه حتى يخيل له أنه ليس منهم لولا مايجده فى الآثار من الدلائل الناطقة . هذه الذكرى تولد فيه شيئا من الشمم والعزة ولكنه لا يكاد يطرب باصالته حتى ترن اغلال الأسر فى رجله ، وتضيق ربقة الصغار فى عنقه فيتضاءل شممه ، وتضعف عزته ، ولا يزال يخمد خمودا حتى يظن بنفسه الظنون ، واذا بروح رجاء تهب عليه من كنوز حياته الكمينة ، يتلوها لافح من الغيرة يتلتل به ليواجه الآمال الجسام ، ويزعجه عن الوقوف والاحجام ، فلا يكاد يخطو خطوات حتى تقابله العقبات ، وتصدمه الصدمات ، وتختلط أمامه السيل وتشتبه عليه المسالك فيعروه مايعرو الخابط من الدهشة والوحشة ، فينادى من حوله حتى اذا لم يسمع مجيبا ، رجع ادراجه وقنع من الغنيمة بالاياب . وهكذا شأنه كلما هزته نسمات الذكرى ورنحت أعطافه صور الماضى وخيال المستقبل .

يقولون سبب ذلك عدم اتحاده مع أبناء جنسه ، تخاذلهم وعدم تناصرهم ، تناكرهم وعدم تعارفهم ، جهلهم وعدم تهذبهم الخ الخ من العلل المصطلح عليها ، ثم ماذا ؟ يقولون فالواجب أن يكونوا متناصرين ، متعارفين ، متهذبين الخ ومن العجب ان جميع الأفراد أصبحوا يقولون الآن هذا القول ولا نعلم أمة من الأمم يكثر على ألسنة عامتها وخاصتها لفظة اتحاد مثل هذه الأمة ومع ذلك فنحن من

عدم الاتحاد على ماترى مما يدل على ضلالنا فى علاج أنفسنا أى ضلال

نقول ان عدم اتحادنا وتخاذلنا وتناكرنا وعدم تهذبنا كل هذا ليس المرض بعينه وانما هى اعراضه كما أن اتحادنا وتناصرنا وتعارفنا وتهذبنا ليست هى الضالة التى ننشدها ولكن مظاهرها . فالطبيب الذى لايحارب من المرض الا أعراضه والمصلح الذى لا ينشد من الحياة الا مظاهرها ، لا يجنيان غير الخيبة من وراء جهادهما . فالأول لا يلاشى عرضا حتى يقوم فى وجهه عرض غيره ، فلا يزال يجاهد الاعراض وتجاهده ، حتى يعيا جهده ويعيل صبر مريضه . والثانى لاتزال تزدهيه مظاهر الحياة التى يتخيلها لأمته فيطلبها وهى تهرب منه ، حتى يبح صوته وتجمد أنامله على يراعته فلا يجد له غير اليأس محيصا

أما لو أضرب الطبيب عن اعراض المرض ولم يحفل بها الا لتهديه الى مكان العلة وطبيعتها ، وما زال يتتبع سير المرض حتى يصل الى حقيقته ، ويصوب اليه أسلحة العلاج لاستأصل مادته ، وقطع بذلك سيول اعراضه المختلفة . وكذلك المصلح لو أدرع بالصبر والتؤدة ، وأتيح له أن يعلم ان غرامه بمظاهر الحياة واشتغاله بالبحث فيها وفى كيفية تطبيقها على أمته بدون التفاته للحياة نفسها ، مضيعة لوقته فى غير طائل ، ومدعاة لتعبه من غير نائل ، لألهم بأن أولى المسائل بالعناية والاهتمام ، هو النظر فى أمر حياة الأمة قبل كل شىء ، ومتى استقامت قناتها تداعت اليها تلك المظاهر من تلقاء نفسها تداعيا طبيعيا يستبق الحياة ويمدها ، لا أن تكون ثوبا تقليديا يستغيض الحياة ويبددها .

فالمسالة اذن استحالت الى النظر فى الحياة فهل نحن أمة حية ؟

نعم نحن أمة حية لأننا نحس ونتألم وكفى بهما دليلين قويين على الحياة . اذن ماهذه الأعراض المجتاحة التى تنازعنا من كل مكان ، وتكاد تغرس اليأس فى كل جنان ؟ نعمل ولا نثبت ، نفكر ولا نعزم ، نؤمل ولا نهم ، نعرف الخير ولا نسعى اليه ، وندرك الشر ولا نتجنبه ، نسرد قوانين الحكمة ونعصيها ، ونعرف أسرار النجاح ونجافيها ، متعلمنا بائر ، وجاهلنا حائر ، وفقيرنا غير صابر ، وغنيناغير شاكر ، وكلنا يحس بهذا كله ويتألم منه أشد الألم ، وقد استوى فى الشعور به الخاصة والعامة حتى اصبح الناس كلهم فلاسفة لا شغل لهم الا ذكر الأمة وأعراضها ، وبسط الطريقة المثلى فى علاجها ، ومع ذلك فلا تزداد العلة الا نشوبا فينا ، وسريانا فى أجزاء هيئتنا ، فما سر هذا الأثر ؟

مادام المريض يحس ويتألم ويرى دواءه بعينيه بين يديه فما الذى يمنعه عن تعاطيه وما الذى يصده عن وجدان شفائه فيه ؟

أينتظر الناس أن نصل من الشعور لدرجة الاغماء أو أن نكون كلنا عمرانيين حكماء ، لنظهر ببعض ماللأمم الحية من مظاهر الحياة ؟

ولماذا نحن نخبط فى تيه هذا التناقض من بين سائر الامم ولسنا بأقلها علما ولا شعورا ، ولا بأكثرها شرا وفجورا ؟

لا بد لنا فى تعليل مانحن فيه من الرجوع الى الأصول الطبيعية التى قدمناها وهى قوة التمثيل فى الأمم الحية المحيطة بنا ، وقوة المقاومة

فى الأمم الضعيفة

لامشاحة فى أننا أمة تساورنا مطامع الأمم القوية من كل مكان، وتحاربنا فى السلم بكل مايصل اليه الامكان ، وما تهيئه أساليب العرفان، ومعنى تلك المطامع باللسان الطبيعى قوة التمثيل والتحليل فيها ، ولسنا نذمها أو نشتمها من أجل ذلك كما لانذم ولانشتم النبات الذى يتغلب على مجاوره فيمنعه من اتمام الغذاء ، والحيوان الذى يصد شريكه فى الحظيرة عن الحياة معه على السواء . تلك سنة طبيعية بين الأقوياء والضعفاء . فكل مانحن فيه من التناقض بين علمنا وعملنا ، ومانشعر به من البعد بين شعورنا ومايستدعيه من اتحادنا وتضافرنا ، وبالاختصار كل مايجعلنا مسلوبى الارادة فاقدى الاختيار هو لاشك أثر من آثار قوة التمثيل والتحليل المحيطة بنا من الأمم القوية . ولئن كنا لا نشعر بها شعورا حسيا ، فذلك كما قلنا لارتقاء قوة التمثيل على حسب العلم وسعة الفكر . فالأمم القوية المرتقية لاتحلل الأمم وتمثلها بسلاحها الحديدى فقط ، بل بعلمها وفلسفتها وصنائعها واختراعاتها ، وانها لتنال بهذه الاسلحة الفكرية ، مالا تناله بحديدها ونارها . فترى الامم الضعيفة بجانبها لاتزداد الا خللا وفشلا وتناقضا بين الشعور ومايستدعيه، وبين القول والعمل ، حتى تظن بنفسها الظنون وتكون النتيجة يأسها من القيام بذاتها، وشعورها بالاحتياج الى غيرها (تأمل)

يقول قائل وأين قوة المقاومة التى قلت انها روح طبيعية مغروزة فى جبلة الكائنات الحية تدفع به الغوائل عن ذواتها نقول تذهب

الى حيث تذهب كل قوة لاتجد منظما ينظمها ويراقب حركتها ويوجهها الى حيث يمكن اجتناء ثمرتها . ألا ترى الى قوى تيارات الأنهار المهملة كيف تذهب هدراً لدى الأمم الجاهلة ، بينما هى عند الشعوب المدبرة تدير الآلات بدل البخار ، وتولد الحركة والكهرباء ؟ وهل قوة المقاومة فى الأمم الا شىء من هـــذا القبيل تحتاج لتصريف وتدبير، بل هى أحوج الى الفكر والعلم من أى قوة من قوى الوجود لدوام تغيرها وتموجها ، واستمرار مدها وجزرها ، على حسب الظروف المختلفة والأحوال التى لاتكاد تحصى لأن مثارها الكائنات العاقلة ذات الشعور والحركة بخلاف قوى الأنهار والرياح فان لها نواميس معلومة الحدود يمكن ردها اليها فى كل حالة من أحوالها .

من هنا يتبين ان الأمم فى حاجة كبرى الى قادة يقودون قواها المختلفة وخصوصاً قوتى التمثيل والمقاومة . والناظر يرى بالحس ان الأمم القوية تختلف فى قوة التمثيل اختلافا بينا على قدر مهارة قادتها ، فبينما ترى هذه تلتهم الأمم واحدة بعد أخرى بسهولة مدهشة ، ترى تلك لاتكاد تساور أمة أو امتين حتى تغص فى حلقها ، وتحتاج لوسائل كثيرة تسهل لها ازدراد غنيمتها ، وربما لاتهتدى لوجه الحيلة فتقف حيرى تربصا للفرص .

أما قوة المقاومة فليست بأقل من قوة التمثيل فى الاحتياج الى القادة العرفاء ، وما أقلهم فى الأمم المستضعفة الآخذة فى الانحلال ! نقول ما أقلهم مع ما يظهر من كثرتهم لأن الشروط التى يجب أن تتوفر فى قادة

الأمم المستضعفة يندر أن تنطبق من الأمة ذات الملايين الكثيرة الا على أفراد قلائل . فانه فضلا عما يلزم أن يتحلى به أولئك القادة من العلم الشامل ، والفكر الثاقب ، والبصر النافذ ، يجب أن يكونوا كبراء الأفئدة لا تلفتهم الثروة ، كبراء النفوس لا تزدهيهم الألقاب ، كبراء العقول لا تفتنهم المدنية الساحرة ، كبراء الهمم لا تلين الدنيا شكاتهم مهما حاولتهم . وما أقل هؤلاء فى الامم القوية فما بالك بالضعيفة!

قلنا ان التصارع بين الأمم قانون طبيعى ، وقلنا ان الأمم القوية تساور الأمم الضعيفة وتسعى فى تمثيلها بجسمها وهى مضطرة الى ذلك بحكم ذلك القانون الطبيعى نفسه ، وقلنا ان الأمم الضعيفة لا تملك بازاء هذه القوة الا قوة المقاومة على حسب ما يناسب حالها . من هنا ترى أن المسألة استحالت معنا الى حقيقتها الطبيعية ، وهى أن بين الأمم القوية والضعيفة حرباً سلمية لا تفترق عن الحرب الحديدية النارية الا بدقة أساليبها وخفاء أسلحتها ، فتكون وظيفة قادة أفكار أمثال هذه الأمم كوظيفة القائد الحربى لا تفترق عنها الا فى كون وظيفته فكرية أدبية محضة ، وبناء على هذا التشبيه وجب على كل قائد معرفة جملة أمور مهمة :

(أولا) قوة ناموس التمثيل فى الأمم القوية وخطوط سيره .

(ثانياً) قوة ناموس المقاومة فى الأمة الضعيفة ووجه الاستفادة منه .

(ثالثاً) مجال التصارع والنزاع بينهما

(رابعاً) كيفية ايقاظ شعور الأمة لامدادقوة المقاومة فيها

(خامساً) طريقةوضع العقوبات أمام القوى المحيطة بها لاضعاف قوة التمثيل عنها

(سادساً) وجه الاستفادة من هذا التصارع لاكساب الأمة الضعيفة من حياة الامم المساورة لها بدون خطر على كيانها .

(سابعاً) كيفية وضع الأمة فى مراكز مختلفة بتوجيه عواطفها وأميالها ، لتروغ عن مواقع القوى المسلطة عليها

هذه الأمور المهـــمة أهم مايجب أن يتحلى بها كل قائد من قواد فكر الأمة ، وهى كما ترى من المسائل العويصة المعضلة ، ولم لاتكون كذلك ؟ أيظن الناس عندنا أن قيادة الأمم فى الحرب الحيوية أسهل من قيادة الجيوش فى المواقف النارية ؟ واذا كان الناس يعرفون أن غلطة القائد فى ترك مركز ، أو فى احتلال نقطة يسبب له خسارة الصفقة ، ويكسبه عار الهزيمة ، فكيف لا يتصور الناس أن خطأ القائد الفكرى فى الطعن على خلق من أخلاق الأمة أوفى دعوتهم الى التحلى بعادة من عادات الأمم الأخرى يسبب لمتابعيه ضياع الأمر من أيديهم ويسمه واياهم بوصمة القهقرى والخيبة ؟

كيف نحيا بلا وجهة ولا غاية

يستحيل على أى فرد من الأفراد أن يسلك مسلك الجد فى أعماله ، والدأب وراء تحقيق آماله ، مالم يحدد لنفسه غاية يجعلها مرمى عزائمه ،

وملتقى أشعة همه، ومجتمع تيارات قواه المودعة فى تركيبه المادى والمعنوى. لأن تعين تلك الغاية أمامه يجبره بحكم الضرورة الى جمع شتات كل مواهبه وملكاته الى وشيجة واحدة ، وتوجيهها كلها الى وجهة مشتركة ، ليكون سيره وهو مستجمع قواه الى مايريد بلوغه أسرع خطواً وأيسر مجهوداً مما لو رامه وهو موزع القوى ، غير منضم الأميال والعواطف.

ليست وظيفة الغاية ايجاد قوى جديدة للانسان ، أو تمتيعه بمواهب تزيد عما قدر له ، ولكن نتيجتها الوحيدة ضم ماتشتت من أمياله ، وجمع ماتشذر من عواطفه الى سيال واحد وناهيك بهذا التوجه من مؤثر على كيان الفرد من وجوه لايكاد يحصيها الكاتب ، واذا أردت تمثيل فعل الغاية ونتيجتها بمثال محسوس قلت :

مثل الانسان فى تفرق قوى ملكاته وتبعثر تيارات مواهبه ، أى فى حالة فقده لوجهة معلومة تؤديه الى غاية معينة ، كمثل مرجل (قزان) الآلة البخارية حينما يترك وشأنه مكشوفا للجو يتصاعد بخاره و يذهب الى حيث تميل به الرياح تارة يميناً وطوراً شمالا ومرة صاعداً وأخرى مضطرباً مشوشاً حتى ينتهى الماء ، وتخمد النار ، ولم يأت بفائدة غير ماناله من تعب مجاورته وحرارة تنوره . ولكنك لو أخذت ذلك المرجل نفسه ، وحصرت بخاره الى تيار واحد ، ووجهته وجهة معلومة تر أنه قد أتاك بقوة هائلة تستخدمها فى أعظم مايرجى من مثلها ، كتحريك الآلات الضخمة وتوليد الكهرباء مما له أعظم دخل الآن فى اظهار المدنية الانسانية فى شكلها الساحر المعلوم . كذلك حال الانسان

من حيث قوى مواهبه وملكاته لو وجهها الى وجهة واحدة وضمها الى وشيجة مشتركة . وليس الانسان وهو العالم الأصغر أو النسخة التامة لصورة كل هذا الوجود ، بأقل فائدة لو توجه وجهة الحق ، وضم كل مواهبه الى تيار واحد من ذلك المرجل الحديدى . كيف ذلك وهو صانع المرجل نفسه ومدرك سر ضغط البخار ؟

هذا مثال محسوس يريك سر اتخاذ الوجهة وسر عدمها بمالا يمكن معه شك ولا يثبت معه تردد ، وهو سر كبير عرفه أفراد من الأمم فارتفعوا بمواهب عقولهم وقوى نفوسهم الى حيث تتمنى الفراقد أن تكون مواطىء أقدامهم ، وصاروا لأممهم أدلاء الى سبيل الخير ومرشدين لهم الى طرائق الفلاح ، ومناهج السعادة .

هذا شأن الفرد الواحد من حيث تعين الغاية وتحدد وجهتها ، أما شأن الأمم فيها فاكبر من ذلك ، لأن أثر ذلك يكون فيها أشد وضوحا ولألاء ، ونتائجه عليها أكثر دواما وأكبر شأنا ، وناهيك بالأثر الحاصل من توجه الملايين من النفوس الى غاية مشتركة ونقطة معينة ، تنتهى اليها سائر مراميهم ، وتلتقى فيها كل مطامحهم ، وترتكز عليها مجموع قواهم . قل لى بعيشك ماذا يكون مقدار تلك القوى الهائلة المركزة فى نقطة واحدة ، وعلى أى وجه تتصور جسامة أثرها فى تجلية حياة الأمة ؟ اذا كانت العدسة الزجاجية بتركيزها بعض أشعة الشمس فى نقطة واحدة تتوصل الى احراق ما يعرض اليها من الاجسام ، فماتقول فى تلك النقطة المدهشة التى يرتكز فيها أميال وعواطف ومشاعر

الملايين الكثيرة من أمة حية لها فكر واختيار وارادة ،

نعم تختلف الغايات باختلاف الأمم ودرجات ادراكها ، ويختلف أثرها تبعا لذلك قوة وضعفا ، ثباتاً وذبذبة ، ولكنها مهما كانت أفضل من عدمها بمالا يقدر ، لأنها دليل الحياة والمؤدية الى كمالها ، وأما عدمها فعلامة الموات ونذير التلاشى .

لتوحد الوجهة والغاية فى الأمة أثر لا يقارن بغيره من آثار العوامل الاجتماعية الأخرى ولو قلت انه الينبوع الذى ينفجر منه سلسبيل الحياة الاجتماعية للأمة ، وتتدفق منه أمواج النور عليها . لما كنت الا مصيبا . ثم لو قلت انه الناموس الأقدس الذى تحمله الأنبياء الى أممهم ، فيحدثون فيهم بواسطته الاحداث التى تغير شكل الأرض من حال الى حال آخر ، لما كنت الا متكلما عن الواقع . وليس السحر الذى يؤثر على المشاعر فيجعلها تحس بغير الحقيقه ، وتتأثر بسوى الواقع بأكثر فعلا فى ادهاش العقل من آثار وحدة الوجهة والغاية فى الأمة

ما الذى يأخذ باكظام الهمم فى الأمم ، وينفخ فى نفوس احادها روح الثبات فى قراع أعدائها ، وربح الحمية الحقة لذود الضيم عن حياضها ، غير وحدة الغاية والوجهة ؟ ما الذى يصيح فى وجهها ان أصابتها مصيبة ، أو نزلت بها نازلة الى التهيؤ للم شعثها ، وضم نشرها ؛ ورأب ما تصدع من أركانها ، غير وحدة الغاية والوجهة ؟ ما الذى يزعجها الى مسابقة الأمم فى مفاخرها ، ويبعثها الى مساماتها فى فعائلها ، ويحزها

على تقاعدها عن مجاراتها ، والفوز عليها غير وحدة الغاية والوجهة

الا أن وحدة الغاية والوجهة سر عظيم ، وإكسير عجيب ، لو أصاب أمة ولو كانت متوحشة لنفخ فى آحادها روحاً لايدرك كنهها، ولا يعرف مستقرها ، ولسمت بها فى أقرب مدة إلى أعلى منصات المجد وأرفع دسوت السعادة .

وبالضد من ذلك يكون أثر عدم الغاية والوجهة فى الأمم ، فانه ما أصاب قوماً الا وشعب جمعهم،وشتت ألفتهم،وضرب عليهم الذل، وسجل عليهم الشقاء والضراعة ، وجعل بأسهم بينهم شديدا، وحكم فى رقابهم الهوان والضعة ، وقادهم الى حيث يفقدهم إرادتهم ويسلبهم شخصيتهم .

ترى أفرادأمثال هذه الأمة حيارى لايدرون لهم غاية ينتهون اليها ، ولا يدركون لهم وسيلة يعتمدون عليها ، يظنون بأنفسهم العجز ، ويعتقدون بهممهم الكلال،ويغالون فيحسبون أنهم أدنى من طوائف غيرهم من البشر ، فيرون فى التقليد مخرجا لهم عن ذلك ، فيهرعون اليه بكليتهم ، وينساقون اليه بجميع قواهم،ويخالون انه لو كانت لهم قوة مرجوة فهى فى التصاقهم بسواهم ، وتعلقهم بأذيال من عداهم. ترى الواحد منهم يظن أنه خرج عن أمته بتعلمه كلمتين يعوج بهما لسانه ، أو يحرك بكتابتهما بناته،ويستهتر فى ذلك حتى لايظهر سروره وموجدته الا بما علقه ذهنه من لغة غير لغته ، لعلمه بأن لغته دليل على جنسيته وهو لا يريد ان يكون شرقياً .

اذا بليت الأمـة بعدم الوجهة والغاية ، كانت كل شؤونها متعاكسة ، تنال غير ما تتمنى ، ويأتيها غير الذى تشتهيه ، ولا يحصل لها الا عكس ما تسعى اليه . ترى أفرادها لانقطاعهم الى أشخاصهم ، وعدم تخطى أمانيهم لدائرة ذواتهم ، يطلبون الغنى بشره يبلغ حد الجنون ، ويبيعون فى سبيله كل ما يعترضهم من شرف ذاتى ، أو مصلحة عمومية ، ولـكنهم مع ذلك لا يزدادون الا فقراً ، ولا يحنون من وراء تفانيهم فى شرههم الا مترية وعدما . تراهم يتزاحمون الى منصات الرئاسة ، ويتسابقون الى رهان الزعامة ، فلا يزدادون إلا هبوطاً ، ولا يكسبون الا هويا . تراهم كلهم فلاسفة يتكلمون فى ضرورة الاتحاد ولزوم الوئام لبلوغ المرام من النظام العام ، وكثير منهم يمضى أكثر عمره فى سن قوانين العمران ، وتشريع أساليب المـدنية والحضارة ، فلا يزدادون مع ذلك الا تمزقا وفرقة ، ولا يجتنون إلا تشتتاً وبغضة . تراهم ينعون على بعضهم التقاعد عن معالى الأمور ، ويتعايرون بالأسفاف فى دنايا الشؤون ، ويلقى كل منهم التبعة على غيره ، فلا يزدادون إلا تسفلا ؛ ولا يكسبون من وراء ذلك إلا ضعة ومهانة

كل هذه الآثار تابعة لأمراض اجتماعية شديدة الوطأة لها أسباب وعلل ظاهرة ، ولسيرها قوانين ونسب مضبوطة يعرفها أطباء الاجتماع ، ولـكل منها علاج خاص ، ودواء لا يفيد فيـه غيره ، انمـا يجمع هذه العلل كلها عدم الوجهة والغاية ، ويلم سائر علاجاتها تحديد الوجهـة وتعيين الغاية . فـكيف نجعل لأنفسنا وجهة وغاية .

كيف نتخذ لأنفسنا غاية ووجهة

كيف نجعل لنا غاية ترتكز فيها سائر عواطفنا ومراميا ، ووجهة تؤدينا اليها ؟ هل يكون الاسلام وجهتنا كما كان وجهة آبائنا الأولين؟ وهل يتأتى ذلك فى عصر العلم الذى قرر بأن أزمنة الأديان قد انقضت؟ وما الوسيلة إلى حل الشبهة التى رانت بالعقول من جراء قيام الأمم ورقيها مع مجاهرتها بنبذ الدين ومعاكسة أهله ؟

ان حل كل هذه المسائل متوقف على معرفة ماهية الدين وفى يقيننا أن معالجة البحث عن هذه الماهية على الأسلوب التحليلى العصرى يكفى وحده لبلوغ النهاية مما تصدينا له ، ويفتح للباحثين فى شؤون الأمة الاسلامية باباً جديداً للنفوذ منه إلى مايرجونه من بعثها من خمولها ، وتخليصها مما تورطت فيه من أحوالها

ماهو الدين ؟ هذا السؤال وإن كان شائعاً بين الأمم ، وله عند كل فرد منها جواب حاضر ، الا أنه من أعوص المسائل الفلسفية ، وليست أجوبة السواد الأعظم عليه إلا منتزعة من الخيال المحض . أما الحقيقة التى اهتدى اليها أساطين الباحثين فى الأديان والعقائد فهى أنه شعور فطرى فى الأنسان بوجود قوة عظمى لانهاية لها خلقت الكون ونظمته على مقتضى الحكمة والعلم ، وأن لها السلطان المطلق عليه ، ووجود روح للأنسان لها حياة أخرى فى دار بعد هذه الدار ، وعلى حال غير هذه الحال ، وقد أشار الله تعالى إلى ذلك بقوله : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك

الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون »

هذا الشعور وحده هو الدين الفطرى على أبسط أشكاله بل هو الشكل الوحيد الذى بعث الله المرسلين لحياطته والهيمنة عليه من تأثير الأهواء والخيالات ، ولابانة ما ينبنى عليه من عمل لنيل فضيلة ، أو جرى لاكتساب كمال ، ولايضاح مايلزم إيضاحه للناس من الحدود التى يجب الوقوف عندها فى وصف الاله وتعريفه ، وفى قانون الأخلاق الذى يجب أن يسوده كل إنسان على نفسه ويجرى على سنته .

فى الانسان كثير من العواطف والاحساسات ولكل منها دخل فى تكميل تركيبه الداخلى والخارجى ، وأثر فى قيامه على منهاجه المعلوم من الاجتماع على مثله ، وتعمير الأرض واستثمارها ، وتسخير كائناتها لذاته ، وسعيه وراء كمال يحس به ويتألم لفقده . فمن عواطفه مثلا حب الاستقلال والحرية ، والدفاع عن الذمار ، والحصول على مايقيم أوده ، ونيل مايرفعه على غيره من مزايا الوجود ، والجرى وراء المحامد . كل هذه العواطف مغروزة فى جبلته على كيفية مطلقة ليس لها قانون فطرى كما لأمثالها عند الحيوان ولذلك فهى محتاجة لقانون تسير عليه لتؤدى الى الأغراض التى وجدت لأجلها والا فلا يأمن صاحبها من العقبات فى سيره تكبه على وجهه تارة وتلقيه على قفاه أخرى

ألهم البشر أن كل هذه العواطف تحتاج الى نظامات وقوانين تسير عليها ، فأعد الله بعض أفراد من البشر للانقطاع إلى درسها مقهورين لا مختارين ، لما يجدونه من البواعث القاسرة لهم على ذلك بتأثير

مراكزهم فى الحياة ، فآب كل منهم بنتائج من العلم تلائم حالة جيله ونقله إلى اخلافه ، ولم تزل نتائج المدارك تتهذب على توالى الأحقاب ، وتعاقب القرون حتى وصل الانسان إلى ماهو عليه الآن .

فنشأت من عاطفتى الاستقلال والحرية . مثلا علماء الشرائع على اختلاف نزعاتهم وأزمنتهم يسنون للناس سنة الاعتدال فى أداء مطالب تينك العاطفتين ، ويرونهم الجادة الوسطى بين الاستقال والحرية المطلقتين ، كما هى عند البهائم ، وبين الاستقلال والحرية المعتدلتين وكيفية أخذ النفوس للوصول اليهما على وجه عادل . وأنتجت عاطفة الدفاع عن الذمار رجال القيادة العسكرية وغطاريف الحرب ، يعلمون الناس أوجه الهجوم والدفاع وتأثير المواقف المختلفة على الأولياء والاعداء صلاحاً أو فساداً . وأنتجت عاطفة الحصول على مادة الحياة رجال العلم من الزراع والمهندسين والطبيعيين الخ يعرفون الناس وجوه السير فى استغلال الطبيعة واستخدام قوانينها فى صالحهم ، وهكذا فعلت كل عاطفة من العواطف وولد كل احساس من الاحساسات المغروزة فى طبيعة الانسان ، وهو لولا ماسيق اليه من تهذيب قواه وملكاته لبقى متوحشاً لا يستطيع البقاء على الارض ولا على مثل مايعيش الحيوان .

أما عاطفة الدين فهى وإن كانت واحدة من تلك العواطف إلا أنها ملكتها وسيدتها وفى يدها أزمة جميعها ، لأن محلها أشرف محل فى وجدان الأنسان ، وغايتها أخص الغايات بالنسبة اليه حتى أن الملحد

الذى هتكت الشكوك فكرته ليتمنى من صميم فؤاده أن لو كان مايقوله الدين صحيحاً ، وقد شهدت تواريخ العالم كله أن الأمم ماتدرجت فى مدارج الحضارة ، ولا اجتازت عقبات الحياة الوحشية ، الا والدين قائدها ومرشدها،والاعتقاد مسخرها ومصرفها ، كما شاهدت أيضاً أن تهالك الانسان فى احترامه ، وتفانيه فى حبه قد بلغ عنده حداً ضحى معه النفس والولد والأهل والوطن فى سبيل مرضاته .

ذلك لأن أعظم شىء يهم الانسان فى وجوده هى الطمأنينة على حياته ، لأنها أعز شىء عليه بل هى رأس ماله الوحيد الذى فى فقده فقد كل شىء ، وفى وجوده وجود كل شىء ، وكلما ترقى فى مراقى العقل ، وعرج فى معارج العلم ، ومدارج الفهم ، وازداد نظره نفوذاً فى أشياء الكون وموجوداته ، كثرت العلاقات بينها وبين الكائنات المحيطة به ، وتجلت له اهمية حياته فى مظهرها الصحيح ، وازداد شغفاً بها وبمستقبلها ، وتحسساً عليها وعلى ماستؤول اليه ، وصارت هذه المسائل . « ماذا أنا ومن أين أنا والى أين أذهب » ملازمة له فى كل تصرفاته وتوجهاته فينساق قهراً عنه الى البحث عن أصل الوجود ومبدئه ، والتنقيب فى وجود ذاته ومصيرها . ومن رحمة الله بهذا النوع الانسانى أن جعل هذا السبيل الفطرى الذى يجد الانسان نفسه مسوقا اليه لنيل سعادته الروحية ، سبيلا لسعادته المادية أيضاً ، فان سيره فيه كما ينتج تنوره بأسرار الخليقة ، وتعرفه ماوراءها من القوة الفعالة كذلك ينتج له الوقوف على سر نواميس الكون وكيفة استخدام

أشيائه لراحته وتسخير كائناته فى صالحه . فمن سار فى هـذا الطريق طالباً سعادة الروح آب بلا شك وهو محصل سعادة الجسد معها ، كما حصل لأصحاب سيد الأنام صلى الله عليه وسلم ، لأنهم فى مبدإ الأمر ماكان نصب أعينهم إلا سعادة أرواحهم وبلوغ الغـاية من كمالاتها ، فلم تلبث أن أتتهم المادة صاغرة لوحدة طريقهما ، وبالعكس من سار هذا الطريق نفسه طالباً سعادة الجسد رجع بلا شبهة حاصلا على سعادة الروح أيضاً للسبب الأول عينه . والى هذا يشير قوله تعالى « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »

ولـكن هذا الوله الذى يظهر به الانسان بالنسبة لعاطفة الدين لم يحمها من افراطاته وتفريطاته ، كما هو شأنه فى كل حساساته ، بل رأيناه كما استخدم لها كل قواه الظاهرة استخدم لها أيضاً كل قواه الباطنة فجعل عقله وفكره وخياله وقفاً على ابلاغها كما لها فيه ، فلم يقف به الجهد عند حد ولم ينته به الجد دون غاية . فسخر لها العقـل والفـكر حيناً ، والخيال أحيانا فشطح به الى ماوراء ماينتهى اليه علمه المحدود ، وحيث تقف دونه مواهبه المناسـبة لوجوده ، فذهبت كل طائفة من الناس مذهباً يشذ عما ذهبت اليه سواها ، لأن مجال الخيال بعيد الأكناف شاسع الارجاء ، له مسالك لاتتناهى ومناهج ، لاتحصى فنشأ الخلاف فى مدركات الدين ، ونجمت شعبه المتعا كسة وأصرت كل فرقة من الناس على مجموع ماتخيلته وانتحلت له اسم الدين مدعيـة أنها صاحبة القول الفصل فيه ، ومدعمة قواعده ومبانيه ، وأنها على الحق

وماعداها على الباطل ، وهى حالية بحلاه وسواها من الفرق عاطل ، ونسبت الى رجالها القائمين على شرعتها ماشاء هواها من الاختصاصات والخصوصيات ، وقسمت أمورها الى أقسام لاءمت بها الأهواء والنزغات ، فأصبح الدين بذلك مركبا صناعيا ، بعد أن كان بسيطا فطريا ، وصار إنسانياً خيالياً بعد أن كان الهيا حقيقيا ، فلا جرم أنه أضحى بهذه الصفة داعية الخلاف بين البشر ، ومجلبه النزاع بين الأمم ، ومدعاة التفريق بين القبائل ، وموجب الحرب والحراب بين العشائر ، ومهب النزغات التى لا تلائم حياة الانسان ولا تسير به على ماهو مدفوع اليه من سنن العمران . ولا غرابة بعد ذلك ان نبذته العلوم والمعارف ، وعادته الابحاث والفلسفة ، وقاطعته الفنون والحكمة ، كما لا عجب اذا ارتقت الشعوب على نسبة تركه ، وصعدت فى معارج الكمال على قدر جسارتها من نبذه وصلحت أحوالها وشؤونها على مقدار بثها روح التربية على ضده ، ولكن ما نتيجة هذه الحركة من تلك الأمم فى معاداة الأديان والتفصى من شباكها ؟

هل النتيجة كشط مافطرت قلوب البشر عليه من عاطفة الدين الفطرى ، ومحو مانقشته يد القدرة على ضمائرها من آثاره ؟ هل النتيجة أن تخلو يوما من الأيام من أشرف عواطف الانسانية وأجمل خصائصها من الاعتقاد بوجود القدرة العظمى التى وضعت هـــذا الكون البديع على هذا النمط المدهش ووجود روح للانسان لها حياة بعد هذه الحياة ؟ يستحيل أن يكون ذلك فان تغيير الفطر من المستحيلات

التى لايفكر فى الحصول عليها مجنون فضلا عن عاقل . ومادام الاستدلال العقلى ، والاستنتاج الفكرى ، موجودين فى الانسان ومرتقيين فيه ، فلا سبيل مطلقاً الى تلاشى هاتين العقيدتين من نفوس البشر

ولكن الحقيقة المشاهدة بالعين أن هؤلاء الأقوام المرتقين مافعلوا بكل هذه الجلبة والملاجة التى استمرت قروناً عديدة الأمرين اثنين ، ولكنهما عظيمان للدرجة القصوى وهما : أولا الخلاص من كل الخيالات التى انتحل الناس لها اسم الدين : ثانيا الاستقامة على المنهج الطبيعى الأصل وهو النظر فى الكون والنفس نظراً صحيحاً مؤسسا على العقل والتجربة . هذه الأمم فعلت مافعلته باسم الالحاد وعدم التدين ولكنها وافقت بذلك مطلب الدين الفطرى نفسه وهما تخليص النفس من الخيالات والأوهام ، والاستقامة على طريق البحث فى الكون والنفس ، فكيف لاترتقى تلك الأمم الى منصات السعادة المادية ، وتأخذ من الوجود قسطا اسمى مما لأصحاب الأديان أنفسهم ؟ ماذا اضر هؤلاء سيرهم طريق الدين بالفعل باسم العلم مع نكران ذات الدين طيشا منهم (لأنهم لم ينتهوا بعد إليه ولم يعرفوه) وماذا نفعنا نحن اعترافنا بالدين وسيرنا طريقا غير طريقه

قلنا فيما سبق إن طريق سعادتى الدين والدنيا واحد وما سارت أمة عليه للحصول على أحديهما الا نالت الأخرى لارتباطهما ببعضهما . فهل سرت تلك السنة على أوروبا من جريها وراء السعادة المادية ؟

نقول نعم . فان تلك الحمى الهائلة التى أصابت جسمها فى القرن السابع عشر والثامن عشر ومقدمة القرن التاسع عشر وظهرت آثارها بمظهر الهذيان (الهلوسة) بنكران أصل الدين والجحود بكل مايؤدى اليه قد فثئت الآن لوعتها ، وانجلت ببروز ذلك الاعتقاد باصالة الدين وفطريته وبوجود الروح والخلود بأحسن مظهر ينتظره صاحب الدين الفطرى ، فانه لم يحن النصف الأخير من القرن التاسع عشر حتى ظهرت تلك الحركة العجيبة حركة (المانيتزم والاسبرتزم) التنويم المغناطيسى واستحضار الأرواح ، ونجمت فى عالم المطبوعات مائتا مجلة لاشغل لها الا اثبات الروح والمعاد وسينتهى بها الامر الى العدل التام بين مطالب أجسادها وأرواحها مصداقاً لقوله تعالى « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »

فما هو طريقنا الذى نسير عليه ، وماهو الحال الذى سنؤول اليه ؟ اننا لو كنا سائرين فى طريق السعادة المادية سيراً حقيقياً ومتصفين بما يستدعيه من الجد فى الأعمال ، والقصد فى الأمور لكنا بشرنا أنفسنا بالوصول الى السعادة الروحية ايضاً ، ولو بعد حين ، لارتباطهما كما قلنا ببعضهما ، ثم لو كنا ناهجين منهاج الكمالات الروحية ، ومتحلين بمقتضياتها من الدأب فى الطلب والتعطش لنيل الغرض لكنا منينا أنفسنا بالحصول على الكمال فى الأمور الجسدانية ايضاً كما حصل لآبائنا الأولين ولكنا الآن على غير طريق نخبط فى الحياة خبطاً ولا نسلك فى مجالها الا صدفة لا أساس لأمورنا ، ولا ضابط لتصرفاتنا ، ولا قاعدة

نرد اليها محاولاتنا . محال الحياة أمام أعيننا أضيق من رقعة الشطرنج لا يعوز تدقيقاً ، ولا يستوجب روية ، فهل سأل واحد منا نفسه ماهذا الوجود الذى نعيش فيه ؟ وماهى وظيفتنا فى الحياة ؟ ماهو طريق الفلاح ؟ ماهو منهاج النجاح ؟ ماهو قانون سعادة الافراد والأمم ؟ ماهى مطالب الدين وماهى مطالب الدنيا ؟ وهل نستطيع أن نعيش بأحدهما دون الآخر وما وجه التوفيق بينهما ؟ وعلى أى طريق نحن نسير والى أى حالة سنؤول ؟ أما للحياة قانون ؟ أما لمقدمات أعمالنا نتائج ؟ اذا تكلف أحدنا وسأل نفسه هذه الأسئلة أخذته الحمية وتيقظت فى نفسه عوامل الغيرة ، ومال لأن يأخذ نفسه بأحد هذين القانونين : اما قانون آبائنا الاولين الذين بهروا بسرعة رقيهم العالمين ، واما قانون معاصرينا المتمدنين الذين سحروا برونق مدنيتهم الناس أجمعين

هذا موقف الحيرة ومزدلق الفتنة ومهب الشكوك وباب الالحاد فلندع الفصل فيه لفصلنا الآتى ان شاء الله تعالى

الاسلام دواؤنا الوحيد

« إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم »

أثبتنا انه لابد لكل أمة تود الحياة والبقاء من وجهة تسير عليها، وغاية تسعى فى الوصول اليها ، وبرهنا اننا قد ضللنا وجهتنا وتغابينا عن غايتنا ، واننا لسنا على طريق يوصل الى سعادة ما من أى نوع كانت ،

وعلمنا تبعاً لذلك أنه لابد لنامن غاية ووجهة ، فهل يمكن أن يكون الاسلام وجهتنا كما كان من قبل وجهة آبائنا ؟ وهل يصل بنا الى أكمل الغايات كما وصل بأسلافنا ؟ لانظن أن الجواب على هذه الاسئلة بالأمر الصعب المضلل للمدارك اذا دققنا النظر فى التمهيد الآتى وهو :

الانسان مسوق بدوافع طبيعية قهرية إلى سلوك مناهج الحياة على اختلاف سبلها ، وقد وضع الخالق الحكيم فى جبلة الانسان من العوامل المتباينة ، وفى الكون الخارجى المحيط به من النواميس والقوانين ما تلتئم ببعضها وتتكامل ، فتؤدى الانسان بمجموعها الى أحسن ما قدر له من رقى صورى ومعنوى وقد سمى علماء الانسان هذه الافعال والانفعالات المتبادلة ونتيجتها بناموس الترقى . هذا الناموس وان لم يظهر تمام الظهور فى الافراد فهو فى الامم جلى لايحتاج الى طويل استقراء . وانك ان عنيت بالبحث عن الغاية الوحيدة التى رامها الانسان من جهاده الطويل وراء استكناه المجاهيل الوجودية فلا تجدها الا ميل الانسان بالفطرة الى التوفيق والملاءمة بين العوامل الموجودة فى طبيعتيه الروحية والجسدية ، وبين العوامل الموجودة فى الكون الذى خلق الانسان مناسباً له موافقاً لنظامه ، وبناء على هذا فلا تتقـــدم أمة فى شىء إلا على قدر نسبة توفيقها بين تلك العوامل الانسانية والكونية كما أنها لا تتأخر إلا على قدر بعدها عن ذلك التوفيق

إذا تقرر هذا نقول : لقد قامت أمم فى أدوار التاريخ وقعدت ، واضطربت وسكنت ، وتقاتلت وتسالمت ، وعلت وسفلت ، وحييت

وهلكت ، وذاقت من مرارة العيش وحلاوته ألوانا ، وحصلت من نتائج جهادها الطويل علما وعرفاناً ، وكونت لها من جراء السير على سمت الوحدة الفطرية عقائد وأدياناً ، ولم تزل تكتسحها الحوادث حتى جاء القرن السابع ، وإذا بمنادٍ ملكوتى دوت لصوته أرجاء الأرض يقول : « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبيناً فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطاً مستقيماً » فلم تكد تلتفت الأمم إلى مهبط ذلك الصوت السماوى ، حتى رأوا أن ذلك المنادى قد التف حوله رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه تالين على أنفسهم « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم » فاستهزأت أمم وأعرضت أخرى واذا بذلك الوعد الألهى قد تحقق ، ولم يمر على تلك العصابة القليلة العدد والعدد ثمانون سنة حتى صارت القابضة على الصوالجة التسع : صوالجة الدين ، والعلم ، والسياسة ، والتجارة ، والصناعة ، والزراعة ، والحرية ، والعدل ، والمساواة ، من بين كل الامم العريقة فى المجد . هذه قضية تاريخية لا ينكرها أحد ، فما سبب هذا الحادث الجلل ، وما علة هذا الانقلاب المدهش الذى لم يحصل مثله فى تاريخ النوع الانسانى ؟ أما ان نقول انه حصل صدفة على حد قول الجهال فى دعواهم بان الكون كله وجد بالصدفة ؛ واما ان نقول كما يقول العقلاء من الناس انه لابد من أن يكون قد ابتنى على أسس وقواعد ، وقام على أصول ودعائم . ان كان

هذا الأمر الأخير هو الجدير ببحث العقلاء ، فما هى تلك الأصول والقواعد ؟ هل لم تزل تلك الأصول والقواعد صالحة لاحياء الأمم وبعث الهمم ؟ ماهى أصول وقواعد المدنيـة الأوربية وهل تخالف أصول الاسلام أو توافقه ؟ وهل سرعة تقدم المسلمين وسهولة تطورهم من حال إلى أخرى تدلان على فضـل قواعد مدنية المسلمين على مدنية الأوربيين ، حيث انهم لم يصلوا الى ماهم فيـه الا بعد جهاد طويل وسفك دماء غزيرة استمرت قروناً كثيرة ، هذه كلها مباحث وان كان كل واحد منها يحتاج الى سفر ضخم الا أنها ممـا يمكن الاشارة اليها بنوع من الايجاز فنقول :

أثبتنا فى فصلنا السابق ان الله سبحانه وتعالى قدجعل طريق الرقى المادى والروحانى واحداً وهو النظر فى الكون والنفس نظرا صحيحاً ، وأن الناس لم يتنكبو هذا الطريق الا طاعة لاهوائهم وخيالاتهم المنافية للعلم قال تعالى « بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم » وبرهنا أن الذى يسلك ذلك الطريق طلباً لاحدى السعادتين لايؤوب إلا والأخرى معه رغم أنفه لارتباطهما ببعضهما فى النتيجة . وقلنا ان نيل أصحاب سيد الأنام صلى الله عليه وسلم لسعادة الدنيـا مع انه لم يكن نصب أعينهم فى مبـدإ الامر إلا سعادة أرواحهم ، وان اقتراب المتمدنين العصريين من الحصول على السعادة الروحيـة مع إنهم قاموا فى أول الأمر باسم الالحاد لنيل سعادة المـادة ظاهرتان اجتماعيتان اكتشفنا بهما ذلك الطريق الفطرى الجامع لشتات القوى الانسـانية كلها الذى

أشار الله تعالى اليـه بقوله « وان هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » وقوله تعالى « قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة » ولم يقل فى آية من الآيات مع كثرة حثه على الأخذ من الدنيا اتبعوا هذين السبيلين سبيل السعادة المادية وسبيل السعادة الروحانية بل قال جامعاً بين تينك السعادتين . « من كان يريد ، ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة » وقال « فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة » أى لما ساروا على سبيله الوحيد الفطرى الذى يقول عنه تعالى « إنا هديناه السبيل »

وقد وصلنا بالتحليـل العلمى بعد ذلك الى أن أوروبا لم ترتق فى الماديات الا لما هدتها حوادثها وأجبرتها كوارثها على سلوك ذلك السبيل فنهجته باسم العـلم مع انه المنهاج الوحيد الذى يوصـل الى السعادة المطلقة ، وهى وان لم تنته بعـد اليها الا أن ما تصادفه وستصادفه من نوازل وملمات ستجبرها رغم أنفها الى تكميل نقصها الروحانى أو تسحقها كما سحقت سواها من الأمم والله عزيز ذو انتقام .

فلننظر الآن الى السبيل الذى سلكته أوروبا لتحصيل مدنيتهـا المادية لنثبت للناس انه مقدمة ذلك السبيل المهيع الذى أرشدنا اليـه الكتاب العزيز قبل ثلاثة عشر قرنا واليك البيان :

قامت مدنيـة أوروبا على أركان، وثبتت على أصول لا يوجد منها أصل ولا ركن الا وهو موجود فى كتاب الله بالنص ، فلنشر الى أهم تلك الأصول واضعين بازاء كل أصل الآية التى تقابله لنؤدى بذلك

غرضين عظيمين (أولهما) أن مدنيـة المسلمين لم تقم جزافا ولـكنها كانت مستندة على أكمل الأسس الممدنة الملائمة لسنن الـكون وطبيعة الانسان ، وانها بذلك سبقت المدنية الأوربية بعشرة قرون فى تقرير القواعد العالية ليظهر للناس كلهم ان المسلمين لايحتاجون لتقليد سواهم فى أى شأن من الشؤون الانسانية غير الصناعة التى هى ميراث العالم كله ، تنقلها أمة الى الأخرى ، وقد نقلناها نحن الى الغربيين كما نقلها الينا غيرنا ، وسيرى القارئ فى نتيجة هذا البحث أن أوروباهى التى سترغم يوماً من الأيام لان تقتدى بكتابنا فى تتميم مدنيتها لتستطيع أن تستقيم على الصراط الذى دفعت اليه كما قلدتنا فى كثير من الأصول أما أصول المدنية الأوروبية كما تقر عليه علومهم وعلماؤهم فهى .

(١) الانسان أشرف الكائنات الأرضية . قال الله تعالى « لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم »

(٢) الانسان مخلوق لاستخدام الطبيعة وتحسينها والاستفادة منها قال الله تعالى « وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعا منه »

(٣) الانسان بصفته أشرف الكائنات يجب عليه أن يأخذ بأحسن الأشياء قال تعالى « وأحسنوا ان الله يحب المحسنين » « قل لايستوى الخبيث والطيب »

(٤) لايتم للانسان كمال الا بالعلم قال الله تعالى « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون » « لايستوى الأعمى والبصير »

(٥) لايجدر بالانسان أن ينساق مع الأوهام والظنون وأن

يصدق مالم تحققه الشواهد والبراهين قال تعالى « وان تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون » « ولا تقف ماليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا »

(٦) فى الكون نواميس ثابتة ونسب للأشياء المضبوطة مرتبط رقى الانسان بمعرفتها وتطبيق مساعيه عليها قال تعالى : « ولن تجد لسنة الله تبديلا » « انا كل شىء خلقناه بقـــدر » « قل انظروا ماذا فى السموات والارض »

(٧) تقرير الحكم الشورى الذى تتفجر منه كل الحريات الضرورية الانسان قال تعالى « وأمرهم شورى بينهم » « وشاورهم فى الامر »

(٨) اختلاف المشارب ضرورى لبقاء صرح المدنية قال تعالى « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم »

(٩) ابطال الحقد الدينى قال تعالى « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين »

(١٠) الاعتدال رأس كل فلاح قال تعالى « ان الله لا يحب المعتدين »

(١١) الثبات سر النجاح فى الأعمال قال تعالى « واصبر وما صبرك الا بالله » « ان الله مع الصابرين »

(١٢) تقرير العدالة الكاملة قال تعالى « واذا قلتم فاعدلوا ولو كان

ذاقربى » « اعدلوا هو أقرب للتقوى »

(١٣) المساواة قال تعالى « ياأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا »

(١٤) الاخاء قال تعالى « انما المؤمنون اخوة »

(١٥) التمايز لايكون الا بالمزايا الفاضلة قال تعالى « ان أكرمكم عند الله أتقاكم »

(١٦) السياحة وتعرف سنن الصعود والهبوط فى الأمم قال تعالى « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل »

(١٧) العلم غير محدود ولم ينل منه الانسان الاجزءاً يسيراً وماخبىء عنه أكثر قال تعالى « وماأوتيتم من العلم الا قليلا » « وقل رب زدنى علماً » .

هذه الأصول هى أهم أصول المدنية الجديدة وقد رأيت أنه لايوجد أصل منها الا وهو مذكور بالنص فى الكلام القديم فاعجب لهؤلاء الذين كانوا يعارضون دعوة سيد الأنام عليه الصلاة والسلام بكل حجة ووسيلة بالافتراء تارة وبالسلاح أخرى . كيف آبوا الى ماكان يدعوهم اليه ولكن بعد مارأوا العذاب الاليم من أحداث كبرى ، وفتن كقطع الليل المظلم سالت فيها المهج ، وتفطرت لها القلوب ، وانشقت منها المرائر ، ولكنك لم تزل ترى أن تلك المدنية ناقصة من جهتها الروحية كل النقص وليست كل تلك الضوضاء التى ملأت أرجاء أوروبا الآن من مسألة استحضار الأرواح وتجارب المانيتزم (التنويم

المغناطيسى) ودخول العلماء ألوفا فى تلك المذاهب العجيبة وتحريرهم الكتب الضخمة فيها إلا حركة ستدفعهم كلهم الى اعتقاد ما كانوا ينكرونه، ومن يكن منا قد اطلع على عالمهم اما بالسياحة أو بواسطة كتبهم ومجلاتهم يعلم كما قلنا فى مقالاتنا السابقة أن هنالك مائتى مجلة لا شغل لها الا اثبات الروح والمعاد ونقل ابحاث العلماء فى استحضار الارواح وتجسدهم والمكالمة معهم (هكذا يقولون) وقد كنا أتينا على جدول فيه عشرات من أساطين علماء العصر الذين يعتقدون هذا المذهب ممن لهم الكتب الضخمة فى ذلك ليعرف القراء أن الذين يقودون تلك الحركة ليسوا بضعاف العقول ولا بقليلى المادة العلمية ولكنهم أساطين النهضة الاوربية وأركان العلوم الطبيعية،

هذه الحركة التى لم تصل الى علم المصريين للآن تعد أكبر حركة فى القرن التاسع عشر كما يقول الاروبيون أنفسهم عنها، ولا غرض منها الا تقرير العقائد التى غرزها الله فى نفوس البشر، وهى الاعتقاد به تعالى اعتقادا صحيحاً نزيها عن الشرك والاعتقاد بالروح والخلود. اذا تم للمدنية الاوربية ذلك فان مبادئها ستتقابل فى سيرها مع مبادئ مدنيتنا الكاملة وسيكون القرآن الشريف رسول السلام والوئام بينهما، والدستور الوحيد لسائر الامم المتمدنة بعدله بين مطلب الروح والجسد، وتوفيقه بين مرامى العقول والعواطف، ومؤاخاته بين الطبيعة والانسان، وتوحيده طريق الرقى المادى والمعنوى «ولتعلمن نبأه بعد حين»

وظيفة الاسلام فى عصر العلم

تبين لقارئنا مما تقدم أننا أمة قامت بالدين ، واعتزت بالايمان ، واننا ماأضعنا مجدنا القديم الالتنكبنا عن الصراط المستقيم ؛ واننا لم نحد عن ذلك الصراط المستقيم الا بعوامل قاهرة ، وفواعل قاسرة ، مثارها مزاحمة العالم الغربى لنا فى شؤوننا الحيوية ، على مقتضى النواميس الاجتماعية ، والقوانين العمرانية ، واننا مادمنا جاهلين ذلك التأثير السحرى المنصب علينا من سائر جهاتنا ، فلا ينجح فى معالجتنا طب ولا طبيب ، ولا يفيد فى بعثنا ترغيب ولا ترهيب ، ويكون مجهودنا فى علاج أنفسنا ضائعا سدى ، وذاهباً عبثاً ، وان دواءنا الوحيد هو تقوية تلك الحياة فينا من طريقها المثلى ، ووجهتها الحقة ، وان تلك التقوية لا تتأتى الا برفع ذلك التأثير الغربى عنها ، وان رفعه يستلزم محاربته بأسلحة من جنس أسلحته ، وأن وظيفة القائد الفكرى فى الامة لا تفترق فى الخطارة عن وظيفة القائد الحربى فيها من حيث استعمال أدق الاساليب فى اشراب الأفئدة روح الأمل والحياة ، والوقوف بالأمة مواقف تكسبها فضيلة الاحساس والشعور الخ الخ

قلنا ذلك كله فى فصولنا السابقة وهو ماأنشأنا كتابنا هذا من أجله ، وقد رأى قراؤنا فى المجلد الأول اننا قد سلكنا لهم من العلم مسالك لم يقم عليها المؤلفون قبلنا ، فلقد سبكنا تلك الفصول العمرانية المسئمة ، وهاتيك المقالات النفسية المملة وتيك المباحث الفلسفية بالمضجرة ،

فى قوالب من الانشاء الهين اللين ، وأساليب من البيان الرقيق ، جعلتها سهلة التناول قريبة المآخذ ، جذابة للمطالع ، يخيل للقارىء انه يطالع قطعة شعرية أو مقامة خيالية بينما يكون بيده مقالة عمرانية عويصة المقدمات ، بعيدة النتائج ، كثيرة التشعبات والوشائج ، بحيث لو جئناه بها على حالتها الفطرية ، وفى حلتها الفنية لما قوى على مطالعتها الا الأقلون . بهذه الوسيلة أمكننا بحول الله وقوته أن نذيع أخفى أسرار الفلسفة العالية ، وأغلى مكنونات العلم العصرى البعيد التناول بين أمتنا المحبوبة مشفوعاً بما يقابله من آيات الكتاب الالهى والحكمة المحمدية العلية ، مما رأينا له بأعيننا والحمد لله أثراً باهراً فى العقول والمدارك ، ودلائل واضحة فى الأميال والعواطف . حتى صار قارئنا متى ذكر تيار السحر الأوروباوى أحس بخفة وطأته على نفسه ، وتفاهة خطره من فؤاده ، ومتى حدثه محدث بالمدنية المادية ، وجد من نفسه استخفافا بكل ذلك ، وثقة فى قوته تميل به لنسف كل مايقال له من أباطيلهما . هذا فيما ارجح مايحس به كل قارىء لكتاباتنا : وهو الدواء الذى ننشده من كل محاولاتنا ، فلو سرت هذه الكهرباء فى سائر النفوس ، وارتفع من المدارك صنم الوهم من سحر العالم الغربى ومدنيته والحاده ، خلصت حياتنا الملية و القومية من الخطر الذى يتهددها ، والبلاء الذى لايزال يتوعدها .

فوظيفة الاسلام فى عصر العلم من أدق الوظائف الاسلامية فى هذا العصر ، ألا وهى حماية حياتنا الدينية التى هى حياتنا الاجتماعية

القومية من خطر مزاحمة العالم الغربى ، ولما كانت تلك المزاحمة أدبية محضة ولولاها لم تكن المزاحمة المادية ، فقد عولنا ان شاء الله أن نقارعها من جهات هجماتها ، ومحلات توثباتها . وسيكون لقارئنا من اتمامنا للخطة التى رسمناها لهذا الكتاب دائرة معارف فلسفية كبرى يجد فيها الشرقى ان شاء الله من المباحث الاسلامية والمدنية والفلسفية فى كل مطلب وكل مجال ، فى اجمل القوالب واغربها ما يبل له شوق الاطلاع على خفيات المعارف ، ومستورات المعلومات ، وقد أوشكنا أن نتم فى مجلدنا الأول الكلام على فلسفة الأقدمين ، وسيكون من حظ المجلد الثانى ان شاء الله الكلام على العلم عند العرب وعند الأوربيين . أما عند العرب فسنوفيه ان شاء الله حقاً لم يزل يطالبنا به العلم لليوم ، فاننا سنفحصه أولا من الجهة العلمية المحضة ، ثم نطبقه على مقررات العلم الالهى ، لنرى مقدار الشطط الذى حدث بواسطته فى بعض الشئون وهو بحث لم يطرقه كاتب عصرى لليوم ، نرجو الله أن يعيننا عليه . أما درس العلم عند الاوربيين فسيكون ان شاء الله بتطويل واسهاب يقتضيهما الموضوع . فسنسرد المذاهب المختلفة فى الفلسفة والاخلاق والطبيعة والدين والشريعة الخ وسنلم بأقوال رؤساء كل مذهب من تلك المذاهب الهائلة مع محاكمتها بخصوص الكتاب الالهى الكريم دالين على وجوه قوتها وضعفها ، مشيرين إلى الجهات التى أثرت علينا منها حتى نستوعبها بحثاً وتمحيصاً ، ان شاء الله تعالى ، وصلى الله على سيدنا محمد عبده ورسوله وعلى آله وصحبه وسلم أمين .

تنبيه

نوجه نظر قارئنا الى العلاقة الاكيدة الموجودة بين كتاب الانسان وكتاب خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، فاننا نذكر فى كتاب الانسان كلما يخص الانسان من المباحث الدينية والفلسفية والمدنية والشرعية والسياسية على حسب مايستدعيه مانحن بصدده من المباحث ، على طريقة البسط والنقل الخالى من النقد ، أما كتاب (خاتم النبيين) فستكون وظيفته محاكمة ماجاء فى (كتاب الانسان) الى كتاب الله الحكيم ، ونقده نقداً فلسفياً على الأسلوب القرآنى الاقدس ، وبهذه الكيفة سيكون لنا ان شاء الله فى كتاب خاتم النبيين مورد روحانى ترده القلوب الظمآى لسلسبيل الحكمة الالهية فتجد فيه بحول الله ماينقع غلة العقل ، ويشفى رسيس الصدر ، ويسمو بالروح الى عالمها ، ويعلو بالحياة الى آفاقها ، والله يهدينا الى سواء السبيل .

مبلغ مدارك الفلاسفة اليونانيين
بالمسألة النفسية

« تمهيـــد »

الانسان شديد الحرص على حياته ، كبير الكلف بذاته ، لايقنعه غير أن يكون مخلداً لايموت . ومدركا لايعتريه الخمود . وهو شعور فطرى غرزه الخالق فى طبيعة الانسان كما غرز فيه سائر العواطف الأخرى ، لاتمحوه من جوهره شدائد الشيخوخة ، ولا تؤثر عليه تارات المحن؛ بل ربما زادته شرهاً على شره ، وأكسبته نهماً على نهم، طلباً للعوض فى المستقبل عما فقده فى الماضى ، ويفقده فى زمانه الحاضر من مال وولد ، أو صحة وشرف .

يرى الانسان نفسه حياً مدركا ، تتلألأ فى معناه الانسانى أشعة الشعور والحياة ، وتسطع فى وجدانه أنوار المدركات والأفكار ، وهو بهذه الصفة سلطان الطبيعة يصرفها بفكره وقائد الخليقة يقودها إلى مصالحها ، ثم تحين منه التفاتة فيرى سكان المقابر فى سكوت وبهوت، قد زجوا إلى شقوق من الأرض كانوا يعافون النظر اليها وهم أحياء ، ويتشاءمون من المرور بها وهم أصحاء ، فتأخذه قشعريرة باطنية ، تليها اضطرابات نفسية ، وثورات عقلية فيسأل نفسه هل هذا نتيجة الحياة ، هل هذا آخر التعب والجهاد ، هل هذا غاية ما كنا فيه من الجدال والجلاد ، والقراع والنضال ، هل الانسان كالحيوان ، كيف يستويان

وهما عالمان ، أين يذهب العقل النقى ؟ أين يذهب الفكر السنى ؟ أين يذهب التصور العلى ؟ أين يذهب الفؤاد التقى ؟ أين تذهب الارادة القوية ؟ أين تذهب الأخلاق الرضية ؟ أين تذهب الشجاعة والسماحة ؟ أين تذهب الوداعة والصباحة ، بل أين يذهب ذلك الشعور الذى ، كان يسبر الأغوار ، ويسرى فى صميم الكون سريان الأنوار ؟ أيذهب كل ذلك ويتلاشى ، ويستوى الخبيث الذى تعافه الأرض أن يمشى عليها ، والطيب الذى يشرف الثريا لو نظر اليها . هل يستوى العالم الذى يملأ طباق الأرض علماً ، والجاهل الذى شوه وجه الأنسانية إثماً ؟ إذن فالحيوان أهنأ من الأنسان بالا ، وأروح منه حالا ، فانه يعيش مايعيشه فى هناء وسرور ، ولهو وحبور ، فاذا جاء يومه اضطجع وأن أنينه ، وذهب غير مأسوف عليه ، ولا منظور اليه ، لم يأس على ترك ولد ، ولم يحزن لفراق بلد ، ولا ندبه أهل تركهم أشتاتاً ، وشعب جمعهم أنكاثاً .

نظر الانسان فى أمره هذا النظر فثارت فى ضميره حرب عوان ، واشتعلت فى فؤاده نيران وأى نيران ، ولم يهنأله عيش ، ولم يقر له بال على حال ، حتى كرر النظر ، وأعمل الفكر ، وآب وفى طى ضميره عقيدة الخلود فى دار بعدهذه الدار ، وعلى حال غير هذه الأحوال ، وأن بينه وبين الحيوانات فرقا شاسعاً ، وامتيازاً كبيراً ، فهى تأكل وتتناسل ثم تتلاشى وتفنى فناء لا نشور بعده . أما هو فيحيا هذه الحياة القصيرة الأمد فى أى نوع من أنواع الجهاد الحيوى ثم يفارق هذا العالم إلى عالم

أرقى منه ، فبنى على هذه الفكرة أخلاقه وآدابه ، وأسس على دعائمها شرائعه وقوانينه ، وسعى فى كل أعماله أن يبتعد فى أحواله وشؤونه عن عالم الحيوان الذى ثبت لديه أنه من عالم أرقى من عالمه ، وانه ممتاز عنه فى خصيصة الخلود والتنعم بجزاء أعماله ، أو المحاسبة والشقاء بسيئات آثامه . ولولم تثبت للانسان هذه العقيدة من مبدأ أمره لشاكل الحمر الوحشية فى سفالتها ، والبهم المهملة فى ضراوتها ، كما هو الشأن عند بعض المتوحشين الذين لم يستعد وجدانهم لشروق نور العقيدة فى ضمائرهم ، ولم يزالوا فى عالم وسط بين الحيوانية والانسانية (١) فانهم من النقص والخسة بحيث لا يعرفون الكمال ، ولا يدكون العار .

هنا يمكن أن يعترض علينا الروحيون ، ويشمت بنا الماديون . يقول الروحيون : « ان تفصيلك هذا فى منشأ الاعتقاد بالدار الآخرة والخلود ، يشير الى أن هذه العقيدة حصلت للانسان « بالاستدلال لا بالفطرة ، ولو تساهلنا فى اصولنا لهذا الحد بلغ منا « خصومنا الماديون مناهم ، وحاربونا بنفس مقرراتنا ، وأثبتوا لنا أن « الدين مبدؤه انسانى لا إلهى فما تقول . » ويقول لنا الماديون : « لقد « رجعتم إلى اصولنا الصحيحة المستندة على الحقائق الثابتة ، وقلتم ان « الدين نشأ للانسان بالاستدلال والنظر فى الكون وبذلك فقد أثبتم

(١) لا نريد من هذا أن نقول ان الانسان مرتق عن الحيوان ، وانما نريد أنهم ليسوا بحيوانات قسرى عليهم حكم الحيوانية ، ولم يستكملوا شروط الانسانية الكاملة حتى نصعد بهم الى مستوى هذا النوع ، فهم عالم وسط يستدل بهم المعتقدون بترقى الانسان عن القردة على صحة مذهب (داروين) ولنا عليهم كلام كثير يأتى إن شاء الله

« ماقلناه فى كتبنا من أن الدين ليس بفطرى طبيعى ، وانما هو انسانى
« صناعى ، وهاأنتم رجعتم الى هذا الأصل الخطير وتؤمل فى رجوعكم
« الى سائر أصولنا الاخرى من نفس هذا الطريق »

نقول انا لانريد من فطرية الدين أنه مطبوع فى وجدان الانسان على شكل خاص ، وانما نريد من ذلك أنه مستعد له بالفطرة . أى أنه اذا كان سليم الفطرة ، صحيح الفؤاد ، حاصلا على شروط الانسانية توصل بمحض قواه ومواهبه الذاتيه الى الدين المطلق الحق وهو الخضوع لقيوم السموات والأرض ، ولكنه قد يكون سقيم الفطرة ، مريض الفؤاد بالشهوات والسفاسف فيميل بتلك الخاصية الدينية فيه الى اعتقاد الأوهام والأباطيل وما يحس من نفسه بالباعث اليه ، كارغام أكثر المتدينين أنفسهم على اعتقاد مالا يقر عليه العقل ، ولا يوافقه الحس ، بل قد يعتقدون بالوراثة مايخجلون من حكايته ، ويبكون من شدة تناقضه . فلو كان قولنا الدين فطرى فى النفس ، معناه الدين على شكل خاص لما اختلف كلهم فيه ، ولكان دين البشر واحداً ، ولكنا نريد من قولنا الدين فطرى فى النفس ، انها مستعدة له بالفطرة ، لا تتكلفه بالصناعه . اذ لافرق بين ذلك القول وقولنا البصر فطرى فى الانسان . ولا يلزم من قولنا البصر فطرى فى الانسان أنه لايبصر الا اشكالا خاصة من المرئيات ، وانما هو يقتضى أنه مستعد للبصر والرؤية وله أن يستعمل هذه الخصيصة فيما شاء بلا حجر عليه فان كان سليم الفطرة سليم العقل استعمله فيما ينبغى ان ينظر اليه ، وان كان غير ذلك استعمله

فيما لا ينبغى أن ينظر اليه .

قلنا معنى قولنا الانسان مفطور على الدين ، أنه مستأهل للتدين وقابل له بالفطرة ، ومعنى قبوله له ان فى طبيعته بواعث تبعثه له ، وتؤديه اليه . فهب أنك ربيت طفلا بمعزل عن الناس ، فلم يسمع أقوالهم ، ولم يتأثر بعقائدهم ولم يحصل خبراً ما عماهم عليه من حيث الدين بالمرة . فلا يلزم من قولنا ان الانسان مفطور على الدين انك ترى ذلك الطفل متى بلغ سن التميز ناطقاً بحقيقة الدين الكبرى بلا مقدمات ولا نتائج . كلا بل قولنا ذلك يقتضى ان قواه ومواهبه الفطرية لا تزال به حتى تؤديه الى الدين ولو بعد حين ، وذلك أنه متى بلغ سن التميز أخذ ينظر فى الاشياء المحيطة به نظر المميز المستخبر ، يرفع بصره الى السماء فيستعرض تلك النقط اللامعة فى وسط ذلك الأديم الازرق ، ثم يرمى به الى الأرض ويستجلى بدائع الأشجار وغرائب الأزهار وعجائب الأطيار ، ثم يؤوب الى ذاته فيسائل نفسه عن منشئها واصلها ، وكيفية نموها وتكونها ، وهكذا ، ثم يترقى فى النظر والاستدلال بترقى سنه وتوالى المناظر والمشاهد على مخيلته ، ويؤوب بشىء من العلم فى كل مرة ، حتى ينتهى به النظر الى أصل الكون ومبدئه ، وكيفية تصريفه وتدبيره فلا يتمالك نفسه من الحكم البات الذى لا يعتريه شك ، ولا يشوبه تردد ، بان له مصرفاً قوياً ، ومدبراً عالياً ، يهيمن عليه ، ويقوم بشؤونه ، وبما أنه جزء من الكون يرى أنه هو أيضاً صنع ذلك القوى القادر قيوم السموات والأرض ، فترى صاحبنا ان أصابه ألم ، أو مسه برد ، أو ألمت به مخافة ، وجد نفسه

مفطورة على الشكوى لخالقه وخالق الكون ، ومفاتحته بمايجيش فى سريرته ، ويجول فى سويداء ضميره ، فاذا اتفق ومرت بصاحبنا هذا جنازة ميت اضطربت نفسه ، وجاشت هواجسه ، ومادت به حواسه ، واعترته خشية ورعدة وسأل نفسه عن مصيره ونهايته ، وألم به من الأرق والتململ مابسطناه فى مقدمة هذه المقالة ، وذهب بفكره فى مناحى هذا الكون مفكرا مستدلا ، ثم عاد والعقيدة بالخلود الصق به من نفسه

هذه أمور لايمكن الشك فيها بوجه من الوجوه فان الدين عام بين كل أمم الأرض ولا يشذ عنه إلا أفراد متوحشون لايعدون من الانسانية لأن فيهم نقصاً فطرياً وقد ثبت أنهم غير قابلين للترقى أيضاً. فكون الدين عاماً فى كل الأمم بعقيدتيه الرئيستين ، الاعتقاد بالخالق والاعتقاد بالمعاد ، أكبر دليل حسى على التفصيل الذى ذكرناه وهو مايحس به كل فرد منا فى نفسه

أما ماذكرناه من شماتة الماديين بنا ، وادعائهم أننا أبنا الى أصل من أصولهم فهو ادعاء باطل ، ومغالطة محضة بنا على ماقررناه فى هذا الشرح ، ولاندرى كيف يسوغ لهم أن يقرروا عدم فطرية الدين ، وهم يرون بأعينهم أن الفكر والاستدلال اللذين ساقا الانسان رغم أنفه الى الدين هما فطريان طبيعيان ، لايزولان ولا يحولان ؟ فاذا كان الفكر والاستدلال فى الانسان فطريين فكيف لا يكون ما يؤديان اليه على وجه التعميم طبيعياً ضرورياً . اذا كان أمر التدين خاصاً بأمم دون أمم ، لقيل بأنه من الأمور الخيالية التابعة لنزغات النفس ، ومنازع

الأهواء ، ولكن شيوعه الى هذه الدرجة فى كل زمان ومكان ، وعند كل طائفة من طوائف الانسان ، مع اختلافها فى درجات العرفان ، وأساليب البيان ، يدل تمام الدلالة على أنه مرتكز على عواطف فطرية تؤدى اليه ، وعلى أنه حاجة كبيرة من حاجات النفس البشرية لا ترتاح الا اذا انتهت اليه .

عود الى موضوعنا الأصلى

يظهر من استقراء مدركات الانسان فى خلال القرون المتنائية أن العقيدة بوجود الروح قديمة كقدم العقيدة بوجود الخالق جل وعز . وقد كان الأقدمون يزعمون أن للحيوانات روحاً حساسة فقط لا عاقلة . وقد قرر فلاسفة اليونانيين القدماء بأن للكون كله روحا سارية فى صميم كل ذرة من ذراته ، وقد وضعت فيه لتقوم بتحريك أجزائه وتصوير كائناته ، بمعنى أنها جعلت لتهب المادة الحركة والصورة . وقد كان فيثاغورس الفيلسوف اليونانى ، وافلاطون الشهير والفلاسفة الاسكندريون ، يعتقدون بأن روح الوجود مادة متوسطة بين الخالق الأقدس والكون المادى . أما اتباع زينون فقد اكتفوا بهذه الروح الوجودية عن العقيدة بالخالق وبنوا على ذلك فلسفتهم الالحادية

يظهر أن الأقدمين كانوا لا يعرفون الروح الا مادة لطيفة ، وما كانوا يدركون المعانى الملكوتية القدسية ، ولذلك لما أرادوا تعريف

الروح بحد قالوا انها من جوهر لطيف هوائى ، وإن مثلها فى هـــذا الغلاف الجسدانى كمثل الفراش يظل مسجونا فى غشائه حتى يتم له تكون جناحيه فيمزق ذلك الغشاء ويطير . والنفس بعد خروجها من الجسد تصعد الى عالم الأثير حول الكواكب الزاهرة فى قبة السماء ، وكان افلاطون يدعى أنها محتد الأرواح قبل نزولها الى الأجساد .

ولاعتقاد قدماء اليونان مادية الروح كانوا يرمزون لها بالصور المادية . فكانوا يصورونها على شكل آدمية ذات أجنحة كأجنحة الفراش . وهذا الرمز يشاهد كثيرا فوق التماثيل والأنصاب القديمة . وتارة كانوا يصورونها بامرأة محجبة متزوجة جديدا وفى صدرها صورة فراش

كان الرومانيون فى هذا الشأن مثل اليونانيين يذهب قدماؤهم الى مادية الروح وان كانوا يعتقدونها خالدة . يظهر ذلك من نقوشهم على الأوسمة التى كانوا يسبكونها تذكارا لجلائل وقائعهم ، وعظائم حروبهم . فكانوا يصورون نسرا وطاووسا طائرين فى الهواء وهما رمزان للالهين (جوبتير وجوتون) وبين كل منهما نصف صورة إنسان وهى رمز الى روح الامبراطور والامبراطورة ، صاعدين بها الى السماء مقر الأرواح العالية ، ومجتمع النفوس الطيبة .

وكانت عقيدة تناسخ الأرواح أى انتقالها من جسد الى جسد آخر شائعة عند أكثر الأقدمين ولم تزل منتشرة عند أكثر شعوب

المسكونة وقد صار لها اليوم فى أوروبا انصارا كثيرى العدد ، كما سنفصل ذلك إن شاء الله تفصيلا مع بسط أسبابه التى دعت اليه عند الكلام على العلم عند الأوربيين .

كان الاقدمون يعتقدون بالتناسخ على وجهين ، تناسخ الروح الانسانية فى جسد إنسان يولد جديدا ، أو تناسخ الروح الانسانية فى جسد حيوان أعجم . والى هذا كان يذهب فيثاغورس كما نقله عنه تلامذته . قالوا : إنه كان يعتقد بالتناسخ وإن النفس الفاضلة متى خرجت من جسم صاحبها تلبست بجسم شخص فاضل ، وبخلاف ذلك لو كانت شقية ، فانها تتقمص جسم حيوان قذر . وكان يقول انه يتذكر الحالات التى كان فيها هو نفسه فى أجساد مختلفة

أما افلاطون فكان له مذهب خاص فى مسألة الروح وأصلها فقد كان يعتقد بأن أصل الكون صور عقلية معنوية أزلية كون الخالق على حسبها جميع الكائنات الحية والجامدة . وكان يقرر أن للعقل ثلاث خصائص : وهى الاحساسات ، والمدركات ، والمعقولات ، فالاحساسات تقابل الأشياء المتغيرة والمتشخصة ، والمدركات تقابل الأشياء المتغيرة أيضاً ولكن مع تجريد أشخاصها من الحس بها . أما المعقولات فتقابل الأشياء الثابتة ، والحقائق العامة . وعنده أنه المعقولات فى ذاتها ليست مدركات بسيطة للعقل ولكنها أصول الأشياء وحقائقها ، بمعنى أنها كل مافى الكائنات من حق وباق وعام . وكان يقول انها عالم قائم بذاته فوق عالم الكون والفساد وهى واصلة

الينا من الله مباشرة ، وهى القوالب التى شيأ الله تعالى عليها الأشياء .

لما كانت المعقولات على رأى افلاطون هى الاشكال الحقيقية السرمدية لكل ماهو موجود فقد سماها (بالنموذجات) .

قال افلاطون : يوجد خارجا عن الله تعالى أصل متغير ناقص قابل للفناء موجود بذاته هو هذه المادة العمياء الصماء التى لاشكل لها ولاصورة فبأثر من الله تعالى أوقعه عليها ازدوجت هذه النموذجات التى هى المعقولات المجردة بالمادة عديمة الصورة والشكل على درجات مناسبة فنشأ منها جوهر متوسط مشترك بين خصائص كل من هاتين الطبيعتين . وهذا الجوهر هو روح العالم . فروح العالم هذه بتشخصها وانقسامها الى أرواح مختلفة تكون الآلهة التى يعبدها العامة ، وتولد الناس وهم الكائنات المتمتعة بعقل وادراك . وفى رأيه ان الكون المادى مكون من عنصرين متضادين : التراب وهو أصل جمود العالم وصيرورته محسوساً ، والنار وهى سبب كونه مرئياً . هذان العنصران الترابى والنارى ملتئمان ببعضهما بواسطة عنصرين وسطين بينهما : هما الهواء والماء وهما من جهة متشابهان فى صفة مشتركة هى السيالية ، ومن جهة أخرى كل منهما مشابه للطرفين الآخرين ، فالهواء يشبه النار والماء يشبه التراب

أما روح الانسان فى نظر الفيلسوف فهى حياة غير قابلة للفناء محصورة فى سجن فان هو جسد الانسان ، وهى متمتعة بثلاث قوى مختلفة : الادراك أى العقل ، والقلب أى الشجاعة ، والرغبة أى الشهوة . فاما الجزء السامى من النفس التى هى حية بالمعقولات والمطالب التى توافقها

وتلائمها فمحلها الرأس . أما الشجاعة فموطنها القلب . وما سفل من قوى النفس فموضعه الامعاء .

أما مذهب ارسطو فى النفس فلا يمكن الوقوف عليه بالدقة لتناقض تلامذته فى أصوله الأولية التى نقلوها عنه . فقد قالوا ان مبدأ فلسفته هذه القاعدة « لا يصل الى العقل الا ما يمر أولا بالحواس الخمس » وهى قاعده كما قلنا عند كلامنا على فلسفته تجعل الحواس أصلا للمعقولات، ومنبعاً للمدركات .

كان ارسطو يرجو أن يؤسس مذهباً وسطاً بين المذهب العقلى الفكرى والمذهب المادى الحسى ، وهو مسعى عظيم لو استطاع اليه سبيلا ، ولكن غاب عنا الآن شكل ذلك التوسط الذى أتى به هذا الفيلسوف ، وقد وقع فيما وقعنا فيه من الحيرة كثير من اتباعه فوقعوا فى المذهب الحسى المطلق .

والذى يمكن استخلاصه من الأقوال الكثيرة ان مذهب ارسطو يفرض للعقل الانسانى جزأين متميزين عن بعضهما تمام التمايز ، وهما الاشكال العقلية والأصول التى تتأثر بها الحواس من الخارج . فالعقل بما وهب من تلك الاشكال الأصلية فيه يصدر أحكاما عامة ضرورية يصبغ بها المتغير والشخصى بصبغة الضرورى العام ، كادراكه استحالة المستحيلات وجواز الجائزات ، ولكن هذه الأشكال العقلية التى تصدر منها تحتاج لمادة تنطبق عليها هذه المادة يهيئها الاحساس والتجربة

اذا تقرر هذا يعلم من أول وهلة ان مذهب ارسطو يوافق من

بعض الجهات مذهب (افلاطون) ويلائم مذهب (ابيقور) من جهات أخرى . ولكن مع حفظه شخصيته وصونه استقلاله عن كليهما

أما موافقته لمذهب (افلاطون) فذهابه الى وجود عنصر فى العقل الانسانى يتميز تمام التميز عن الاحساس ، وأما موافقته لمذهب (ابيقور) فلتسليمه بانه لولا الاحساس لما أمكن الانسان أن يعلم عن الوجود شيئا ولا أن يحصل عنه خبرا . أما كونه مع ذلك حافظا لشخصيته صائنا لاستقلاله فلكونه يبتعد عن كلا هذين المذهبين بعدا شاسعا فى بقية مستلزمات هذه المبادىء فان أفلاطون يذهب الى أن (المعقولات) التى هى منابع الاحكام المطلقة ، هى حقائق أبدية ، مستقلة عن العقل ، وخارجة عنه ، ومشرقة عليه فقط ، ويذهب (ابيقور) إلى أن أحكام العقل ليست الا تعميما لاحساس الحواس . أما فى مذهب ارسطو فالامر بخلاف هذا فان الاشكال العقلية فى فلسفته وان لم تستطع ان تنطبق الا على الحواس فقط ، الا أنها تضيف اليها عنصرا خارجيا مستفادا من التجربة ليتم أمر الادراك والعلم .

وقد اختلف الناس فى تقرير مبادىء مذهب ارسطو فعده بعضهم ماديا حسياً وعده البعض الآخر خياليا فكرياً ، وهو تناقض لم يهيئه الا اختلاف درجات العقول فى فهم كلام هذا الفيلسوف الكبير الذى يعد من أكبر القرائح التى ظهرت فى العالم الانسانى .

هذه أشهر مذاهب الفلاسفة اليونانيين فى مسألة الروح وقد بقى مذهبا (ابيقور) و (زينون) وهما حسيان ماديان يجعلان الحواس

مصدرا للمعقولات وكانا كما يقولون لا يعتقدان بالخلود . فقد كان (ابيقور) يقول ان الروح جوهر لطيف له خصائص عالية وانه وجد فى هذا الجسد أمداً محدودا ، حتى اذا ماصار للبدن عديم الفائدة واختل خرج منه وتحلل هو أيضاً (أى الروح) وتلاشى فى الوجود .

محاكمة مدارك الفلاسفة

« فى مسألة النفس »

لما كانت مسألة الحياة كما قدمنا أكبر ما يشغل الانسان فى هذا العالم الفانى ، فقد أولع الفلاسفة والباحثون فى الخوض فيها ، من أول عهد الانسان الى الآن .

ظل الانسان بين يدى كهان الهياكل ، وسدنة المعابد (١) والقائمين على عقائده وتقاليده آماداً طويلة ، وهولاء بما يوحونه اليه من بنات أفكارهم ، ورشحات اقلامهم ، قانع بما يجسمونه له من الخيالات والأوهام ، وما يهيئونه له من التصورات والاحلام ، حاسب كل ذلك افاضات سكان الملا الأعلى على أرواح أولئك القادة الاعلين معتقدا انه نفحات عالم القدس على أفئدة أولئك المسيطرين ، ومازال كذلك يسبح فى سراب المدركات الوهمية ، ويسرح فى آل (٢)

(١) (سدنة) جمع سادن أى خادم المعبد
(٢) (آل) بمعنى سراب

التصورات الخرافية . حتى جاء دور العلم والفلسفة وساق الله تعالى الأمة اليونانية لتكون طليعة ذلك الدور العظيم ، ومقدمة تلك الدولة الفخيمة ، وكان من أمرها ما كان مما درسناه تفصيلا فى (كتاب الانسان) من المجلد الأول فجاءت الفلسفة العقلية تضع حدا لتلك التصورات التضليلية ، وقام العقل يناضل الخيال حقوقه ، وينازعه اختصاصه ، فتصارعا ملياً ، وانتهى الأمر بغلبة العقل وتأيد سلطانه وانخذال الخيال وتقوض أركانه ، ولم يزل العقل وحده صاحب السيطرة والسطوة ، ورب السلطة والشوكة ، حتى جاء دور العلم العملى والفلسفة الحسية فى القرن الماضى ، فتنازل لهما العقل عن عرشه ، وسلمهما قياد النوع الانسانى بدون لجاج ولا حجاج (١) ولا عجب ان عرف العقل الفضل لأهله ، وأعطى الحق لمستحقه فقام العلم بالأمر خير قيام ولم يزل قائما لليوم ، وليس بعد دولة العلم دولة ، ولا بعد صولته صولة ، ودولته مقدمة دولة الاسلام ، وطليعة حقائق القرآن ، وسترى فى تفصيل هذا الاجمال العجب ، ان شاء الله

لو أردنا أن نستقصى مدارك الناس على الروح فى عصر الخيال للزمنا سفر كبير نسرد فيه أساطير الأولين ، ومزاعم المتقدمين ، وليس فى ذلك كبير فائدة لحضرات القارئين . وانما نجمل شيئا من ذلك ، فنقول : ان أكثر الأقدمين ، ومعظم الوثنيين العصريين ، يعتقدون ان الروح تصعد الى السماء محمولة على أجنحة الطيور ، ويربط أهالى

(١) (حجاج) أى جدال يقال له : حاجه يحاجه محاجة وحجاجا أى جادله

الصين أمام بيوتهم ساعة احتضار الميت ثلاث حمامات ثم يطلقونها اذا خرجت روحه ، لتأخذها تلك الحمامات وتصعد بها الى السماء ، وكان يدعى بعض الأقدمين أن الأرواح لا تصعد الا محمولة على طائر ، ولذلك يأتون للمحتضر بحمامة كأهالى الصين ويطلقونها بعد موته لتحمل روحه الى الصفيح (١) الأعلى . وللأقدمين غير ذلك وهميات تشبه أحلام الأطفال كانوا ينظمونها فى أشعارهم ، وينشدونها فى أعراسهم وحفلاتهم ؛ ويتعزون بما جاء فيها أمام كوارث الحياة وشجونها ، ويتسلون بها فى أتراح الدنيا وغمومها . ويدافعون بها حقائق الوحى وأرباب المعارف النبوية لمناسبة تلك النزغات لطبيعتهم الحسيه ، وأمزجتهم الطفلية ، فما كان يؤمن منهم بالأنبياء الا العدد القليل يقيمون أمر الله ويسيرون على صراطه ، ثم لا يلبث أعقابهم ان يبدلوا ويحرفوا ما ورثوه عنهم ، ولا يزالون كذلك حتى يوفقون بينهم وبين خرافاتهم البلدية ، وسفسطاتهم القومية ، ويسمون أنفسهم اتباع الأنبياء ، وحفظة الكتب المقدسة ؛ وهم فى الحقيقة اتباع أوهامهم وحفظة أضاليلهم ، ولله فى ذلك حكمة .

جاء فلاسفة اليونان يحاكمون العقائد العمومية للعقل ، ويناقشونها مناقشة المنتقد فثار دونهم أراكين السفسطة (٢) وأساطين الوهم

---

(١) (الصفيح) اسم من أسماء السماء

(٢) (السفسطة) والسفسطة بفتح السينين وكسرها قياس منطقى مركب من الوهميات اصله يونانى

وحفظة الخيال وكان فى مقدمة جيش العقل وحامل لوائه العالى الفيلسوف الكبير (سقراط) فلم يزل يجادلهم ويجادلونه ويقارعهم ويقارعونه ، حتى فاز عليهم بالانتصار ، وسجل عليهم الخذلان والبوار ، فخاف هؤلاء على مراكزهم ولم يغلبوا حب الحق على حب مصالحهم ، فدسوا به الى الحكومة ، وناهيك بحكومة تلك الأزمان (القرن السادس قبل المسيح) فألقت القبض عليه وزجته (١) الى أعماق السجون وظلمات الحبس ، ولم يزالوا يوغرون صدر الحكومة عليه ويؤثرون على نفوس القضاة والحاكمين بالتمويهات والبهتان ، حتى حكموا بسمه وهى عادة اليونانيين القدماء فى قتل بعض الناس فسقوه السم ، وهو ساكن الجأش ، رابط الجنان ، غير هياب ولا جبان ، وهو وسط طائفة من تلامذته كان يقرر لهم خلود النفس بعد الموت . فخرجت نفسه الى عالمها ، وهو راض عن قسمه ، مؤد ما طولب به .

أما أعداؤه السفسطائية فظنوا أنهم بقتل سقراط ، منعوا دولة العقل أن تتأيد ، وحجزوا تيار الفكر أن يتسرب ، ولم يعلموا أن موت سقراط زاد اتباعه حماسة وغيره ، وأكسب أشياعه حياة وانضماما ، وهذا شأن كل حرب تقوم بين الحق والباطل ، لا يسقط من أنصار الحق كوكب ، الا ويصعد فى أفقه الف كوكب ، ولا تعذب فى سبيل نصرته نفس واحدة ، الا وتحيا بجانبها نفوس لا تعد ولا تحصى . أما رأيت كيف أن تلك الاضطهادات القاسية ، والمظالم الشنيعة ، التى كان

(١) زجه يزجه . رماه

صناديد قريش يعاملون بها ضعاف المسلمين فى مكة ، فضلا عن انها لم تكن سببا فى نكث فتل جمعيتهم ، وباعثا لنقض بناء الفتهم ،كانت بالعكس داعية لانضمامهم وتلاصقهم ، وموجبة لكثرة عددهم ومددهم ؟ لقد بلغ بهم العتو الوحشى الى حدأنهم كانوا يربطون المسلم الضعيف على رمضاء مكة فى حين الهاجرة حيث الشمس لاتطاق ولا تحتمل ، وفى الوقت الذى يكون فيه الرمل وصغار الحصى كقطع الجمر ، ثم كانوا لايكتفون بذلك ، بل كانوا يحمون الحديد فى النار حتى يصل لدرجة الاحمرار ويكوون به أولئك الضعفاء ، حتى تظهر أعصاب أجسامهم ، ومع ذلك فكانوا لا يزدادون الا إيمانا ويقينا ، ولا يكسبون من وراء هذا العذاب الأليم الا حبا فى رسول الله وتمكينا ، ثم لما أعياهم الأمر جدا وعجز أولئك العتاة عن ارجاع هؤلا الاطهار عن دينهم ، تألبوا عليهم بقضهم وقضيضهم (١) وناهيك بقريش سيدة العرب حين تنادى فرسانها ، وتحشد أقيالها وأبطالها ، وفيهم من اذا ركب زلزل الأرض بحوافر جواده ، وأشاب الأطفال بابراقه وارعاده ، ومنهم من اذا هز الحسام فى يمينه تناثرت الفرسان عن شماله ، ومنهم غطاريف الخدع الحربية وشياطين الأساليب الهجومية والدفاعية ، ولم يكتفوا بأنفسهم بل دعوا معهم حلفاءهم من سكان البوادى ، وهم أبناء الطعن والضرب ، واخوان الكر والفر ، كل ذلك ارهابا لطائفة لا تكاد تزيد عن ثلاثمائة مسلم من قبائل مختلفة

(١) يقال جاؤا بقضهم وقضيضهم اى أصغارهم وكبارهم

وبيوت كانت غير مؤتلفة ، ناقصى العدد والأهب (المعدات) ، قليلى الزاد والنشب (المال) ولكنهم فى مقابل ذلك كبار الأفئدة ، صحاح العقول ، أحياء الشعور ، أعلياء النفوس ، قد استوعب الايمان أرواحهم وملأ اليقين صدورهم ، لايرون غير الله نافعا ولا ضارا ، ولا سواه معزا ولا مذلا فخاضوا غمرات (١) تلك الحرب بأفئدة تعمرها الملائكة ، وأرواح متعلقة بالملأ الأعلى ونفوس ترتع فى حظائر (٢) القدس ، وتسبح فى سبحات (٣) الانس ، فلم لا تشاركهم الملائكة فى سحق أعدائهم ، وتشاطرهم فى أداء وظيفتهم . نعم كان ذلك كما حكاه الله عنهم فى كلامه العزيز ، ولم يمض الا طائفة من النهار حتى تركوا صناديدهم يعجون (٤) فى نجيعهم (٥) ، ويتخبطون فى مهجاتهم (٦) « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » « ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وان الكافرين لا مولى لهم » « ذلك بأن الله هو الحق وأن مايدعون من دونه هو الباطل »

قلنا ان هذه الحوادث المدهشة سنة من سنن الله فى خلقه تظهر عند كل تصارع يحصل بين الحق والباطل ، وقد حصلت فى أوروبا قبل

---

(١) الغمرات . غمرة الشيء شدته ومزدحمه

(٢) الحظيرة هى القطعة من الارض يحيطونها بحاجز . (وحظيرة القدس) الجنة

(٣) (السبحات) الانوار جمع سبحة بالضم

(٤) عج يعج ويعج صاح بضم العين وكسرها

(٥) النجيع الدم الاسود . وقيل دم الجوف خاصة

(٦) مهجاتهم المهجة الدم . وقيل دم القلب خاصة

ثلاثمائة سنة حينما سئم الناس تحمل نير (١) رؤساء الأديان واحتمال تكاليفهم الشاقة ، وظهرت شمس العلم من خلال تلك الحجب المتلبدة، والغيوم المتكاثفة . هناك صاح أولئك القادة صيحات دوت لها أرجاء المعمورة ، واهتزت من هولها عروش الجبابرة والقياصرة ، وتنادوا بأن هلموا الى كبح جماح هذه النفوس الجامحة ، وكسر شوكة هذه العقول الطامحة ، « يعنون بذلك نفوس العلماء الذين ظهروا ونبغوا فى العلوم الطبيعية ، وأرادو وضع حد لأوهام أولئك القادة » ولما لم تجد صيحتهم نفعاً ، ولم تحدث أثرا ، أقاموا الحكومة واقعدوها، واستعانوا بقوتها على أولئك العلماء الضعفاء ، فلبتهم طوعا ، وكيف لا تلبيهم وبيدهم حلها ونقضها وطوع شفاههم قصمها وفصمها (٢) ؟ فجعلوا عقوبة المتكلم بما لايوحونه الى الناس من العلم ، ولا يقرون عليه من المدركات ، الحرق بالنار حيا ، والتعذيب بالقطران الغالى ، والقضبان المحماة على الجمر ، وفتكوا بهذه الوسائل بأكثر من ثلاثمائة ألف نسمة فلم يوقفوا تيار العلم ، ولم يدفعوا سيال الشكوك ، ولم يزالوا بهوتا صموتا أمام هذا الحادث الجلل ، حتى انتهى الأمر الى ماتراه اليوم وهو تأييد دولة العلم وتمكن سلطانه ، وخفوق علمه ، وكثرة أنصاره وأعوانه ، وهو مقدمة دولة الاسلام ، وطليعة عصر القرآن ، وسنثبت لك ذلك ان شاء الله .

---

(١) النير الخشبة التى توضع على عاتق الثور

(٢) قصمه يقصمه . وفصمه يفصمه كسره كلاهما من باب ضرب

لنعد الى ما كنا فيه من الكلام على مسألة الروح فنقول : انقضى عصر الخيال بما كان فيه من أوهام وأحلام وجاء دور الفلسفة اليونانية ، فتناول الناس هذه المباحث بالعقل ، وجعلوها من بعض أعمال الفكر ، فقرر كل متكلم مذهباً اتبعته فيه تلامذته ، وصار عدد ماهيات الروح على قدر عدد الفلاسفة المتكلمين فيها ، ولا يخفى أن مجرد الفكر فى أمر هذا الخلاف يحمل الانسان على الجزم بفساد مذاهبهم جميعاً فان الحقيقة الواضحة لايختلف فيها اثنان ، وان اختلفا فلعناد أو لجاج ؛ أما ذهاب الناس فى أمر تصور ماهية الروح هذه المذاهب الشاسعة فمما يدل واضح الدلالة على أنهم انما اغترفوا مداركهم من بحار الخيال وان كانوا كسوها بحلة منطقية ، وحلوها بحلية جدلية .

رأينا فى كتاب الانسان أن الفيلسوف « افلاطون » جعل مبادىء الكائنات صوراً أزلية أبدية شيأ الله عليها الأشياء ، وانها من عالم قائم بذاته مستقل عن المادة تمام الاستقلال وسماها « النموذجات » . قال وانه يوجد خارجا عن الله تعالى اصل متغير ناقص قابل للفناء ، موجود بذاته ، هو المادة العمياء الصماء التى لاشكل لها ولا صورة . فبأثر الله تعالى الذى أحدثه عليها ازدوجت النموذجات التى هى المعقولات المجردة بالمادة عديمة الشكل والصورة على درجات مناسبة فنشأ منها جوهر متوسط مشترك بين خصائص كل من هاتين الطبيعتين ، هذا الجوهر هو روح العالم ، فروح العالم هذه بتشخصها وانقسامها الى أرواح مختلفة تكون الآلهة التى يعبدها العامة وتولد الناس أيضاً وهم

الكائنات المتمتعة بعقل وإدراك . وقال ان محتد هذه الارواح قبل نزولها الى الاجساد الكواكب ، وهى مصيرها بعد خروجها من الجسد. وقال عنها انها حياة غير قابلة للفناء محصورة فى سجن فان هو جسد الانسان ، وهى متمتعة بثلاث قوى مختلفة : الادراك أى العقل ، والقلب أى الشجاعة ، والرغبة أى الشهوة ، فالجزء السامى من النفس التى هى حية بالأفكار والمطالب التى توافقها وتلائمها فمحله الرأس ، أما الشجاعة فموطنها القلب ، وماسفل من قوى النفس فموضعه الامعاء .

أما تلميذه ارسطو فقد خالف أستاذه فى أكثر ما ذهب اليه كأنه وجد لينا قضه فقال عن النفس كلاماً موجزه : أنه قسم النفس جملة أقسام فجعل فى الانسان نفس غاذية (١) ونفس شاعرة وهما مما يشترك فيه الانسان والحيوان ، ونفس عاقلة أو ناطقة وهى التى بها يمتاز الانسان عن الحيوان ويتصل بها الى عالم الملكوت . وقسمها أيضاً قسمين نفس منفعلة ونفس فاعلة فالمنفعلة تموت بموت الجسد ، وأما الفاعلة فتخلد أبد الآبدين ودهر الداهرين (٢)

وقال (ابيقور) الروح الانسانية جوهر لطيف له خصائص عالية ، وأنه وجد فى هذا الجسد امداً محدوداً واستخدمه حتى إذا ماصار البدن عديم الفائدة واختل نظامه خرج منه وتحلل هو أيضاً (أى الروح) وتلاشى فى الوجود

(١) النفس الغاذية يريد بها المسيطرة على التغذية والهضم والتوليد

(٢) الابدالدهر . جمعه آباد وأبود . يقال: (لاأفعله ابد الابدية . وأبد الابد وابدالآباد وأبد الدهر . وأبد الابيد وآبد الابدين) وفى معناه دهر الداهرين

وقال (ذينون) أما الروح فهى شعاع من الشمس الحيوية التى هى الأصل العام لجميع الكائنات وهى تنتقل كالحرارة من فرد الى فرد، وتنتهى بأن ترجع ثانياً الى محتدها العام التى جاءت منه، وبناء عليه فليس حظنا بعد الحياة العدم والزوال، ولكن الاجتماع والانضمام، على أنه ليس لدينا إلا معلومات صغيرة على هذه الأمور المجهولة لأن العقل لايستطيع أن يدرك نفسه بنفسه، ومن الأمور المضادة للفلسفة الحقة أن يدأب الانسان للبحث عن أصول الأسباب. فالواجب القنوع بدرس الحوادث فى ذاتها. ومما يجب علينا وضعه نصب أعيننا هو أن الانسان لايستطيع أن يصل الى الحقيقة المطلقة مهما حاولها وتطلع اليها. وأن الثمرة النهائية لمجهودات الانسان وراء اكتناه أسرار المادة هى تأكده بأنه لايصلح للألمام بكل شىء. واننا على فرض وصولنا الى حقيقة من الحقائق، لانزال نشعر بالحاجة الى دليل على أنها حقيقة.

هذه أشهر أقوال فلاسفة اليونانيين التى سادت فى العالم بعد انقراض أصحابها قرونا عديدة ولم يزل لها أشياع فى كافة أرجاء العالم ممن يحبون كل قديم، ويتشاءمون من كل جديد، وكلها كما قدمنا مغترفة من بحار الخيال، وان كانت مكسوة بحلة منطقية، ومحلاة بحلية جدلية.

سل الفيلسوف افلاطون قائلا، من أين جاءك العلم بأن هنا لك صورا عقلية أزلية خلق الله على قوالبها الأشياء وأنها من عالم مستقل قائم بذاته؟ وسله: من أين أتاك بأن ازدواج تلك الصور العقلية

المجردة بالمادة انتج جوهرا متوسطا مشتركا بين خصائص المادة وخصائص العالم السماوى هو روح الوجود ، وهذه الروح الوجودية بتشخصها وانقسامها تكونت أرواح الآلهة وأرواح الناس ؟ على أى صفة كان ذلك الازدواج ، وبأى كيفية نشأت تلك الروح العامة ، ثم كيف تشخصت وانقسمت ، بأى هيئة وعلى أى كيفية ؟ ومن أين جاءك أن محتد هذه الأرواح الانسانية قبل تلبسها بالأجساد هو آفاق الكواكب حتى إذا أدت وظيفتها وخرجت من البدن عادت الى عالمها هنالك ؟ أظن لو صح هذا الكلام عن افلاطون وسئل هذه الأسئلة لما وجد جواباً مقنعاً يرد به على السائل ، ولا نستكبر عليه أن يقر لمستفتيه بالعجز التام أمام هذا السر المدهش ، والطلسم العجيب .

ثم ان تركته وواجهت ارسطو قائلا أيها الفيلسوف الكبير الذى جعل التجارب والحوادث والمشاهدات أركان مذهبه ، ودعائم فلسفته ، من أين حصل لك العلم بانقسام النفس الى ثلاث : غاذية وشاعرة وناطقة ، وبانقسام الناطقة الى منفعلة وفاعلة ، وانتهاء الأمر بموت المنفعلة وبقاء الفاعلة ؟ ان قلت ان هذا التقسيم جئت به من مشاهدة حال الانسان ومراقبة حركاته وأطواره ، قلناهب أنك استندت على المشاهدة فيما يختص بالنفس الغاذية والنفس الشاعرة والنفس العاقلة (وان كان هذا التقسيم فى نفسه عجيب وغير معقول) فعلى أى مشاهدة استندت فى قولك ان النفس العاقلة تنقسم قسمين : منفعلة وفاعلة ، الاولى تموت بموت الجسد ، والثانية تبقى أبد الأبد ؟

الانسان لايحسر بالتقسيم والتجزئ الا على شيء معروف الكنه والتركيب ، فهل عرفنا كنه الروح وتركيبها حتى نقول بانقسامها وموت بعض أجزائها .

وكذلك نقول لايقور الذى علم بأن الانسان جوهر لطيف له خصائص عالية ، وأنه متى خرج عن البدن تحلل وتلاشى فى الوجود ، نقول له بم حكمت عليه بالجوهرية واللطافة ، وبأى وسيلة أدركت أنه سيؤول الى التحلل والتلاشى ؟ هل رأيت ذلك؟

أما ذينون فمذهبه مادى محض ؛ زعم أن الروح شعاع من شمس الحياة العامة التى هى أصل جميع الكائنات فاذا مات الانسان عادت حياته الى تلك الحياة العامة أى فقدت شخصيتها وتلاشت أنانيتها ويكون مثل الانسان بعد الموت كمثل سائر المواد المتحللة . هذه النظرية توهم أنه رأى ذلك بعينه ، ولذلك فهو يحكم ويجزم ، ولم يدر كيف لم يلاحظ أنه ناقض نفسه بنفسه ، فانه لم يكد يقرر هذا الحكم ويدعمه حتى قال بعده (على أنه ليس لدينا إلا معلومات صغيرة على هذه الأمور المجهولة ، لأن العقل لا يستطيع أن يدرك نفسه بنفسه الخ) فلو كان الفيلسوف تدبر جيداً فى هذه الجملة الجليلة ولو بعد أن كتب الجملة الأولى لاستحسن ابدالها بما هو أليق بهذا التواضع الفلسفى ، وأجدر بهذه السماحة العلمية .

هذه التعاليم الفلسفية اليونانية كانت موضوع اشتغال الناس وعنايتهم قروناً متطاولة ، اقتصروا بها عما سواها ، وقنعوا بها عن عناء

البحث ، وكد التنقيب ، وصار أمثلهم أحفظهم لها وأضبطهم لشروحها، أو أجمعهم لكتبها ، ودام الأمر كذلك حتى جاء الفلاسفة المسلمون فنقلوا فلسفة اليونان كما هو معلوم وزادوها تهذيبا ، وحسنوها شرحاً وترتيباً ، وغرموا (١) بالكلام على الالهيات والنفس غراما شديداً ، وخرجوا بذلك عن الدائرة الحكيمة التى حددها الله للعقل البشرى فى كتابه العزيز ، كما سنبينه تفصيلا عند الكلام على العلم عند المسلمين إن شاء الله تعالى ، ولم يزالوا كذلك حتى قامت أوروبا تحذو حذوهم ، وتحيا بحياتهم العلمية ، الى أن جاء دور العلم العملى الذى هو مقدمة الاسلام ، وطليعة القرآن ، فصاح بالناس : أن سقطت دولة الخرافات، وثلت عروش الخزعبلات ، وخلص الانسان من أسر الأوهام ؛ ونجا من أحابيل الأحلام ، وآن للعقول أن تتطهر من أرجاس ما ورثته عن آبائها من الأباطيل وللأفكار أن تنشط من قيود ما تحملته تقليداً من الأضاليل، وحان للنفس أن تستنشق نسيم الحرية ، وتخلع نير العبودية . فأنكر الناس هذه الصيحة أولا ثم لما ذاقوا حلاوتها ، ورأوا ثمرتها ، خفوا الى دعاتها سراعاً ، وهرعوا الى قادتها خفافاً ، ولولا أن أعقب ذلك الحال شيء من الغلو والجور ، لكانت أوروبا اليوم تتلألأ فى أنوار الدين الفطرى الحق ، وتحمل لواء الاسلام الى الشرق ولكن هذه سنة الخالق فى خلقه فلا يؤوب الضال الى الهدى حتى يجوز المدى ، ثم لا يزال يضطرب حتى يقوم على المنهاج الوسط ، ويزول عنه الشطط

(١) غرموا (غرم بالشيء يغرم به أى كلف به وشغف)

جاء العلم الاوروبى يضع للأوهام حداً لا تتعداه ، ويرسم للعقول مجالا لا تجوزه الى سواه ، ويقرر للمدارك دستوراً تسير على مقتضاه ، وحكم بأن كل فكر لا يسنده دليل حسى وشاهد وجودى . وجب القاؤه الى عالم الفروض والظنون ؛ حتى يقر عليه الوجود أو ينفيه ، وقضى بأن العلم غير محدود بحد ولا مقصور على شخص ، وان الانسان مسوق اليه سوقا قهرياً ، محفوز اليه حفزا فطرياً ، فمشكلة اليوم قد تكون بديهة الغد ، ومما يحكم عليه اليوم جزافا بالاستحالة ، قد يكون بعد غد من الممكنات السهلة . وقد جرى أماثلهم وأعاظمهم على هذا الأسلوب حتى وصلوا اليوم الى مدى بعيد من المعارف الطبيعية بواسطة علوم الطبيعة ، والى غاية عالية من المعلومات الروحية بواسطة علوم ماوراء المادة ، كما ننقله عنهم تباعاً . أما غلاتهم وكفارهم فقد تصدع ركنهم ، وتداعى للسقوط حصنهم ، وسيؤوبون للحقيقة وان عاندوها ، والله غالب على أمره .

إذا علمت أن هذا الأدب العلمى لم ينشأ إلا فى القرن التاسع عشر ، وأن هذا الدستور لم يتقرر الا فى هذا العصر الحاضر ، وأن هذه المناهج العالية لم ترسم الا بعد أن هتكت الخرافات عقل النوع الانسانى ، وامتصت دم حياته ، أفلا يكون من المدهش المحير للفكر الجاحد أن ينزل القرآن فى القرن السابع من الميلاد أى فى العصر الذى لم يعرف فيه للعلم دستور ، ولا للفكر حد ، قائلا : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا » أنظر كيف أوقف

العقل عند حده ، وأتى عن الروح بحد لا يمكن نقضه مهما بلغ العلم من حقائق الوجود ومساتير الكون ؟ وضمن الآية مبلغ الرقى الذى بسطناه لك تفصيلا ، ولمح فيها بتبكيت أولئك الذين ملؤا الأسفار كلاماً عنها كانهم بلغوا من العلم غايته ، ومن الفهم أقصاه ونهايته . ان لم يكن هذا من دلائل النبوة فأى دليل أصدق . وأى برهان فى النفس أوقع ؟

﴿ جهة إعجاز القرآن ﴾

كتب لنا حضرة العالم المحترم (موسى أفندى جاد الله) من بلده (روستوف دودون) من بلاد الروسيا يسألنا عن رأينا فى جهة إعجاز القرآن . قال حضرته : ان فى جهة إعجاز القرآن أقوالا ، ولكنا إذا لاحظنا أن الاعجاز موجود فى كل سورة وآية وأن وجه الاعجاز يجب أن يكون زمن التحدى وظاهراً عند جميع المرسل اليهم ، يشكل علينا تسليم قول من هذه الأقوال . فما رأيكم ؟

(الجواب) القرآن روح من أمر الله استعد لقبولها الفؤاد المحمدى ، فأشرقت فيه شيئاً فشيئاً بواسطة الروح الأمين ؛ حتى تم اشراقها فجاءت هذا القرآن المجيد « الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا »

هذا التحديد وحده كاف فى ارشادنا الى جهة اعجاز القرآن ، وهدايتنا الى وجه قصور الانس والجن عن الاتيان بمثله وبقائه لليوم معجزة خالدة تتلألأ فى نورها الالهى ، وتتألق فى جمالها القدسى ، ذلك لأن القرآن لما كان روحاً من أمر الله فلا جرم كانت له (روحانية)

خاصة هى عندنا جهة اعجازه والسبب الوحيد فى انقطاع الانس والجن عن محاكاة أقصر سورة من سوره، وارتعاد فرائص الصناديد والجبابرة عند سماعه، وناهيك بروحانية الكلام الالهى.

نعم ان جهة اعجاز هذا الكتاب الألهى الاقدس هى تلك (الروحانية العالية) التى قلبت شكل العالم وأكسبت تلك الطائفة القليلة العدد خلافة الله فى أرضه، وأرغمت لهم معاطس الجبابرة والأكاسرة، ووطأت لهم عروش التبابعة والقياصرة، حتى صاروا ملوك الملوك واخوان الملائكة، فى مدة لا يصعب عد سنيها على الأصابع «يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده»

لا مشاحة فى أن القرآن فصيح قد أخرص بفصاحته فرسان البلاغة وقادة الخطابة، وسادات القوافى، وملوك البيان. وهو حكيم، بهر سماسرة الحكمة والفلسفة، وأدهش أساطين القانون والشريعة، وحير أراكين النظام والدستور. وهو حق، ألزم كل غال الحجة، ودل كل باحث على المحجة. ولم يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها. وهو هدى ورحمة ونور، وشفاء لما فى الصدور. كل هذه صفات جليلة تؤثر على العقل والاحساس والعواطف والأميال فتتحكم فيها تحكم المالك فى ملكه، ولكنه فوق ذلك كله «روح من أمر الله» تصل من روح الانسان الى حيث لا تصل اليه أشعة البلاغة والبيان، ولا سيالات الحكمة والعرفان، وتسرى من صميم معناه الى حيث لا يحوم حوله فكر ولا خاطر، ولا يتخيله خيال شاعر. هذه الروحانية تنفذ الى سر

سريرة الانسان وسويداء ضميره وتستولى منها على أصل حياته، ومهب عواطفه واحساساته، وتخلقه خلقاً جديداً، وتصوره صورة لا يتخيلها ولو قيلت له لما أدركها. ألا ترى كيف فعلت بأولئك العرب الذين لبثوا ألوفاً من السنين على حالة واحدة لا يتحولون عنها، ولا يسأمون منها، ففتحتهم بروح عالية قامو بواسطتها يحملون الملوك سلطتهم، ويطوقون القياصرة بطوق نفوذهم وسطوتهم، ولم يتموا جولتهم هذه حتى دانت لهم المعمورة من أقصاها الى أقصاها.

أى برهان على تبدل أرواحهم أكبر من هذا؟ قوم كانوا بالأمس ممزقين مشتتين لا تجمعهم رابطة سياسية ولا قومية بل ولا دينية، فى أخشن مواقع الأرض وأجدبها، وأبعدها عن النظام والحكمة والآمال العظيمة والفتوحات، يقومون بعد سنين قليلة من بعثة نبيهم ينشرون الفضل والفضيلة والكمال فى أرجاء هذا العالم المضطرب ووسط هذه الفتن المزعجة.

أى حجة أكبر من هذه على ان القرآن روح الهى، وأمر سماوى وأى وجه من وجوه اعجازه بعد مشاهدة هذا الأثر الفخم أوقع فى النفس، وأنفى للشك وأولى بالقبول من وجه (روحانيته)؟

ان للقرآن فوق الفصاحة والعذوبة والحكمة والدستور (روحانية) يدركها من لاحظ له فى فهم الكلام وتقدير الحكمة وادراك الدستور ألا ترى أن الطفل والعامى كيف يعتريهما تهيب عند تلاوته ولو بغير صوت حسن، حتى انهما ليكادان يفرقان بين ماهو قرآن وماليس

بقرآن فيما لو أراد التالى أن يغشهما .

هذه الروحانية تظهر ظهوراً جليا عند ماتكون آية من آياته جاءت على سبيل الاستشهاد أو الاقتباس فى صحيفة كبيرة ، فانك ترى تلك الآية تتجلى لك من بين السطور وخلال التراكيب كأنها الشمس فى رابعة النهار مهما كانت درجة تلك الصحيفة من البيان ، ومنزلتها من جمال الأسلوب وجزالة الألفاظ

هذه الروحانيـة تظهر للعارف باللغة والجاهل بها . أما ظهورها للعارف فبين لا يحتاج لبيان ، وأما ظهورها للجاهل بهـا من الأمم الأعجمية فبأثرها ونتيجتها .

أى انسان يرى أن العربى الذى كان بالأمس جزاراً أو تاجرا أو راعياً وهو من الجاهلية وعدم احترام الدستور على ما كان يعلم الناس منـه . جاء اليوم يقود جيشاً يرغم به معاطس أكبر قواد العالم من غطاريف الحرب ثم يدخل الى أحشاء تلك الأمة المغلوبة فيؤمنها على دينها وشريعتها وأموالها وأعراضها ويكون عليها أشفق من رؤسائها وأحنى عليها من نفس حكومتها ، فينشر بينهم العدل والاحسان ويغمرهم بالافضال والانعام ، قلنا من ينظر الى هذا الأمر المدهش ولا يقر بأن هـذا العربى قد اكتسب (روحاً جديدة) لم تكن فيـه من قبل ، وليست من جنس الأرواح الموجودة فى أعليـاء النفوس وأصحاب الفضيلة من الأفراد ؟ كيف لا يستدل هذا الانسان بالحس على تلك (الروحانية) وقد أصبح يرجو من كان يخافه ، ويتعلم ممن كان لا يرى

أجهل منه ، ويتخلق بأخلاق من كان لا يعده الا وحشاً كاسراً ؟

أفلا يدل هذا التبدل العجيب أعظم دلالة على سمو دين ذلك الفاتح (وروحانية) كتابه الذى أنزل اليه ؟ نعم يستدل على ذلك استدلالا يوجب الايمان ، ويستدعى غاية الاطمئنان ، ويدل على ذلك انه لم تكد تنتشر تلك الطائفة الطاهرة فى العالم ، ولم تجل فيه هذه الجولة السريعة ، حتى دخل الى الدين الاسلامى فى عشرات من السنين عشرات من الملايين طوعا بلا دعوة ، وعفواً بلا ارهاق بحجة ، غير مارأوه بأعينهم من هذه الروح الغريبة والحياة الطيبة

هذا رأينا فى جهة اعجاز القرآن وهو فيما نعلم يحل كل صعوبات هذا البحث ويمكن الاستدلال عليه بالحس والواقع ، والله يهدينا الى سواء السبيل

أرسلنا هذا الجواب أو ما يقرب منه الى حضرة الأستاذ المومأ اليه على حسب طلبه ليجعله رأيا لنا فى كتاب يؤلفه فى بعض علوم القرآن ونريد أن نزيد عليه هنا أن هذا الوجه الذى أتينا به فى جهة اعجاز القرآن هو المطابق لحكم الله فيه وهو أليق الوجوه بالكلام الالهى الأقدس ، أما ما ولع به الناس من أن القرآن معجز لبلاغته وتجاوزه حدود الامكان حتى وقف ذلك الاعجاز منهم ببلاغته دون وجوه اعجازه الأخرى فلم نقف له على أثر من ذات كتاب الله ؛ ولا نعلم من أين جاء لبعض الناس أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يتحدى الناس ببلاغة القرآن مع أنه قد ورد ذكر القرآن

فى القرآن فى آيات عـــدة فلم نر فى واحدة منهـا مايو افق مايذهب اليه الآن الكثيرون . وصف الله تعالى كتابه فى كتابه فقال : « ولقد أنزلنا اليك آيات بينات » « هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين» « وأنزلنا اليك الكتاب بالحق» « ولقد جاءكم بصائر من ربكم » « ولقد جئنا كم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون» « ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » « وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة » « ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل » « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل » « ولقد أنزلنا اليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين » « وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم » « أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك » « ويرى الذين أتوا العلم الذى انزل اليك من ربك هو الحق ويهدى الى صراط العزيز الحميد » « وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا » وصف الله كتابه فى هـذه الآيات الكريمة بأوصاف عدة وليس من بينها واحديشير الى بلاغته اللفظية ، ذلك لأن البلاغة صفة ثانوية للكلام الالهى لا مشاحة فيهاولا ريب ، ولا يصح أن يرحل الى الاستدلال بها على كونه كتابا سماويا مع ترك مافى القرآن من المعجزات الأخرى المحسوسة التى لا يمكن فيها المكابرة والجدل ، وترى لاقتصار المسلمين فى الاستدلال على كون كتابهم سماوياً بمحض بلاغته اللفظية وقع كثير منهم فى الغلو فى التنقيب عن تناسب عباراته وتناسق كلماته ، والاغراق فى تفتيش تراكيبه ، وبحث مبانيه من جهة

الصناعة والصياغة ، حتى خرجت البلاغة عن معناها الحقيق وعما كان يفهمه أصحاب البلاغة من العرب فى مدة البعثة النبوية وقبلها ، وتمادى الحال حتى ظن الناس ان البلاغة هى محض تناسب الكلمات وتوافق السجعات ، وتناسق التراكيب ، وذهلوا عن روح البلاغة الحقيقية ، وجوهرها الذاتى .

لو كانت البلاغة هى كما يفهمه الناس اليوم فى تناسب التركيب ، وتناسق الألفاظ وترادف العبارات بصرف النظر عن معناها الحقيق لاستحال أمر البلاغة الى صناعة من الصناعات لاروح من الأروح ، ولأمكن أغبى الأغبياء أن ينتقد على أبلغ البلغاء ويدعى أنه غير بليغ لخروج بعض عباراته عن الأقيسة والقواعد التى حفظها فى مخيلته وظن أن كل خارج عنها ساقط عن مرتبة البلاغة ، وما الذى يمنعه من ذلك ؟ أليست البلاغة فى نظره صناعة من الصناعات ، وبما أن لكل صناعة حدود وقوانين محفوظة فكل كلام شذ عنها فهو خارج عن حدود البلاغة . فانظر الى أى مدى وقف الجمود ببعض القرائح ؟ انظر كيف غفلت عن أن تلك الحدود مقتبسة من تلك البلاغة وناشئة منها ، وقابلة للزيادة على قدر مايفتح للناس من أساليبها فقامت تحكم على الأصل بفرعه ، وتقضى على النص بشرحه .

نرجوا أن نوفق فى الجزء المقبل لكتابة مقالة فى كنه البلاغة وما هيتها كما يفهمه البلغاء أنفسهم وكما يؤخذ من صفتها الجوهرية لندرك كيف أن القرآن فى منتهى درجات البلاغة وفى أعلا قمة الفصاحة ،

ونرجوا أن يكون كلامنا على البلاغة كميزان توزن به جميع أنواع البلاغات ، أو دستوراً يمكن الحكم به عليها بدون شطط .

هذا وانا نرجو ، وقد فككنا القيود عن أنفسنا بتوحيد نمر كتاب الاسلام ، ان نوالى البحث فى أنواع معجزات القرآن من كل وجهة ، فقد صارت فى هذا العصر أكثر من أن تعد ، ونرجو أن يكون كلامنا كله على الأسلوب المعروف عنا فى الاستدلال بالحس والواقع ، والحكم على الشىء بنتائجه وآثاره .

باب المسائل الاجتماعية

« مجلس نواب للأمة المصرية »

كتب الينا أخ مهذب من موظفى الحكومة ، ورغب الينا كتمان اسمه ، يقول : « لابد من أنكم اطلعتم على ماتناولته بعض الصحف سلبا وايجابا من موضوع انشاء مجلس نواب مصرى فنرجوكم أن تشرحوا لناهذا الموضوع شرحا جليا ، وتبينوا لناهذا النقص الحاضر فى نظامنا القانونى ، وهل طبيعة المصرى وصفته الحاضرة تسمحان له بأن يكون له مجلس نواب بمعناه الصحيح ؛ واذا فرضنا تشكل المجلس فماذا تكون آثاره وماهى مضاره ومحاسنه ، وهل يرى بين الأمة المصرية أفراد يقومون بهذا العبء الحيوى وتكاليفه الضرورية ؛

« انا عند ما درسنا القانون النظامى الفرنساوى أخذتنا الدهشة وبلغ منا العجب أقصى مبلغه ، عندما شاهدنا ذلك الاختلاف فى النظامات

بيننا وبين الأمم المتمدنة ، ولا عجب بعد هذا الخلاف الجوهرى أن تقدموا وتأخرنا ، ونهضوا وقعدنا .

« لدى مسائل عمرانية أخرى ، أهمها مايختص بالتربية والتعليم على الوجه الحديث المناسب للمصرى وهو بين هذا المعترك الحيوى الهائل ، سأخاطبكم عنها حينما تفرغون من هذا الموضوع ان سمحتم بذلك .

(الجواب) لقد ألقى علينا حضرة الأخ المحترم سؤالا عويصاً لمن يريد الوصول الى لبابه ، بعيد الغور لمن لا تقنعه قشور المسائل ، كثير التشعب لمن لا يحب الاندفاع بغير علم ، ولكنا لانجد مناصاً من اجابة دعوة داعينا المهذب لاسيما وجوابنا هذا ، كما يقول حضرته ، ينتظره كل من يعرفنا بمصر ، فنقول والله المستعان :

موضوعنا يختصر فى كلمات بسيطة ، وهى : هل المصرى مستأهل لمجلس نواب ، وما هى آثاره عليه صلاحاً أو فساداً ، وهل فى الأمة رجال ينهضون بتكاليفه ، ويضطلعون باعبائه ؟ يمكن الاجابة على هذه الكليات البسيطة بكلمات مثلها بسيطة ، فنقول مثلا انه مستأهل أو غير مستأهل ، ونسرد بعض البراهين السطحية على ما نقول ننتزعها : إما من الخيال المحض ، وإما من النظر إلى بعض الأمم التى تستفيد من مجالسها ، ثم نختم القول بحث الحكومة والأمة على الاسراع . . . . بتأسيس ذلك المجلس المحيى للآمال ، المعيدة للمجد والعظمة .

ولكنا لا نستطيع ارتكاب خطأ هذا الاندفاع ، ولا تحمل

عهدة هذه الجسارة ، ولكننا قبل أن نحدث نفسنا ببسط الكلام على هذه المسألة العويصة . نسعى أولا فى تشريح السؤال فى أبعد أجزائه ، وتحليله الى أبسط عناصره ، كأن نقول مثلا : ماهو المصرى فى أصله ، وفى ماضيه البعيد ، وفى استقلاله ، وفى عبوديته ، وفى ملكاته الأصلية ، وأخلاقه التى أورثتها له العبودية للأمم المتغلبة ، ما تأصل فيه من تلك الخلال ، ولا يمكن زواله ، وما تشبث به منها سطحياً ، ويمكن زواله بالتربية ؟ ماهو المصرى فى دينه ، مركزه من جامعته ، علاقته بالجمعية الاسلامية العامة . هل هو مصاب بما أصيب به المسلمون ، قاطبة فى هذه العصور ، أم له أمراض خاصة به . ما هى تلك الأمراض ، وما مقدار خطارتها ، وما هى علاجاتها وهل هناك موانع تمنع تعاطى العلاج ؟ هل تلك الموانع ذاتية أو خارجية ، هل هى مما تزول أولا ، هل هو عامل على إزالتها ، هل هى زائلة من طبيعتها .

ما هو مركز المصرى أمام التيار المدنى السحرى الأوروباوى ما كنه اصابته بميكروبات المفاسد الغربية . ما مقدار قوة مقاومته لتلك المكاريب المجتاحة ، ما هى القوة المدخرة فى طبيعته لمغالبة تلك المحن المنصبة عليه ؟

نحن اذا حللنا هذه المسائل كلها على الأسلوب العلمى التحليلى عرفنا ما هو المصرى ومركزه الحقيقى من المرض والصحة من الحياة والضعف من الشعور والخدر الخ ، واذا وصلنا الى هذه النقطة غيرنا

وجهة الموضوع وتركنا المصرى جانباً ، وأخذنا نبحث عن ماهية مجلس النواب فى ذاته ، وعند الأمم أجمع ، وطفقنا ندرسه من جميع جهاته ، لنعلم هل يوافق دين المصرى أو يخالفه . هل يلائم طبعه أو يجافيه ، هل وصل استعداد المصرى إليه أم لا ، وهل يحفظه ويقوم به اذا وصل اليه ، أم لا يلبث أن يضيعه ، ويرتكس الى أسوا حالة .

نحن ان لم نحل كل هذه المسائل حلا علمياً عمرانياً فكيف نصل الى حقيقة المسألة وكيف يقام لحكمنا عليها وزن ، وكيف يكون لقولنا أثر فى موضوعها ، وتأثير على أذهان قرائنا ،

نعم إن هذا الموضوع يلزم له مجلد خاص وكنا نتندب أنفسنا لوضعه لو كان فى البلاد قوة لتحمل مثل هذه المواضيع وصبر على تتبع المسائل الاجتماعية الكبرى ، ولكنا من جهة أخرى لانحب أن نضن على ذلك العدد القليل من النشأة الحية بما تنتظره منا ولو بالايجاز المناسب ، فاذا رأى منا بعض قرائنا اغماضاً فى أمر أو تشهى أن يستبين خفية من الموضوع فعليه أن يطلب الينا ذلك ونحن نمده إن شاء الله بما يناسب المقام والله وحده ولى الأمر كله .

أصل المصرى

المصرى اسيوى الجنس يقرب من الجنس السامى بلغته وصفاته الطبيعية أغار على القطر المصرى من طريق العريش ، وأجلى عنه سكانه الأصليين وكانوا من الزنج وحل بالبلاد مكانهم فى عهد قديم

جداً يبلغ نحو الستة آلاف سنة قبل الميلاد المسيحى ولا يعلم عنه شيء كبير وهو فى مبدا أمره ، الا أنه كان تحت قيادة رؤساء ديانته الوثنية ، وبناء على هذا فالمصرى اسيوى الأصل من الجنس الأصفر الذى هو دون الجنس الأبيض فى الصفات الطبيعية الجسمية والعقلية على قول جمهور علماء الانسان .

تاريخ المصرى القديم

لا يكاد يعلم للمصرى تاريخ إلا بعد أن تكونت له دولة مستقلة رأسها (مينا) الذى تولى الملك قبل المسيح بنحو (٥٧٠٠) سنة ثم أعقبته أولاده حتى انقرضت عائلته وخلفتها عائلة أخرى ، وهكذا إلى ان انتهت الى العائلة السابعة والعشرين سنة (٥٢٥) قبل الميلاد ، ثم انقطع استقلال البلاد بوقوعها تحت سلطة الأعجام مدة ، ثم انتهز المصريون فرصة سنحت لهم وألهبوا نيران الثورة واستقلوا ببلادهم سنة (٤٠٨) قبل الميلاد ، وكونوا العائلة الثامنة والعشرين ، لأن الأعجام عدوا عائلة حاكمة على البلاد ، ثم جاءت العائلة التاسعة والعشرون ، ثم أعقبتها العائلة الثلاثون سنة (٣٧٨) قبل الميلاد ، وفى أثناء حكم هذه العائلة هاجم الفرس البلاد وامتلكوها وصار (دارا) ملك الفرس أول العائلة الحادية والثلاثين وهو صاحب الحروب الشهيرة مع الاسكندر ، ولما دارت الدائرة

عليه ، وقعت بلاده كلها ومنها مصر تحت حكم اليونانيين المقدونيين وابتدأت فيها عائلة البطالسة من سنة (٣٢٣) الى سنة (٣٠) ق.م. ثم امتلكها الرومان لغاية سنة (٦٣٩) بعد الميلاد ثم افتتحها منهم العرب الى القرن الخامس عشر الميلادى ثم امتلكها الأتراك فى مدة السلطان سليم ثم أخذها الفرنسيون منهم فى نهاية القرن السابع عشر ، ثم استردها الاتراك ثانية حتى احتلها الانجليز

المصرى فى استقلاله

بلغ المصرى وهو مستقل أقصى درجة معروفة إذ ذاك من المدنية الفكرية والصناعية ، بل هو أقدم رجل متمدن عرف فى العالم الانسانى من أول الخليقة ، ومن يزور دار الآثار المصرية القديمة يقف على مبلغ ماوصل اليه من اتقان الصناعة ، ورفعة الشأن ، ولكنه فى كل مدة استقلاله لم يغير شكل حكومته ، ولم تحدثه نفسه بذلك يوماً من الأيام ، فقد كان خاضعاً للحكم الاستبدادى المطلق فى أقسى أشكاله ، إذ كان الملوك فى نظره آلهة يعبدون فى حياتهم وبعد مماتهم لأنه كان يعتقد أنهم أولاد الخالق « تعالى عما يقولون علواً كبيراً » ولهذا حفظ التاريخ عنهم خضوعاً متناهياً لملوكهم ، ومراعاة خارقة للعادة لأوامرهم وأحكامهم ، فما كانوا يعتبرون أنفسهم بازاء ملوكهم الا عبيداً أذلاء لاارادة لهم ولاحرية ، وانك لتصادف فوق الأحجار مايدلك تمام الدلالة على هذا الاستدلال التاريخى ، فقد نقشوا على الصخور

أصغر الأعمال الملوكية وأحقرها ، وجسموها لدرجة أنهم حسبوها من أقصى غايات المجد وأعظم معالم السؤدد

كانت ادارة البلاد بين أيدى رتب متعافية من الموظفين كما هو الشأن اليوم فى البلاد المتمدنة ،وكان الناس ينقسمون فى نظر شريعتهم إلى خمسة أقسام : (١) رؤساء الدين (٢) ورجال الحرب (٣) والزارعون (٤) والصناع (٥) والرعاة وكان أشد هذه الفرق صولة وأوسعها اختصاصاً القسوس ، فكان لكل منهم إله ولكل معبد عدد عديد يقومون بخدمته وتعتبرهم العامة اعتباراً ليس له حد ، وكان للكهان زيادة عن هذه الوظائف الدينية وظائف ادارية أخرى ،فكانوا يشغلون مراكز القضاء والادارة وكان لهم أحسن أراضى القطر المصرى لا يدفعون عليها شيئاً . وكان يلى هذه الفرقة فى النفوذ والسطوة طائفة الحربيين ، وكانت دون الأولين امتلاكا للأراضى وخيرات البلاد . والخلاصة أن أراضى القطر المصرى كله كانت موزعة على الملك والكهان والجنود ، أما الرعاة والزارعون فكانوا لا يملكون شيئاً وهم تبع لأراضيهم التى يحرثونها أى أن مقامهم كان لا يجاوز مقام مواشيهم فى نظر القانون الا بشىء ضئيل ، ويدلنا على ذلك ما كان يأتيه فراعنة المصريين من الأعمال الجسيمة كاقامة الأهرام والمعابد ونقل الأحجار اليها من الجبال ، وما كان ينتج من توالى تلك الأعمال الهوائية من الذهاب بنفوس الألوف المؤلفة من الرجال .

كل هذا ولم يرو لنا التاريخ أن المصرى أنف من تحمل هذا

النير الثقيل ، أو تململ تحت هذا الكلكل القاسى ، فحدث نفسه بوضع حد للحكم الاستبدادى المطلق ، أو بايقاف سلطة الكهان والجنود عند نقطة معينة ، أو عصفت فى وجدانه عواصف الحمية فقام يثبت لنفسه شخصية أمام ساداته الأقوياء ، وكيف يتأتى له ذلك وهو يعتقد أن مليكه الهه وابن الهه ، وان تلك قد ثارت فى البلاد ثائر من فتنة داخلية ، فذلك قد كان من تحزب عائلة ملوكية على عائلة ملوكية أخرى تنازعها صولجان الملك ، وتتقاضاها قسطها من الزعامة .

المصرى فى عبوديته للامم الغالبة

موقع القطر المصرى الجغرافى ، وشهرته العلمية والصناعية أوجبا عليه منذ القدم من المحن والاحن ، وجر عليه من شهوات الملوك والقادة ، مالا يعطيك فكرة صحيحة عليه إلا ماتراه من أنه غنيمة الغالب وفريسة السابق دائماً .

خرج المصرى من اسر ملوكه السابقين وعبوديتهم إلى عبودية الفرس ، فتجرع كأس الذل مريرا ؛ وحمل نير الاسترقاق ثقيلا ، ولقى من مظالم ساداته الأجانب مالا كان يتخيله الا فى مايطالعه من عقوبات الكافرين فى مستقر الشياطين ؛ ومستودع الهته السفليين ؛ فماذا يعمل وهو مغلوب على أمره ؛ ومأخوذ على يده ؟ جاشت نفسه من توالى تلك المظالم عليه ، واضطربت عواطفه اضطراباً قاده الى طلب الاستقلال

بسيفه ، ولم يزل يجاهد عدوه بتلك الروح العالية حتى أجلاه عن بلاده وذاق طعم الاستقلال كما كان أول مرة ، ولكنها كانت حركة كحركة المذبوح لم تلبث أن همدت ، وتبين للملا ضعفه فساوره (دارا) فأخضعه لسلطانه ، ثم انتقل من ملك الأعجام الى ملك المقدونيين كما ينتقل السلب الى السالب ، فتوالى عليه ملوك مقدونيون يدعون البطالسة (لأن اسم كل منهم بطليموس) فسار الأول سيرة العدل ، وأحل البلاد محلة الأمن ، وتبعه ابنه فى سبيله ، وحذا حذوه حفيده ، ثم انقلب الحال وتبدل الشأن ، ورجع العسف الى مجراه وآب الجور الى نصابه ، وتلاقت البلاد فتن كقطع الليل المظلم ولم تزل كذلك الى سنة ٣٠ ق . م . ثم جاء الرومان فكانت مصر فى مدتهم مرسى للاضطرابات والفتن تارة تعصباً للدين ، وأخرى تحزبا للملك ، وكان أكثر الولاة الذين يرسلهم امبراطرة الرومان حكاما على مصر غلاظ الأكباد ، جفاة الطباع ، منهومين بشرب الدماء ، وكانت البلاد تلاقى منهم من اشكال الحيف والعسف ، مالا يصح الا لقطاع الطرق ، وأصحاب الدعارة .

ظل المصرى تحت تأثير هذا الجو الوبىء نحواً من سبعمائة سنة حتى افتتحها المسلمون سنة (٦٣٩) فدخلوا وبيدهم الدستور القرآنى ، والقسطاس الاسلامى يسكنون أرواعاً جائشة ويهدئون نفوساً مضطربة ، ويضمدون جراحاً دامية ،

جاء المسلمون إلى أمة مزقت أحشاءها العتاة الجبارون ؛ وأطاشت

حلومها القساة الظالمون ، مصابة بخدر يشبه الموت ، وضعف يضارع الخمود ، أضاعت معنى الاستقلال والحياة والعزيمة والغيرة والحمية ، وكيف يفكر فى هذه الخلال من تلقيه الحوادث بين مدى هذه القلاقل المفقدة للرشاد ، المضيعه للسداد ، الذاهبة بحياة الفؤاد ؟ تدارك المسلمون هذه الأمة وهى على هذه الحال فأمنوها على عرضها ومالها ودينها ، وأقروا بينهم على الدستور القرآنى يخفق على الرءوس على حد سواء لافرق بين مصرى وعربى ، فدبت فى نفس المصرى غرائزه الطبيعية الكمينة ، تحت ظل هذا العدل الاسلامى الوارف ، وسمت نفوسهم عن صفات النقص واحتمال الذل لدرجة أن المصرى كان يتجشم خطر السفر إلى الحجاز ليشكو ابن عمرو بن العاص لاهانة لحقته منه بعد أن كان بالأمس طعمة لصغار الرومان وهدفاً لاقزام اليونان .

استمرت هذه الحكومة العادلة ردحاً من الزمن فامتزج حبها بدم المصرى ومهجة فؤاده حتى نسى فى حبها لغته ودينه ، وأصبح مسلماً الا القليل منهم مكثوا على دينهم آمنين على أرواحهم وأموالهم تحت هذا العلم الوارف الظلال . ومن هذا الحين اختلط تاريخ المصرى بتاريخ الاسلام العام ونالته كل الاصابات التى نالت جسم الهيئة العامة مع بقاء أمراضه الاولى كامنة فيه أيضاً .

﴿ المصرى فى خلاله الاصلية وعيوبه المكتسبة ﴾

قلنا ان المصرى من جنس اسيوى يقرب من السامى ، وهو ككل أفراد النوع الانسانى متمتع بمواهب وملكات وأميال واحساسات وعواطف ، وقابل للترقى والتدلى ، وأهل للانطباع بتأثيرات الوسط الذى يعيش فيه ، وشكل الحياة التى يحياها ، بمعنى أنه ليس جباناً بالفطرة ، ولا فيه عيب عنصرى يفصله عن بقية النوع الانسانى ، وانما نشأت فيه عيوب كثيرة من جراء الأدوار التى وقع فيها ولو وضعت أرقى أمم الأرض مكانه ، وسلطت عليها ماتسلط عليه لأصبحت مثله ، فنحن هنا إن ذكرنا عيب المصرى لانريد أن نشتمه أو نجرح احساسه وإنما نذكرها من باب تشخيص أدوائه ، لنستطيع أن نصف له دواء ناجعاً إن شاء الله ، وما سنذكره هو نتيجة طبيعية لما عملناه من هذا الموجز التاريخى ، وخلاصة فلسفية لهذا التحليل العلمى .

(لها بقية)

كيفية استحضار الأرواح

جاءنا من حضرة المحترم خليل أفندى فهمى المهندس بمصر خطاب يطلب الينا فيه أن نبسط له الطرق المعروفة فى أوروبا لاستحضار أرواح الموتى . قال حضرته مانصه : « وحيث تعلمون أن هذا الأمر مما تتشوف اليه النفوس ، وتصبو الى معرفته العقول . فنرجوكم

بسطه بشرح واف فى الجزء الآتى وبذلك تكسبون ثناء مشتركيكم وخصوصاً هذا المخاص »

(الجواب) ان غرضنا الوحيد من كثرة الكلام فى أمور ماوراء المادة على الأسلوب العصرى الذى يسمونه فى أوروبا وأمريكا بالماتييتزم (التنويم المغناطيسى) والاسبيريتزم أو الاسبيريتواليزم (استحضار الأرواح) هو مطاردة الالحاد المتفشى الآن فى كثير من أفراد النشء الجديد المغترين بالعلوم المادية التى تعلموا شيئا منها، وكثير من خاصة الدور السابق الذى سحرتهم موهات المدنية الأوربية وفتنتهم مظاهرها.

اننا لليوم لم نحصل البرهان النهائى على أن مايظهر فى أوروبا للمشتغلين بمسائل ما وراء المادة هى أرواح الموتى حقيقة ولكنا نعتقد ولا نتردد بأن شيئا يظهر لهم من وراء هذا العالم فلا ندرى ان كان هو روح من عالم الأرواح أو عالم الجن أو عالم آخر لا يعلمه « وما يعلم جنود ربك الا هو » وسبب عقيدتنا فى صحة ظهور شىء من هذا القبيل هو اجماع كل الباحثين من العلماء الثقاة فى كل بلد وبكل لغة على صحة ذلك، واعادة بعضهم لتجارب بعض على اختلاف بلادهم ولغاتهم مما يدل المطلع من أول وهلة على استحالة اجتماع هؤلاء الألوف المؤلفة من اكابر علماء الأرض على ضلة عقلية، أو ألعوبة سحرية ولو توهمنا أن يضل عامة علماء فرنسا المشتغلين بهذه المسألة فلا يسهل علينا أن نزعم أن يضل مثلهم علماء انكلتره، ولو توهمنا ذلك بطريقة

فوق التصور ، لما استطعنا أن نتوهم أن يضل مثلهم علماء ايطاليا أيضا والمانيا والنمسا والروسيا وبلجيكا وسويسره وهولانده وكافة ممالك أمريكا الشمالية والجنوبية . ثم لو تسنى لنا ان نتهم علماء ايطاليا مثلا انهم وهموا فى جلسة من جلسات التحضير وانخدعوا للمحضر أو اغتروا بما ليس بموجود ، فلا يتسنى لنا أن نتهم سائر علماء الأرض بأنهم وقعوا كلهم فى أحابيل الخداع والتدليس لا سيما وان ما يجربه العالم الفرنسى يعيده العالم الامريكى والانجليزى وغيره ويكرره فى كل حين مادام حاصلا على سائر الشروط الضرورية لحصوله .

هذا هو سبب اعتقادنا فى صحه ظهور تلك الخوارق فى جلسات التحضير . أما كون تلك الخوارق منسوبة لأرواح الموتى أو للجن أو لعالم آخر فلم نحصل لليوم على البرهان النهائى الذى يقف بنا عند فرض من هذه الفروض الثلاثة . وسواء صح كونها منسوبة لأرواح الموتى أو للجن فنتيجتها البرهان المحسوس على وجود عالم وراء عالم المادة له شؤون غير شؤون هذا العالم ، وانه أرقى من هذا العالم بما لا يقدر ، وانه مسيطر على هذه المادة تكوينا وافسادا وغير ذلك . وبناء عليه فمذهب الالحاد الذى كان يتبجح بنفسه أصبح وهما باطلا ، وضلالا ظاهرا ، وقد انهزم هزيمة لن تقوم له بعدها قائمة أبد الآبدين ودهر الداهرين . أما ما تراه من بقاء بعض الرءوس الملحدة للآن فسببه جهال السواد الأعظم من الأمم بهذه الخوارق ومتى انتشرت بين العالم وأصبحت تجاربها بدائة علمية كتجارب علوم الطبيعة ، قبع

كل ملحد قبوع القنفذ ، واطرق بعينيه الى الأرض فاما يسلم وجهه لله واما يقاوم الحس ، ويكاوح المشاهدات وكفاه بذلك خزيا وألما

ينقل بعض الناس عندنا مخترعات الصناعة ومكتشفات العلماء فى علوم الطبيعة حتى انهم ليملأون بذلك أسفارا فى كل شهر ، ولانرى أحداً يطلب اليهم أن يبينوا كيفية العمل . لماذا ؟ يقال لاقتناع الناس عموماً بعدم الاستعداد لاعادة تجارب الأوربيين وتقليد مخترعاتهم لما تستدعيه من المعامل والأدوات والآلات ! نقول إذا كان لا استعداد لدينا لاعادة أعمالهم فى العلوم المادية فبالأولى لا استعداد عندنا كذلك لاعادة تجاربهم فى علومهم الروحية . ولو علم حضرات قرائنا أن الأستاذ (كروكس) الانجليزى الشهير صرف سنين عديدة فى درس بعض ظواهر الاسبرتزم ثم وقف سنة ١٨٩٧ لما أسندت اليه رئاسة الجمعية الملوكية الانجليزية أى بعد مضى نحو ثلاثين سنة يقول لقومه انه ليس فى تاريخه العلمى ماهو أشهر من اشتغاله بالمسائل الروحية وانه لم يزل يشتغل بها ، قلنا لو علم حضرات قرائنا ان مثل هذا الاستاذ على سعة معارفه وتوفر شروط العمل لديه يلبث ثلاثين سنة مشتغلا بهذا الفن ثم يصرح بأنه لم يزل يعمل فيه ، لأدركوا أن هذا موضوع شاق لمن يريد التعمق فيه والوقوف عل كبريات مسائله

هذا الأمر يعوز أولا انسانا ذا تركيب خاص فيه مزية الاشراف على سكان العالم الروحانى ليكون واسطة بين الأحياء وعالم الأرواح وبدونه لا يمكن الحصول على شىء ثم ان هذا الواسطة يحتاج لتدريب

وتهيء لهذا العمل بطرق يعرفها علماء الانسان المشتغلون بهذه المسائل فان فى التحضـــير خطراً على حياته وصحته ، وكم حصلت فى أوروبا وأمريكا أمور ساقت الى المحاكمات الشديدة والعقوبات الصارمة . ومما يدلك على أن الاشتغال بهذا الأمر الروحانى ليس من الأمور الهينة أنه حـدث مرة أن خمسين شخصا أصيبوا بالجنون دفعة واحدة فى احدى جلسات التحضير .

نقول هذا ولا ننكر أن فى البلاد الأوربية رجالا ونساء معرضين أنفسهم لادهاش ذائريهم ببعض المشاهدات الروحية ، ويستطيع من يزورهم فى مقابل بضعة فرنكات أن يستحضر روح أحـد أقربائه ، ولكن هؤلاء الأشخاص يعدهم علماء الفن جائحة على مذهبهم ، فانهم كثيراً مايستعملون الغش والتدليس سعيا لأكل الأموال بغير حق فيبعدون الناس عن الدخول الى ذلك المذهب لما يرتكبونه باسمه من الخدع والتزوير .

اذا تقرر هـذا فليس من الممكن مجاراة الاوربيين فى تجارب ماوراء المادة كما ليس من الممكن مجاراتهم فى تجارب المادة ، وليس من المعقول أن نصل الى المستوى الذى هم فيه بالنسبة لفن خاص ، فى الوقت الذى نحن دونهم فيه فى سائر الفنون الأخرى فان المشاهد أن الأمة لاترتقى الا ترقياً متناسبا فى كل شيء . فلا يمكن أن يكون عندنا طبيعى كبير يفيد البلاد الا اذا وجد عندنا مثله فى كل فرع من فروع العلوم . وربما يتذكر الناس أنه قد كان وجد عندنا فلكى كبير

فى وقت لم يكن أحد يقابله فى فروع العلوم الأخرى ، فوقف حيث هو ولم يفد البلاد شيئاً

فنحن نكتب فى الاسبرتزم من قبيل ماتكتبه المجلات فى أبواب المكتشفات الحديثة ، والاخبار العلمية ، وغرضنا من هذا النقل كسر حدة اولئك المقلدين الذين يزعمون أن العالم الأوربى أكبر من أن يعتقد بشىء ، ويصورونه بصورة العتاة الجبارون مع أن أرفعهم رأساً قد خضع أمام آية الاسبرتزم وأناب ، وفى تتبع أقوالهم العجب العجاب . فسبحان القاهر فوق عباده

العلم عند المسلمين

تكلمنا فى مقالاتنا السابقة على بدء تكون العلم عند الأمة اليونانية ثم المعنا الى طرف من تاريخ جامعة الاسكندرية التى أسسها بطليموس الأول وابنه وحشرا اليها من العلماء اليونانيين فى سائر فروع العلم ، وأودعاها من نفائس الكتب ، وذخائر المدارك ، وكنوز المعارف مالا يمكن حصره الا فى مجلد ضخم ، ثم استعرضنا نبذاً من معلومات أولئك القادة المتقدمين فى كبريات المسائل الانسانية جرياً على اسلوبنا الذى توخيناه فى هذا المبحث . وقد انتهى بنا الكلام اليوم الى العلم عند المسلمين

علم الخاص والعام أن الامة التى ورثت العلوم الكونية من الامة اليونانية هى الامة الاسلامية ، فقامت بحقوق الوراثة خير قيام ،

وجعلت من بغداد عاصمة علمية فاقت فى الشهرة والنفع والفخامة ثغر الاسكندرية الذى اتخذه اليونانيون نقطتهم الجامعة أيام كانت السطوة العلمية لهم .

علم الناس هذا وتعدى من الشرق للغرب فأصبح اليوم علماء أوروبا يقرون بهذا الفضل لأهله ويعترفون علناً بأن المسلمين أساتذتهم ومعلموهم ولا يزالون يكتشفون من كنوز علومهم وأسرار معارفهم ما يستفيدون منه فى تحسين أمورهم ،وزيادة مادة عرفانهم وقدشاع وذاع أمر هذا الاقرار من الأوروبيين بفضل آبائنا الأولين،حتى قنع أكثرنا بمحض ذكره بدون بحث عن تفصيله ، فمتى ذكر المؤلف عن عالم من علماء الفرنجة نبذة من كلامه فى ذلك الموضوع فقد قام لقرائه بكل ما ينتظر منه ، وكفاه أن يقول ان المسلمين الاول بلغوا من علوم الهيئة والطبيعة والكيمياء والرياضية أقصى الغايات ، وزادوا على معلومات اليونانيين فيها زيادات خلدت لهم الذكر العاطر إلى اليوم، أما تفصيل تلك العلوم وذكر رجالها واحدا بعد واحد ، والتحسس من مصادرها ومناشئها ، وتتبع سيرها فى رقيها على يد رجالها وفحولها ، وذكر نبذ تاريخ مشخصيها ونقل فذلكات شافية من أمهات كتبهم ادلالا على مكانتهم فلم يطرق هذا البحث طارق لليوم مع أنه يجمع الى اللذة العقلية الفائدة العلمية التى لا تقدر ، ويسوءنا أن يسبقنا الاوربيون إلى هذا المجال الواسع فيسجلون بذلك علينا موات العزيمة ، وفقدان الحمية ولا يرضاها لنفسه الامن اتصف بهما ، والتاث برجسهما .

لذلك رأينا ان شاء الله أن نسد هذا الفراغ الهائل بابحاث مستفيضة نكتبها على التوالى فى كتاب الاسلام كل شهر على قدر الطاقة ثم متى حان وقت زيادة صحفه كما وعدنا تخصص لهذه الأبحاث عشرات من الصحف اشباعاً للقول ، وتوفية لحق الموضوع ، وسيكون ترتيب كلامنا ان شاء الله تابعاً للنمو الطبيعى الذى ظهر به العلم فى هذه الأمة متتبعاً السلسلة من أولها فى عصر الصحابة رضى الله عنهم، ثم التابعين وتابعيهم حتى نصل الى طرفها الذى اتصل بالأوربيين .

سيكون كلامنا ان شاء الله فى هذا الباب الكبير بالغاً النهاية فى التفصيل والبسط ، فان الموضوع كما قدمنا محتاج لذلك خصوصاً فى عصرنا هذا ، وسيكون عل الأسلوب العصرى فى النقد والتمحيص والتحليل ، فلا يفرحنا مثلا أن نقرأ فى كتب العلامة (درابر) مثلا ان العلماء الاسلاميين كانوا متبعين فى ابحاثهم الأسلوب العملى التجريبى وهو أسلوب الفلسفة العصرية حتى نبحث على سبب تولد هذا الأسلوب فيهم وكيفية منشأه ، مع علمنا بأنه أسلوب خشن لايحبه أصحاب الأديان ، ولايرضاه الموابذة والكهان ، لما فيه من الأحكام الصادرة على ثمرات الخيال ، وبنات الأفكار ، ونجتهد فى استنباط ذلك من القرآن الكريم والسنة النبوية .

لامشاحة فى أن أول حركة علمية تولدت فى المسلمين هى نزول القرآن وحفظهم بعض آياته . كما أن أول معلم فتح لهم باب التعلم هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسنجتهد ان شاء الله فى درس تلك الأحوال

فى أدق مظاهرها ، فربما استهان الانسان بأمر صغير يجدفيه لواحتفل به سراً كبيراً ، وعندنا ان كل الفخامة العلمية والحركة العظمى التى ظهر بها العرب فى عصرهم الزاهر هى عائدة للنبى صلى الله عليه وسلم لا لكونه فقط أول من حثهم على التعلم وبعثهم للرقى بما أودع فيهم من الحياة ، بل لكونه أول من رسم لهم الأسلوب الذى يسيرون عليه بسيره معهم فى دروسه الأولية ولا يخفى ان صلاح التعلم وفساده مبنى على سلامة أسلوبه أو اعتلاله ، فمتى كان الأسلوب قويما تيقظت ملكات الطفل ، وحييت مواهبه ، وتهيأت لتحصيل المعارف واختزانها ، وبالعكس فيما لو كان الأسلوب معوجا فانه لا يوقظ من الطفل ملكة حتى يميت فيه ملكات ويقتل عواطف ويخدر احساسات لا محل لأن نعطى عنها مثلا فى هذه المقدمة .

لهذا نرى أن تدقيق النظر فى الأسلوب المحمدى المستمد من الدستور القرآنى فى التعليم والتلقين أصبح فى نظرنا من الأمور الكلية التى تحل لنا كثيراً من أسرار رقى العرب هذا الرقى السريع فى مدة لا تتجاوز الجيل الواحد مما لم يشاهد مثله فى تاريخ العالم للآن

درس هذه الحركة القرآنية لا يقف بنا عند هذا ، الحد بل يتعدى الى معرفة كيفية تدارسهم للقرآن ، وكيفية تفهمه ، وسؤالهم عما علا عن فهمهم منه وأسلوبهم فى جمعه ، ثم يلى هذا المباحث المتسلسلة الكبرى فى درس حركة العلوم النحوية واللغوية والأدبية والعلمية على اختلاف أنواعها من طبيعيات وفلكيات ورياضيات . كل ذلك بالتفصيل الشافى

وذلك بامساك السلسلة من طرفها الأول وتتبع حلقات رقى كل علم حلقة حلقة مع درس سير رجاله وحفاظه، ومايروى عنهم من الفضل والمكانة فى العلم مع ذكر تواريخ حياتهم بشىء من التفصيل والبسط ولانشك فى أن هذا الموضوع على قدر مافيه من الفائدة والجدة ، فيه أيضا من اللذة العقلية والرياضة الفكرية مايدركه كل انسان بمجرد ذكره

هذا البحث يحتاج (لجملة مجلدات) على حدتها ، وربما يستحسن أن نجعلها مستقلة عن الاسلام فى عصر العلم ، ولكنا نرى أن كتابتها تباعاً فى هذا الكتاب الجامع أولى لنا من جملة وجوه ، ثم ان لاح لنا لزوم طبعها على حدتها فعلنا ، والله ولى المؤمنين .

قبل الدخول فى موضوعنا هذا يحسن بنا أن نورد أمام الكلام نبذة مما كتبه الأستاذ الأمريكى الشهير (درابر) فى كتابه (التنازع بين العلم والدين) وفى إمكاننا أن ننقل كثيرا من أقاويل علماء أوربا فى هذا الشأن ، ولكنا رأينا أن نكتفى بقول (درابر) إيذانا لمن يجهل فضل آبائه من المسلمين ، بأننا سنخوض به بحراً خضما بعيد الغور والساحل . قد شهد له الأجنبى البعيد ، فكيف يجحد فضله الولى القريب قال :

« بعد انتقال محمد (صلى الله عليه وسلم) الى الدار الباقية »
« ترجمت إلى اللغة العربية أهم المؤلفات اليونانية ، وترجمت القصائد »
« اليونانية الشهيرة (كالالياذة ، والأوديسية) الى اللغة السريانية »
« ليطلع عليها العلماء دون العامة، لما رأوه فيها من الأقاصيص الخرافية »

« عن آلهة اليونانيين مما يخشى منه على عقائدهم . ولما ولى الخلافة »
« أبو جعفر المنصور . من سنة ٧٥٣ الى ٧٧٥ نقل تخت الملك الى »
« بغداد وجعلها عاصمة فخيمة . فلم يأل جهدا من بذل الوسع فى درس »
« العلوم الفلكية ، وتأسيس مدارس الطب والشريعة ، ولما جلس »
« حفيده هرون الرشيد على عرش الملك سنة ٧٨٦ : اتبع أثر جده »
« فى هذه الفتوحات العلمية . وأمر باضافة مدرسة إلى كل مسجد فى »
« جميع أرجاء ملكه ، ولكن عصر العلم الزاهر فى القارة الاسيوية »
« لم يشرق إلا فى خلافة المأمون ، الذى تولى الخلافة من سنة (٨١٣ الى »
« ٨٣٢) ، فانه جعل بغداد العاصمة العلمية العظمى ، وجمع كتباً لا »
« تحصى ، وقرب اليه العلماء ، وبالغ فى الحفاوة بهم » .

« هذا المركز الذى اكتسبه العرب ، وهذا الذوق السليم فى »
« العلم ، استمر لديهم حتى بعد أن انقسمت المملكة الى ثلاثة أقسام : »
« حتى أن العباسيين فى آسيا والفاطميين فى مصر والأمويين فى »
« أسبانيا لم يكونوا متناظرين متغايرين على الحكومة فقط ، بل كانوا »
« كذلك على الآداب والعلوم أيضاً .

« ذاق العرب فى الفنون الأدبية كل ما من شأنه أن يحد القريحة »
« ويصقل الذهن ، وقد افتخروا فيما بعد بأنهم أنجبوا من الشعراء »
« بقدر ما أنجبت الأمم كلها مجتمعة . أما فى العلوم فقد كان فوقانهم »
« فيها ناشئاً من الأسلوب الذى توخوه فى المباحث . وهو أسلوب »
« أخذوه عن فلاسفة اليونان الاسكندريين لا عن اليونان »

« الأوروبيين ، فانهم قد تحققوا أن الأسلوب العقلى النظرى »
« لا يؤدى الى التقدم ، وان الأمل فى وجدان الحقيقة يجب أن يكون »
« معقوداً بمشاهدة الحوادث ذاتها . ومن هنا كان شعارهم فى أبحاثهم »
« الأسلوب التجريبى والدستور العملى الحسى . وكانوا يعتبرون »
« الهندسة والعلوم الرياضية أدوات ومعدات لعلم المنطق . وقد »
« يلاحظ المطالع لكتبهم العديدة على الميكانيكا والايدروستاتيك »
« (علم موازنة السوائل وضغطها على جدران أوعيتها) ونظريات »
« الضوء والابصار ، بأنهم قد أهدوا الى حلول مسائلهم من طريق »
« التجربة والنظر بواسطة الآلات . هذا هو الذى قاد العرب لأن »
« يكونوا أول الواضعين لعلم الكيمياء ، والمكتشفين لجملة آلات »
« للتقطير والتصعيد والاسالة (اسالة الجوامد) والتصفية الخ »
« وهذا بعينه أيضاً ، هو الذى جعلهم يستعملون فى أبحاثهم الفلكية »
« الآلات المدرجة والسطوح المعلمة والاسطرلابات (هى آلات »
« لقياس أبعاد الكواكب) ؛ وهو أيضاً الذى بعثهم لاستخدام »
« الميزان فى العلوم الكيماوية ، وقد كانوا على ثقة تامة من »
« نظريته ، وهو أيضاً الذى أرشدهم لعمل الجداول عن الأوزان »
« النوعية للأجسام ، والأزياج الفلكية (هى جداول تعرف منها »
« حركات الكواكب) مثل التى كانت فى بغداد ، وقرطبة وسمرقند ، »
« وهو أيضا الذى أوجب لهم هذا الترقى الباهر فى الهندسة ، وحساب »
« المثلثات ، وهو أيضا الذى هم بهم لاكتشاف علم الجبر ، ودعاهم »

« لاستعمال الأرقام الهندية هذا هو ثمرة تفضيلهم لاسلوب ارسطو »
« الاستدلالى على مقالات أفلاطون الاستنتاجية .
« ولقد دأبوا على جمع الكتب بصفة منتظمة لأجل أن »
« يتوصلوا الى تكوين الكتبيات التى تكلمت عنها ، وقد قيل ان »
« المأمون نقل الى بغداد مائة حمل بعير من الكتب وقد كان أحد »
« شروط معاهدة الصلح بينه وبين الامبراطور ميشيل الثالث أن يعطيه »
« احدى مكاتب القسطنطينية التى كان فيها بين الذخائر العلمية الأخرى »
« كتاب بطليموس على الرياضيات السماوية فأمر المأمون »
« بترجمته للعربية وسماه المجسطى . وقد حصلت العناية بأمر هذه »
« المكاتب حتى ان مكتبة القاهرة كان بها نحو من مائة الف كتاب »
« معتنى بكتابتها وتجليدها غاية الاعتناء . وكان يوجد من بين هذه »
« الكتب ستة آلاف وخمسمائة مجلد فى الطب والعلوم الفلكية »
« فقط . وكان من نظام هذه المكتبة انها تعير كتبها للطلبة الساكنين »
« فى القاهرة . وكان بتلك المكتبة كرتان أرضيتان احداهما من »
« الفضة والأخرى من البرنز . قيل ان الأولى صنعها بطليموس الفلكى »
« نفسه وانها استدعت ثلاثة آلاف كورون (نقود يونانية) من الذهب »
« وقد اشتملت مكتبة خلفاء الأندلس فيما بعد على ستمائة الف مجلد »
« وكان جدول أسمائها وحده محويا فى أربعة وأربعين جزءا ، وغير »
« هذا فقد كان بالاندلس سبعون مكتبة عامة وكثير من المكاتب »
« الخاصة . ومما يحكى ان أحد الدكاترة العرب رفض دعوة سلطان »

« بخارى له محتجا بأن كتبه لا يمكن نقلها الا على اربعمائة بعير »
« لقد كان يوجد فى كل مكتبة كبرى محل خاص للنسخ والترجمة . »
« وقد كان لبعض الخاصة مثل ذلك . فان هونيان الطبيب »
« النسطورى كان له محل من هذا القبيل ببغداد (سنه ٨٥٠) ترجم »
« فيه كتبا لارسطو وافلاطون وهيبوكرات وغاليان الخ . أما »
« المؤلفات الحديثة فقد كان من عادة أساتذة هذه الجامعة أن »
« يؤلفوا كتبا فى الفروع العلمية التى تطلب منهم . وكان لكل »
« خليفة مؤرخ خاص يكتب تاريخه . ومن ينظر الى تلك الأقاصيص »
« والحكايات التى هى مثل ألف ليلة وليلة يعرف مقدار التصور »
« الشعرى الذى كان لدى العرب . ولم يقف بحث العرب عند حد »
« فقد كتبوا فى كل فن وفى كل علم كالتاريخ والشريعة والسياسة »
« والفلسفة وتراجم الرجال وتراجم الخيول والابل ، وكل هذه »
« المؤلفات كانت تنشر بدون رقابة ولا حجر ، وما يعلم من المراقبة »
« على الكتب اللاهوتية فقد حدث فيما بعد هذا التاريخ . وقد كانت »
« الكتب الزاخرة بالمعلومات التى تصلح لأن تتخذ مادة فى المعلومات »
« كثيرة جدا فى الجغرافية والاحصاءات والطب والتاريخ وقواميس »
« اللغة . وكان لديهم دائرة معارف علمية ألفها محمد أبو عبد الله . »
« وكان للعرب ذوق دقيق فى صنع الورق النظيف الناصع البياض ، »
« وفى اعطاء الحبر الألوان المختلفة وفى زخرفة وجوه الكتب »
« بتشبيك تلك الألوان المختلفة من الحبر والابداع فى تنميقها »

« وتذهيبها على صفات شتى »
« كان الملك الاسلامى العربى مملوء بالمدارس والكليات ، وكانت »
« بلاد المغول والتتار ومراكش والاندلس حاصلة على عدد عديد »
« منها . وكان فى طرف من أطراف هذه المملكة الواسعة التى فاقت »
« المملكة الرومانية بكثير مرصد فى سمرقند لرصد الكواكب وكان »
« يقابله فى الطرف الآخر مرصد جيرالده فى الاندلس . قال جيبون »
« (عند ذكر الحماية والرعاية التى بذلها المسلمون للعلوم : كان امراء »
« المسلمين فى الأقاليم يناظرون الملوك فى حماية العلم والعلماء، وكان من »
« نتيجة تنشيطهم هذا للعلماء أن انتشر الذوق العلمى فى المسافة الشاسعة »
« التى بين سمرقند وبخارى إلى فاس وقرطبة . ويروى عن وزير »
« لأحد السلاطين أنه تبرع بمائتى ألف دينار لتأسيس كلية علمية »
« فى بغداد . وأوقف عليها خمسة عشر ألف دينار سنويا . وكان عدد »
« الطلبة فيها ستة آلاف لافرق بين غنى وفقير . فكان فيها ابن السيد »
« العظيم وابن الصانع الفقير على السواء ، وكانوا يكفون التلامذة »
« الفقراء مؤنة دفع أجر التعليم ويعطون الأساتذة مرتباتهم بكرم »
« وسماحة وكانت المؤلفات الجديدة الأدبية تنسخ وتجمع سدا »
« لحاجة أهل العلم وشهوة الأغنياء فى جمع الكتب) انتهى كلام »
« جبون . ثم قال درابر : وكانت قيادة المدارس مودعة لذوى »
« المدارك الواسعه فكانت امابيد النسطوريين أو اليهود، لأن المسلمين »
« لم يكونوا يتحرون عن جنسية العالم ودياته، وما كانوا يزنون قدره »

« إلا من أعماله . ولقد فاه الخليفة الكبير المأمون بفكره على حقيقة »
« العلماء فقال : ان صفوة خليفة الله وأفضل عباده وأنفعهم هم الذين »
« يقفون حياتهم على تربية مواهبهم الطبيعية ، وان الذين يعلمون »
« العلم والحكمة للناس هم مصابيح العالم ، ولولاهم لارتكس الخلق »
« فى عماية الجهالة وغياهب البربرية ، ثم قال درابر : (وقد اتبعت »
« المدارس الطبية عموماً مثال مدرسة الطب فى القاهرة فى اختبار »
« الطلبة قبل إخراجهم نهائيا ، بحيث لا يستطيع أحدهم أن يشتغل »
« بمهنة التطبيب إلا بهذا الشرط » .

« وأول مدرسة أنشئت من هذا القبيل فى أوروبا هى المدرسة »
« التى أسسها العرب فى (سالرن) من ايطاليا ، وأول مرصد أقيم فيها »
« هو ما أقامه المسلمون فى اشبيلية باسبانيا » .

« ولو أردنا أن نستقصى كل نتائج هذه الحركة العلمية العظمى لخرجنا »
« عن حدود هذا الكتاب ، فانهم قد رقوا العلوم القديمة رقياً كبيراً »
« جداً ، وأوجدوا علوماً أخرى لم تكن معروفة من قبلهم »

ثم تكلم المؤلف على براعتهم فى العلوم الرياضية ، وعلى التسهيلات التى ادخلوها عليها ، وعلى فوقانهم فى حساب المثلثات والعلوم الفلكية ، وما ألفوه فيها من الكتب وما سطروه من الجداول والتقاويم ثم قال — : « العلماء الفلكيون من العرب اهتموا أيضاً »
« بتحسين آلات الارصاد وتهذيبها ، وبحساب الأزمنة بالساعات »
« المختلفة الأشكال ، والساعات المائية ، والسطوح المدرجة »

« الشمسية ، وهم أول من استعمل البندول (الرقاص) »
« لهذا الغرض »
« أما فى عالم العلوم التجريبية فقد اكتشفوا الكيمياء وبعضاً من »
« محللاتها الشهيرة مثل حمض الكبريتيك وحمض النيتريك والكحول »
« (الاسبرتو) . استخدم العرب علم الكيمياء فى الطب لأنهم أول من »
« نشر علم تحضير العلاجات والاقرباذينات واستخراج الجواهر »
« المعدنية . أما فى علم الميكانيكا فانهم عرفوا وحددوا قوانين سقوط »
« الاجسام وعرفوا تقريباً ناموس الجذب فى الأجسام وكانوا عارفين »
« تمام المعرفة بعلم الحركة . أما فى الايدورستاتيك وهو علم موازنة »
« السوائل وتقدير الضغط الواقع منها على أوانيها فقد كانوا أول من »
« عمل الجداول المبينة لأنواع الأوزان النوعية وكتبوا أبحاثا على »
« الأجسام السابحة والغائصة تحت الماء . أما فى نظريات الضوء »
« والابصار فقد غيروا الفرض اليونانى الذى مقتضاه أن الابصار »
« يحصل بوصول شعاع من البصر إلى الجسم المرئى وقالوا بعكس »
« ذلك اى أن الابصار يحصل بوصول الشعاع من المرئى إلى العين ، »
« وكانوا يعرفون نظريات انعكاسات الأشعة وانكساراتها ؛ وقد »
« اكتشف الحسن الشكل المنحنى الذى يأخذه الشعاع فى سيره فى الجو »
« واثبت بذلك اننا نرى القمر والشمس قبل أن يظهرا حقيقة فى »
« الأفق ، وكذلك فى الغروب نراهما قليلا بعد أن يغيبا . »
« ان نتائج هذه الحركة العلمية تظهر جليا بالتقدم الباهر »

« الذى نالته الصنائع فى عصرهم : فقد استفادت منها فنون الزراعة »
« فى أساليب الرى والتسميد وتربية الحيوانات وسن النظامات الزراعية »
« الحكيمة وادخال زراعة الارز والسكر والبن ، وقد انتشرت »
« المعامل والصنائع لكل نوع من أنواع المنسوجات كالصوف »
« والحرير والقطن ، وكانوا يذيبون المعادن وكانو يجرون فى عملها على »
« ماحسنوه وهذبوه من صنعها وسبكها »

« وكان العرب من عشاق الموسيقى والشعر وقد وهبوهما وقتاً »
« كبيراً وحبوهما مكانة من افئدتهم . وهم الذين علموا الاوربيين »
« لعب الشطرنج وبثوا فيهم ذوق مطالعة الأقاصيص. وكان للعرب »
« لذات روحية حتى فى المجالات الزاهدة للأدبيات الفلسفية ، فكان »
« لديهم مؤلفات عالية جدا فى تقلب الأحوال الانسانية وعلى نتائج »
« عدم التدين ، وعلى زوال النعم وعلى أصل العالم وبقائه وآخرته ، »
« وانا نندهش أحيانا حينما نرى فى مؤلفاتهم من الآراء العلمية ما كنا »
« نظنه من نتائج العلم فى هذا العصر . من ذلك أن مذهب النشوء »
« والانتقال للكائنات العضوية الذى يعتبر مذهباً حديثاً كان يدرس »
« فى مدارسهم ، وقد كانوا جروا به الى مدى أبعد ما وصلنا اليه ، وذلك »
« بتطبيقه على المواد الجامدة والمعدنية أيضاً . فان النظرية التى انبنى »
« عليها علم الكيمياء (كمياء استخراج الذهب) هى زعمهم أن المعادن »
« تكونت تكونا تدريجيا . قال الخازنى : اذا سمع الجهال قول »
« العلماء بأن الذهب جسم تكون بالتدريج على طريق الترقى يفهمون »

« من هذا بأنه استحال أولا الى معادن أخرى بمعنى أنه كان فى مبدئه »
« رصاصاً ، ثم صار خار صينا ، ثم صار برنزاً ، ثم صار فضة ، ثم »
« استحال الى ذهب . ولم يعلموا أن الفلاسفة يقولون ما يقولون »
« عن الذهب كما يقولون عن الانسان . أى انه ماصار إنساناً إلا من »
« طريق الترقى التدريجى ، وهذا لا يستلزم أن يكون قد استحال »
« إلى استحالات نهائية كأن كان أولا ثورا ، ثم صار حمارا ، »
« ثم صار قردا ، ثم انتهى أخيرا بأن صار إنسانا . »

هذه مقدمة نقدمها لحضرات قرائنا أمام الكلام على العلم عند العرب ولا قصد لنا من إيرادها منقولة عن عالم من علماء الغرب الا دلالة القارىء على فضل المسلمين الأولين على العالم أجمع من جهة العلم والعرفان ، وقد اتضح له مما نقلناه ان المسلمين قد سبقوا الاوربيين الى كل مجال عقلى وباحة فلسفية ، وأنهم قد وضعوا علوما جديدة لم تكن من قبل ، وقد نشروا الصنائع والفنون فى جميع ارجاء العالم حتى كانوا أينما حلوا (كما يقول المؤرخ الفرنساوى دروى) يحل العلم والتقدم والحياة ، وإذا كان الغربى الذى لا يهمه عن المسلمين شىء يقول فيهم هذا القول ، ويؤدى لهم هذه الشهادة ، ويعترف لهم هذا الاعتراف ، فلا شك أن أمر العرب كان أكبر من هذا بكثير ، وان الشرقى الذى أصبح يتهم آباءه ويظن ان الاوروبيين هم مفاتيح كنوز العلوم ، ومقاليد أسرار الفلسفة والحكمة وانهم مكتشفوا المعارف الانسانية كلها ، وأصحاب الفضل الوحيد فيها ، وأن لا حياة الا اذا

استمدت منهم وجاءت من عندهم ، وهبت على الأرواح من جهتهم وبلغتهم و و و و . . . . . يجب عليه أن يتئد ويجيد الروية ويرجع الى صوابه ولا ييأس من أن تحل به روح خاصة غير مستمدة الا من ينبوع كل حياة ، ومصدر كل حركة ، فيهب من نومه ويعيد عصور آبائه الاولين فى أرقى مظاهرها ، وأشرف مجاليها ، ويكتفى مؤونة الاحتكاك بالغير والتملق اليهم . ان قيل كيف هذا ؟ تلونا عليه قوله تعالى « يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده »

بعد ما كتبنا هذا الفصل جاءتنا فى بريد المساء (مجلة عرفات) الفرنساوية التى يدبجها يراع صديقنا المبجل محمود سالم بك فرأينا فيها جملة جميلة مقتطفة من كتاب تمدن العرب للدكتور الشهير (جوستاف لوبون) قال الدكتور الموما اليه :

« العرب مع ولوعهم بالابحاث النظرية لم يهملوا تطبيقها على »
« الصنائع ، فقد أكسبت علومهم لصنائعهم جودة بعيدة جداً . واننا »
« وان كنا لم نزل نجهل أكثر الطرائق التى سلكوها فى ذلك إلا أننا »
« نعرف نتائجها وآثارها . فنعرف مثلا أنهم احتفروا المناجم واستخرجوا »
« منها الكبريت والنحاس والزئبق والحديد والذهب . وأنهم قد برعوا »
« جداً فى صناعة الصباغة ، وأنهم مهروا فى سقى الفولاذ مهارة بعيدة »
« المدى حتى أن صفاح طليطلة أصدق البراهين على ذلك . ونعرف »
« أيضاً أنه كان لمنسوجاتهم وأسلحتهم ومدبوغاتهم من الجلود ولورقهم »
« شهرة عامة ، وأنهم فى كثير من فنون الصنائع برعوا براعة لم يلحق »

« لهم شأو فيها للآن . (تأمل)
« من بين المكتشفات المعزوة للعرب ، أشياء ذات شأن كبير »
« كالبارود مثلا وهذه المكتشفات لايجمل بنا أن نسردها سردا بل »
« يجب علينا أن نبها شيئاً من التفصيل . . . إلى أن قال . « مما يتجلى »
« للقارىء أن ديوان المكتشفات العربية فى العلوم الطبيعية لاتقل »
« فى الخطارة والقدر عما لهم منها فى العلوم الرياضية والفلكية . »
« ومانسرده عليك هنا يعرب لك عن تلك الخطارة وذلك أنه كانت لهم »
« معلومات عالية فى الطبيعة النظرية خصوصاً فى نظريات الضوء »
« والابصار ، وقد حفظ عنهم اختراعهم لأجهزة ميكانيكية من أدق »
« مايعرف من نوعها ، واكتشافهم للجواهر التى تعد من أعظم أراكين »
« علم الكيمياء مثل الكحول وحمض النيتريك وحمض الكبريتيك ، »
« وقد سجلت لهم أكبر العمليات الأساسية مثل التقطير مثلا ، »
« وأثر عنهم استخدام الكيمياء لفن الصيدلة والصناعة وخصوصاً »
« لاستخراج المعادن وصنع الفولاذ والصبغ الخ وعرف عنهم عمل »
« الورق من الخرق ، ويرجح أنهم طبقوا البوصلة على فن الملاحة »
« وأدخلوا هذا الاكتشاف الأساسى إلى أوروبا . »

كلمة عمرانية

(العوامل الاجتماعية فى رقى الأمة اليابانية)

(تاريخ اليابانيين) انا نراقب حركات الأمة اليابانية عن بعد ونعجب مثل كل شرقى بما تظهره للعالم من مظاهر البراعة والحذق فى علومها وصنائعها . ولكنا مع اعجابنا هذا لم تخيل يوماً من الأيام أن فى ظهور هذه الأمة الشرقية بهذا المظهر الفخيم الزاهر ما يستوجب الدهشة والتعجب أو يستدعى نسبته الى أسباب تعلو عن متناول العلم وتسمو عن مهاب الفكر ومسارح الروية مما يحسن اضافته الى الأمور الخارقة للعادة . وانا لم نكن ننتظر أن نكتب فى تاريخ هذه الأمة على هذه الصورة لولا أن رأينا من بعض الكاتبين فى الجرائد شيئا من الغلو فى تعليل رقى هذه الأمة وشممنا منهم الصعود فى اطرائها لحد تصوير أن ما نالته فى مدى الأربعين سنة الأخيرة يعد من المعجزات المحيرة للمدارك وخوارق العادات التى تعلو عن عالم الأسباب الطبيعية ولم تسمح به الفواعل الاجتماعية العامة والخاصة لأمة من الأمم سواها فى مدى تاريخ العالم الانسانى . لا نشك أن فى مثل هذا الغلو فى المسائل الاجتماعية الحيوية شيئاً من التأثير على قتل جراثيم اليأس من النفوس المنحطة لأنه يفتح للأفئدة نوافذ الى باحات الأمل والرجاء . ولكنا من جهة أخرى نعتقد أن فى أمثال هذه الأغلاط العمرانية اضراراً بالغة جدا تربو عما ينتج عنها من الفائدة الشعرية . ولو كانت تلك لاضرار تقف حيث تقف اضرار الأقاصيص لكنا أغضينا عنها

وتسامحنا فيها كما يغضى عن غلواء الشعر وخيالات القصص . ولكننا نرى أن فى توهم قيام الأمة اليابانية طفرة بدون أسباب طبيعية ولا عمرانية تولت أمر ذلك الرقى فى خلال القرون ضرراً لا حد له فى أحوالنا الأدبية والاجتماعية . لذلك رأينا أن نكتب فى هذا الموضوع كلمة عمرانية نهديها للأمة بلسان المؤيد نرجو أن نقوم لها عقيدتها فى أمر رقى الأمة اليابانية . وانى هنا أرجوها المعذرة عما ستراه منى فى هذه العجالة مما لا يناسب تحمسها لهذه الآثار المدنية المدهشة فان العلم لا يتأثر بالظواهر ولا يزدهيه ما يزدهى الخيال من الصبغ الباهرة فهو لا يبحث إلا عن اللباب فان وصل اليه ازداد سكوناً وتهيباً وربما ازداد ألماً وحرقاً لما يرى أن فى اللباب ألف مجهول تطالب بحثاً وتوجب عليه تعباً جديداً .

أنا لا أنكر أن أمة اليابان أصبحت فى الصف الأول من الأمم المتمدنة وانها برهنت للعالم كله على حصولها على مواهب وملكات سامية جداً هى أعظم ضمان لحياة الأمم وتمدنها . ولكن أنكر كل الانكار أن يكون ما تتمتع به تلك الأمة من مجالى المدنية الساحرة جاءها طفرة بدون فواعل طبيعية هيأته لها وهيأتها له فى قرون عديدة بواسطة الحوادث المهذبة والوقائع الممهدة . أعنى انى أنكر أن يكون هذا الرقى من اليابان جاء خارقا لنواميس الكون فوق أسبابه المعقولة معجزة تخر لها الأعناق اندهاشا والنفوس حيرة واضطرابا . وانى شارع الآن فى سرد تاريخ اليابان طبيعياً واجتماعيا فى نبذة موجزة فليتبعنى

القارىء بفكره ليرى بعينيه من استشراف الأحوال الطبيعية والظروف الاجتماعية التى وجدت فيها الأمة اليابانية انها لم تترق بدون تدريج ولا بحادث غير معقول ، وانما هى علل طبيعية متسلسلة أخذت بيدها من دور الى دور ومن حال الى حال حتى أوصلتها لما هى فيه اليوم . لا أقول بطريق الاعجاز ولكن أقول بالعكس ببطء شديد جدا دعا علماء الانسان لأن يتهموا الجنس الأصفر بعدم الاستعداد لبلوغ شأو الجنس الأبيض فى شىء . أريد من بسط موجز التاريخ الطبيعى والاجتماعى اليابانى أن يتحول ذهن القارىء من الاندهاش بطفرة اليابان لقمة المدنية الى الاندهاش والعجب من ابطائها عن سبق الأوروبيين الى أرقى مظاهر التقدم الصناعى والأدبى بقرون عديدة لوجودها فى شروط الحياة وأسباب التقدم منذ أكثر من ألفى سنة أى قبل أن يعرف الأوربيون معنى الحياة والحضارة .

جغرافية اليابان

(الطبيعية والاقتصادية والصناعية والعلمية)

المملكة اليابانية مكونة من (٣٨٥٠) جزيرة تختلف فى الصغر والكبر يسكنها أكثر من (٤٠) مليونا من النفوس وهى فى غاية الخصوبة تتخلل مجاريها الأنهار الجارية والعيون الفائرة والبحيرات البعيدة السواحل مما يجعل لبلاد اليابان أكبر قسط من جمال الطبيعة وبهائها . أضف الى هذا انها من أعدل البلاد هواء وأجودها مناخا

الحيوانات فى البلاد كثيرة الأشكال جدا بحيث لا تلجئها الضرورة لجلب شيء من الخارج . وأما نباتاتها فأكثر أشكالا وأبدع أنواعا حتى ان أراضى اليابان فى فصل الربيع لتلبس حلة زهرية لا يمكن تصورها إلا بمشاهدتها . وقد يعتنى علماء أوربا بجلب بعض أنواع تلك الأزهار النادرة لفحص بدائعها فى معاملهم .

أما من جهة المعادن فان اليابان من أكبر البلدان سهماً فيها . اذ يوجد فيها مناجم حافلة جدا للذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والكبريت والفحم الحجرى وغير ذلك من المواد الأولية ذات الشأن الكبير فى اتقان الصناعة . ولا عجب بعد هذا ان قلنا للقارىء ان بلاد اليابان أبرع البلاد فى أنواع الصناعات منذ أكثر من عشرين قرنا . وليس فينا من يجهل الابداع المدهش الذى يودعه اليابانيون فى مصنوعاتهم الخزفية والحريرية والصوفية مما تغص به أسواق العالم أجمع . بل الذى يذهب الى بلاد اليابان ويشرف على الهياكل المشيدة منذ أكثر من خمسة عشر قرنا على أبدع الأشكال الهندسية مزخرفة بأبهى الألوان وأجمل التصاوير يدرك من أول وهلة أن اليابانيين أنداد الصينيين فى الصنائع بل يزيدون عنهم فى الاتقان والذوق لحد لا يتصوره الانسان الا من يراه بعينه ولقد برع اليابانيون فى صناعة الزخرف وأنواع الزينة براعة لم تنلها أمة سواهم للآن ولقد يروى عنهم الرحالات غرائب تشبه الأحلام من كل وجه .

أما من جهة العلم فهى عريقة فيه بعد الأمة الصينية ويحفظ لنا

التاريخ العلمى من أسماء علمائها وفلاسفتها وأطبائها وشعرائها عددا يليق أن تفخر به الأمة اليابانية على سائر الأمم القديمة . بل ان القاء نظرة بسيطة على الصناعة اليابانية يدل واضح الدلالة على درجة العلم فيها من قديم الزمان فان الصنائع أكبر مظاهر العلم وأثر من أصدق آثاره

الرجل الياباني

اليابانيون قصار الأجسام سمر الألوان يمتازون عن الصينيين بميل السمرة فيهم الى اللون الزيتونى . وهم أقوياء الجسوم أذكياء العقول ميالون للاجتماع والانضمام بطبعهم محبون للعمل والدأب ويؤثر عنهم نزوع الى الخلاعة واللهو وشيء من عدم الاحتفاء بعقائدهم وان كانت بلادهم ملآى بالهيا كل والأنصاب ، ومن صفاتهم الغريزية حب الحركة ومجافاة الخمول والراحة وكراهة الحياة المنزلية كل الكراهة ، حتى ان الياباني لا يمكث فى بيته إلا لضرورة قاسرة فان لم تكن ألقى بنفسه إلى حيث يطيب له السمر أو العمل . ومن خلالهم الفطرية اباء الذل والضيم فليس للحياة عندهم فى سبيل الدفاع عن العرض والشرف قيمة .

تاريخ اليابان الاجتماعى

تاريخ اليابانيين قبل سبعة وعشرين قرنا مملوء بالخرافات والأضاليل ولم يدخل الى نطاق التحقيق الا منذ سنة ٦٦٠ ق . م حيث تولى ملك

البلاد اليابانية بأسرها امير اسمه (ذينمو) كان حاكما على جزء من جزيزة (كيوزيو) هذا الملك أول من اتخذ لقب (ميكادو) شعارا له ومعناه العادل ، استمرت عائلته حاكمة على البلاد قرونا مستطيلة تخللتها اضطرابات لاحد لها ولا ضابط لتاريخها ، سببها انقسام البلاد الى امارات متعددة وراثية ، وغلبة حزب الأشراف عليها على حد ماحصل بأوروبا فى القرون الوسطى ولايخفى ماينبنى على هذا الانقسام من التزاحم ، ولم يكن الميكادو الا كواحد من أولئك الأشراف المستقلين ، وان كان له شيء من أبهة فرسمية محضة واسمية بحتة .

لما جاء القرن الثانى عشر قام أحد أولئك القادة واسمه (يوريتومو) بتنظيم جيش يابانى عامل للقيام بالدفاع عن حياض البلاد وصد الأطماع عنها من الخارج ، وفى تلك المدة قصد فتح البلاد اليابانية ذلك الفاتح المغولى الشهير مدوخ بلاد الصين (كوبلاى خان) فقصد اليابان بأربعة آلاف سفينة تحمل ٢٤٠،٠٠٠ جندى فقام بزعامة الدفاع عن البلاد متولى الشئون السياسية والحربية إذذاك فدحر المغوليين دحورا وأقصاهم عن البلاد إلى حيث لا يعودون ، فاجتمعت القلوب على محبته وأطبقت على الغبطة به فحسده الميكادو والحاكم فتنابذا فتظاهر لكل منهما حزب وتقاتلا طول حياتهما وورث عنهما العداوة اخلافهما إلى نحو مائتى سنة

وفى سنة ١٥٤٢ يممها البورتغاليون فقوبلوا بالاكرام وأنزلوا على الرحب والسعة فزحفت على أثرهم جيوش الدعاة والمبعوثين فلقوا

فى مبدإ أمرهم عطفاً وهشاشة حتى أدخلوا الى عقائدهم ألوفا كثيرة من اليابانيين ، ولكن تيقظت فى الأمة عوامل الأنفة فقاموا ضدهم بثورة فظيعة قتلوا فيها ألوفاً مؤلفة من الأبرياء واحبطوا بذلك ماشاده أولئك الداعون احبطاطاً نهائياً .

وفى سنة ١٦٠٩ جاءها الهولانديون للتجارة فأنزلوهم فى جزيرة فرياندو ولم يقابلوهم الا بالاحسان لملازمتهم لآداب الضيافة وحقوق الجوار وفى سنة ١٨٥٨ سمح اليابانيون للفرنساويين والانكليز والروس بسكنى بعض الموانى للاتجار ، ولكنهم لم يلبثوا أن دب الى نفوسهم دبيب الحقد على الأجانب فقاموا ضدهم بمذبحة هائلة أرعدت لها البلاد الأوربية وأبرقت فجاءها الانكليز بأسطولهم واصطلحوا مع حكومة اليابان على أداء التعويضات لأهالى المقتولين وأبرموا معهم معاهدة لايدل ظاهرها على باطنها . وفى سنة ١٨٦٣ تولى دست الحكومة السياسية والحربية رجل حازم بصير بأعقاب الأمور فرجا الميكادو أن يجمع جمعية عامة من سادات البلاد وعظمائها للاتحاد على وضع قاعدة ثابتة يقوم عليها أمر حكومة البلاد قطعاً لألسنة المشاغب والفتن ، وكبحاً لجماح أولئك القادة زعماء البلاد . ففعل بما أشار به عليه وجمع أولئك الأعيان ففهموا مايراد بهم فأجبروا الامبراطور على الانضمام الى حزبهم وأعلنوا حزب الاصلاح الذى يرأسه ذلك الرجل الحازم بالعداء وأصلوها حرباً دموية تأييداً لمراكزهم وتثبيتاً لنفوذهم ولم يشعروا أنهم يسعون إلى حتفهم بظلفهم فان هذه الحركة أيقظت عواطف

الحمية والأنفة فى الأمة فقامت ضد زعمائها بحركة عدائية هائلة صادرتهم بها فى أملاكهم ومحت ألقابهم ومحقت آثارهم وتخلصت من سلطتهم وبذلك أصبح الميكادو خالصا من شرهم آمنا من ثقل سيطرتهم. ولكن زعماء هذه الثورة الأهلية لم يدعوا الميكادو يتمتع بالنفوذ المطلق على الطريقة الاستبدادية بل أجبروه على قبول تشكيل مجلس نواب يتولى أمر حكومة البلاد على الصفة التى يتولاها كل مجلس من هذا القبيل فى الأمم المتمدنة. وتم ذلك فى سنة ١٨٧١.

هذه صورة مصغرة جدا من التاريخ الاجتماعى للأمة اليابانية سردناه للقارىء سرداً واتبعنا الحوادث فيه بالحوادث اتباعاً سريعاً متسلسلا ليرى بعينيه سير نواميس الترقى كيف بعثت الأمة اليابانية من دور الى دور وأفاعيل الحوادث كيف مهدت أمامها السبل، وذللت دونها الصعاب تذليلا طبيعياً مقولا كما حصل نظيره فى كل أمة من الأمم الأوربية. ولكن مع هذا الفارق الهائل وهو أن تلك الوقائع الممهدة للرقى أنتجت فى الأمم الأوربية نتائجها بسرعة وانتظام بخلافها فى الأمة اليابانية فقد كانت أدوارها بطيئة جداً حتى أن المقدمة التى كانت تضعها الحوادث فى قرن من القرون لا تنتج نتيجتها إلى بعد ثلاثة أو أربعة قرون ولهذا البطء فى السير أسباب اجتماعية ليس هنا محل بسطها.

نظرة على ما تقدم

اذا تدبر القارىء فيما كتبناه فى مقالتنا السابقة عن موجز جغرافية اليابان الطبيعية والاقتصادية والعلمية والصناعية وعن ملخص تاريخ حياتها السياسية يتحقق أن الأمة اليابانية كانت حاصلة من منذ ألفين وخمسمائة سنة على سائر الشروط الحيوية الموصلة للمدنية بأخص معانيها والمؤدية الى الحضارة الكاملة تأدية طبيعية معلومة المقدمات والنتائج، بل نشعر بأن قارئنا يعجب كيف أن هذه الأمة وجارتها الضخمة الأمة الصينية الحاصلتين على هذه الوسائل الحيوية والموجودتين بين هذه العوامل العمرانية لم تصلا من المدنية الى مدى أبعد مما وصلت اليه الأمم الأوروبية ولم تسبقانها الى أقصى غايات الابداعات الصورية بقرون عديدة فتكونا اليوم أستاذتين لجميع طوائف الجنس الأبيض المعجب بذاته الفخور باصالته

لا جرم أن هذا البطء فى سير تلك الأمم وتلكؤها فى تدرجها هو الذى حدا بعلماء الانسان لأن يقرروا حكمهم الصارم بأن الجنس الأصفر أدنى من الجنس الأبيض رتبة وأنه ليس مستأهلا لأن يلحق اشأو مناظره فى شىء وأن النفوذ والسيطرة ستكونان للثانى على الأول فى سائر الأدوار المستقبلة.

قلنا ان من يتمعن فى الأحوال الطبيعية الموجودة فيها الأمة اليابانية لا يندهش من تمدنها وتحضرها بل يندهش بالعكس من تأخرها

فى المدنية عن الأوروبيين والتجائها الى تقليدهم واحتذاء مثالهم مع أن العوامل العمرانية التى توفرت لها لم تتوفر جميعها لأى أمة من أمم الغرب المتمدنة .

تأمل معى فى خطارة هذه العوامل ثم قل لى بعد ذلك أى مانع يمنع مثل هذه الأمة من أن تنال من الرقى الأدبى والمادى القسط الأكبر والنصيب الأعظم بل أى مانع يمنعها من أن تكون فى مقدمة سائر أمم الأرض حضارة وصناعة .

أمة تعد بعشرات الملايين أقوياء الأجسام والأحلام فى بقعة من الأرض كثيرة الخصب والريف ، غزيرة الأنهار والجداول ، ثرارة العيون والبحيرات ، صالحة لأن تنبت كل أنواع النباتات وتقيت كل صنوف الحيوانات ، معتدلة الهواء جيدة المناخ كثيرة المعادن والمواد الأولية الباعثة لأرقى الصناعات اليدوية والآلات الميكانيكية ، يكتنفها البحر الخضم من جميع جهاتها ، بينها وبين أكبر أمم الأرض وأقدمها مدنية وهى الأمة الصينية أواصر من القرابة ووشائج من الصلات السياسية جرت كثيرا من الأحيان الى حروب دموية بقصد استعمار بعض البلاد الساحلية لترويج تجارتها الوطنية . أمة توجد فى مثل هذه الشروط الطبيعية والاجتماعية ، كيف لا تزهر فيها المدنية ، ولا تشرق عليها شموس الحضارة من أزمنة قصية .

الانسان مسوق بطبعه إلى الترقى سوقا طبيعياً ، فهو الكائن الراقى الوحيد على سطح الأرض ، وهو لا يتأخر عن متابعة سبيله

إلا لحوائل طبيعية ، أو حواجز أدبية قهرية ، أما الحوائل الطبيعية فهى أن لا يجد ما يساعده على الترقى ، كأن يوجد فى أرض جدباء تجبره على استيعاب كل قواه فى طلب قوته الوقتى ، والرحلة من محلة إلى محلة للتحسس منه . أولا تكون أرضه خصبة ، ولا حاصلة على المواد الأولية الضرورية للصناعة ، كالحديد والنحاس وغيرهما . وأما الحواجز الأدبية القهرية ، فكأن يكون تحت سيطرة حكومة باغية جائرة ، أو مضغوطا عليه من طائفة جاهلة بسلطة عقائد باطلة ومع هذا كله ترى بواعث المدنية المتسلطة على عواطفه القلبية لا تزال تعمل فى فؤاده وتغلى مراجلها فى صدره حتى تلجئه إلى كسر جميع السداد التى أمامه ، واقتحام كل تلك العقبات التى بين يديه . فان كان تأخره لنقص شىء من مقومات المدنية فى بلاده ألقى بنفسه الى خارج أرضه وسعى فى الحصول على تلك المقومات بطريق المعاوضة والمبادلة ، بأن يعطى ما يفضل عنه من مزايا بلاده ، ويأخذ بدله مما لا بدله منه فى تقويم أمر حياته ، فلا تلبث أن تراه متلألأ فى أنوار المدنية ، ساحبا ذيول الحضارة فى أبهى مظاهرها .

وأما إن كانت تلك الحواجز أنظمة أو عقائد ضالة فقد شوهد فى تاريخه أنه ينوء تحت كلاكلها حينا ثم يثور ضدها ويكسر كل مايقوم أمامه من جهتها ويطغى عليها على قدر مارضخ لها ، ثم يسلك من طرق الحياة ماينطبق على استعداده ويلائم أميال طبيعته . ومن يتدبر فى أحوال مدنيات الأمم القديمة والحديثة يعلم تفصيل ما أجملناه فى هذه

الكلمات .

اذا تقرر هذا فالانسان لا يصده عن المدنية شيء الا أن يكون فى بقعة محرومة من كل مزية طبيعية وليس فيها ما يصلح للمعاوضة أو يكفى لتكاليف المبادلة . أو يكون قاصر المواهب الطبيعية ناقص القوى الأدبية فيظل كما وجد ألوفاً من السنين حتى يفنى ، أو يأتيه داع للحياة غير منتظر ، أو يبقى فى تلك الحالة بقاء غير محدود .

أما الأمة اليابانية فلم تكن محرومة قط من شيء من هذه المزايا من أية جهة من الجهات ، بل كانت من سائرها فى بحبوحة لم توجد فيها أكثر أمم الأرض . فأى عجب فى أنها ترتقى وتدهش العالم بمدنيتها . لا عجب فى ذلك أبداً وقد ارتقت من منذ ألفين سنة رقياً طبيعياً تدريجياً ولكنها وقفت فى دائرة جازها الأوروبيون وسبقوها فيها بعد أن كانوا دونها بمراحل ، بل ان اليابانيين أيام كانوا يدحرون جيش كوبلاى خان فاتح الصين الذى داهمم بأربعة آلاف سفينة تحمل ربع مليون من الضراغم كان الروسيون حاملين نير حكومة كبتشاق المغولية محرومين من نعمة الحياة الاستقلالية . بل ان العهد الذى كان فيه الأوروبيون لا يعرفون معنى المدنية كان لدى اليابانيين فلاسفة يضعون أصول الشرائع ويبحثون فى أسرار العلوم والصنائع ، فهل العجيب بعد هذا أن تساوى اليابان فى تمدنها أمة أوروبية ؟ أم العجيب أن لا تكون أرقى من أرقى أمة أوروبية وأستاذة كل من يشرئب للحياة المدنية ؟

ان كان لابد لنا من أن نندهش ونتعجب من معجزة اجتماعية

تحصل بغير الفواعل الطبيعية ، فهاهى الأمة العربية نهضت فى القرن السابع نهضة فجائية بغير أسباب عمرانية وجودية بل بالروح الالهية التى جاءها بها النبى صلى الله عليه وسلم وماذا عساك أن تجد من الفواعل الاجتماعية فى أمة جاهلية بدوية ظلت آلافا من السنين محافظة على بداوتها وجاهليتها فى بقعة من أجدب البقاع تربة وأشحها نباتاً وأنزرها ماء . لا أنهار تتخلل صحاريها الرملية ، ولا عيون تعوض لها بعض ما حرمته من تلك المزية ، ولا معادن تسد باستخراجها خاخلة فاقتها ، وتجبر بالمعاوضة بها مفاقرها . ولا أهمية جغرافية تميل بأعناق الفاتحين اليها ، وتحنو بعواطف عشاق الملك عليها ، حتى كانت تستفيد من تلك المجاورة والمزاحمة ما تقوم به أمرها ، أو تصلح به من شأنها . لا جرم دامت هذه الأمة آلافاً من السنين على هذه الحالة الجاهلية البدوية قد استوعب عواطفها وملكاتها الفطرية آلام تنازع البقاء والبحث عن الغذاء فلم تفرغ طرفة عين للفكر فى ذاتها والبحث عن شؤونها . وقد استغرقت حاجاتها الضرورية سائر أوقاتها فلم تجد فرصة ترجع فيها الى نفسها ، وتتأمل فى مصير أمرها . وناهيك بأمة لبثت ألوفاً من السنين عائشة على هيئة قبائل متنافرة ، وفصائل متغايرة ، لم تصعد بها عوامل الرقى للم شعثها ، وجمع كلمتها ، وكيف يفكر فى الحياة الاجتماعية من لم يأمن على نفسه وولده غائلة الهلاك جوعاً طرفة عين ؟ أو كيف تبحث عن مستقبلها السياسى أمة لا تدرى ان أبطأ عنها الغيث سنة كيف تعمل وإلى أى البقاع ترحل ؟ لا جرم بقيت هذه الأمة ملازمة لأبسط

أحوال البداوة ترعى الابل وترود مسارح العشب والكلأ ومن كان منهم فى معزل عن أنياب الفاقة لامتلاكه عدداً محدوداً من الابل كان يذهب إلى الشام ببعض صنوف التجارة التافهة ويعود بشىء لا يعطيه من رونق المدنية وبهاء الحضارة قدرما لأفقر رجل من الأمم المتمدنة فى ذلك العهد.

أنظر الى هذه الأمة فى هذه الحال المؤيسة فى فقرها وجاهليتها، وبعدها عن حركة العلوم والمعارف، ونأيها عن ساحات المنازعات والمزاحمات السياسية وانقسامها، وتشتتها وعدم حصول أرضها على أى شرط من شروط تحسين المعيشة الباعث الى نوع من أنواع المدنيات. ثم انظرها وهى ناهضة تلك النهضة الفجائية فى أقل من ربع قرن تحمل للعالمين صولا للحياة جديدة، ونواميس للسعادة سديدة. ومن أعجب العجب أن هذه الأمة لم تقم بتقليد أمة من أمم المسكونة أو باحتذاء أمثال مدنية من المدنيات الحية كما فعلت أمة اليابان، ولكن قامت بذاتها مستقلة عن جاراتها لم تستعر حياتها من أحد، ولم تتحرك بحركة أمة من الأمم. ومما يزيد على هذا فى العجب ويحير الفكر ويوجب غاية الدهشة أنها لم تقم قومتها تلك مطالبة بمجرد حق الحياة بين الأمم قانعة بمزية الانحشار فى زمرتها مكتفية بشرف القيام فى صفها كما هى حال الأمة اليابانية اليوم مع الأمم الأوربية. بل قامت مطالبة بحق السيطرة على جميع الشعوب الحية راميـة الى غرض التربع فى دست الزعامة العامة على سائرها. معطية نفسها حق تهذيبها وتقويمها نائطة بذاتها وظيفة تأديبها

وتعديلها . ثم لم يكن هذا مجرد جعجعة أو محض ثرثرة بل لم تجل فى الأرض جولة سريعة حتى دان لها الكل، وأذعن لاشاراتها الجميع ، وأصبح الكافة معجبين متعجبين من أن يظهر أهل البادية بهذا المظهر الفخيم ، والملك العظيم .

وأى عجب أكبر من هذا : أمة لا عهد لها باجتماع ولا ملك ولا نظام ولا تهذيب ولا تعليم ولا مدنية من أى نوع كانت ولا ولا مما يعرف من مزايا الأمم المتحضرة بل بالعكس فى جاهلية جهلاء وغيبة عمياء تقوم فجأة فتبرهن للعالمين أجمعين بأنها أحق الأمم بالسيادة وأجدرها بالسياسة وأولاها بتهذيب الطاغين وتأديب العاتين وكبح الظالمين وتعليم الجاهلين وتعديل المعوجين . أليس هذا أولى بالعجب وأجدر بأن يكتب بنور العيون لا الذهب .

اللهم صل على مشرق هذه الروح العالية ، ومطلع هذه النفحة السامية وسلم عليه وعلى آله وصحابته وتابعى طريقته . آمين .

ماوراء المادة

نحن ننقل تحت هذا العنوان بعض مانطلع عليه فى مؤلفات أوربا وجرائدها ومجلاتها مكتوبا تحت امضاء الأساتذة والدكاترة وكبار المؤلفين . مضربين عما يكتبه كل من عداهم ليكون تعجب القارىء أعظم ، واندهاشه أكبر ، ولانريد من هذا الاقامة الأدلة المحسوسة

على أن زعماء العلم الأوروبى من الاسبرتزم ومدهشاته فى أمر مريج وأنهم قد خضعوا لخوارقه رغم أنفهم بعد غطرستهم السابقة وتشددهم الماضى ، وان الذين يقلدونهم منا فى تعاليهم عن النظر وتشامخهم عن الرضوخ لعقيدة وهما منهم ان علماء أوربا لم يزالوا كذلك ، انما يقلدون جيلا مضى ، وقوماً بادوا . فليرجعوا من قريب خيراً لهم والا « ان الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين » كتب الأستاذ (موتنييه) الفرنساوى ، والاستاذية عندهم رتبة علمية لا ينالها الا افراد نابغون فى بعض الفروع العلمية . كتب فى المجلة الروحية الصادرة فى شهر مايو سنة ١٩٠٤ تحت عنوان (الاسبرتزم مثبوت علمياً بواسطة الكتابة بدون واسطة والعرانة) ثم ذكر (مقدمة يقارع فيها بعض الكتاب الذين يكذبون بالاسبرتزم ولم يشاهدوه ، قال فيها : « وهل عرف المسيو جاستون »
« مرى كل الحوادث النفسية ؟ هل رآها كلها واختبرها اختبار »
« الباحث النزيه الصبور الخالى من الهوى ؟ ان قال لا فقد حكم على »
« نفسه وانحسمت المشكلة ، وان قال انه خبير بهذا الموضوع »
« ويستطيع أن يتكلم فيه كلام الأستاذ فيه ، فأنا أعرض عليه مسألة »
« نفسية بسيطة راجياً فضله فى أن يحلها ويفسرها . أنا لا أريد أن »
« أن استرهبه ومع ذلك فلا أستطيع أن أخفى عنه أن من كل »
« الفروض التى تخيلت فى تعليل خوارق الاسبرتزم لم يفلح الا الفرض »
« القائل بنسبتها إلى أرواح الموتى . واليك المسألة : »
« أخذت خمس صحف بيضاء وكتبت على كل منها سؤالا ثم طويت »

« كل من هـذه الصحائف أربع طيات وأضفت اليهـا خمس صحف »
« أخرى بيضاء لأخـذ الأجوبة عليها وطويتها كما طويت اخواتهـا »
« ووضعت الصحف كلها فى مظروف ولصقته لصقاً محكماً . ثم جئت »
« باردوازين جديدين اشتريتهما للتجربة التى عزمت على عملها خاصة »
« ثم وضعت هذا المظروف مع قطعة من الرصاص بين ذينك »
« الاردوزان وأطبقتهما على بعضهما اطباقاً شديداً وربطتهما بحبلين »
« متقاطعين . لمـا أعددت لنفسى هذه العدة ذهبت الى الواسطة »
« وكانت امرأة مشهورة فى البلدة بنزاهتها وسمو خصيصتها فى الوساطة »
« بين الاحياء والاموات وبحدوث الكتابة من الأرواح بحضرتها . »
« فقوبلت وأدخلت إلى حجرة فى الطبقة الأولى من البيت وسط »
« فى الاتساع قـد اعدت للتحضيرات الروحية وهى محلاة باثاثات »
« بسيطة ولـكن متينة . وصادفت فى وسط تلك القاعة مائدة »
« مربعة عليها غطاء . فما كان منى إلا أن رفعت الغطاء لأتحقق من »
« عدم وجود أى آلة ميكانيكية تحتها ثم فتشت كل شىء بعناية تامه »
« وبعد أن تحققت من عدم وجود شىء يشك فيه فى الغرفة جلست »
« بجانب تلك المائدة ووضعت عليها اردوازى ولم أفقدهما من بصرى »
« ولا لحظة صغيرة من عهد دخولى دار الواسطة . وكانت الساعة »
« إذ ذاك (٣) فانتهت الجلسة فى الساعة (٣٠ و ٣) أى لم تمكث »
« اكثر من عشرين دقيقة . »
« الواسطة امرأة شقراء لم يتجاوز عمرها الثلاثين سنة طيبة »

« البنيـة باشة وذات معارف عادية وهيئتها بسيطة طبيعية وتشنجها »
« لايكاد يكون محسوساً ، وكانت ذاهبة آيبة فى الغرفة تحدثنى بمـا »
« تراه ثم أخذت قطعة من الورق الأبيض وكتبت ألقاب الأشخاص »
« الذى ذكرتهم أنا فى أسئلتى المظروفة وكنت الاحظ يديها وهى »
« تكتب فوق المائدة . وبعد ربع ساعة آذنتنى بأن الجلسة انتهت . »
« فأخذت اردوازى اللذين لم يتحركا قط من مكانهما وفككت »
« الحبـل عنهما فوجدت المظروف لم يمس ملطقاً ولكن القطعة »
« الرصاصية لم أجدلها أثرا ، ففضضت المظروف وأخرجت منه »
« الورق المكتوب عليه المسائل ثم الورق الذى كنت أعددته »
« للأجوبة فوجدته مملوءاً كتابة بالقلم الرصاص (تلك الأوراق »
« موجودة تحت تصرف من يريد فحصها

« وجدت من نص الاجابة أن شخصية مستقلة هى التى أجابت »
« تلك الأجوبة بطريقة لا يشك فى حقيتها . وغير ذلك فان بين خط »
« الأجوبة وخط الانسان الميت من التشابه بحيث أن أهل بيته عموما »
« أدركوه وقضوا منه بالعجب »

« لأجل أن أرى المسيو جامرى كنه الاحتياطات التى اتخذتها »
« ضد أى غش أو تزوير من قبل الواسطة ولأجل أن اتقى من »
« قبل حضرته بعض الاعتراضات عديمة الجدوى أضيف الى ماسبق : »
« (أولا) بأن تلك الواسطة تجهلنى كل الجهل وانى غريب فى »
« تلك البلدة »

« (ثانيا) ان تلك المقابلة مع الواسطة كانت باكورة تعارفى بها »
« وانها لم تكن تقدر على معرفة شىء منى ولا من عائلتى »
« (ثالثا) انه لم يحصل بينى وبينها قبل التحضير أى محادثة تمهيدية »
« مما كان يمكن أن تستفيد منها بعض فوائد تدلها على ما أنا بصدده »
« (رابعا) الجلسة حصلت فى ضوء النهار الناصع فى الساعة »
« الثالثة بعد الزوال »
« (خامسا) لم يدخل جلسة التحضير شخص ثالث فى أثناء »
« الجلسة »
« (سادسا) ظلت أبواب الحجرة مقفلة طول مدة التحضير »
« ولم يوجد فيها لا حواجز ولا أجهزة من أى نوع كان يمكن أن »
« تسهل التزوير »
« (سابعا) لم تمس الواسطة الاردوازين بيديها »
« (ثامنا) لم يكن فى جيبى لا خطابات ولا مكاتيب أخرى آتية »
« من قبل الأشخاص المكتوبة أسماؤهم فى الأسئلة مما يمكن أن »
« تعرف منه الواسطة الأسماء التى أمضت على الأجوبة التى تحصلت »
« عليها »

ثم قال : « وانى قد اتبعت هذه الجلسة بجلسة أخرى بعد ثلاثة »
« أيام فكان نجاحها كنجاح سابقتها لأنى توخيت لها الشروط »
« التى توخيتها للأولى »

« هل يحسر المسيو غاستون مرى بأنه يدعى أن هذه الألوف »

المؤلفة من الذين شاهدوا هذه الخوارق مغشوشون مغرورون ؟ وهل »
« يجسر بأن يزعم بأن البارون (غولدنستوب) الذى عمل أكثر من »
« ألفى تجربة روحية من سنة ١٨٤٦ الى سنة ١٨٦٩ أمام شهود من »
« أعلم علماء الأوروبيين والأمريكانيين وأجدرهم بالثقة كان مخرفا »
« مصابا بالهوس ؟ وان (ولاس) و (زولنر) و (فيشت) و (اكسون) »
« و (هار) و (دال) و (أوين) و (اكزاكوف) كلهم كذابون »
« خراصون ؟ »

الى أن قال : « يظهر مما تقدم بيانه بأن الاسبريتو الزم أصبح »
« مثبوتا بالبراهين العلمية لأن المعلومات التى تأتى من قبل الأموات »
« والعرافة التى يتمتع بها الوسطاء تثبت بطريقة لا يمكن دحضها »
« بأن المشاهدات التى تنتج من هذين الفنين الروحيين آتية من جهة »
« عقل أعلا من العقل المتلبس بالمادة أى من عقل يسمو على عقل »
« الانسان مثبوت وجوده ثبوتا علميا ويمكن مشاهدته فى كل حين »
« تتوفر فيه الشرائط الضرورية ؛ ومن هنا صارت الاعتراضات »
« التى وجهها المسيو جاستون مرى لا تحتمل النقد . وبما أنه لا يستطيع »
« أن يحل المسألة التى عرضناها عليه فى مقدمة هذا الفصل الا بفرض »
« تداخل الأرواح فنؤكد بأن هذا الغرض هو وحده الذى يمكن »
« قبوله والاعتماد عليه فى حل أمثال تلك المسائل »

« فاطلب النور ، ثم اطلب النور يامسيو غاستون مرى ، وان »
« كنت صاحب الحقيقة ، فتكرم بأعلامنا بها فانها مرمى أغراضنا »

ومنتهى آمالنا انتهى الامضاء

(البروفسور موتنيه)

نحن نجشم أنفسنا كل حين ترجمة مثل هذه الحوادث ليرى المسلم بعينيه . أن العالم أصبح على خلاف ما كان عليه فى مقدمة القرن التاسع عشر ، والذى قبله من جهة الاعتقاد بالعالم الروحانى ، واذا كان العالم الأوروباوى الذى كان ماديا بالأمس أصبح يعترف (دعك من استحضار الأرواح) بأن فى الانسان سرا مكنوناً ، ومعنى علو ياً مصوناً ، وان جسمه هذا غلاف مؤقت لهذا السر السماوى يضمه حينا ، ثم ينفرج عنه ، فيصعد ذلك السر الى عالمه النورانى يسبح فى سبحات الافاضات الرحمانية مع الأرواح الملكوتية ، قلنا اذا كان العالم الذى كان ماديا بالأمس . أصبح يقول هذا القول : أليس الأولى به منه المسلم الذى بعثه الله لاعطاء الروح حقوقها ، وتأمين العواطف الانسانية على مطلوبها ، واذا كان صرعى المدنية الجديدة يقارعون أنصار العقائدالحقة بالعلم الأوروبى فها هوالعلم الأوروبى وهاهم قادته وأراكينه ، حيارى أمام آية من آيات الحق جل شأنه ، أرسلها إرغاما لمعاطس الكفر ، وكسرا من شرة العناد ، والله غالب على أمره .

كروية الأرض ودورانها

كتب لنا حضرة الوجيد (السيد على بن أحمد بن شهاب) من

مدينة (بويتنزورغ) بجزيرة (جاوه) يسألنا هذين السؤالين : هل الأرض كروية ؟ هل الأرض تدور . فنجيب حضرته :

كروية الأرض معروفة منذ القدم من أول تكون الجرثومة الأولية للعلم تقريباً . وقداستدل آباؤنا الأولون على ذلك باختلاف شكل السماء بالنسبة للسائر على وجه الارض ، فانه لو كانت الارض سطحاً مستوياً لحفظت السماء شكلها دائما للرائى مهما تنقل على ظهرها . ومما جعل مسألة كروية الأرض حقيقة علمية بالنسبة للأقدمين ما رأوه عند كسوف القمر من ظل الأرض عليه ، فقد رأوا ذلك الظل مستديرا مما يدل واضح الدلالة على أن الارض كرة مستديرة ، كالشمس والقمر وسائر النجوم والكواكب . ويمكن أحدنا أن يستدل بنفسه على كروية الأرض بدليل محسوس ، بأن يقف على شاطىء البحر ، مراقبا اقبال سفينة من بعد بواسطة المنظار . ذلك أنه لا يرى أولا الاطراف سواريها ، ثم كلما تقدمت السفينة نحوه علت تلك السوارى عن سطح البحر رويدا رويدا ، حتى يظهر مقدم تلك الفلك (اى السفينة) ثم اذا أدمنت فى السير علا سطحها على سطح البحر قليلا قليلا على نسبة سيرها حتى ترى السفينة بأكملها طافية على وجه الماء . واليك دليلا محسوسا غير ماسبق على كروية الارض ، واشد منه اقناعا للعقل وازهاقا للشك أو هو ماحدث من تطواف الارض فقدطافها كثيرون فى شهور قليلة خرجوا من بلدة شرقا ثم عادوا اليها من جهة الغرب

ومما يشبه هذا الدليل فى الاقناع اختلاف ساعات الليل والنهار بالنسبه للممالك المختلفة فان فى الوقت الذى يكون فيه النهار مشرقا فى (جاوه) يكون الليل ضاربا اطنابه فى بلاد المغرب وما يليها وبالعكس وقد جرى علماء الهيئة من المسلمين على هذه النظرية من عهد دخول العلم اليونانى الى بلادهم بواسطة الخليفة المنصور العباسى ولم ير علماء الدين فى ذلك مايضر بالعقيدة . أما ماورد فى كلام الله تعالى مما يؤخذ منه انبساط الأرض ودحوها فالمستند عليه لم يحسن فهم كلام الله .

قال الامام الرازى فى تفسيره قوله تعالى « ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذى جعل لكم الأرض فراشا » الآية . قال واستدل بهذا على أن الأرض ليست كرة ، وهذا بعيد جدا . لأن الكرة إذا عظمت جدا كانت القطعة منها كالسطح فى امكان الاستقرار عليه ، والذى يزيده تقريرا ان الجبال أوتاد الأرض ، ثم يمكن الاستقرار عليها ، فهذا أولى والله أعلم .

أما دوران الأرض فهنا موضع الخلاف والنزاع ليس بين أبناء الأعصر الأول فقط ، بل بين أبناء هذا العصر أيضا ، وان كان العلم الرسمى الأوروبى والأغلبية العظمى فى جانب دورانها على نفسها وحول الشمس معاً .

مسألة دوران الأرض على ذاتها يظهر أنها كانت معلومة من القدم لتلامذة الفيلسوف (فيثاغورس) قبل الميلاد بنحو خمسة

قرون ، ولكن لم يشع هذا الأمر ولم يدخل الى العلم الرسمى الا بظهور الفلكى الشهير (كوبرنيك) البولونى فى القرن السادس عشر (١٤٧٣ — ١٥٤٣) فانه أثبت بالدلائل القوية المقنعة أن الأرض متمتعة بحركتين فى آن واحد . حركة رحوية على ذاتها و بها يتكون الليل والنهار ، وحركة محيطية حول الشمس لتكوين الفصول المختلفة من برد وحر واعتدال .

الأدلة على دوران الأرض حول الشمس غير حاصلة على صفة الأدلة المحسوسة ، حتى لا يمكن الخوض فيها كمسألة كرويتها ولذلك ترى نفراً من العلماء والرياضيين لا يزالون يتشككون فى ذلك ويشككون غيرهم . كتب المسيو درومون فى جريدة (ليبر بارول) الباريسية فى ٩ يناير الماضى يقول : « لم يقم الدليل للآن على صحة » « دوران الأرض كما كان يزعم جاليليه « (هو ناشر تعاليم كوبرنيك) » « ولا على أنها مركز العالم الشمسى وهذا المسيو ه . بوانكاريه أكبر » « علماء الهندسة والطبيعة الفرنساويين لم يجزم للآن بدوران الأرض » « لأنه يقول (يقولون ان الأرض تدور وانا لا أرى مانعا من » « دورانها ، فان فرض دورانها سهل القبول و يمكن به فهم كيفية » « تكون ونمو الدنياوات ، ولكنه فرض لا يمكن اثباته ولا نفيه » « بالأدلة المحسوسة ، هذا الفضاء المطلق أى الحيز الذى يلزم نسبة » « الأرض اليه للتحقق من دورانها أو عدم دورانها ليس له وجود » « فى ذاته . من هنا ترى أن قولهم الأرض دائرة لا معنى له البتة »

« لأنه ليس فى وسع أية تجربة اثباته لنا بالحس . هاتان الجملتان »
« (الأرض دائرة) و (الأسهل فرض أن الأرض دائرة) لا تعينان »
« إلا شيئا واحدا ولا تمتاز احداهما عن الأخرى فى معنى جديد »

وجاء فى جريدة (اكلير) الفرنساوية فى ١٧ فبراير الماضى تحت « إمضاء بعض الكاتبين قوله : « ليس من المحقق الثابت أن الأرض »
« دائرة ، ومع ذلك فهذه نظرية شائعة ذائعة وعقيدة علمية كبرى »
« لا يحسبون لها سقوطا . هذا وانك ترى أن نظرية الجاذبية العامة »
« قد عادت لمجال المناقشة وان قوانين كبلر اشتهرت بكونها فروض »
« ظنية ليس إلا (يريد الكاتب أن يقول اذا كانت نظرية الجاذبية »
« العامه وقوانين (كبلر) تعتبر فروضاً قابلة للبحث فلم لا يكون »
« الأمر كذلك بالنسبة لنظرية دوران الأرض

سرد العلامة الفلكى الشهير هذه الأقاويل فى (المجلة) الفرنساوية فى المجلد التاسع والأربعين ورد عليها بحجج فلكية منها :

لا يشك أحد فى أنه يرى كل يوم الشمس والقمر والكواكب »
« والنجوم تشرق من جهة الشرق ثم تستوى فى كبد السماء وتبلغ اوجها »
« الأعلى ثم تهبط غاربة نحو الغرب وتظهر فى اليوم التالى فى أفق »
« الشرق بعد أن تكون سرت من تحت الأرض » .

« ليس للانسان فى تعليل وتفسير هذه المشاهدة العامة الا أن »
« يفرض أحد فرضين : فاما أن يقول بأن السماء هى التى تدور من »
« الشرق إلى الغرب أو ان أرضنا هذه هى التى تدور أمام السماء من »

« الغرب إلى الشرق . »

« اذا فرضنا الفرض الأول وجب علينا أن نعزو للأجرام العلوية »
« سرعة فى الدوران مناسبة لابعادها عنا . مثال ذلك أن الشمس »
« التى تبعد عنا بمسافة تقدر بقطر الكرة الأرضية ٢٣،٠٠٠ ضعف »
« يجب أن تسرى فى الاربعة وعشرين ساعة محيطاً أكبر من محيط »
« الأرض (٢٣،٠٠٠) ضعف أى بسرعة (١٠،٦٩٥) كيلو متر فى الثانية »
« الواحدة. والمشترى الذى هو أبعد من الشمس عنا بخمسة أضعاف »
« يجب أن يكون سيره بسرعة (٥٣،٠٠٠) كيلومتر فى الثانية الواحدة . »
« ونبتون الذى يبعد عنا أكثر من الشمس بثلاثين ضعفا يلزم »
« أن يتحلى بسرعة تقدر بـ (٣٢٠،٠٠٠) كيلومتر فى الثانية . وأقرب »
« نجم الينا المسمى (الفادوسانتور) الذى يبعد عنا أكثر من بعد »
« الشمس (٧٥،٠٠٠) ضعف يجب أن يجرى فى الجو بسرعة »
« (٢،٤٩١،٠٠٠،٠٠٠) كيلومتر فى الثانية الواحدة وكل النجوم أعلامنا »
« بما لا يمكن حسبانه كما لا يخفى . فان كانت الأرض هى الثابتة والكواكب »
« هى الدائرة وجب أن تكون كل هذه الدورانات المدهشة من »
« تلك الأجرام الكبيرة حاصلة حول نقطة صغيرة هى الكرة »
« الارضية عرض هذه المسألة الفلكية بهذه الصفة هو بمثابة حلها »
« اللهم الا أن يجحد بالأقيسة الفلكية والعمليات الهندسية المتوافقة »
« تمام التوافق ودوران الأرض الليلى ، وهى حقيقة مثبتة بالواقع »
« إن فرض دوران الكواكب هو بمثابة فرض دوران الكانون »

« والمطبخ والبيت والبلدة بأجمعها حول قطعة من اللحم تشوى »
« بالنار كما تخيل ذلك أحد المؤلفين الأخلاقيين »

هذ مايقوله (كاميل فلا مريون) ، فان تركته جانبا ونظرت الى مايقوله الأستاذ الفلكى الطائر الصيت الذى يعد أول رياضى الآن فى البلاد الفرنساوية كما جاء فى (المجلة) الفرنساوية رأيته يقول :
« اذا فرضنا أن السماء مغطاة بالسحب دائما وان لا وسيلة لدينا »
« مطلقا لرؤية الكواكب ، كان يمكننا مع ذلك أن نستنتج دوران »
« الأرض بانبعاجها وبالأولى بتجربة (فوكلت) (١) ومع ذلك »
« لو قلنا فى هذه الحالة ان الارض دائرة فهل يكون لهذا القول معنى؟ »
« واذا كان ليس هنالك فضاء مطلق فهل يمكن الدوران الااذا كان »
« منسوبا لشىء موجود ؟ ومن جهة أخرى كيف يسوغ لنا أن »
« نقبل استنتاج (نيوتن) والتصديق بوجود الفضاء المطلق »
« لنرجع الى الفرض الذى فرضناه أولا وهو ان هنالك سحابا »
« كثيفة تحجب الكواكب عن أعين الناس فلا يرونها بل ولا »
« يتوهمون وجودها ، فكيف يعلم أولئك الناس حينئذ أن الأرض »
« تدور ؟ كانوا بلا شك يعتقدون أكثر من أسلافهم بأن الأرض »
« التى تحملهم ثابتة غير متحركة ، وكانوا ينتظرون آمادا طويلة حتى »
« يأتيهم (كوبر نيك) . ثم ينتهى الأمر بمجيئه ، فكيف يجىء ؟ »

(١) هو طبيعى فرنساوى اثبت دوران الأرض الليلى بواسطة البندول (الرقاص) توفى سنة ١٨٦٨

« قبل مجيء كوبرنيك يكون العلماء قد اخترعوا شيئاً من موالاة »
« الجد والتنقيب ليس بأعجب من كرات (بطليموس) الزجاجية »
« ويكونون قد جمعوا الفروض على الفروض وزادوا المسائل تعقيداً »
« واشكالا حتى يأتى (كوبرنيك) المنتظر فيكنسها كلها دفعة واحدة »
« وهو يقول : من الأسهل أن يفرض الانسان ان الأرض تدور »
« وكما أن (كوبرنيكنا) جاءنا يقول : « من الأسهل أن نفرض »
« أن الأرض تدور لأن قوانين علم الفلك تدخل بهذا الشكل فى »
« قالب أسهل » كذلك يأتيهم (كوبرنيكهم) وهو يقول : « من »
« الأسهل أن نفرض أن الأرض تدور لأن علم الميكانيكا يصبح »
« بذلك فى قالب أسهل » وهذا لا يمنع من أن يكون الفضاء المطلق »
« غير موجود أعنى أن العلامة التى يجب عزو الأرض اليها للتحقق »
« من دورانها ليس لها وجود حقيقى . ومن هنا ترى تأكيدهم بأن »
« الأرض تدور لا معنى له لأنه لا يوجد ما يثبته بالتجربة . الخ »

يرى قارئنا من تضارب هذه الأفكار بين أكبر علماء الارض ان أمر دوران الأرض غير حاصل على ما يجعله من العلوم البديهية فان مثل العلامة (بوانكاريه) لم يكن يتجاسر على مثل هذا القول وهو أكبر رياضى فرنساوى اليوم ان لم نقل أكبر رياضى فلكى فى العالم اذا لم يكن على ثقة تامة مما يقول وعلى بينة مما يرمى اليه . ولو كان المعلمون فى أثناء تدريسهم للعلوم الطبيعية يسلكون مسلك العلماء فى الاقرار بالجهل فيرون تلامذتهم وجه الضعف فى المعلومات الطبيعية لأدوا

لتلامذتهم أكبر خدمة لأنهم بهذا يعودونهم على الأدب النفسى فتنشأ نفوسهم معتادة على التواضع أمام فخامة الكون وجلالته والسجود أمام مبدعه ومصوره . ولكن أكثرهم يدرسون لهم العلوم المشكوك فيها والفروض الطبيعية الظنية بصفة حقائق ثابتة فيتذرع بها أولئك التلامذة الأغرار متى كبروا الى الالحاد ونفى الروح والخلود ولا يدرون أنهم يتمسكون بالظنون « وان الظن لا يغنى من الحق شيئاً »

استشكالات على دوران الأرض

كتب لنا حضرة المحترم سلامة أفندى محمد بنظارة الأشغال العمومية كتاباً يقول فيه :

(أولا) هل ورد فى القرآن الكريم مايفيد دوران الأرض ، ان كان ورد ذلك ففى أى آية ؟

(ثانياً) اذا كان القرآن أفاد أن الشمس والقمر يسبحان فى فلكهما وهذا محسوس بحاسة البصر فما فائدة دوران الأرض ؟

(ثالثاً) اذا قيل ان دوران الأرض يوجد الليل والنهار فما معنى قوله تعالى « فالق الاصباح » وقوله تعالى « ومن آياته الليل والنهار »

ان قيل انه لحصول الفصول ، فما معنى قوله تعالى « وهو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب »

(رابعاً) اذا كانت الأرض دائرة فلم لم يرد ذلك فى القرآن مع ماذكر فيه من تسخير الشمس والقمر والنجوم والسحاب والفلك فى البحر . هل دوران الأرض شيء صغير فى جانب تسخير السحاب ؟

(خامساً) ما هى البراهين الحسية التى يرتكز عليها الفلكيون والجغرافيون فى القول بدوران الأرض ؟

هل انفصلوا عنها إلى الفراغ وشاهدوها مستقلة عنهم كما يشاهد الواقف على الشاطىء السفينة جارية ، ولو كان فيها ينظر البحر سائراً ؟

(سادساً) هل قال أحد من مفسرى القرآن ان الأرض دائرة حول الشمس ؟ ان قيل نعم فمن هومن الأئمة وما رأى حضرتكم فى كلام الفخر الرازى فى هذا الموضوع وما الأوجه المفندة لكلامه؟

نقول : ان ما كتبناه فى هذا الفصل كاف فى الاجابة على أسئلة حضرة الكاتب المحترم ولا ينقصه الا بيان محظورية الاستدلال بآيات الكتاب الكريم على تقرير ورفض العلوم الطبيعية ويحسن بنا أن نعيد له هنا ما كتبناه فى هذا الصدد سنه ١٣١٧ فى مجلة « الحياة » : قلنا :

ان علم الفلك مثل سائر العلوم الطبيعية خاضع لناموس الترقى والتدرج فلوقارنت بين نظرياته التى كانت لدى المصريين والآشوريين قبل أربعة آلاف عام وبين نظرياته عند علماء الاسلام فى القرن الثالث والرابع الهجرى وجدت اختلافاً عظيما ورقياً محسوساً ، على أن سائر نظرياته رغماً عن تقدم العلم فى هذا العصر لم تزل ظنية .

ولايخفاكم أن أقرب الظنيات للحقيقة هو أسهلها انطباقاً على الظواهر المحسوسة وأكثرها حلا للمعاضل المجهولة . فلو كنا الآن نقبل نظرية دوران الأرض حول الشمس ونطرح رأى المتقدمين من ثبوتها فما ذلك إلا لكون النظرية الأولى تحل لنا من المسائل الفلكية ماتعجز النظرية الأخيرة عن حلها ، ولكن إذا ظهر رجل وأثبت لنا ثبوتها وقرر لنا نظرية علمية تحل لنا من غوامض المسائل العلوية أكثر مما تحل تلك النظرية ولا تعارض أحكام النواميس المحسوسة قبلنا رأيه واعتمدناه إلى ماشاء الله ، ثم قلنا هنالك : وان قوله تعالى « ويسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج » ترينا بطريقة جلية ان كل ماذكر فى الكتاب الشريف من أمر الكواكب والسموات لم يقصد به تعليم علم الفلك بل القصد منه لفتنا الى التدبر فى جلائل مصنوعات الله وتنور أسرارها ليس الا ، وعندنا أن تطبيق علم الفلك الحديث والقديم على ماجاء فى القرآن المجيد يعتبر تهجما غير محمود على كلام الله تعالى ، ذلك لأن القرآن الكريم إنما جاء بالقواعد العامة والنواميس الكلية التى لا يعتريها تبديل ولاتحوير والتى هى لسان حال الوجود ومطلوب الحياة الانسانية من جهتيها المادية والمعنوية ، فالساعى فى تطبيق العلوم الفلكية على آياته الكريمة يكون ملوما لأمرين : (أولهما) : ان القرآن العظيم إنما جاء لتربية الانسان وتهذيب خصائصه ، تلك التربية وذلك التهذيب اللذين يفكان أغلال المدارك النفيسة ويكسران مقاطر المواهب البشرية ويستخرجان أنوار الحقائق

الملكية من كثافات تلك الطبيعة الطينية ، ليتجلى الانسان فى الوجود إنساناً صالحاً لأن يلم بأسرار عالم الشهادة بحواسه الظاهرة ومساتير عوالم الغيب بمشاعره الباطنة كما حصل ذلك فى الأمة العربية الأولى فقد جاءها هذا الدين وهى على حالة البساطة الخلوية فهذب نفوسها وربى ملكاتها فانبجست ينابيع مواهبها الانسانية من صخور حياتها الوحشية ، فتجلت بعد بضع عشرات من السنين أمة طمست لألاء مدنيتها الحقة سائر المدنيات البهيمية وأمسكت بيمينها صولجان العظمة الدنيوية ونشرت فى الخافقين روح الحرية والعلم لدرجة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ البشر .

لاحداث مثل هذا الأثر التهذيبى جاء القرآن المجيد « ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » الى أن قلنا هنالك : إذا تقرر هذا كله نقول : نحن معاشر المسلمين الذين أنزل الله علينا : « وقل رب زدنى علما » والذين كان لآبائنا اليد الطولى فى ترقية العلوم وعدم الوقوف بها عند حد ، الذين سن لنا عليه الصلاة والسلام خير سنة فى الأخذ بما صلح من تجارب الغير يجب علينا أن نسابق الأمم فى ميادين العلوم الجديدة ونسعى فى زيادة مادتها لاسيما وقد ظهر أنها أقرب الى الحقيقة مما عداها . وبناء على هذا يجب علينا وجوباً حتماً أن نلفظ آراء المتقدمين فى علم الهيئة ونتمسك بآراء المتأخرين منهم لكونها تحل لنا من معاضل الظواهر الفلكية مالا تحله لنا تلك منتظرين مايهدينا الله اليه فى المستقبل

بمزيد التواضع . وكيف لا يتواضع للعلم قوم أنزل عليهم ربهم « وما أوتيتم من العلم الا قليلا . »

ماهو الاسلام

(زيادة بيان)

لو أدرك الناس كافة معنى الاسلام وفقهوا كنه مايرمى اليه لما بقى على وجه الأرض من يدين بدين آخر ، لأنه مطلوب كل روح ومرمى كل قابلية ، وأنشودة كل استعداد ، ومطمأن كل احساس ، ومنتهى كل عقل من معنى الدين والايمان ، وهذا سر قوله تعالى « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ولولا أن الاسلام دين ينطبق على كل قابلية واستعداد ، ويلائم كل عاطفة واحساس ، لما كلف الخالق به عموم خلقه من إنس وجن وهو سبحانه وتعالى القائل بلسان الرحمة « لا يكلف الله نفساً الا وسعها »

هذا اجمال يستدعى شيئاً من البسط وانا موجزون الآن بحثاً فى هذا الموضوع نفصل به للقارئ معنى تكليف الخلق كافة بهذا الدين ونفسر له مايقوله علماء المسلمين من أن هذا الدين سيرث عموم الأديان وسيسود على جميع نوع الانسان وأنه منطبق على كل قابلية وصالح لكل جيل من البرية . وهو بحث جليل الفائدة يجلى لنا الحقيقة الاسلامية فى أجلى مظاهرها وأكمل معانيها .

(الناس أمام الأدبار)

الناس ثلاثة أقسام : فهم إما جهلة لايدرون من معنى الوجود والحياة والعالم ماعلمه بعضهم من أفواه بعض علما ناقصاً مشوشاً ، واما علماء وقفوا على غايات العلم على قدر مافتح الله على الناس من حقائق طبيعية وأسرار كونية ونواميس وجودية ، وإما أوساط لم ينحطوا الى حضيض الجهال ولم يصعدوا الى منصات العلماء فهم وسط بين ذلك . هذه أقسام ثلاثة كلية بينها أقسام ثانوية قد لاتعد ولاتدخل ضمن حد . فان الجهال أصناف شتى وطبقات عدة ، وكذلك العلماء والأوساط ، الا أن صعوبة هذا الاستقراء وعدم فائدته لنا فى موضوعنا هذا يقف بنا عند هذه الأقسام الكلية ، فانا إنما نريد أن نعطى قارئنا صورة جملية عامة لها صور تفصيلية لاتستقصى تتغير بتغير الأحوال والظروف ، ولا يمكن إدخالها الى قاعدة . فلندرس الآن كلا من هذه الأقسام من حيثية علاقته بالدين ، ليرى قارئنا تفصيل ماأجملناه له فى مقدمة هذه المقالة ببيان جلى وشرح كاف فنقول :

(حظ الجاهل من الدين)

قلنا الجهال أقسام لا يمكن حصرها بالضبط ولا فائدة لنا هنا من التقيد بها والسعى فى حصرها فانه يكفينا أن نعرف مقدار الجاهل فى العرف فقط .

لانريد بالجاهل من لا يقرأ ولا يكتب فقط فقد يكون الرجل

قارئاً كاتباً وهو من الجهل بحيث لايدرى أنه جاهل .

إذا كان يمكننا أن نشبه حياة العالم بحالة الانسان فى اليقظة فى وضوح مجال الوجود أمامه ، ونصوع أشيائه فى نظره ، وادراكه اطراد علله فى انتاج معلولاتها، وارتباط أسبابه بمسبباتها ، وانتظام حلقات الكائنات واتساقها ، يمكننا أن نشبه حياة الجاهل بحياة الانسان فى الحلم ، فهو يرى ويسمع ويبصر ويشم ويحس بكل ما هو من خصائص الحس ولكن احساساً ناقصاً غير مرتبط ولا متسق . يرى العلل ولا يجد من نفسه القوة على رؤية معلولاتها ، ويرى المعلولات ولا يرى عللها، فيخلط بينها خلطا وربما علل وجود الشيء بما هو سبب عدمه . يرى الحوادث تترى وتمر فيحسبها حوادث يقذفها الوجود على غير قاعدة ، وتلفظها الشؤون بغير ضابط لا حظ له من تتاليها الا الاشراف على آثارها والفرح والحزن بما يقع على حسه منها .

الجاهل قليل العجب بالبدائع ، ضعيف الشعور بالجمال على أخص معانيه لأنه لا يعرف النظام ولا يدرك معنى الائتلاف والاتساق ، دنيء الحظ من اللذة من حيث هى لأنه محروم من اللذات المعنوية لعدم قابليته للشعور بها ، ولا نصيب له من اللذة إلا مايشعر به جسده وهو مما يشاركه فيه العالم ويزيد عليه شعوره بمكان تلك اللذة من عالمها الخاص بها .

كل مناعلم الجهل علماً ذاتياً وذاقه ذوقاً وجدانياً حينما كان طفلا من بعد السنة السابعة الى السنة الثانية عشرة تقريبا ، وقد يزيد هذا

التقدير عند بعض الناس وقد ينقص على حسب الأحوال وهو أمر لا يغير جوهر الموضوع ، فكلناذاق الجهل وعلمه ويستطيع أن يعطى نفسه منه صورة على قدر طاقته فى تصوير المعانى ومكانه من حسن المذاكرة .

هذا الجاهل لاحظ له من الدين الا على قدر ما يخفف عنه من ألم فى مصيبة، ويخفف له من دمعة فى نازلة، من وعد بأجر ونعيم، وايعاد على معاقبة عدو لئيم، أمافيما يسمو على ذلك فشعور الجاهل به ضعيف ، وطلبه له أضعف ، لذلك ترى شيعة الباطل من الأديان جهالا كلهم وقد يكون معهم أفراد من الأوساط المتأثرين بآثار العادة والألف، لانهم لا ينتظرون من الدين الا التغزية فى وقت الشدة، والعدة بالتعويض فى دار بعد هذه الدار . وهذه الخاصية موجودة فى سائر الأديان على خلاف بينها فى وجوه تلك التغزية ووسائل ذلك التعويض وموجباته . لهذا لا يفكر الجاهل فى أن يثور على دينه بشك أو يقاومه بريبة وان كان يتألم من تناقض يجده فى بعض قواعده واختلاف تصادفه فى أمهات مسائله ، الا أنه ألم لا يلبث مع سلطان العادة وبطش الوراثة وسطوة التقليد الأعمى فتراه لا يكاد يضطرب بوجدانه هاجس من مقدمات الشك حتى تغشاه غاشيات الوراثة من كل فج ، فيعترى ضميره نوعا من الاغماء فلا يفيق الا وهو فى واد آخر من أمور حياته وشئون جهاده ، مع كل هذا فالجاهل المسلم أحسن حالا وأوسع صدرا وأقل هواجس وأروح روحا من أى جاهل من جهلة الأديان الأخرى ، لأنه لم يكلف باعتقاد

مالا يعقل ولا بتصديق ما لا يدرك ولا بعمل مايشق عليه ولا بقتل عاطفة من عواطفه فهو يحس من نفسه الحرية ويأنس من روحه الغبطة والسرور دائما ، فتراه فى صلاته وصومه ونسكه وتسبيحه حتى فى سلامه ودعائه فرحا مسرورا مطمئنا مرتاحا ، يكرر الحمد مرارا فى يومه على أن خلق مسلما ولا يرى فوق ذلك نعمة ، ولا يجيش فى صدره أن يرتد عن دينه لأى سبب يمكن تصوره ، بينما ترى جهال الأمم الأخرى يسلمون كثيرا ولو عنيت صحف الأخبار فى بلادنا وفى غيرها باستقصاء عدد الذين يسلمون يوميا لبلغ فى السنة مئات الألوف . وقد سمع عن أهل الملل الاخرى من يهدد أهله باسلامه اذا لم يسعفوه بمطلوبه ولم يسمع عن أجهل المسلمين مثل هذا التهديد مطلقا ولو بلغ ألمه وكدره أقصى مبلغه ، وفى هذا دليل محسوس على الطمأنينة السائدة على نفسه والهدو المستفيض على روحه .

(الأوساط والدين)

قلنا ان بين الجهال من الأمم والعلماء طائفة وسطى لم تنحط الى حضيض الجهل ولم تصعد الى قمة العلم فهى فى عالم وسط فى الحياة ويمكن تشبيه حالها فى الوجود بالنسبة لشعورها به وبنظام كائناته وارتباطها بحالة الانسان بين النوم واليقظة ، يشعر شعور الصاحى ويدرك مداركه وليس كالصاحى فى ضبط علاقات مايقع على حسه من الحوادث وادراك النسب الموجودة بينها ، وهو لا يعنى بذلك ولو عنى به وسعى وراء

تحصيله خانته وسائله فيحصل منها مايشبه الحقيقة وليس بها . ولو كلفت نفسك باستشراف أفكار هذه الطائفة وهى الشق الأعظم من متنورى الأمم لرأيت لكل من أفرادها فلسفة خاصة تشمل كل المسائل الانسانية فله فلسفة فى الدين والعلم والمدنية والعمران والأخلاق على قدر وسائله تعطيك شكلا فلسفياً كاملا وان كان ناقصاً من جهة الاستقراء والاستدلال وخالية من روح التحليل والتشريح ، ولكنها على أى حالة فلسفة يقنع بها أهل طبقتها ويقف معها ذووها من أهل درجتها

قلنا ان هذه الطائفة لها فلسفة على الدين خاصة بها فتتطلب دينا ينطبق على مقررات العقل ولا ينافى بدائه الحس

ديناً يحببها فى الحياة ولا يزهدها فيها

ديناً ينشطها للعمل ويحرضها على استصلاح المعيشة

ديناً يحثها لطلب العلم ويدعوها لاحترامه واستثماره

ديناً يبيح لها مجال الفكر ويفسح لها ميدان النظر

ديناً يسمح لها بالتمتع باللذائذ البدنية المعتدلة ولايحرم عليها الا الافراط فيها

ديناً يفيض على نفوسها روح الحرية ويبث فى أفئدتها حرارة الشمم والحمية

ديناً يفضى بالروح الى خالقها ولا يقيم الوسطاء بينهما

ديناً يرحمها فى ضعفها ولا يطلب منها فوق طاقتها ويتنزل معها الى

حيث هي ويعلو بها ولا يعلو عنها

ديناً يراعى بها أدوار الطبيعة ويلاحظ لها أطوار الحياة فيعطي لكل دور ماينا سبه ، ويقابل كل حال بما يلائمه

هذا هو الدين الذى يتطلبه الأوساط من الأمم ولانجد فيما نراه من صور الأديان الموجودة للآن ديناً فيه هذه الخاصية وزيادة غير الدين الاسلامى . لذلك ترى الأوساط من هذه الأمة أغير الناس على دينهم وأحماهم قلباً على كرامة ملتهم ، حتى أنه ليوجد بين أوساط هذه الأمة نهضه دينيه تشبه من كثير من الوجوه تلك النهضات التاريخية ، وقد سرى تيار هذه الحماسة الدينية فى الأفئدة كافة وصار من مقررات الرأى العام اليوم أن تأخر المسلمين سببه ترك الدين وهجر تعاليمه ، وهو اجماع عجيب فى عصر هجر الدين فيه كل الأمم الراقية والاسلام وان يكن حقيقا بهذا الاجماع وزيادة ، الا اننا نعجب من أن فتنة المدنية التى اجتاحت كل عاطفة فينا كيف أبقت على هذه العاطفة الدينية مع معارضة المدنية لها جملة وتفصيلا .

هذا عجيب فى ذاته ولا علة له إلا أن الاسلام أنشودة روحية غالية جدا لا تسطوا عليها فتنة مهما عمت وطمت ، بل ربما كانت الفتنة تبعث النفوس اليها وتأخذ بأكظام العواطف لهفاً عليها

كيف لا يكون التفاف أوساطنا حول الاسلام عجيباً وكل شىء فى الشرق الاسلامى اليوم منفر من الدين ومبعد من الايمان واليقين ؟ أمامهم مدنية قامت بلا دين ، بل بنت عظمتها من أنقاض مجد أشياعه

وهى للآن تعمل على اسقاطهم واراحة العالم منهم ، وبين يديهم جرائد ومجلات تدس لهم السم فى الدسم ، وتصور لهم العلم الأوروبى فى صورة وحش كاسرسطا على العقائد فقوضها ، وعلى التقاليد الانسانية فهدمها ، وعلى كل قديم فأوهى أساسه وتركه خاويا على عروشه ، وزيادة عن ذلك فبين أيديهم نفر من شذاذ الآفاق أتوا بلادهم للارتزاق وهم من عدم احترام دينهم بالمكان الأسفل ، وكفى بهم مثالا شيأ لامة اصابتها موهات سحر هذه المدنية اصابة أفقدتها التميز والرشد ، اليس اصرار أوساط المسلمين الآن رغما عن كل هذه الحوائل على الدعوة الى الدين والحماسة به يعد أمرا عجيبا مدهشا ؟ نعم والذى هو أعجب من هذا وأدعى للبحث هو ذلك السر الكبير الذى أودعه هذا الدين القويم ، وما منحه من لدن خالق الكون والانسان من تلك القوة الطائلة التى تسمح له أن يقارع بها كل هذه الحوائل الصورية والسواحر المعنوية والفتن الاجتماعية والفردية ويتغلب عليها ، ونكون فى القرن الرابع عشر الهجرى أو القرن العشرين الميلادى على الصفة التى نحن عليها ننتظر روحا اسلامية تحل بنا ، وحياة محمدية تفيض علينا ، فترجعنا الى مثل ما كان عليه اباؤنا صلاحا وكمالا .

لا يمكن أن يكون هذا كله الا لأن الاسلام حاصل على الخصائص التى ذكرناها وزيادة ، ولولم يكن كذلك لما أمكن أن يكون هذا أثره على العقول والعواطف فى عصر أصبح فخار أهله فضلا عن شعارهم الطعن عن الأديان والاقرار بتخلصهم من سلطة سائرها .

هذه الطائفة الوسطى تعترى أفرادها شكوك فى بعض مقررات الدين ، ولكنها شكوك مشوبة بعاطفة من الغيرة والحب ، فترى الرجل منهم يشك ويتمنى من صميم فؤاده أن يرزق بمن يزيل له شكه أكثر مما يتألم من فقد ابنه مخافة من أن يفصله ذلك الشك عن أنشودة روحه ، ومطمأن عواطفه وهو الاسلام ، وقد رأينا بأعيننا شاكين يتألمون من وجود الشاكين ، فهم بهذا الفعل المتناقض كأنهم يعترفون فى سويداء أفئدتهم بفساد شكهم وحقيقة الدين فى ذاته ، وإن كان عقلهم يتطلب برهاناً من عالم العلم يزدادون به قوة فى عالم الاعتقاد ، وهذه سلطة على النفوس قد لا تصادف فى متبعى دين غير هذا الدين .

يقول بعض المتفلسفين هذا تأثير قانون الوراثة ، وأثر من آثار قوة العادة ، ويغيب عنهم ان لقانون الوراثة حدا محدودا ولسلطة الأوهام العادية نفوذا معلوما ، فان الحقائق الساطعة ، بل الحوادث المضلة والفتن المفسدة المستمرة تقف أمام قانون الوراثة حيناً وأحيانا ، ثم تحمل عليه حملة منكرة فتبدد آثاره تبديدا ، وتصل فى اندفاعها الى أبعد ما تصل اليه لو كان الطريق أمامها خاليا ، لذلك ترى فجور الفاجر بعد الصلاح أشد وطأة من فجور من نشأ على الفجور من أول مرة

على ان هذا القانون الشديد البطش لماذا يصدق على المسلمين دون غيرهم ؟ هاهى شعوب أوربا لم تقو فيها الوراثة الدينية على صد كتائب الشبه والشكوك فجنحت إلى الالحاد عامتها وخاصتها وجاهر الكل بنبذه للدين على حد سواء . بل هذه أمم الشرق الأقصى من الهند الى

الصين إلى سائر الأمم الأخرى سواء كانت أسيوية أو أفريقية مما يستوى فى الجهل مسلموها وغيرهم ترى المسلمين ثابتين على دينهم ، مستبشرين بعقائدهم، وترى غيرهم من الوثنيين المجاورين يدخلون الى ملتهم أفواجا أفواجا بطريقة مستمرة تشبه الحوادث الطبيعية ذات النواميس الثابتة ، فلماذا تشتد آثار الوراثة على المسلمين وتضعف عن الآخرين ؟ أليس لكون سلطان الاسلام على العقول والأرواح قوياجدا يصعب ان لم نقل يستحيل زحزحته عن مكانه ؟

هذا الاثر بعينه ظاهر فى الطبقة الوسطى من المسلمين اذا قورنوا بأمثالهم من الأمم الاخرى وهو دليل محسوس على ما نقول من أن الاسلام مطلب كل روح وانشودة كل استعداد وقابلية

كما ان هذه الطبقة الوسطى لا تتنزه عن شك فى الدين كذلك هى عرضة لنفثات المشككين ولكن لا نتيجة لهذه النفثات الا تثبيتهم فى دينهم وإن كان ذلك خلاف المتبادر للذهن

ذلك لأن المشككين انما يتصيدون الشبه على القرآن وعلى الداعى اليه تصيدا ، ويتعسفون فى صوغها تعسفا بينا ، وفوق هذا كله فانهم يتسلحون لها بسلاح من الانتقاد ماض جداً فاذا تشبع أحد المسلمين بشبهاتهم وتسلح بتلك الأسلحة الانتقادية فى نقد ما يقدمونه اليه من تعاليم ديانتهم التى يدعون اليها كرر اجعا الى الاسلام رغم أنفه لما يجده أمامه من التناقضات والتعاكسات التى لاتدخل تحت حصر فيرجع للاسلام لارجوع المفضل له على غيره ، بل رجوع الموقن به المتحمس

له تالياً على نفسه قوله تعالى « أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله »

ثم ان هذا التشكيك على دين الاسلام من أولئك المشككين يفيد الاسلام من جهة النشر فائدة كبيرة جداً ذلك انا قلنا انهم فى تشكيكهم يتصيدون الشبه تصيداً ويستعملون سلاحاً انتقادياً حادا جداً فيطلع أهل ملتهم بحكم الحال على تلك المقالات الانتقادية الحادة سواء كانت فى الحوادث التاريخية أو فى الأمور الاعتقادية أو فى المعاملات فيكتسب الشاب منهم قوة انتقادية خاصة به تشتد وتضعف على قدر مداركه ، فاذا استعرض معتقداته أمام نظره بذلك العقل الانتقادى الصارم وأشرف عليها وهى على ما يعلم الناس من التناقض والمجافاة لبدائه العقل فى أكثر جهاتها رجع والشك الصق به من ظله ، فلا يجد له محيصاً إلا السكوت على مضض ، وإلى متى ؟

بهذه الصفة ترى أن هؤلاء المشككين يخدمون الدين الاسلامى أجل خدمة ، وان كانوا لا يتوهمون ذلك ولا يضطرب فى خيالهم ولو كان فى بلادنا إحصاءات . لرأينا أن عدد الداخلين فى الدين الاسلامى فى هذه الأيام الأخيرة التى انتشر فيها أولئك المشككون يزيد يوما بعد يوم ، وهو وان كان لانتشار العلم أثر كبير فى احداثه لأن العلم يبعث الانسان نحو الحقيقة دائما ، الا أن لأولئك المشككين أثرا ، يذكر ايضا فانهم بتشكيكهم يوقظون العواطف النائمة ، ويبعثون الشبه الكامنة ، ويجعلون المسألة الدينية فى مجال

البحث والمجادلة ، وكفى بهذا الجهاد محرضاً للشاكين منهم على ترك دينهم والمجاهرة بزعزعة يقينهم .

قلنا ان هؤلاء المشككين لا يكسبون من وراء جهادهم شيئا غير تثبيت المسلم فى دينه ، ونصبه مناظرا لدودا لهم ينقض بنيانهم ويفض حبائلهم لأن المسلم ان شك فى دينه لجأ الى النظر والاستدلال واعتصم بالعلم والبرهان ، وكل هذا من أصول ديانته وقواعدها ، فهل يسمح له أهل دين آخر بأن ينظر ويستدل أو يستشهد بالعلم والبرهان على أصل من أصول العقائد .

اذا تقرر هذا علمنا أن الطبقة الوسطى من المسلمين يستحيل عليها أن تصبأ عن دينها الى دين آخر وأنها أشبث بدينها عن نظيراتها لدى الأمم الأخرى ، وهذا ما قدمناه من أن الاسلام أنشودة كل فطرة ، ومطمأن كل عاطفة ، ومطلوب كل استعداد وقابلية .

العلماء والدين

أريد بالعالم هنا : العالم العصرى الذى تركزت فى مداركه صورة مصغرة من معلومات هذا الجيل على اختلاف أصولها وفروعها ، وتجلت له بكل شدتها وهولها . تلك المعارك القلمية الصارمة التى حدثت بين حفظه القديم ، وأنصار الجديد فى القرن الماضى ، والذى سبقه .

أريد من صنف العلماء الموما اليهم من سلمت نظرهم من

الطمس ، وطهرت جواهرهم من خبث العماية الجبلية . فانا فى بعض كتبنا قسمنا الفطر الى ثلاث : فطرة مؤمنة ؛ وفطرة كافرة ، وفطرة جامدة . لا الى هؤلاء ، ولا الى هؤلاء . فأريد هنا من العالم : العالم السليم الفطرة المتلألئ الوجدان ، فهو الذى اقصده ، وهو المستحق لهذا اللقب الفخيم بأخص معانيه ، بل هو الذى يصدق عليه أنه صورة حيـة من حال القرن الذى يعيش فيـه . أما غـيره فلا يريك تلك الصورة الا ناقصة مشوهة .

الدين روح كليـة مستولية على سائر الأرواح الجزئية استيلاء البحر على احيائه السابحة فيه ، لـكل روح منه قسط يناسب مداركها ، ونصيب يوافق شـعورها ، و يلائم استـعدادها ، ومن أنـكر الدين فى ذاته ، فقد أنـكر أكبر أرواح الوجود تأثيرا ، وأقواها على العالم تسلطاً ، وكان كالعلقـة الصغـيرة . تسبح فى القطرة ، وتنـكر البـحر الذى يشملها ، أو كالبعوضة . تمرح فى جو الحجرة ، وتجحد الجو الذى يحملها .

قلنا الدين روح شاملة تأخـذ منها كل روح على قدر حالها وقد درسنا حظ الجاهل من الدين وحظ الطبقة الوسطى منه فى الفصلين المتقدمين ، وهنا ندرس حظ العالم منه .

أخص صفة من صفات العالم العصرى (الاقرار بالجهل) حتى حدد الأستاذ (ايزوليه) المدرس (بمدرسة فرنسا) العلم بقوله (ان علومنا هى الجهل المرتب) وتدحلل الفيلسوف الانجليزى (هربرت

سبنسر) العلم الانسانى فى كتابه (الأصول الأولية) فأحاله الى درجة العجز المطلق أمام ادراك كنه أصغر ذرة من ذرات الوجود وقرر أنه لايكسبنا فى الالمام بأشياء الوجود الاادراك علاقاتها ببعضها وصفاتها الخارجة عن كيانها وكنهها .

اذا تقرر أن الاقرار بالجهل هى صفة العالم العصرى وان العلم الحالى قد بث هذه الروح فى نفوس أهله ، قلنا ان كل دين لايكون من أوليات أصوله ومبنى قواعده مايلائم هذه الروح التى اكتسبها العالم العصرى من العلم الحاضر فلا يصلح أن يكون له ديناً . بل ان كل دين لايقول للانسان « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » ولايعترف له بقانون الترقى بالنص قائلا له « وقل رب زدنى علماً » ولايريه أن المعلومات غير قابلة للانتهاء وان الانسان بازائها شىء صغير كقوله تعالى « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً » قلنا كل دين لايواتى الانسان من جهة هـــذا الميل لايصلح أن يكون دينا للعالم العصرى بوجه من الوجوه .

أكبر مسألة متسلطة على الفؤاد الانسانى هى مسألة العقيدة بوجود الخالق . مسألة تتولى الانسان من أول شعوره بالعالم حتى كأنها قطعة من فؤاده أوكأن فؤاده قطعة منها . فلا يزال يترقى فى الشعور بها حتى ينتهى لأن يعجب من نفسه فى عدم استقرارها من هذه المسألة عند حد ، وكيف يقف منها عند حد وهى مسألة الخالق جل جلاله

الذى ليس كمثله شىء

قد كشف العلم العصرى لذويه من أحوال الأمم البائدة أو العصرية الجاهلة فى درجات مداركها من هذه العقيدة مايريك بالحس كيف يعبد الانسان خياله وكيف يجسم وهمه . صورت كل أمة الخالق تقدست صفاته على قدر عقولها وعلى حسب قوة خيالها حتى لو أردنا إيراد مذاهب كافة الناس فى هذه العقيدة للزمنا أن نفرد لها مجلدا كبيراً ثم لانستطيع حصرها بالضبط . أفلا يعذر العالم العصرى أمام هذه الأفكار بل الأوهام المختلفة أن لفظها كلها الى عالم الخرافات والأضاليل وحكم عليها حكمه الصارم الذى يرهبه اتباع الأديان الباطلة فى كافة البلدان ؟ اذا كان العلم العصرى قد كشف لذويه بالدلائل العيانية أن الانسان قاصر عن ادراك ذات المادة وأنه جاهل جهلا مطلقا حتى فيما يدعى معرفته ، فكيف يشرئب الى زعم تصوير الخالق بصورة ذهنية ، ويتعالى الى الحكم على ذاته وصفاته بحكم ليس له عليه دليل مشاهد ؟ لاجرم ان كل دين لايقرر فى أوليات أصوله عجز الانسان عن ادراك الخالق ووجوب وقوفه عند حده كقوله تعالى « ليس كمثله شئ » « يعلم مابين أيهم وماخلفهم ولايحيطون به علماً » لايصلح لأن يكون دينا للعالم العصرى مطلقاً . بل لايريح بال العالم العصرى ويقطع هواجسه الادين ينص له مانصه له العلم من أن كل تلك العقائد أوهام وظنون وان الحق وراء ذلك كقوله تعالى « إن يتبعون الا الظن وإنهم الا يخرصون » « إن هى الا أسماء سميتموها

أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان» «وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا »

وكما أن العالم العصرى يرى من العلم أن يقر بعجزه عن إدراك خالق الكون كذلك يرى من العلم أن يقر بقصوره عن ادراك كيفية خلق الكون وان لم يكن ذلك الادراك من المستحيلات عليه. وكيف لا يقر بقصوره وكل يوم يكتشف من قوى الوجود مالا كان يحلم به ويرى بعينه أن مجال البحث بعيد الاكناف ومجاهيل الوجود لا تدخل تحت حساب وتبرهن له المكتشفات كل حين بأنه كان جاهلا وأنه لا يزال كذلك حتى يأذن الله له بشىء من الفتح لا يضطرب فى خياله؟

من هنا يرى العالم العصرى أن العلم متبع ناموس الارتقاء وهى حقيقة لا يمترى فيها انسان فلا يحب أن يكون دينه الذى يدين الله به واقفاً بالعلم عند حد، أو حاكما عليه بحكم. بل يرى أن الدين أجل من أن يتبع العلم فى دور من أدواره السابقة أو اللاحقة لانها كلها ناقصة باعتراف الحس والمشاهدة. فكل دين من هذا القبيل لا يصلح أن يكون دين العالم العصرى، فهو لا يرضخ الا لدين يقول له « ويسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج » إشارة إلى أن ليس من وظيفة الدين إلا الحقائق الأولية لا المعلومات الناقصة الجزئية ويقول له « قال فما بال القرون الاولى قال » أى موسى « علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى » إشارة الى أن ذلك ليس من وظيفة الأنبياء حتى يسألوا عنه، بل هو مما يفتح الله به على بعض المشتغلين به.

ترى العلوم التاريخية للعالم العصرى حال أهل الأديان كلها

فى اختلاف وشقاق واقفين مع مفاهيم الألفاظ متشاكسين فى مضامين الكلمات ، منقسمين فرقا وأحزاباً يكفرون بعضهم بعضاً ويمزق بعضهم أحشاء بعض . يرون هذا شائعاً فى أهل كل دين على حد سواء غير مقصور على قوم دون قوم ، فيرون أن ذلك كله ليس من الدين وانما هو من الأهواء والنزغات فلا يرضى العالم العصرى أن يدين لله إلا بدين يقول له « ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شئ »

ترى الفلسفة الانتقادية التاريخية للعالم العصرى ان كتبا قد كتبت لدى أهل كل دين على حد سواء وملئت بالمقالات الطويلة الذيول فى الكلام على الخالق وصفاته وأحواله وعلى مذاهب المخالفين لهم مما يستوجب الردود المستفيضة ويستدعى المجادلات العنيفة فى مواضيع يستوى الجميع فى جهلها ، ولا يفضل بعضهم بعضا فى العجز عن ادراكها ، فيرى العالم العصرى ان كل ذلك ليس من الدين فى شىء ، وان هؤلاء الناس انما يتناقشون فيما وصلوا اليه من العلم ، وانتهت مداركهم اليه من الفهم ، ولا اثم عليهم فى شىء من الجدل ، لو لا أنه جدل فى الدين أقاموه باسمه وروجوه بسطوته ، فلا يرضى العالم العصرى إلا دين يقول لأهله « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين »

دين يقف صاحبه على الناموس الطبيعى فى اختلاف المدارك وتباين القابليات لادراك الحقائق كقوله تعالى « إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا

ينبئك مثل خبير »

يرى العالم العصرى من استقراء التاريخ أن حوادث اجتماعية كبيرة وانقلابات سياسية وحربية هائلة حصلت على أثر ظهور رجال حفظ التاريخ أسماءهم للآن ، ظهروا فى أمم مختلفة ، وأزمنة متعاقبة متحدين فى الوجهة متوافقين فى الغاية ، يظهر أمرهم أولا ضعيفاً هينا ثم يقوى ويشتد ، ولا يزال كذلك حتى تصير كل قوة بازائهم ضعفا وكل مقاومة استسلاماً ، وهم فى زمان قوتهم كما فى زمان ضعفهم كبراء الأفئده لا تستخفهم المهوهات الأرضية واللذات الوهمية ، أحرار لم تأسرهم فواتن الدنيا ولا سواحر الحياة ، مسلمين وجوههم لله لا يخافون بطش جبار ولا سطوة غاشم ، داعون الى سبيل الله لا يفترون ولا يملون ولا يضعفون ولا يجبنون ، جسوم آدمية وأخلاق ملكية ، قد وسع الناس حلمهم وعلمهم ، واتسع للكل صدرهم ووجهم ، فقراء ولكن تستخذى الملوك أمامهم ، حلماء ولكن ترتعد العتاة بحضرتهم . هؤلاء القادة العظماء الذين برهنت أفعالهم على صدق أقوالهم ، وجاءت الحوادث مؤمنة على دعائهم ، اتحدوا كلهم على القول بأنهم رسل الله الى خلقه ، وأمنته على أسرار وحيه ، وأن بينهم وبين العالم العلوى صلة مستمرة ، ومدداً لا ينقطع ، وأنهم جاءوا للأرواح بنورها وللعقول بريحانها ، وللأفئدة بمطلوبها ، وللصدور بشفائها . رأى العالم العصرى هذه الحوادث الكبر فى التاريخ يتلو بعضها بعضاً كأنها سلسلة متجانسة الحلاقات فلم يسعه إلا الاعتراف لأولئك الرسل الفخام بوظيفتهم وكيف

لا يعترف لهم بها وقد ادعوها وأقاموا الدليل المحسوس على أنهم رجالها وأصحاب تكاليفها بنجاحهم فيما تصدوا له وهو أمر جلل ، وعمل دونه كل عمل .

يرى العالم العصرى نفسه مرغماً على الاعتراف لهؤلاء الرسل بوظيفتهم لانهم قالوا نحن أنبياء وجاءوا لمن بين ظهرانيهم بألوف من الدلائل المؤيدة لدعواهم وقالوا نحن رسل الله ونصبوا الأعلام الواضحة على صدق مدعاهم ، قالوا من آمن بنا نجا ، ومن أعرض عما جئنا به هلك ، فكان ماقالوه رغماً عن تألب أعدائهم عليهم وتمالئهم على إحباط سعيهم ، قال كل منهم إنى جئت بشريعة ناسخة لشريعة من كان قبلى أو مكملة لها وفعل كما قال وأيده الله رغماً عن كل معارضة ومنابذة .

هذه آيات يهديها تاريخ العالم الانسانى للعالم العصرى ويجليها له بالاسلوب النقدى التحليلى تجلية لاتدع للناظر شكا بأن لهذه الطائفة الطاهرة شأناً فى الوجود غير شأن الانسان العادى مما لامشاحة فى وجوب التسليم لهم بما يعزونه لانفسهم من أنهم فى عالم وسط بين العالمين الانسانى والملكوتى وأنهم يشرفون على مافى الحضرة الروحانية بخاصية وهبهم الله إياها بالفطرة فيرون من أمر الملأ الأعلى مالا يرى الناس ، ويأتون لنا من ذلك الطريق بمعلومات يقصر العلم أن يتوهمها توهما فضلا عن أن يطلع على شىء منها .

يرى العالم العصرى السليم الفطرة أن لامناص من التسليم لهؤلاء الرسل كلهم بكل ماعزوه لانفسهم من المكانات الروحانية والمقامات

الملكوتية لانهم قالوا وبرهنوا ، وادعوا وأقاموا الدليل المحسوس نعم يرى العالم العصرى أن يسلم لهؤلاء الرسل بشأنهم ولكن بدون تعصب لبعضهم على بعض ، وما الموجب لهذا التعصب المستغرب ؟ كيف يسوغ لمن ينظر فى تاريخ الانسان هذا النظر المجرد عن الغرض المضل أن يؤمن بجميع الانبياء ويكفر بواحد منهم أو باثنين مع أن مثل الكل واحد ، والناموس الذى ساروا عليه فى وظيفتهم واحد ؟

إذا كان هذا التعصب فى ذاته عجيبا ، فأعجب منه الهوى الذى يحمل بعض الناس على التكذيب بنبوة خاتمهم وامامهم محمد صلى الله عليه وسلم مع أنه أقرب منهم الى عهدا وأفعاله وأقواله وأحواله وسيرته محفوظة فى الصدور والسطور تناقلتها الامم عن الامم من عهد مبعثه إلى اليوم وهى حاصلة على كل الشروط التى تسمح لاقسى أساليب الفلسفة الانتقادية أن تتناولها بحثا وتنقيبا وقد بدا أمره صلى الله عليه وسلم عجيباً غريباً كما بدا أمر كل رسول ثم انتهى إلى أن أفرع وانتشر نوره شرقا وغرباً وأحدث فى الوجود تغييراً لم يحدثه أى رسول آخر ممن يحفظ التاريخ اسماءهم فهل يليق بالعاقل أن يسلم برسالة كافة الرسل الاخاتمهم وهو على ما نصف لك من وضوح السيرة وقرب العهد وفخامة الآثار وجلالة الاعمال ؟ الا يخجل المكذب برسالته من أن يتهم نواميس الحكمة الوجودية وقوانين الحياة الانسانية بهذه التهمة الباطلة ؟ هل عهد الناس أن الحكمة الالهية تؤيد المبطلين ، وتعلو برأسهم فوق الرءوس أجمعين ؟ هل عهد الناس ان العدالة الالهية

تنصر المدعين للرسالة ، وترفع من شأنهم حتى يسود دينهم على سائر الاديان ويبقى حجة قائمة للآن ؟

الله أكبر ! إذا تشكك الانسان فى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم فبأى رسالة بعدها يصدق وبأى رسول غيره يؤمن ؟ هذا رسول ايدته الحوادث وشهدت له الوقائع ، وأقام الوجود له من دلائل الشهود مالا يسع العقل انكاره ، ولا يسوغ للبصيرة جحوده ، فبأى حيلة يجحده الجاحد وبأى جسارة يكذب به المكابر ؟

هذه مسألة حلها العلم العصرى ولئن كان فى الشرق والغرب للآن رجال لايزالون جامدين على موروثات آبائهم ، وواقفين من أمر الانسان والانسانية عموما على ماوجدوا عليه أهل بلادهم ، فقد قضى العلم بأن هذا تعصب لايطول أمده ، وقد انقطع مدده ، وأن العلم قد وصل بالعالم إلى نقطة عرفه بها أن العالم الانسانى عائلة واحدة يجمعها أصل واحد ، وهى وان كثر أفرادها حتى توزعت فى أقطار شاسعة واصقاع متنائية الا أنها لاتزال يجمعها ناموس واحد .

هذه الأمم التى تفرقت وتوزعت وانقطع الاتصال فيما بينها قرونا مستطيلة فظنت كل منها أنها قائمة بذاتها فكونت لنفسها أديانا خاصة سيتهى أمرها كلها لان تتصل ببعضها اتصالا أخويا بضرورة الاحوال الاقتصادية والسياسية والعلمية . وقد ظهر أمر هذا الاتصال ولاحت بوادره فان الآلات البخارية والأجهزة الكهربائية جعلتنا نعرف عن أحوال أقصى بلاد الله فى الساعة الواحدة مالا كان يحلم آباؤنا أن

يعرفوه فى سنة ، بل نحن الآن مرتبطون ببلاد لم تكن معروفة للعالم قبل خمسمائة سنة .

هذا الاتصال بين شعوب الارض سينتهى أمره شيئا فشيئا لان يمحو اختلافات الجنسية والقومية والوطنية الذى فرق العالم الانسانى لليوم وكان سببا لكل المنابذات التى حصلت بين جميع أفراده .

هذا الاتصال يستدعى أن تقوم جميع الامم من الدين على عقيدة يرضى بها الناس أجمعون ، ولا تكون سببا لان يتشاكس عليها المتعاملون. هذا مالا مناص منه لأن حالة التقرب بين الشعوب تولد الشعور به توليدا طبيعيا حتى أنه لو لم يكن فى العالم دين فيه هذه الخاصية لأسس العالم دينا من هذا القبيل فما بالك وهو موجود وقد شهد له الوجود

قلنا ان الأحوال الاقتصادية والسياسية والعلمية عاملة جاهدة فى ربط الامم وإيصالها ببعضها وهل يمكن انكار هذه الحقيقة أحد بعد مايرى بعينيه أن التجارة وهى أخص مظاهر الاحوال الاقتصادية أصبحت أكبر أسباب التعارف بين الامم شرقيها وغربيها متمدنها ومتوحشها ؟ وهل يتجاهل الناظر فى الاحوال السياسية العصرية ما أحدثته من اختلاط الامم ببعضها ان لم يكن طوعا فكرها ، وهل يجحد انسان حق العلم فى مساعدة تيسير هذه الغاية البعيدة ، وقد أصبح بمعلوماته الحقة فى التاريخ والعمران والفلسفة أكبر صقال للأذهان العصرية يزيل عنها تلك الاغشية التعصبية التى ركمها على مدارك البشر أولئك القادة الذين تسلطوا على الشعوب آمادا طويلة ، فصوروا لهم الحياة بغير صورتها ،

ومثلوا لهم الجمعية البشرية تمثيلا ساقهم اليه الحقد وحب الاثرة والتفريق

نعم جاء العلم فأرى الناس عموما معنى قوله تعالى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » فبات محبو الخير العام ينتظرون ذلك اليوم الذى يكسر فيه العلم تلك السدد الوراثية التى أقامها القادة فى الاجيال الماضية بين الامم واخواتها . فى ذلك اليوم المنتظر يدرك الناس أجمعون معنى (الاسلام) ومعنى (خاتم النبيين) ويظهر من أمر هذا الدين الالهى مايشاء الله أن يظهر مما يكاد اللاحقون يساوون فيه السابقين ، ولله فى خلقه شئون

قلنا ان الامم كلها مسوقة بعوامل الامور الاقتصادية والسياسية والعلمية إلى الوحدة سوقا قسريا لا يمكن إيقافه ، وقلنا ان هذه الحالة تولد فيها الشعور بوحدة العقيدة توليدا طبيعا كما تشاهد بوادره الآن ، وقلنا ان ذلك الدين العام لو لم يكن موجودا لأوجده الشعور العام بحكم الضرورة ، ثم قلنا ان ذلك الدين موجود وهو الدين الاسلامى ، فما برهاننا على ذلك ؟

نحن لأجل البرهنة على أن الاسلام جاء لتوحيد الاديان كلها وتخليصها من التعصبات التقليدية والغشاوات الخرافية ، لا تتكلف أن نسلك مسالك الجدل ، ونعمد الى أساليب الفلسفة ، لأننا نرى ان مجرد تذكر وظيفة النبى صلى الله عليه وسلم كما وصف به نفسه ودعا الناس اليه ، يكفينا مؤونة كل جدل ويرينا رأى العين ان ديننا هو

ذلك الدين الذى يساق البشر اليه سوقا طبيعيا وسينتهى أمرهم اليه لامحالة « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد »

جاء النبى محمد صلى الله عليه وسلم داعيا الثقلين إلى دين الله الاقوم وناموسه الاعظم وهو توحيد الله وتنزيهه والوقوف بهذه العقيدة الالهية عند الحد الذى حدها الله به فى المعنى الانسانى فكل ظن وكل وهم وكل هاجس يخطر بالبال مما يميل به الانسان لتحديد صفات الله تعالى والحكم عليها بقضايا هذا العقل الناقص فهى مردودة على صاحبها ليست من الدين الحق فى شىء ، لانها لو كانت من الحق لاهتدى الناس منها الى النقطة الجامعة ولما كانت سبب الخلاف والنزاع بين العالم . أليس افتراق العالم الى مئات من المذاهب فى صور هذه العقيدة يدل على أن الجميع انما يغترفون مقالاتهم من عالم الخيال والظن ؟ أليس يكفى مجرد هذا الافتراق على اعتقاد أن الداعى اليه (وهو توق العقل لتصوير الخالق وتكييفه فى الذهن) ليس من الدين العام فى شىء ؟ وكيف يكون من الدين العام ولم يفرق بين العالم فى العقائد عامل أكبر منه .

لو وقف الانسان من العقيدة بالخالق فى الحد الذى يشعر به فى معناه الانسانى وهو اعتقاده ان لهذا الكون خالقا عظيما قويا حكيما عليما ، ولم يكلف نفسه البحث فيما وراء ذلك لما رأيت فرقا بين الابيض والاسود من الناس فى شىء ، بل لرأيت عقيدة أعلم العلماء

لا تفرق عن عقيدة أجهل الجهلاء من هذه الوجهة مطلقا .

جاء النبي صلى الله عليه وسلم يدعو الى هذه العقيدة الفطرية ويطالب العقول بأن تتخلص من الغواشي الوهمية التي غشاها بها قادة الاديان وهي الاساس الاول لتوحيد دين النوع الانساني لان النفوس متى لفظت تلك العقائد الوهمية التي اخترعها رؤساء المذاهب وزعموا أنها وحي من الله اليهم استحال الناس الى تلك العقيدة الاولية الفطرية التي هي واحدة عن جميع أفراد النوع الانساني . ومتى استحالوا الى هذه النقطة استقامت كل عقائدهم الاخرى ، واعتدلت جميع افراطاتهم وتفريطاتهم من ذاتها ، كأن التوحيد حصن الروح ، وموئل العواطف ، ومطمأن العقل متى وصل اليه الانسان تأدت قواه ومواهبه الى جانب الامان الالهي ، والسلام الصمداني

ألم تر أن العرب لم يكن بينهم وهم في الجاهلية الجهلاء ، والفتن الصماء ، وبين ما آلوا اليه بعد اسلامهم من المكانات العلى ، والمقامات الكريمة ، الا أن يصلوا لدرجة التوحيد والتنزيه على الاسلوب القرآني والتعليم المحمدي ؟ لا غرابة ان رأينا هذا الانتقال الفجائي الباهر من جاهلية جهلاء الى ملكية علياء ، فقلنا لابد من أن يكون لعقيدة التوحيد والتنزيه يد قوية في احداثه ، ولا عجب بعد ذلك ان بذلنا الجهد في التحسس من هذا السر الكبير ، والاكسير الشافي « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين »

نعم ان عقيدة التوحيد والتنزيه تحمل للنفس الانسانية روحا من

الادب لا يقدر على الاتيان بمثلها غيرها مما يتخيله البشر ، ذلك لان هذه العقيدة تؤثر على كل قوة من قوى النفس تأثيرا مناسبا لها من الجهة الخاصة بها فتقيمها على صراطها العدل اقامة تحير شيوخ الفلسفة وتعجز أساة الاخلاق ، وان تصغ الى أحدثك بطرفة من هذا الباب تهديك لشيء من عجائب هذا السر .

العقيدة بوجود الخالق أول العقائد التى تولدت بالفطرة فى نفس الانسان ، فان شئت فقل انها لازم من لوازم معناه ، وان شئت فقل انها صفة من صفات جوهره ، وان شئت فقل انها شعور روحانى حملته روحه معها من عالمها . هذه العقيدة هى أعطف شيء عليه فى مصائبه واحنى آس عليه فى نوازله ، يعتصم بها فى مخاوفه ، ويلتجيء اليها فى معاطبه ، ويستسهل بها صعوبات الحياة ومرارات العيش ، ويموت بها مرتاحا قرير العين لتيقنه أن يدا تنتظره لتحمله الى عالم أرقى من هذا العالم وقدرة تختف به تحفظه من عاديات الفناء وجائحات العدم تأمل فى أمر هذه العقيدة التى تمس أخص جهة من جهات حياة الانسان وتدبر بأمعان فى شعوبها وفنونها السارية من سائر عواطف النفس مسرى الكهرباء فى أسلاكها والأشعة على ذرات أثيرها ، ثم دع هذا العالم الباطنى واستجل هيكل الانسان الظاهرى تر قوى النظر والشم واللمس والذوق والحس مستخدمة ومسخرة لهذه العقيدة أيضا ، فما مناظر هذا الجمال التكوينى وبدائع هذا العالم الحسى مما يؤثر على كل حاسة من جهة قابليتها الا مثيرات لهذه العقيدة موقظات لزيادة الشعور

بها . تأمل هذا بامعان ثم تيقن أن كل تغير يحصل فى العقيدة بالله مهما كان صغيرا يقع من هذه المشاعر الباطنة والظاهرة موقعا يناسبه ، وينزل منها منزلة تلائمه فان كان هذا التغير فى الجهة التى تقويها قويت كل قوى نفسه على حسب جهة تلك القوة ، وان كان فى الجهة تضعفها ضعفت كل تلك القوى ضعفا مناسبا . ونحن لا نعنى هنا بالقوة والضعف ما يعطيهما اللفظان على اطلاقهما ، وانما هما قوة وضعف معنويان يدريهما كل من يشعر بقوى ذاته

علمنا مما مر أن العقيدة بالخالق جل شأنه مستولية على سائر عواطف النفس وقواها استيلاء تاماً بحيث انها تعتبر المصرفة المدبرة لتلك العواطف والقوى على ما يناسبها ويلائمها ، وعلمنا تبعاً لهذا أن كل تغير وتحور يحصل فى تلك العقيدة يؤثر على تلك العواطف والقوى تأثيرا خاصاً على أشكال لا تحصى ولا تعد

ونحن هنا قبل أن ندرس الأدب الالهى الذى تهبه عقيدة التوحيد والتنزيه لنفس الانسان وجميع قواها يحسن بنا أن نورد هنا صورة موجزة من الآثار التى تحدثها عقيدة وجود الخالق على عواطف الانسان لنعرف بالحس كنه تسلطها عليها جميعها ترشيحاً لادراك كنه ذلك الأدب الالهى الذى تفيضه عقيدة التوحيد والتنزيه عليها فنقول :

القلب يشعر بوجود خالق لهذا الكون البديع أقامه على هذا السمت المدهش ، فتهتز فى العقل عاطفة تعطفه لان يتعقله ويدركه فيستعين بالفكر فى إيتائه تلك الأنشودة فيجول صاحبنا الفكر فى

فيافى التصورات فيعتضد بالخيال فى شطحاته فيلبيه الخيال بنشاط بعد أن يعد كافة جنوده المعنوية ، فتثور فى داخلية الانسان ثورة تتيقظ لها سائر عواطف النفس وقواها لأن الموضوع ماس بها من أخص جهاتها ، فتهب الحواس الخارجة أيضاً من سباتها ، فتنظر العين إلى أبعد مدى تصل اليه فاذا كلت وحسرت تركت ما بعد قواها لجياد التصور والفكر فاذا عجزا دعوا الخيال لينفذ الى حيث لم يصلا اليه ، وهكذا حتى يصل الانسان لتصوير خالقه بأكمل صورة يشعرها ويهبه من الصفات أكمل ما يدرك أنه كمال ، فاذا ارتقى عقله درجة أدرك أنه وصف إلهه وصوره بما لا يحسن فيصلح من خطأه ، ثم يرتقى عن ذلك أيضاً فيرجع للتغيير والتحوير . وهذا ما ترياه فلسفة التاريخ فى جميع أطوار النوع الانسانى . وليس هذا موضوع بحثنا فانا انما نريد أن نصور لقارئنا صورة موجزة من صور انفعال قوى النفس وعواطفها لتأثيرات العقيدة بوجود الخالق توطئة لادراك كنه ذلك الادب الالهى الذى تهبه عقيدة التوحيد والتنزيه على سائر تلك القوى والعواطف (يتبع)

المحاضرات

لاحظنا أننا كثيرا ما نسأل فى نوادينا الخاصة أسئلة كبيرة الخطر جليلة الفائدة فنجيب عنها شفهيا اجابات لا يحسن اغفالها عن قرائنا

المحترمين لا سيما وقد تسبقها محاورة بديعة تجعل لتلك الاجابات من الوقع فى النفس ما يثلج له الصدر ويرضى به العقل . وقد كنت أود أن أجعل لتلك المحاضرات مكانا من الاسلام فى عصر العلم حرصا على ما يجىء فيها من افكار جديدة ، ومدركات ثمينة أخشى عليها الضياع من الذاكرة مع طول الترك واستحسنت أن أكتب كل محاضرة تحت عنوان خاص ، وأعقد لها مقالة انقلها فيها من لسان المخاطبة الى لهجة العلم ، الا انى رأيت فيما بعد أن فى ذلك من التعب ما لا يحتمل لاستلزام كتابتها الى الزمان الطويل واستيعاب كل واحدة منها جزءا من أجزاء الاسلام فى عصر العلم الشهرية فضربت الصفح عن ذلك وعولت على طريقة أحسن لنا ولقرائنا وأكفل للاتيان بما نرمى اليه وزيادة ، وذلك بانشاء باب جديد فى الاسلام فى عصر العلم نجعل اسمه المحاضرات نودعه أكثر ما سئلنا عنه وما اجبنا به ونزيده ما يحتمله المقام مما لم نسأل عنه من الخواطر التى تخطر بالقلوب وتدب فى الضمائر ويميل صاحبها لان يجدلها حلا أو يسمع عنها تفصيلا شافياً . ولذلك رأينا أن نسلك لها مسلكا منتظما فنبدأه بالكلام على الالهيات وما يتعلق بها من معارف وحقائق أو شكوك وشبه ، ثم نتبعة بالنبوات وما يمسه من الكلام على الوحى وإمكانه والانبياء وأحوالهم وخصوصاً حال خاتم النبيين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم يتلو ذلك الكلام على الروح والخلود والعقل والنفس والادراك والعلم والمدنية وجميع ما يرتبط بالمسائل العمرانية الكبرى التى تشغل فؤاد العالم العلمى اليوم

كل هذه المعارف ستأتى على أسلوب المحاورة بين اثنين ولنا من ذلك غرضان . أولهما أننا بهذا الأسلوب نتغلب على أشد النفوس استعصاء على المطالعة ونجبرها على استيعاب كل ما يكتب فى هذا الباب لأن شكل المحاورة وما سنودعه فيها من الجواذب البيانية والكلامية يقهر الانسان على المطالعة ويجعله يتمنى لو طال الموضوع الى مالا نهاية، وكفانا ذلك نشراً لمبادئنا ، والفاتا الى نظرياتنا ، ودحضا للشبه المستعصية التى تلم بالقلوب وتنشب فيها . والغرض الثانى لنا من الشروع فى هذه المحاضرات هو محاولة الوصول الى سرائر النفوس ، والنفوذ الى ضمائر القلوب للتنقيب فيها على ما أشربته من لفحات الشبه الهائلة ، وما تأثرت به جيشات الشكوك الفادحة التى تستلزمها قشور العلوم العصرية ، وتسلك من النفوس مسالك الخفاء والبطون حتى يكون صاحبها بالعمل على أشد المذاهب الحادا وفتونا ، وهو بقوله يظن أنه على الحنيفية السمحة . وربما ظن فى نفسه أنه أحد الأبدال ، وقطب من الأقطاب ، هذه الشكوك والشبه التى تدق حتى لاتدرك ، وترق حتى لاتتوهم ، لايمكننا أن ننالها فى صميم الأفئدة الا بهذا الأسلوب التحليلى الذى عقد سميناه بالمحاضرات ، فاننا به نتوصل ان شاء الله لمناجاة السرائر ، ومناغاة الضمائر ، ومكاشفة النفس بأدوائها بحيث لانجرحها ولانجرحها ، والله نسأل أن يوفقنا لتوفية هذا الموضوع حقه فانه من أصعب ما تصدينا لكتابته وهو ولى المؤمنين .

***

نحن لاجل البدء فى موضوعنا نتخيل أن فيلسوفا عصرياً ممن تركزت فى مداركهم صورة كاملة من صور العلم بجميع مسائله ومعاضله ، يقابل رجلا مسلما وقف من أحوال العالم على كل ما يعنى الانسان صاحب الشعور الحى والفؤاد الصاحى ، ونتخيل أيضاً أنهما تعارفا وترافقا وتعاشرا أياما وليالى وعرف كل منهما من أحوال صاحبه ما يعرفه الأخ من أخيه وسنشير الى المسلم بحرف (م) والى الفيلسوف بحرف (ف)

(م) — أظن أننا قد وصلنا من صلة المعرفة والمرافقة الى حد يسمح لنا بتبادل النصيحة فما من أحد الا وهو فى حاجة الى الارشاد ممن هو فوقه أو مثله أو دونه ، وأراك قد عاشرتنى وزاملتنى وعرفت من أخلاقى وصفاتى وعاداتى ما لا يكاد يطلع عليه غيرك ، ولا أشك فى أنك رضيت من أمورى أشياء وسخطت أشياء كما سرتنى أنا أيضا منك أحوال دون أحوال ، فهل لك فى مساجلتى البحث فيما يحيك بصدرينا مما لم يرضه أحدنا للآخر لنؤدى لأنفسنا واجبا انسانيا جليلا فى هذا الدور دور الحياة الأرضية ، والفتنة الجثمانية .

(ف) — لقد كاشفتنى بما كنت أحدث به نفسى ، نعم قد عليك أموراً لا يقر عليها عقلى ولكنك قد أثرت على بلطفك وحسن مراعاتك لدرجة أحب معها أن تبدأنى بما تلاحظه على

(م) — أشكرك على هذا الادب ولولا انى أرى فى امتثال الدعوة معنى لا يقل عن الادب قدرا لنازعتك شيئاً من حقى فى هذا

الجمال الخلقى .

أول شىء الاحظه عليك عدم ذكرك للخالق الذى فطرك وصورك فاراك تقوم وتنام وتكد وتعمل ، وأنت لاه عن حقوق العبودية ساه عن أنشودتك الروحية ، كأنك ممن لا يرضخ لعقيدة ، ولا يدين لله بطريقة رشيدة ، وهو أمر لا يتفق مع ماأراه فيك من سمو الفطرة ، وسلامة الشعور ، وسعة المدارك .

(ف) — انى لأعجب من اتفاق الضميرين لهذا الحد . وأنا أول شىء انتقده عليك مع ماأراك عليه من غزارة المادة العلمية ، والتبسط فى المدركات الفلسفية ، والنفوذ لسرائر المذاهب العصرية ، ان تكون كما أنت مسبحاً مصلياً تقوم لاهم لك الا الركوع والسجود ، وتنام ذاكراً الملك المعبود ، وهكذا يتحلل كل حركاتك وسكناتك لهف وشغف يتغير ان بتغير الاوقات والمشاهد فلم هذا الشغل الشاغل والكد المتواصل ، وأى فائدة تعود على جسمك وعقلك منه ؟

(م) — الا تعتقد بوجود الصانع جل وعز .

(ف) — هب أنى أعتقد وجوده فما فائدة تكرير ذكره وما فائدة الصلاة له ركوعا وسجوداً ، هل هو فى حاجة لذلك منك ، أوان مدده ينقطع عمن لا يفعل مثل فعلك .

(م) — الآن تبين لى انك لاتعتقد وجوده ، اذ لو اعتقدت وجوده لما آل بك الحال لقطع الصلة التى تربط المخلوقات به وهو خالقها وقيومها . وبما أن المقام مقام تناصح فأرجوك أن تصدقنى .

هل تعتقد بوجود الصانع ام لا ؟

(ف) — ماذا تعنى بقولك الصانع . اما ان كنت تعنى به ذاتا متشخصة لها أنصار وأعوان من الملائكة على شكل الملوك الارضيين يأمر وينهى ويصرف الأمور ويدبرها على أسلوب السلاطين المطلقين ، والقادة الأعلين ، فتلك عقيدة لاتحتاج لدليل على أنها بقية من بقايا الأولين ، وأما ان كنت تعنى بالصانع مجموع النواميس الطبيعية التى يقوم عليها أمر هذا الكون البديع فذلك مما لاتجد من يخالفك فيه .

(م) — أما نحن معشر المسلمين فلا نعنى بالصانع ماوصفته من شكل الملوك والقادة بل تلك أمور صرفنا ديننا عن تخيلها تخيلا فضلا عن اعتقادها اعتقادا ، ولكنى قبل ان أجلى لك ماعليه أهل ملتنا من هذه العقيدة الرئيسية ، أحب ان أسألك عما أردته بقولك نواميس الطبيعة التى جعلتها قيوماً لهذا الكون البديع .

(ف) — وهل مثلك يجهل معنى نواميس الطبيعة

(م) — انالا أجهل معناها العلمى ومغزاها من حيث تقريب المعلومات إلى الذهن ، فهى فى نظرى آلات تعبيرية ، ووسائل علمية ليس إلا . مثال ذلك : رأينا أن الاجسام الثقيلة متى تركت ونفسها فى الفراغ سقطت إلى الارض فقلنا لاشك فى أن فى الارض قوة تجذب الاجسام اليها وتتجه بها نحو مركزها وسمينا تلك الظاهرة الطبيعية ناموسا طبيعيا . ورأينا أن الكواكب السماوية معلقة فى الفضاء بدون سناد لا يختل لها نظام ولا يعترى وحدتها انفصام . فقلنا لامناص

من فرض أن هـذه الاجرام مجذوبة إلى الشمس بقوة اصطلحنا على تسميتها بالجاذبة العامة وسمينا ذلك ناموسا طبيعيا أيضا . من هنا يتضح لك أن مانسميه نواميس هى قضايا ذهنية استنتجها العقل من نسبة بعض الـكائنات إلى بعضها وعلاقة الاجزاء فيما بينها ، فهى صـــفات الموجودات وخواصها . ولوازم المركباب وأحوالها ، فهل يسلم العقل بأن تـكون صفات الشىء سبب وجوده وقيوم بقائه . ومن يدعى أن نواميس الطبيعة هى سبب إيجاد الـكائنات وبقائها بعد ما اتضح لنا أنها صـفات الاجسام وخواصها كان كمن رآى الانسان وهو حى مدرك عاقل حـكيم فادعى أن حياته وعقله وحكمته نواميس طبيعية وانها هى التى صورته وأبدعته

(ف) — هذا تمثيل لاينطبق على الواقع

(م) — أنا لا أرى فرقا بين الامرين . فان من يستجلى الطبيعة وقواها ويستعرض كائناتها وممالـكها ويشاهد عاقلاتها ببعضها ويسمى تلك العاقلات نواميس طبيعية ثم يدعى أنها هى التى صنعت الـكون بمـا فيه لايفترق فى نظرى عمن يجعل صفات الانسان سبب إيجاده ، على أن صفات الانسان من حيث الادراك والعلم والشعور والارادة والاختيار أكمل بمـا لايقدر من نواميس الطبيعة . إذ ليس بين تلك النواميس مايسمى ناموس الشعور ولاناموس الادراك وهما كما لايخفى أكمل صفة موجودة فى الـكائنات

(ف) — انـكم معشر الاعتقـاديين لاتفارقكم الحماسة كيفما كنتم

وحيثما وجدتم ، وانك لتكلمنى ويخيل لى أنك تتهيأ لحرب دينية على مثال ماحدث فى القرون الوسطى . وانى لا أزال أؤكد لك انى لفى غاية الاندهاش من رؤية سطوة العقيدة بفؤاد عالم متضلع مثلك . ولعل هذه أول مشاهدة لى من هذا القبيل ، وهى تؤكد لى ماسمعته من أن العلم الاوروبى الذى جرف أمامه عقائد العالم الغربى أحدث فى المسلمين حركة من الحماسة الدينية تشبه ماكان لآبائهم منها قبل عشرة قرون . ولعل هذه الحماسة هى التى جعلتك تنظر للقضايا العلمية بهذا النظر المزرى المستخف ، ولا غرو بعد ذلك ان رأيت العلم حقيرا ونتائجه أحقر منه وضربت بقضاياه عرض الحائط كما تفعل الآن .

(م) — حاش لله أن يحقر المسلم العلم الحق وهو قوام عقيدته وملاك يقينه ودعامة ايمانه ، وانما هو يحقر الظنون والآراء الخالية التى الصقت به زورا وغرورا ويرى نفسه مسوقا لمحاربتها انى وجدها لأنها هى التى أضرت بعقول البشر وغشتهم وسممت فطرهم بما نفثته فيها من سموم الالحاد الذى لاموجب له البتة ، وهاأنا أراك تتكلم باسم العلم ولا تتأخر عن القول بأن الصانع هو نواميس الطبيعة ، فهل نواميس الطبيعة هى غير ماوصفت لك ؟ وهل العلم يبيح لك هذا القول ؟

(ف) — يرينا العلم بالمشاهدة والحس أن الحوادث الطبيعية مقودة فى حصولها بقوانين ثابتة معينة ، فلا تسقط ذرة ولا ترتفع شعرة الا بسبب معقول تابع لسبب أرقى منه ومرتبط بسائر الأسباب

ارتباطاً رياضياً منتظما . وكلما ارتقى الانسان فى العلم واستشرف من مساتير الكون ماكان محجوبا عنه أدرك نواميس جديدة وأشرف على علاقاتها الاكيدة ببعضها فهو أمام هـــذه المشاهدات المحسوسة لايتمالك نفسه من أن يستنتج ان قوى الكون كله نواميس مرتبط بعضها ببعض تتنزل عنهـا الحوادث تنزلا ميكانيكيا اضطراريا ، هـذا كل مافى الموضوع فان ثلمت حدة هذه الحماسة قليلا رأيت الامر كما أراه جليا لايحتاج لجدال ولا نزاع

(م) — ان ماقلته لك آنفا يكفينى مؤونة الرد على ماتقول الآن ذلك انك مهما ارتقيت فى استجلاء الابداع الطبيعى وسموت فى استعراض مساتيره واسراره ، وأشرفت على نواميس لهـا أعلا وأعم ، فانك لاتزال تشرف عل صفاتها وخواصها لاعلى أسباب ايجـادها . ومن العجيب أن يغيب عن مثلك وجه التفرقة بين صفات الشىء وعلة وجوده مع الشاسع بينهما . فان كنت ترانى مغـلوبا للحماسة الدينية فالتمس لنفسى بها عذرا أماأنت فلا أرى لك عذرا فى هذا الخلط ، ولعله من الحماسة الفلسفية

(ف) — أنا ما قلت لك ان هذه النواميس المشاهدة : هى التى أبدعت هـذا الابداع كله ، بل قلت لك انك كلما ارتقيت فى علم الكون وجـدت نواميس أعلى وأرقى ممـا يدلك على أن مصرف الكون هى قوانينه ، ومتى ثبت أنها المصرفة له المدبرة لشئونه ، فلا يبعد عن العاقل أن يستنتج بالبداهة انها هى أو نواميس أرقى منها قد

صورته على هـذا الشكل المدهش ، ولا موجب لفرض قوى وراء الطبيعة . على أنى أعجب كيف تنكر أن صفات الشيء هى سبب وجوده ، مع أنك تشاهد أن مبدأ الانسان علقة صغيرة كونتها النواميس الجسمية فى صلب أبيه ، ثم تولت تلك العلقة نواميسها ونواميس الرحم وما يتبع ذلك مما له علاقة بتكوينه وما زال ينمو و يتصور حتى صار كامل الخلق فأثرت عليه نواميس فاندفع من بطن أمه الى هـذا العالم ، وما زالت به القوانين الوجودية حتى بلغ أشده واكتمل عقلا وجسدا ، أليس فى هـذه المشاهدة ما يجعلك تعتقد بالحس أن صفات الشيء هى سبب تكوينه وتصويره ، وقس على ذلك سائر الكائنات علويها وسفليها ، جليلها وحقيرها .

(م) - أنا أعجب غاية العجب من هـذا النظر القصير ، لا تؤاخذنى فى هذا التعبير ، لا جرم أن من يعتقد ما تقول كان كالذى رأى تلك الآلة الكبيرة البديعة التى يلقى اليها دقيق وماء فتخرجه بعد قليل خبزا ، فاعتقد أن الخبز نتج بقوى عدد تلك الآلة بدون دخل لمصرف ولا مدبر آخر ، وغفل عن ذلك العقل الكبير الذى اخترع تلك الصناعة المدهشة وأودعها تلك القوى المختلفة وأضرب عن ذلك العامل الذى يمدها بالحرارة التى تدير حركاتها . و بالشحم الذى يسهل دورانها . ألا ترى أن هـذا التشبيه منطبق على من يعتقد ما تقوله تمام الانطباق . فانك ان قلت ان النواميس الطبيعية تتولى الأشياء وتربها من أول ما تكون خلايا ميكروسكوبية الى أن تصير كائناً من

أبدع الكائنات الأرضية ، ووقفت عند ذلك الحد ولم ترد أن تصعد بفكرك الى ما بعد هذا المدى القصير ، كنت كمن يظن أن قوى تلك الآلة نواميس فاعلة مستقلة ، ويدعى أن الآلة قائمة بذاتها لا تحتاج لمن يمدها ويحركها مع أن المشاهدة تدل على خلاف ذلك ، إذ قد تبين أن تلك الآلة محتاجة فى كل لحظة لعقل المدير وعنايته . وهل هذا الوجود بنواميسه المختلفة ، وفواعله الكثيرة ، التى تراها تحدث وتربى وتلاشى ، الا كمثل تلك الآلة الضخمة بما فيها من عدد ولوالب ومحركات وضواغط الخ وهذه الآلة كما احتاجت لفكر المخترع وعقله وعناية المدير ورعايته ، كذلك الكون احتاج الى مبدع يبدعه ويحتاج دائما الى مصرف يصرفه ومدبر يدبره هل بعد هذا يمكنك الوقوف مع نواميس الطبيعة المجردة ؟

(ف) — انكم معشر العلماء الاعتقاديين برعتم جدا فى العلوم الجدلية لأنها اسلحتكم الوحيدة التى تحفظون بها مراكزكم أمام العامة والخاصة ، ولكن الوجود ياأخى غير متبع فى تركبه وتشكله وبقائه أو تلاشيه قوانين العلوم المنطقية ، وقواعد الفلسفة الكلامية ، ولو كانت عويصات المسائل تحل بمثل هذه الوسائل لصحت جميع الديانات الوثنية الموجودة على سطح الكرة الأرضية ، لأن رؤساءها كلها من أبرع الناس فى الكلاميات ولم يؤسسوا مذاهبهم الاعلى قوانين منطقية معقولة لديهم ، ولو ظللنا فى مبحثنا جارين على هذا الأسلوب الجدلى لأفنينا أعمارنا ولم نصل لنتيجة .

(م) — انا ماجادلتك الا للوصول الى فهم ماادعيته من أن الصانع جل وعز هو نواميس الطبيعة ، وأظن أن لى الحق فى استيضاحك مايبهم على من كلامك والا فتكون أنت واقع فيما تنعيه على غيرك ، واذا كنتم معشر أنصار الفلسفة الحسية تقولون مالا يمكنكم شرحه ، وتستندون على مجاهيل يقف العقل أمامها خاسئا حسيرا فما فضلكم على من يعتقد مالا يعقل ، ويسجد لما لا يوجد .

(ف) — انا ان كنت عجزت كما تقول عن شرح ما أبديته لك فذلك لأنه من قبيل مالا نعلم ولم يصل العلم البشرى اليه لمساسه بمبدأ الخلق وأصل التكوين ، وليس بعار على الفيلسوف أن يقف حيث انتهى اليه علمه ، ووصل اليه فهمه ، منتظرا مايفتح عليه من مساتير الخليقة فيوالى السير للأمام ولكن ببطء وتحفظ لكيلا يرتطم بما يضلله ، أو يتيه فيما يجهله . اما أنتم معشر الاعتقاديين فتتهجمون على المجاهيل الكبر تهجم العارف بها المحيط بسرائرها ، وتتحكمون عليها نقضا وابراما وسلبا وإيجابا كأنكم أمنتم شر الخطأ ، أو تنزهتم عن الخلط والخبط ، هذا ماجعل مذاهبكم تعد بالألوف وكلها فى تشاكس وتنابذ لا ينقطع مددهما ولا تغيض مادتهما ، بخلاف أنصار العلم واتباع الفلسفة الحسية ، فكلهم على طريق واحد على اختلاف البلدان واللغات وتعدد المناحى والاتجاهات . الا تتخذون لكم من ذلك عبرة

(م) — هذه النغمة لا تفارق أنصار الفلسفة الحسية فى كل محاولاتهم وقد جعلوها حصنهم الحصين فى الهروب من وجه الحجج المفحمة ،

والدلائل الملزمة ، فما نقرأ لهم كتابا علمياً فى أى موضوع كان الا وتجد فيه هذا الدرس فى كثير من أبوابه كأنه رقية سحرية ينفثونها فى أذهان أضدادهم فتقلبهم الى جهتهم ، وقد رأينا كثيرا من الناس متى أصغوا الى هذه المقالة التى تختلف لفظاً على حسب أساليب الكتاب و تتحد معنى ومغزى ، قطبوا وجوههم واهمين أنها أصابت منهم المقتل، وبلغت بهم المقطع مع انها قضية كلامية ، الماديون أحق بها من غيرهم

انهم يزعمون اننا نتهجم على مبدأ الوجود وأصل التكوين ثم نتحكم عليهما فنصدر أحكاما جائرة لا تتفق مع الحقيقة تنزع بنا الى التخالف والمنابذة ، وهو ليس بصحيح فاننا ماعصينا أحكام الحس والمشاهدة فى شىء مما ذهبنا اليه . وذلك اننا رأينا وجودا محسوساً فقلنا لابد له من موجد ، ورأينا ذلك الوجود حيا مترقيا محكم الصنع مدهش التركيب ، فقلنا لابد من أن يكون موجده حيا عالما قادرا حكيما الخ ، وهذه الاحكام كلها مستندة على الحس والواقع . أما مانشأ من الخلاف فهو فى تحديد هذا الخالق وتكييفه وهو من شهوات العامة واهوائهم . اذن لسنا فى شىء من التهجم ولا التحكم . أما أنصار الفلسفة الحسية فقد تهجموا وتحكموا . أما تهجمهم فلزعمهم ان الكون قديم لا أول له وادعائهم قيامه بنواميسه المجردة ، وأما تحكمهم فلا دعائهم قيام هذا الوجود المدهش بنفسه وبمحض فعل تلك النواميس الميكانيكية ، وذهابهم مذاهب السفسطة والخيال فى تعليل وجود الحياة من نواميس ميتة ، والعقل من فواعل مجردة منه والابداع التكوينى من عوامل لاتدرك الجمال ولا معناه .

الا يعد هـذا من التحكم الشائن الذى يجب أن يتنزه عنـه العاقل ؟

(ف) - ان الذى يسوقنا لمـا تسميه تهجما وتحكما هـو اندفاعكم أنتم ، فانكم بمقالاتـكم وكتاباتـكم فى هـذه الامور وطنطنتكم بنتائجها تلجئوننا الجاء لان نقف لـكم فى الجهة المضادة لجهتكم لنستدرجكم الى التأمل والاعتبار . أما لو كان أمر العالم لنا وحدنا لمـا وجدتم لهـذه المسألة ذكرا فى كتبنا البتة ، لانها مما لم نصل بعد اليه

(م) — لمـاذا ؟ أليس فى فطرتكم الانسانية مايدفعكم للوقوف على أخص مايمس حياتكم الشخصية

(ف) — الاحبذا ! ولـكن من لنابذا . ان أفئدتنا لتتلهب نارا للوصول الى أصل الخلقة والعلة الأولى فى التكوين ولـكن كيف السبيل والمجاهيل تحتوشنا فى كل مكان ، والمساتير تدهش منا الأذهان

(م) — اذن أنتم أشوق الناس للوصول الى ذلك السر ولـكنكم تستوعرون الطريق وتتوقعون التعويق

(ف) — هذا أمر لايحتاج لتأكيد

(م) — اذن أنتم من هذه الوجهة مسلمون مع فارق لايكاد يكون ولـكنكم لاتشعرون

(ف) — وكيف ذلك وقد حدثت مبادئنا بعـد ظهور الاسلام بأكثر من ألف ومائتى عام ، وماهو كنه ذلك الدين الذى يأخذ ذويه بهذا الأدب العلمى الصارم ؟ بل كيف يسمى ذلك الدين دينا مع علمنا بأن الأديان تعطى لنفسها حق حـل سائر رموز الـكون فهى لاتدع

مسألة من المسائل الاوتبدى عليها أحكاما نهائيـة لايجوز لهـا النقد ولايحسن فيها الأخذ والرد

(م) — أين أنت من الأدب الاسلامى الذى أفاضه الله على فؤاد الآخذ بهذا القرآن الكريم .

« يتبع »

ماوراء المادة

كتب الكاتب الفرنسى الطائر الصيت (جـول بوا) فى جريدة (الطان) الباريزية الشهيرة الصادرة فى ٢١ يونيو من هذه السنة يقول :

« ان أحدث المخترعات العلمية من أول التلفراف اللاسلكى وأشعة رنتجن إلى خصائص الراديوم والأشعة المعتمة ، وموت صاحب الخوارق المدهشة الدكتور ليبولت حديثاً ، تستلفت أنظار العالم دائما الى التنويم المغناطيسى والسحر والعلوم السرية والحوادث الروحية لمذهب استحضار الأرواح . »

ثم قال : « ان ماحدث من أنواع الشفاء بالتنويم المغناطيسى مما يكاد يعد معجزة ، وما حصل من الفوائد من فن التلقين بالاستهواء ، وما يشاهد من فوائد الاعتقاد وثبات الارادة ، والمحاورات المدهشة بواسطة التليباتيا ، ومسائل الاحساس بالمستقبل وقراءة الأفكار ، وظهور شبح الانسان فى مكان بينما يكون هو فى محله لم يتحرك ، واستخراج القوة الحيوية من الجسد (وقدتوصلوا الى رسمها وقياسها) ، وما يراه الأنسان من الغيوب فى النوم والأنباء بالامور المستقبلة ،

والخوارق الحاصلة من الوسطاء والفقراء الهنود التى هى فى الغالب صحيحة صادقة كل ذلك يتكون منه مجموع هائل من حوادث ومشاهدات يستحيل على الانسان أن يزدريها وأن لا يعبأ بها بل ان من أوجب الواجبات بحثها وفحصها من قرب ثم نشر نتائج هذه المباحث بين العالم جميعه وعدم تركها فى أيدى سماسرة الاحتيال والحمق » ثم استأنس الكاتب لكلامه بجملة كان نشرها الشاعر الشهير (فيكتور هوجو) فى هذا المعنى . ثم قال :

وقد عمل الناس بهذه النصيحة فان جمعيات المباحث النفسية فى لوندره ونيويورك وألمانيا وايطاليا وروسيا مؤلفة من طبيعيين وأطباء وكيماويين وعمرانيين وفلاسفة والكل مهتمون غاية الاهتمام بهذه المسائل الجذابة التى طالما هزئ بها الهازئون وزرى عليها الزارون ، وقد تأسست فى باريز نواد مخصصة للمباحث النفسية والمباحث النفسية الفزيولوجية حصلت من علماء النفس الرسميين على مساعدين مثل (دارسونفال) و (بوشار) و (ميزيير) و (بويسون) و (متسكينكوف) و (بيريه) و (جيار) و (سوللى برودوم) الخ وبذلك فقد أصبح مستقبل هذه المباحث بملاحظة هذه العقول الكبيرة سائراً على دستور علمى ومأموناً عليه من الخطأ . وبناء عليه فهؤلاء العلماء الأعلام والمفكرون العظام سائرون فى تحقيق أمنية الشاعر ولكن ببطء ونظام . »

من هنا يرى القارئ أمرين : أولهما ان هذه المدهشات أصبحت شغلا شاغلا لكبار العلماء فى العالم المتمدن كله خلافا لما يذهب اليه بعض الكتاب عندنا وليس بعد ما نقلناه عن جريدة الطان وهى من أشهر

الجرائد الاوروبية بقلم كاتب من أشهر كتاب الفرنساويين مقال لقائل فى هذا الموضوع . ثانيهما ان شرة الالحاد الاوربى قد انكسرت وأصبح عباد المادة لايجيرون جوابا أمام هذا السيل العرم من الخوارق للعادة الذى لم يدع مكمنا الا وتسرب اليه وأشرف عليه . حتى أصبحنا ننتظر من علماء المدنية الاجهاز على البقية الباقية من صنم الالحاد والجمود وكان ذلك أولى بنا وأوجب علينا . ويا ليتنا نسير مع السائرين ولكن متنورونا وقفوا مع الواقفين ، كأنهم أحفاد أولئك الماديين ويا ليتهم وقفوا ساكتين بل جمدوا متبطين صادين ، كأنه يضرهم ان يثبت فيما وراء المادة عالم آخر ، ويؤذيهم أن يكون الانسان ذا روح تحياحياة أبدية ، فليقفوا أو ليمشوا ان الله ناصر رسله ومؤيد دينه ومحقق وعده والسلام على من اتبع الهدى .

إليك ترجمة بعض تجارب نفسية أجراها الكولونل العلامة (دوروشاس) ناظر مدارس الهندسة فى باريز وهو من كبار المشتغلين بفن التنويم المغناطيسى فى العالم وله فيه تجارب بعيدة الغايات بديعة النتائج . نقلت هذه التجارب المجلة الروحية الصادرة فى هذا الشهر « سبتمبر سنة ١٩٠٤ » تحت عنوان

« قهقرة الذاكرة وخاصية معرفة المستقبل » قال :

« علم الناس من زمان مديد أن خاصية تذكر الحوادث الماضية فى الانسان تقوى وتنضبط جداً فى بعض أحوال خاصة لاسيما فى أخريات لحظات الحياة ، وقد شاهدت أخيراً ان من الممكن الحصول على هذه

الخاصية بالتجربة بتنويم الشخص بواسطة الاشارات الطولية . بهذه الوسيلة يمكن التطواف بالشخص على كل أدوار حياته السابقة . ومتى أثر عليه المنوم بالاشارات العريضة وصل به الى حالته العادية مارا على حوادثه الماضية بالترتيب حتى يصل الى السن الذى هو فيه فان أمعن فى العمل أوصله الى سن الشيوخة وبلغ به عكس مابلغ أولا أى انه بالفعل الأول يصل به الى سن الطفولة تدريجا وبالفعل الثانى يصل به الى ماسيصل اليه من سن الهرم »

« اذا كان الشخص صاحيا وأثر المنوم عليه بالاشارات العرضية أى بالاشارات المهرمة ، هرم الشخص شيئاً فشيئاً وتغلغل فى حوادثه المستقبلة ، فلأجل ارجاعه الى سنه الأصلى يجب التأثير عليه بالاشارات الطولية التى تلاشى آثار الاشارات الأولى »

« قد تحصلت على هذه التجارب بطريقة واضحة جدا على شخصين وها أنا مورد بعض تلك المشاهدات من سجل التجارب الخاصة بها . ولزيادة البيان أذكر القارئ بأن الحوادث المغناطيسية تولد عند أكثر الناس سلسلة من أدوار ليتارجية (الليتارجيا حالة شبيهة بالموت) تتعاقب مع أدوار الانتقالات النومية كما يتعاقب النوم واليقظة فى الحياة العادية وفى حالة الليتارجيا كما فى حالة النوم العادى يسمع الشخص بقوة أو بضعف ولكن لايستطيع الكلام ، وهو فى حالة الانتقال النومى من جهة الحالة الطبيعية كما هو فى حالة اليقظة غير أنه لايحس احساساً جلديا »

(الحالة الاولى مع مدام لمبير)

ذكر أنه بدأ تجاربه مع مدام لمبير ، ونجح فى قهقرة ذاكرتها تدريجا حتى مر بها على جميع أدوار حياتها السابقة الى أن أوصلها إلى الحين الذى كانت فيه جنينا فى بطن أمها ، ثم أصعد ذاكرتها حتى تذكرت نفسها لما كانت روحا مجردة على هيئة كرة من نور سابحة فى الفضاء ، ثم عكس الأمر فأثر عليها بالاشارات العرضية بقصد التغلغل بروحها فى حوادثها المستقبلة ، فما زالت روحها تتنقل بها من دور الى دور حتى وصلت الى سن الهرم ، وشعرت بما ستكون عليه قبل أن تصل إليه . فطلب اليها الأستاذ أن يهرمها ، حتى تصل لدور الموت المنتظر لترى كيف يكون حالها فيه فأبت .

(الحالة الثانية مع جوزفين)

وصف الأستاذ (جوزفين) بأنها خادمة عمرها ١٨ سنة فى بيت أحد معامليه ممن يعتقدون بالأسبرتزم ، وأن لها حساسية شديدة وأن صحتها جيدة الخ الخ ، ثم قال : « لما رجعت إلى (فوارون) عدت إلى التجارب ذاتها مع (جوزفين) بدون أن أكاشف أحدا بأعمالى فى باريس .

الجلسة الاولى . . أنمتها بواسطة الاشارات الطولية للحصول على قهقرة ذاكرتها ثم أيقظتها بأشارات عرضية ، فلما عادت الى حالتها العادية ورجعت اليها مداركها أدمت التأثير عليها بالاشارات العرضية بحجة ايقاظها كلية . فلم يمر الا دقيقة أو دقيقتان حتى قالت لى انى شارع فى

تنويمها بدل ايقاظها ، فكلفتها أن تترك نفسها بدون أن تخشى شيأ ، فاعتراها دور ليتارجيا مكث مدة ثم استيقظت منه فى دور انتقال نومى ، فسألتها عما اذا كانت لم تزل عند المسيو . س (هو سيدها الحالى) فأجابت بالسلب قائلة انها تركته من منذ ثلاث سنين لترجع الى بلدها فى م ... وأنها الآن لدى أهلها ولها من العمر ٢٥ سنة (مع أنها الآن لا تجاوز ١٨ سنة ولكنها ترى مستقبلها)

فأثرت عليها ثانيا باشارات عرضية فاعتراها دور ليتارجيا كانت فى أثنائه فى غاية السكون ، ولكن لم يمض الا قليل حتى لاح عليها ألم شديد جدا ، فأدارت وجهها وخبأته بيديها ، وبكت بكاء مرا حتى ان مدام . س . تأثرت من فعلها غاية التأثر وانسحبت الى غرفة أخرى فلما وصلت الى الدور التالى وهو دور الانتقال النومى ظهرت حزينة كئيبة كما كانت ، فسألتها عما أصابها ، فلم تجب ولفتت وجهها كأن بها حياء من شيء فأعملت الظن والحدس فى سبب آلامها وقلت لها لعلك تزوجت الآن فقالت: «لا ، انه لم يرد مع أنه وعدنى التزوج بى وعدا صريحا فقلت لها أخبرينى عن اسمه وانا اجتهد فى التأثير عليه واقناعه . فأجابتنى قائلة : انك لن تصل الى غاية معه وانى قد بذلت استطاعتى فلم أنجح » فعلمت منها انها لم تزل فى بلدتها وان سنها بلغ ٣٢ سنة وانها أصيبت بما أصيبت من منذ سنتين ، ولم أنجح فى معرفة اسم الذى تيمها

لما رأيت حالتها من الكرب الذى أثر علينا جميعاً لشدة وقعه وظهور فداحته أعدتها الى حالتها العادية بالاشارات الطولية وهى مارة

على الأدوار المتعاقبة من الليتارجيا والانتقال النومى

الجلسة الثانية . — أعدت أعمالى السابقة فقهقرت ذاكرتها أولا بالاشارات الطولية ثم سرت بها نحو المستقبل بواسطة الاشارات العرضية ، فاعتراها بعد الحالة الاعتيادية دور من الليتارجيا فيه هدو ثم استيقظت وهى فى سن ٢٥ سنة فى بلدتها ، ثم اعتراها دور ثان من الليتارجيا بآلام وخجل كما مر ، ثم استيقظت ثانياً فى سن ٣٢ سنة فذكرتها بعلاقاتنا السابقة فى (فوارون) وأقنعتها بأن تثق بى ، فلفظت اسم متيمها بارتباك وإذا به شاب من الزراع فى بلدتها اسمه (اوجين ف .) وأنها قد جاءت منه بولد (١) فزدت التأثير عليها فاعترتها ليتارجيا ثم أعقبه انتقال نومى ثم استيقظت فى سن ٤٠ سنة ، ساكنة بلدتها م . . . وهى فى غاية الحزن وعلمت منها أن ابنها مات قبل قليل وان (اوجين ف .) تزوج باخرى .

فزدتها تأثيراً فاعتراها دور رابع من الليتارجيا أعقبه دور رابع من الانتقال النومى واذا بها فى سن ٤٥ سنة معاشها خياطة القبعات لأحد الخياطين ، وجدتها مكتئبة جداً وليس لديها علم بسادتها الأولين ، وعلمت منها أن لويزه أصدق صديقاتها فى (فوارون) قد كتبت لها ثلاث خطابات ثم قطعت المكاتبة .

فزدتها تنويماً بالاشارات العرضية المهرمة وكنت قد تعبت فسألتها

---

(١) بحثت فى تلك البلدة فوجدت أن هذا الشاب موجود بها الان ولد سنة ١٨٥٨ من عائلة فلاحة مثرية .

بعد جملة دقائق من دور ليتارجيا ظاهرية عما إذا كانت قد تقدمت أدواراً عديدة الى الأمام ، فأجابت بأنها الآن فى غاية الهرم والشيخوخة ، وأنها عائشة بجهد جهيد بفضل خياطتها ولكن الآن نسيت شيئاً من آلامها السابقة فكلمتها عن الموت وسألتها عما إذا كانت تود أن تعرف ماسينالها منى تركت هذه الحياة . فأجابت بالايجاب ، فقلت اذن يلزمنى أن أزيدك هرما فقاومت كثيرا ثم لما أكدت لها أنى أعيدها الى حالتها الراهنة رضيت ورضخت . عند ذاك زدتها أشارات عرضية ، فلم يمر إلا دقيقتان أو ثلاث دقائق حتى رأيتها انقلبت على ظهر كرسيها بآلام شديدة جداً ثم خرت إلى الأرض واعتراها النزع وسكرات الموت ، فزدتها مغطسة لأجاوز بها هذا الدور الشديد ولكى أسألها ، فماتت فرأيتها غير متألمة بل ولم تر أرواحاً وأمكنتها أيدان تتبع جنازتها ودفنها وتسمع ماصار يقوله الناس عنها كقولهم « الموت أولى بهذه المرأة المسكينة فليس لديها ماتقيت به نفسها » ورأت أن دعوات القس لم تغدها فائدة تذكر ولكن دورانه حول تابوتها كان يمنع احتفاف الأرواح الشريرية وشاهدت أن الأفكار الاسبريتية التى تعلقتها عند سيدها القديم قد أنفعها جدا لأنها أعلمتها بحقيقة حالها .

فلما وصلت بها إلى هنا لم أر حسناً ان أبعدها عما وصلت اليه فاعدتها إلى حالتها الأصلية بالاشارات الطولية ، فأحدثت الظواهر التى مضت ، ولكن بطريقة عكسية فانها تقهقرت حتى مرت إلى دور النزع ، ثم منه إلى علاقتها بذلك الرجل .

اعتذار وعدة

طرأ علينا فى هذين الشهرين ما حال بيننا وبين طبع الملازم الشهرية للاسلام فى عصر العلم ، فنعتذر الى حضرات قرائنا عن هذا التأخير ، ونرجوا الله أن يقدرنا على تنظيم مواعيده بعد الآن ، لا سيما وقد أعددنا له مطبعة خاصة أمام نظرنا ، وأصبح بذلك تحت رقابتنا وملاحظتنا ، وانا فى هذا المقام نقدم جزيل الشكر والامتنان لحضرات القراء الغيورين الذين ساءهم هذا التأخير فكتبوا لنا يستنبئونا عن السبب ، فجزاهم الله خيرا ، وإنا نعدهم تلقاء هذه الأريحية ببذل غاية الجهد فى تكميل موضوعنا وتحسينه وسيرون بعد اليوم إن شاء الله ما يسرهم حساً ومعنى .

﴿ الأدب الذى تفيضه عقيدة التوحيد والتنزيه على المسلم ﴾

لا ينكر علينا اليوم أحد أن العرب بعد أن كانوا من الجاهلية على حال من الخلل الاجتماعى والخلقى لم يمكنهم من الصعود فى مراقى العمران درجة واحدة ، أصبحوا فجأة بواسطة الروح التى بعث الله بها رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم أمة دانت لها الأمم طوعا وكرهاً وآلت اليها خلافة الله فى الأرض قرونا طويلة كانت فى خلالها حاملة لواء العدل والعلم والحرية والمساواة والرقى الصورى والمعنوى بأخص معانيها .

اذا تقرر هذا فلا مناص من التسليم بأن لهـذا الرقى الفجائى سرا كبيرا أتاهم من تلك الروح الـكاملة العالية التى تنزلت عليهم وما تنزلت عليهم تلك الروح الا لما استنزلوها بما أشربوه من عقائد وخصال . من هنا كان البحث فى اسرار عقائد الاسلام هو الطريق الصحيح المؤدى الى ادراك تركيب ذلك الا كسير المحمدى الطاهر ، ولما كان التوحيد والتنزيه هو أكبر ماجاء النبى صلى الله عليه وسلم لتقريره للعالم الانسانى ، فلاشك فى أنه القانون الجامع لأسرار ذلك الا كسير كله ، أو أنه العنصر الفعال فيه من بين سائر عناصره الأخرى التى هى بمثابة المساعدات لفعله ، العاملات على أثره . وهانحن شارعون فى بحث هذا الموضوع الجلل على الأسلوب التحليلى والله ولى المؤمنين

التوحيد هو أن توحد الله فى ذاته وصفاته وأفعاله ، ومعنى ذلك فى اصطلاح المتكامين كما جاء فى كليات أبى البقاء « إن للتوحيد ثلاث مراتب : مرتبة (توحيد الذات) وهو مقام الاستهلاك والفناء فى الله فلا موجود الا الله ، ومرتبة (توحيد الصفات) وهو أن يرى كل قدرة متفرقة فى قدرته الشاملة ، وكل علم مضمحلا فى علمه الـكامل ، بل يرى كل كمال لمعة من عكوس أنوار كماله ، و (مرتبة توحيد الأفعال) وهو أن يتحقق بعلم اليقين أو بعين اليقين أو بحق اليقين أن لامؤثر فى الوجود الا الله . »

وأما التنزيه فهو أن تنزهه سبحانه وتعالى عن مشابهة الخلق وان تتبرأ من كل مايجيش بصدرك من الميل الى تـكييفه وتصويره ، وان

تسد نافذة الخيال فى مجال التفكر فيه ، وان تعتقد قلبا وقالبا بأنه الحى القيوم اللطيف الخبير « ليس كمثله شىء » « يعلم مابين أيديهم وماخلفهم ولايحيطون به علماً » « لاتدركه الابصار وهو يدرك الابصار » وان كل سعى تبذله فى تصوره بصورة ، وكل جهد تعمله فى الوقوف له على ماهية أوكيفية أوكمية ، ضائع سدى وذاهب عبثا ، وان تجزم جزما لاتردد فيه ان « كل ماخطر ببالك فالله بخلاف ذلك »

لهاتين العقيدتين أثر على نفس معتقدهما من جهة التأديب النفسانى والتكميل الخلقى لا يدرك خطارته الا من أشرقت عليه لمعة من نوره وحفت به نفحة من جلاله . فهما اكسيران الهيان ، وروحان سماويتان ، تنزلان من النفس الانسانية منزلة الشمس من سمائها فتطرد من دياجير الرعونات البشرية ، وتزيل من ادران المقتضيات السفلية مالا تستقل بوصفه الأقلام ، ولا تتطلع لمداه الافهام ، كما سترى له شيئاً من التفصيل .

قلت إن لهاتين العقيدتين أثرا على نفس المعتقد بهما ، وأريد بالمعتقد من يدل عليه اللفظ بمعناه الصحيح ، لا من ألصق نفسه بالعقيدة وادعاها ، فان أصل معنى (اعتقد الشىء) صدقه وعقد عليه قلبه وضميره ، وقد تسامح الناس فى هذا المعنى حتى أطلقوه على الذين يتوهمون أنهم معتقدون وما هم كذلك فى الواقع ، وما هم الا قوم ورثوا عن آبائهم تينك العقيدتين بعد أن طال على آبائهم الأمد ، ونسوا حظا مما ذكروا به ، فأخذوهما عنهم لفظا مجرداً ، وحشروا

أنفسهم بذلك فى مصاف أهل التوحيد والتنزيه اسما ، ثم تركوا أنفسهم عملا وفعلا لأهوائهم ، وأهواء آبائهم من قبلهم مما ينافى تينك العقيدتين و يجافيهما ، وسموا ذلك دينا لهم جروا عليه أحقابا وقرونا فجمدوا عليها جمود الانسان على صفاته الموروثة ، وعاداته المألوفة ؛ فان نبههم الى ذلك مستشكل قابلوه بحشو من التأويلات ، وقذفوه بسيل من القياسات والتشبيهات حتى يفحموه أو يهجروه ، وليس هذا ببدع فى أصحاب العقائد بل هو مقتلهم الوحيد ، وجهة ضعفهم التى يتسرب منها اليهم التشتيت والتبديد « وماربك بظلام للعبيد »

نريد بالمعتقد بهاتين العقيدتين من عقد عليهما قلبه ، ووقف عليهما عقله ولبه ، فسرت أنوارهما فى أعماق سرائره ، ونفذت سيالاتهما المحيية الى طويات ضمائره ، وبات وهما أدخل فى نفسه من نفسه ، وألصق بمعناه من سائر همه .

لاجرم أن المعتقد على هذه الصورة يحس فى نفسه آدابا عظاما ، ويأنس من ذاته سجايا فخاما ، تنشأ فيه نشوءا طبيعيا ، وتنبع من جوهره نبوعا ذاتياً ، فلا يلبث ان يكون فاضلا وهو لايدرى معنى الفاضل فى عرف الحكمة الأخلاقية ، ويصبح حكيما وهو لايدرك تحديد الحكمة فى الاصطلاحات الفلسفية ، وهل نغير هذا البيان يستطيع الباحث ان يفسر سرعة تطور العرب من الجاهلية الجهلاء ، الى المدنية الأدبية العلياء فى أقل من ربع قرن ، وهى مدة لو كانوا قلبوا فيها البيوت مدارس وأتو اللعرب بكبار فلاسفة الرومان واليونان والفرس لما كانوا

يستطيعون أن يبطلوا ما كانوا مغرمين به من شرب الخمر ، وهو أقل مصائبهم خطراً فما بالك بتلك القوة التى كرهتم (بدون مدارس ولا فلاسفة) فى الخمر والميسر وطلب الثار وحب الانتقام والغارات والانقسامات والتفاخر بالآباء وعدم المساواة وهضم حقوق النساء ودفن البنات أحياء الخ الخ من المصائب الاجتماعية ، والبلايا الأخلاقية ، ثم ان اضفت لهذا ماتلاه من رقيهم السريع وقيامهم بخلافة الله فى الأرض قياما أدهش الحكماء وحير العرفاء ، وأرغم معاطس العتاة ، وطأطأ جباه المتألهين الجفاة ، وهم شرذمة معدودة ، وآحاد محدودة لعلمت أن هذه قوة القوى وأن الباعث لها من العقائد لابد من أن يكون ناموسها الأكبر وملاكها الأعظم .

أنا هنا لا أريد أن أسوق البراهين الطبيعية الدالة على وحدانية الله تعالى وتنزهه عما يشا كل مخلوقاته ، وعلوه على كل مايخطر ببال أحد من عباده ، فان الكون بجملته وتفصيله يدل على هاتين العقيدتين دلالة لاتحتاج لاجالة نظر ، وأعمال فكر ، انما الذى أريده هو أن أشرح ذلك الأدب الالهى الذى تفيضه تانك العقيدتان على المعنى الانسانى فتقلبه انسانا سويا على مقتضى القالب الفطرى والنموذج الالهى بدون علاج من كتب الأخلاق ، ولارياضة من قانون الفلسفة ، ولو كنت واثقا من صحة وجود اكسير الكيمياء الذى يقال انه يقلب المعادن ذهبا ، لقلت ان هاتين العقيدتين تشبهانه من حيث استيلائهما على جوهر الانسان ونفى التلونات العارضة عنه ، وسبكه سبكا جديداً على

مقتضى قانون ليس فى قدرة العقل الحوم حول تفاصيله .

من وجد الله فقد اعتقد أن « لا اله الا الله » ومن اعتقد ذلك رسخت فى ضميره عقائد تتبعها ، وانجلت عنه أوهام لا تتفق معها . أما ما يرسخ فى ضميره من العقائد التى تتبعها فتيقنه بأن لا معبود إلا الله ، ولا محيي إلا الله ، ولا مميت إلا الله ، ولا رازق إلا الله ، ولا حارم إلا الله ، ولا نافع إلا الله ، ولا ضار إلا الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وان لو اجتمعت الانس والجن على أن ينالوا أحدا بخير فلن يستطيعوا ذلك إلا باذن الله وتقدير الله ، وان أجمعوا على أن يصيبوه بشر فلن يطيقوه إلا بقضاء الله وحكم الله ، وان كل ما دون الله وجود حائل ، وظل زائل ، وما يشاهد من أفعال الناس وحركاتهم مما ينسيه قصر النظر اليهم ، فهى نسبة مجازية ، وأمور اصطلاحية . أما هم فى الحقيقة فآلات منفعلة ، وحوادث متصرفة ، لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا كسبا ، ولا يستطيعون لغيرهم شرا ولا ضرا ، مملوكون لقدرة لا تحد بحد ، ولا تقاس بعد ، فما مثل الملوك فى أبهتها وتعاظمها ، والقادة فى تكبرها وتغشمرها أمام هذه القدرة المحيطة بالأكوان ، التى لا تحدها الأذهان كمثل الضعفاء فى مسكنتها ، والبسطاء فى خمالتها وعجزها .

لو عقد الانسان فؤاده وعقله على هذه العقيدة ، وأبعد عنه شياطين التاويلات وأبالسة التحريفات ، تنزلت على فؤاده من عالم الكمال الالهى صفات عالية وخصائص سامية ، تستدعيها الحالة التى آل اليها ذلك الفؤاد من التجرد والصفاء كما يستدعى الملزوم لازمه ، وكما يطلب الموصوف

صفته ، وأول مايهب عليه من عالم النفحات القدسية عاطفة الاستقلال والحرية تتنزل عليه هذه العاطفة من اعتقاده أن لامعبود ولانافع ولا ضار ولارازق الا الله وأن لاحول ولاقوة الا بالله فيحس أنه والكل سواء ، فما الملوك فى قصورها ، والكبراء فى ثروتها ورياشها الا مثله مربون مملوكون لايملكون لأنفسهم ضرا ولانفعا ، فيسقط من ذهنه صنم الوهم الذى يخيفه منهم ، ويدعوه للتحكك بهم ، لثقته أنهم آلات منفعلة لقوة الله وتأثيره ، واشباح تروح وتجىء بأمر الله وتسخيره ، فيرى أنه حر ليس لأحد عليه سلطان فى أى أمر كان ، وانه والعالمين فى مستوى واحـــد من حق الوجود ليس لأحد عليه ميزة فى الحقوق الانسانية ، وأن القانون الذى يجب أن يشمله هو وجميع أفراد نوعه هو قانون العدل والمساواة ، لا قانون التمايز والمحاباة ، ويتحقق أن ماطرأ على العالم من مصيبة الخضوع للقادة المطلقين والسادة القاهرين الجبارين ، هو تسامح الناس فى حقوقهم الشخصية وخضوعهم لقوتهم الوهمية التى تريهم أن قادتهم من طينة أرقى من طينتهم ، فتراه مسوقا سوقا اضطراريا لأن لايسلم بتحكم روح على روحه ، ولابعدوان أحد على حقوقه ، فلايرضخ لمسيطر يميل لتسخيره فى أهوائه ، وتصريفه فى شهواته ، هذه الروح المستقلة تدفعه بطبعها لمعاداة كل من يعارضها من بنى نوعه سواء كانوا من المدعين للوصاية الروحية ، الملتصقين بالوظائف الدينية . أو من الذين يريدون اغتصاب السطة الدنيوية ، وصرف الأمة الى أحكامهم الاستبدادية ، فهو من هذه الجهة من ألد

أعداء المتألهين ، وأشد أضداد المستبدين ، من أى قبيل كانوا وبأى صبغة ظهروا ، فلاتذله مايبذله الملوك من كواذب الألقاب ، وجواذب الوسامات ، ولا تأسره ما يأتيه به مدعو السلطة الروحية من فواتن الأوهام ، وخوادع الأحلام ، لمايرى فيهامن العدوان على استقلاله ، والذهاب بحريته وكماله .

تخيل امة يكثر بين آحادها الموحدون الصادقون ، ثم انظر كيف تعدم فيها تانك السلطتان الضارتان : سلطة الملوك المطلقين ، وسلطة الرؤساء الدينيين ، وهما السلطتان اللتان نخرتا عظم الانسانية ، وبلغتا من هضم حقوقها الى زعم أن لاوجود لها مع وجود رؤسائها وان حياتها فانية فى حياتهم .

نعم تنعدم هاتان السلطتان وينعدم معها مايتبعهامن نقص فى نظامات الحكومة ، وجور فى قوانينها ، وامتيازات بين رعاياها ، واستئثار من طائفة منها بالسلطة الروحية ، مدعية حق الهيمنة على أرواحها وعقائدها ، مما دعا ويدعو الى امور تستفز العواطف الساكنة ، وتوقظ الفتن النائمة ، وتجر الى كراهية السلطة ومجافاة التدين بالكلية هرباً من أولئك المغتصبين ، وحالة العالم كله شاهد بما نقول .

هذا وحده أثر عاطفة الاستقلال التى يشعر بها الموحدون بحكم عقيدتهم ، وأعظم به من أثر . أما ماينشأ عن التوحيد من عواطف أخرى فما لايستقل باستيفائه كتاب ، كعاطفة الشمم وكبر الفؤاد التى تنتج من اعتقاد الموحد وتيقنه بأن لارازق ولا حارم إلا الله فتراه

أبى الفؤاد عزوف النفس لايداهن للملوك والامراء ، ولا يتقرب الى الأغنياء ، لتيقنه ان الذى أعطاهم قادر على أن يعطيه أضعاف ماعندهم ، ان أراده لذلك ووفقه له . فان هم به خاطر رغبة الى الصعود لتلك المراكز الدنيوية وجه وجهه شطر من بيده الاعطاء والمنع راغباً اليه أن يهبه من القوة والأهلية ، وان يوقظ فى ذاته من عوامل النجح فى مراميه القصية ، مايذلل به صعاب الحوائل ، ويسنى له منال الوسائل ، فان نال مناه ، وبلغ مداه ، زاد بالحق يقينا ، وفى مذهبه تمكينا ، وان أخفق سعيه ، وأكدى جهده ، اتهم الوسائل التى استعملها ، واستقل القوى التى بذلها ، فزاد فى وسائله تكميلا ، وأمد قواه تنشيطاً ، حتى يبلغ ماقدر له وهو عالى الهمة ، كبير الفؤاد لم يلق به الجهل إلى مداحض الذلة ، ولم يدهوره الطمع الى مزالق الخسة .

«يتبع»

المحاضرات

« تابع ماقبله »

لم ينته المسلم مما قاله للفيلسوف حتى غشى مجلسهما ثلاث رجال ذوى صبغ مختلفة يجمعهم والمسلم رحم اللغة والدين والمعرفة فانقبض الفيلسوف عند ذاك عن الاسترسال فى المحاضرة وارتآى أن تؤجل الجلسة الى الغد . فقال له المسلم : لاداعية للتأجيل فانك لو علمت صفات الثلاثة لرأيت أن وجودهم من متممات بحثنا ومكملات موضوعنا ، ولو لم يكن فيهم الا مايريك اتجاه الأفكار المختلفة فى الشرق لكفى

ذلك محباً لك لمعاشرتهم ولو أمد المناظرة .

(الفيلسوف) أنا ماانقبضت عن الاسترسال فيما كنت بصدده الا لعدم الاثقال عليهم ، أما وقد علمت أنهم مشخصو بعض المذاهب الشرقية العصرية فمن أوجب الواجبات على الآن أن أرحب بهم وأعد وجودهم مكملا لما نحن فيه . فخبذا لو تكرمت بتعريفي بمراكزهم من الحركة الفكرية عندكم .

(المسلم) - حباً وكرامة ، أما الأول فاسمه (المحافظ) وماسمى كذلك الا لأنه زعيم حزب المحافظين عندنا ولا أعنى بالمحافظين زعماء السياسة فانا لم نتمتع بعد بالحكم النيابى وإنما المحافظون عندنا هم الواقفون مع كل قديم لايرون الخير إلا فيه ولا يرجون الحياة الا به ، ولديهم أن كل جديد سواء فى العلوم العقلية أو الصناعية فصورة مأخوذة عن القديم بعد تشويه أحدثوه فيها ، ومسخ أوقعوه عليها ، فهم هذه الروح الخاصة بهم لاينظرون لمدنية أوروبا الا بنظر الساخر المستحقر ، ولو جاءت بالعجب ، وأخذت بأكظام الشرق من كل سبب .

وأما الثانى فاسمه (المتمدن) وهو زعيم الحزب المضاد للحزب المتقدم . يرى اتباع هذه النحلة أن مدنية أوروبا هى أكمل وأجمل مظهر انسانى ظهر للعالم بمعنييه الصورى والأدبى ، ووجهيه الكلى والجزئى ، فهم عشاق المدنية فى كل مجلى من مجاليها مستسلمين لأفاعيلها ، مستنيمين الى دوافعها ، منقادين لتياراتها ، ان وردت بهم مورد لهو يعدو على الكيس والكيس ، أو يسطو على النفس والنفيس ، فلا

يعدون ذلك نقيصة فيها بل أحوالا تقتضيها طبيعة الشؤون ، وتستدعيها حالة الارتقاء ، ولديهم أن كل ماعارض المدنية من نقل أو حكمة أو أو أثر فلا محل له عندهم من أفئدتهم ، لانهم يعدونه معارضاً للطبيعة وكل ماعارض الطبيعة فزائل لامحالة .

وأما صاحبنا الثالث فاسمه (المستفيد) وهو غريم الفائدة يأخذها حيثما صادفها ، وطالب الحكمة يلتقطها انى وجدها ، وقف على شيء من آثار الجديد الساحر ، وذاق جرعا من اناء هذا البدع الباهر ، ولكنه مع ذلك مغرم بالقديم الآسر ، مجل لمعهده الزاهر ، معتقد أن المآل اليه وان كابر المكابر ، وسخر الساخر ، ولكنه مع ذلك لا ينكر فداحة الشبه الجديدة ، وخطارة الشكوك الحديثة ، فهو يرى من تمام متاعه أن يحول دونه ودون عبث العابث ، وعيث العائث ، فهو لذلك شاهد كل مجال ، واذن لكل حكمة تقال .

(الفيلسوف) نعم المجلس مجلسنا . لعمرى ان الحكمة لا تنجلى فى مجلاها الكامل ، والفلسفة لا تتحلى بحلاها الشامل ، الا باحتكاك العقول بالعقول ، وتلاقى الأفكار بالأفكار ، وتجاول المدارك بالمدارك ، مادام الحق انشودة الجميع وضالتهم فلنأخذ فيما كنا فيه :

قلت لى أين أنا من الأدب الاسلامى الذى يفيضه الله على الآخذ بهذا القرآن الكريم ، نعم أنا بعيد عن ادراك كنه ذلك الأدب ولكن هل يخلو ذلك الأدب عن كونه أدباً دينياً جاء به دين ؟

(المسلم) نعم هو أدب جاء به دين .

(الفيلسوف) هذا خط الانفصال بيننا وبينكم ، فان الدين يبتدىء حيث ينتهى العلم لأن مبناه كشف أحوال ماوراء الطبيعة والتغلغل فى علم مابعد المحسوسات ، والعلم كما لايخفا كم لايخول لنفسه حق الذهاب بالفكر عن عالم الحس فهو مع المحسوسات حيث هى ، يوسعها فحصا وتنقيباً ، ويجهد وراء نواميسها فليا وفحصا ، لايتعدى دائرة العيان والتجربة قيد شبر ، خوفا من الوقوع فى ماوقع فيه الأقدمون والجهلاء العصريون ، من تجسيم مرائى الخيال ، والاستعباد لبنات الوهم . وما دام الدين يبتدىء حيث ينتهى العلم فما معنى قولك أكاد أكون مسلما لولا فارق ضعيف ، وماهو هذا الفارق الضعيف بعد مارأيتك هذا الخلاف الجوهرى ؟

(المسلم) أنا قلت لك تكاد تكون مسلما لولا ذلك الفارق مع علمى بكل ما قدمته ، ولم أزل مصرا على قولى ، وأزيدك بأنى سأبرهن لك ان شاء الله على أن أصولكم العلمية التى تفخرون بها علينا والتى أدتكم الى الذهاب بالابداع الصورى كل مذهب ، موجودة كلها فى ذلك الادب الاسلامى باسلوب أكمل ، ورواء أجمل ، ويصاحبها أدب روحانى مدنيتكم وعلومكم عارية عنه بالمرة وهما أصلان لاتكمل الأنسانية الا بهما ونراكم مدفوعين اليهما من حيث تشعرون ولاتشعرون ولكنى الآن لوساجلتك فيما هو الاسلام وما هو كنه ذلك الأدب القرآنى ، وروح ذينك الأصلين المادى والروحانى خرجنا عن موضوعنا الأصلى ، وطوحتنا الاستطرادات الى مطارح بعيدة من البحث ،

فلنسلك لموضوعنا طريق الترتيب ، ولندع الكلام فى الاسلام الى موضعه

(الفيلسوف) النظام ادعى لعدم الخطل ، فنعم مارأيت هنا عرضت للفيلسوف جلسة فى الغرفة المجاورة مع زائر جاءه فقام بعد أن استأذن فقال (المستفيد) :

لقد كنت أتمنى أن يشهدنى الله مثل هذا المشهد الفلسفى الحافل بالعلم والحكمة ، لا بل هياما فى صدرى ، وأشفى علة فى فؤادى ، فأحمده على أن وفقنى لوجدانه ، وأجلسنى بين أقرانه ، وكيف لا أمتلىء سروراً وغبطة وأنا أتوقع أن تستعرض أمامى سائر الأصول الفلسفية والعلمية فى معرض جدل خال من التعصب ، وحوار نزيه عن الغرض

(المحافظ) رويدك أيها الأخ الصالح ، فما هى الفائدة التى تتوقعها من نفثات صدر هذا الملحد المظلم الفؤاد ، وما أغنى عقلك عن الالتياث بما يقذفه من فيه من الشبه والتشكيكات والاشكالات

(المستفيد) ان تلك الشبه التى تخافها على موجودة فى ذهن من هو أقل ادراكا منى وقد نفثتها فى الأذهان ألسنة الحال ، لا ألسنة المقال ، والا فما سبب انصراف الخاصة والعامة عن الدين ، والانسحار بباطل هذا البدع المشين ؟ وانى أرجو فى جلستى هذه أن أعرف صور هذه الشبه بلسان المقال وأسمع الردود الدامغة عليها من صديقنا المسلم

(المتمدن) أنا كما يعهدنى كل من يعرفنى أحب الحرية والتسريح بكل مايجيش بصدرى ، لهذا أرجو أن مأسافو له لا يقع من صديقنا

صاحب هذه المناظرة موقع المشارة والحط من كرامته، وكفاكم دليلا على الاخلاص انى معتقد ماأقول . أنا ارتأى ان نفض هذه المناظرة ونتخلص منها بالتى هى أحسن ، لئلا نستهدف لاستصغار ذلك الفيلسوف بنا وامتهانه لنا حين يقذفنا بحججه العلمية الدامغة ويرشقنا بسهام أدلته النافذة ، ويستظهر علينا بسطوة العلم الأوروبى وبطشه فلا نحير جوابا ولا نطيق خطابا . فمن ذا الذى يتصور أن يفوز أنصار الدين على زعماء الفلسفة الأوروبية وقد شهد الوجود على ان ذلك محال تلك سنة مضت ، وأدوار حدثت وانقضت . ونحن الآن فى عصر العلم ، فمن رضخ لسلطانه نجا ومن عرض له صفحته وقاوم أحكامه هلك

(المستفيد) ان شأنكم معشر أنصار المدنية الأوروبية عجيب لا يكفيه التعجب ، لقد غلوتم فى أكبار سطوة العلم ، والرهبة من صولته حتى تصورتموه أسدا كاسرا بحيث لا يقركم على فكرتكم هذه أهله أنفسهم ، فان العالم الأوروبى ذاته يجعل أكبر مفخرة للعلم العصرى انه متواضع يقر بالاقلال ، ومخلص يرجو الكمال

لم يكد يتم المستفيد جملته حتى دخل (الفيلسوف) فقال :

هلم ، فقد أديت ماوجب

(المسلم) تبين لى مما مر أنكم وقفتم مجهوداتكم ، وقيدتم مداركم على عالم الحس ، لا تتعدونه الى ماوراءه ، وما أضيق هذا المجال على الوجدان ، الدائم الجولان ، الذى لا يرضيه حد فيلتزمه ، ولا يقنعه مرمى فيسكن اليه

(الفيلسوف) نعم هو مجال ضيق ولكن بالنسبة لشطحات الخيال وجولات الأوهام، التى لا تتقيد بقيد، ولا تطالب بدليل، أما بالنسبة للعقل الذى طبع على أن يحاسب ويحاسب فهو ميدان لا يتناهى، وباحة يضيق عنها ذرعه، وان هذا العقل كلما تذكر أنه بعد جهاده فى عالم الحس ألوفا من الأعوام لم يحصل منه الا مالا يجمل به أن يفتخر به علم أنه فى وسط بحر خضم حافل بالمجاهيل والأسرار، زاخر بالبدائع والآثار، وهذه الذكرى تثنيه عن طلب المزيد، وهل يطلب المزيد الا من بلغ المدى، وأشرف على الغاية

(المسلم) فى الانسان قوى مختلفة، وقابليات عديدة تستدعى كل منها بلوغ الغاية مما خلقت لأجله، وطبعت على تطلبه، ولا شك فى أن هذا العالم الحسى يواتى مطالب كثيرة لبعض تلك القوى والقابليات الانسانية بما أودع فيه مما يناسبها ويلائم فطرتها، ولكن مما لامشاحة فيه أن البعض الآخر من تلك القوى والقابليات يبقى أمام هذا العالم الحسى ولهانا مضطربا يطلب أنشودته فلا يجدها، ويبحث عن رغيبته فلا يصادفها، فهل يعقل أن الطبيعة تواتى حاجة بعض القوى دون البعض الآخر؟

(المستفيد) اسمحوا لى أن اقترح عليكم اقتراحا تدعونى اليه سماحتكم وذلك أنكم معشر العلماء لما منحتموه من بسطة المدارك، وسمو القرائح، تعلو عباراتكم عن أفهام الناس حتى ان العربى منها قد يكون أعجميا عند أهل اللغة وأرباب البيان، لكثرة ما تودعونها من الاشارات

الخفيـة والمرامى الفلسفيـة ، فأرجو أن تاذنوا لى فى استيضاحكم كل مايغم على من أقوالـكم ، فأرجو الآن مثالا محسوسا على ماقاله حضرة الأخ المسلم

(المسلم) فى الانسان مطالب جسدية كالمـأكل والمشرب وغيرهما ولـكل منها من عالم الحس مرتع هنىء وميـدان وسيع ، وفيه رغائب عقلية كميله الى ادراك المجهولات واستنباط الخفيات ، والوقوف على الأسباب والمسببات ، وهذه الرغائب لهـا أيضا من الابداع الوجودى والنظام العالمى مسرح باهر ، ومرتاض زاهر ، ولـكن فى الانسان غير هذين النوعين من المطالب أنشودات روحية ، وضالات نفسية ، مثل غرامه بمعرفة سر حياته ، وبمـا يؤول اليه بعد مماته . هب أن رجـلا نال من نعيم الجسد مالا يرجو معـه مزيدا ، ومن شهوات العقل مالا يبلغ شأوه مزاحم ، غرق فى الخيرات المادية ومملوء من النظريات والبـداءة العلميـة ، ثم ادركه الهرم وقارب أن يفارق أهـله وولده ، ويغادر معارفه وبلده ، ويدس الى حفرة يستقذر أن يمر بها ، ويستوبىء الاشراف عليها . فهل تغنى عنه وهو فى تلك الحالة حالة السماح بحياته المحبوبة ، والبكاء على ماسيتهى اليـه أمره بعد قليل ، فهل يتصور أن الطبيعة (فى اصطلاح الفلسفة) تهب لاميال الانسان المـادية والعقلية مطالبها بهذا السخاء العظيم ، ولا تهبه مايهدىء اضطرابه على أحب محبوب لديه ، وأكرم موجود عليـه ، وهى حياته الشخصية وما يتعلق بها ؟

(الفيلسوف) ان الانسان بميله الى معرفة حظه بعد انتهاء حياته يريد أن يدرك ماوراء الطبيعة المحسوسة ، ولما لم يكن له وسائل تمكنه من ذلك فهو يسلط عليه فكره وخياله ، ولا يزال عائما بين سراب تينك القوتين حتى ينتهى وجوده على حالة من الأحوال ،فهل تود أن نطلق لأنفسنا عنان الخيال فيما لم نوهب آلة الوصول اليه ، ونكون كآحاد الملل والنحل التى كونت كل منها على عالم ماوراء المادة سفراً ضخماً بل أسفارا كلها كلام فى كلام وأوهام فى أوهام ، وهل ذلك يقنع العقلاء ويليق بالعلماء ؟

(المسلم) انا لاأطلب منك الا أمرا واحدا وهو أن تعترف لى بتلك المطالب الروحية ، فاذا أقررت بوجودها كان لى كلام آخر فى شأن وجود عالمها أو عدم وجوده

(الفيلسوف) ماذا تعنى بالمطالب الروحية

(المسلم) أعنى بها تعطش الانسان لمعرفة سر حياته ، وما يناله بعد مماته ، وغرامه بالخلود بأخص حالاته

(الفيلسوف) اذا كان حب الانسان لكشف الأسرار الكونية ، ورفع الحجب الوجودية أمرا لايحتاج لدليل ، فهو من باب أولى أكثر حبا لكشف سر ذاته ، والاشراف على ماسيناله بعد مماته ، أما غرامه بالخلود فهو أمر مشاهد لايحتاج لبيان ، ولكن هل كل مايحبه الانسان ، داخل فى حدود الأمكان ؟ اذن لصحت سائر الأديان ، على مافيها من بطلان ولتحققت سائر الأهواء الانسانية وأصبح الهوى برهانا يستدل

به الفيلسوف ويتوكأ عليه المتجادلون

(المسلم) لا تعجل بالاستنتاج ، فانى ماطلبت اليك الا الاعتراف بغرام الانسان بمعرفة سر ذاته ، وحظه بعد حياته وقد اعترفت بهما . الآن أسألك كيف أن الطبيعة التى لم يعهد الجزاف فى عملها وصنعتها قد وهبت الانسان هذا الشغف الهائل بذاته ، ولم تهبه مايطفىء لهيبه ، ويبل من غلته ، مع أنه أكبر شىء يهمه فى وجوده ، واخص مايعنيه من شؤونه

(الفيلسوف) ان الطبيعة لم تهمله من تلك الجهة فقد دلته باطوارها وأدوارها ونواميسها على أن تلك الطلبة من المشتهيات الهوائية غير الممكنة ، ومتى علم الانسان أن مطلوبه مستحيل أقلع عنه ،

(المسلم) إن جوابك هذا غير وجيه ، إذلا يتصور أن الطبيعة تشعر كائنا من كائناتها بحاجة شديدة جداً ثم تريه بعد مضى آلاف من السنين بواسطة علم النواميس أن تلك الحاجة غير موجودة . إذا أجعت إنسانا حتى اشتدت به سورة السغب ثم عرفته بأن الغذاء مستحيل وجوده ، فهل يقلع عن طلب الغذاء بمحض تلك المعرفة ، وهل يستطيع أن يقاوم تارات ألم الحاجة زمناً مديدا ؟

(الفيلسوف) قد شبهت الحاجات النفسية الأدبية بالحاجات الجسدية المادية ، واستفدت من ذلك التشبيه فائدة التأثير على الاذهان القريبة المدى السهلة التأثر ، فلأسلمه لك جدلا لاطالبك بالبينة الواضحة على ماتقول ، فانك لم تسمح لنفسك بالاتيان بهذا التشبيه ،

والانتصار لما أنت بصدده هذا الانتصار الحماسى إلا وأنت عارف بسبيل الوصول لاشباع تلك الحاجة النفسية فتكرم بها غير مأمور ، فكلنا طالبها وهائم بها

(المسلم) يظهر لى من لحن كلامك وروح إلقائك أنك لم تكلف نفسك عناء البحث عن هذه الطلبة الروحية قط

(الفيلسوف) أؤكد لك إنى مررت فى أثناء نظرى فى الفلسفة على أكثر ما كتبه فلاسفة اليونان الاقدمون وعلماء الدين فى القرون الوسطى ، وعلى ما كتب فى عصرنا الحاضر أيضا من هذا القبيل بواسطة اللاهوتيين المحدثين ، فما ثلج صدرى ولا اطمأنت خواطرى لشىء من ذلك ، بل الذى لاحظته أن كلام الجميع يقبل النقد ولا يستعصى على التعقب ، والسبب فى ذلك ظاهر ، وهو أنهم بعقولهم المحدودة يودون حصر حقيقة الحقائق فى دائرة التعبير ، والوصول للسبب الاول بوسائل الفكر القاصر ، فلاجرم أن أخفق سعى الجميع ، وذهب تعبهم ادراك الرياح

(المسلم) هل تعتقد أن وراء هذه الحقائق الوجودية حقيقة كلية ، وان وراء هذه الاسباب الثانوية سببا أوليا ؟

(الفيلسوف) أرجوك أن لا تأخذنى بظواهر ألفاظى ، فانا ان قلت حقيقة الحقائق والسبب الأول فلا أطلقهما على مايطلقهما عليه أصحاب التعبير ، وسماسرة المنطق والفلسفة الكلامية ، بل أريد بهما كنه ما نراه من الظواهر ، ومهب مانشاهده من تلاطم هذه القوى

الكونية بأفاعيلها المدهشة

(المسلم) عبر بما استطعت من ألفاظ ، فلا أخالك تنكر أن وراء هذه المشاهد الباهرة المتغيرة ، وخلف هذه الافاعيل الابداعية المدهشة ، وبعد هذه الحركة التكوينية الهائلة ، قوة تمدها ومنظما ينظمها ، وحكمة تهيمن عليها ، ودستورا يدفعها عن الانحراف ويزغها عن الزيغ ؟

(الفيلسوف) نعم وراء ذلك النواميس الوجودية ، والقوانين الكونية

(المسلم) انك عبت أهل التعبير ، وسماسرة المنطق بالجمود مع الالفاظ ، والاستراحة للكلام ، فلا تقع فيما عبتهم من أجله . فانك مهما حاولت فى اعلاء شأن النواميس فلا تستطيع أن تنكر أنها من مكتشفات العقل القاصر ، والفكر الناقص ، فهى من قبيل الأمور الفكرية والقضايا الذهنية ، وإن علوت بها وقلت انها من باب الأمور الطبيعية والمشاهدات الحسية ، فسيان عندى ، ولا يخرجها هذا الاعتبار عن كونها من القوى الطبيعية ، والمؤثرات الوجودية وقد قلنا وقلتم انه لابد من أن يكون وراء هذه المشاهد المادية والقوى الوجودية حقيقة كلية ، هى أصل الحقائق وقيوم الكائنات . وإن أصررت على أن النواميس هى غاية الغايات ، ونهاية النهايات ، فقد حاكيت الواقفين مع أفكارهم ، المستعبدين لخيالهم ، المؤلهين لأهوائهم ، الحاصرين الوجود غير المحدود فى فكرهم المحدود ، والحاكمين على

غير المتناهى بهذا النظر القصير المتناهى

(الفيلسوف) لاشك فى أن وراء هذا الطلسم الكونى ، وخلف هذا الغطاء الصورى كونا آخر يعلو عن هذا العقل العادى ، وقد علمنا اكتشاف أشعة رنتجن التى تخترق الحجب الكثيفة ، والراديوم ذوالخصائص المدهشة ، أن الكون الذى نحن فيه مشحون ببدائع تحير المدارك ، وتدهش الالباب ، منها مانحن مستأهلون لادراكه ولكنا لم نصل اليه بعد لقصور وسائلنا ، ومنها مايعلو عن متناول حواسنا وعقولنا فلن نصل اليه أبداً ، ومن كانت عقيدته فى الكون هكذا فكيف يحصر الكون فى فكره ، أويدعى بلوغ الغاية من العلم به ؟

(المسلم) هل تستطيع أن تتصور أن كل هذه الابداعات المحيرة للعقول ، وهذه الصنائع البالغة نهايات الدقة ، بل وهذه العوامل العاملة الجاهدة ، والدنياوات الذاهبة الآيبة وماحوته من جمادات ونباتات وحيوانات وأناسى ، وماتدرى ومالاندرى من أكوان ووجودات وعوالم ، هل تستطيع أن تتصور أن كل هذه الحركة الكونية حاصلة من نفسها غير مقودة بحكمة شاملة ، وقدرة كاملة ،

(الفيلسوف) أماحدوث حوادث هذا الكون على مقتضى الحكمة فذلك أمر لاينكره مكابر مهما بلغت منه الرعونة بل محض النظر لأجهزة الحيوانات وأعضائها ودقة تركيبها على بعضها والاغراض التى وضعت من أجلها يدفع الانسان رغم أنفه لأن يندهش من سعة

سلطان هذه الحكمة ، فما بالك لو صعد الانسان بفكره الى استعراض سائر عوالم الكون مما يعلمه بالحس وما يدركه بالاستدلال ، أوما يتوهمه بالحدس والتخمين .

(المسلم) لقدقاربنا أن نتفق . ان إيماننا بالخالق تقدست صفاته هو إيماننا بتلك الحكمة المهيمنة على الكون التى تقول انها من المشاهدات التى لا تنكر ، وعبادتنا لها هو لاحداث الاتصال بيننا و بينها ، وقبول الامداد من جهتها . الفرق بين المؤمن وغيره هو هذا : المؤمن اعتقد أن حكمة الهية أبدعته ور بته ، ومتعته بأعضاء وأجهزة وركبت فيه عواطف وأميالا صالحة لتكميله وايصاله الى غاية عالية من الرفعة الصورية والمعنوية ، وهى دائمة العناية به فى نومه ويقظته وذكره وغفلته ، فلم ير من العقل أن يغفل عنها ، وهى قيوم حياته والمهيمنة الدائمة على وجوده ، بل أدام ذكره لها ، وأخذ يفكر فى وسائل زيادة الاستمداد منها ، فاهتدى لتلك الوسائل رجال ، فنالوا من مراكز الانسانية شأوا بعيدا سنحدثك عنهم إن شاء الله تعالى ، فعاشوا عيشة السعداء ، وماتوا ميتة الكبراء الشهداء . وأما غير المؤمن ، فهو مع رتوعه فى خيرات هذه الحكمة الالهية ، ومرحه فى نعمها و إحسانها أعرض عن الفكر فيها ، ووقف مع لذات الحس وصوارف الشواغل المعاشية ، فهو يعيش معيشة البهائم ، وان نال من المدنية الصناعية أقصى الغايات و بلغ من الملذات الجسدية منتهى النهايات . ترى المؤمن يموت بين خشن الفراش وأنياب الفاقة . قرير

العين ، واثقا بأن تلك الحكمة الأزلية دائمة العناية به فى سائر تطوراته الجسدية ، وانها لن تنساه فى أى حالة من أحواله ، فيسلم الروح باسما راضيا يملأ مشاهديه إيمانا و يقينا ، وترى غير المؤمن فى تلك الساعة الهائلة ملقيا على ناعم الحرير ، و بين يديه فاخر الرياض ، وعلى رأسه الثريات الكهربائية ؛ فلا تغنيه تلك المشاهد الباطلة شيئاً ، فتزهق روحه وهو على حال من الأسى والكمد من فقد الحياة والولد لا يمكن تخيلها .

ما انتهى المسلم إلى هنا حتى دقت ساعة الاستراحة ، فقام كل الى منزله على أمل العودة . فخرج المسلم ومن معه من أصدقائه ، وفيما هم سائرون . قال المستفيد : لله درك من حكيم ، لقد تركت خصمك فى حرب ضميرية لن يهدأ لهيبها حتى يصافحك على الايمان بالله . فلقد آنست علائم الاتعاظ بادية على وجهه .

(المحافظ) دعنا من هذا فانى لا حظت أن رفيقنا المسلم يتسامح لخصمه فى التعبير و يلين له فى الكلام فيذكر له حكمة وقوة و يتلطف له فيجاريه فى التسليم بمقررات الفلسفة الحديثة على ما بها من افساد للعقائد ومجافاة لبداءة العقل . فهلا زجره وانتهره ، وأظهر له سطوة الايمان ، وحماسة الدين ، ودعاه للعقيدة دعوة الأعلى للأدنى ، والمهتدى للضال .

(المسلم) قال الله تعالى « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » ، و إنى لأرجو أن أنال منه بهذه

الروح الهادئة ، والنفس المطمئنة الساكنة عملا بهذه الآية الكريمة مالا أناله بالاخشان ، والله المستعان .

(يتبع)

الولاية والكرامة والوسيلة والشفاعة

كتب لنا حضرتا الأستاذان المحترمان : الشيخ أحمد محمد الألفى ، والشيخ محمد بسيونى . الأول من علماء طوخ القراموص ، والثانى من علماء بنى عامر بأبى الأخضر يسألاننا رأينا الخاص فى هذه المسائل الهامة التى أصبحت اليوم شغلا شاغلا لأهل العلم وطلابه وأشار علينا بافاضة القول فيها على طريقتنا ، ونحن نقبل إشارتهما مع الشكر لهما على الثقة بشخصنا ، وان كنا نظن أن الوقت المناسب لاثارة أمثال هذه المسائل لم يحن بعد ، وأن المتناظرين عندنا بازاء أشباه هذه الأمور على طرفين متناقضين لأوسط بينهما ، فهم أما مستسلمون لكل ماينقل ومايقال بدون نقد ولا تمحيص ، مستريحين لكل ماسطر فى الكتب بلا نظر ولا تعديل ، وهم اما مستعصون على كل ماقيل فى هذا الباب لايقبلون فيه كلاماً ، ولا يتخيلون لما حكموا به عليه نقضا ولا ابراما . فالدين فى نظر الأولين جملة وتفصيلا هو هذه المسائل ، أو بالأقل لايتم إيمان المسلم الا اذا اتخذها متممة لعقائده ، وحلية لايمانه ، وعند الآخرين الشرك معقود بأذيالها مرتبط بارادتها ،

والمسلم لايتم له ايمان ، بل ولاتصح له عقيدة حتى يدع ذكرها جانبا ، ويطهر فؤاده من تخيلها ، وعلامة مجيء الوقت المناسب فيها للكلام عندنا أن يتلاطم هذا الحزبان حتى يبلغ كل منهما من خصمه ، وتكسر الحرب من خيلاء كل منهما حتى يحس بلزوم المخرج من ورطته والنجاة من هوته ، ويتضح له جهات ضعفه وقوته ، ومثار دائه وعلته ، هنالك يجأر الى الله بطلب القول الفصل ، والحد العدل ، فان جاءه قبله مرغما ، ورضيه بدون تعلل ، أما الآن فلم يجيء بعد الوقت المناسب للقول . لأن الحزبين وان تميزا فلم تثر بينهما تلك المعمعة الهائلة التى تفت فى عضد كل منهما وتنال من شرته وغلوائه ، فنحن وان كنا فى الوسط اليوم ، فلن يكون نصيبنا منه الا مثل ما كان لنا من كتابة كتابنا (المرأة المسلمة) فى الرد على القائلين بكشف الحجاب ، اعتبره مناظرونا ردا علمياً ، لاحلا نهائيا ، وعده أصحابنا دحضاً فلسفياً ، واتخذوه سلاحا قوياً ، واكتنفوا بذلك عن تأمله ، والاشراف فيه على ضروب الحلول الفلسفية فى مسائل المرأة المختلفة كذلك كلامنا الآن فى هذه المسائل قبل أن تأخذ الحرب فيها مأخذها وتبلغ حدها ، سيكون لكل من هذين الحزبين فيه اعتبار خاص ، ولن يبلغ ما نريد أن يبلغه من جوهر الموضوع . على أننا نرجوا أن ينتفع بما نكتبه ناس يكثر بهم عديد الأمة المعتدلة ، وعلى الله قصد السبيل .

ليس فيما نقوله حط من كرامة حزب من الأحزاب فان كلا

يعتقد الصواب فيما يذهب اليه ويتمسك به عن حسن نية ، لا مكابرة ولامكايدة ، كما أنه ليس فيما قدمناه من اكبارنا لما سنقوله فخر ولا عجب، فانا نعتقد أن رأينا هو الرأى الأعدل الحاصل على مزية الانطباق على نصوص الكتاب وقضايا العلم الحق ، ولاهجنة على أحد من مثل هذه العقيدة ما دام مخلصا فيها .

﴿ تمهيد ﴾

نحن نشرع فى كتابة المقالة ونحن عالمون أن من أصعب الأمور وأعصاها علاجا احالة الآراء عن مجاريها ، واحادتها عن طرائقها التى ألفتها ومرنت عليها . ذلك لأن مجال الجدل بعيد الأطراف واسع الباحات لاسيما ان كان فى العلوم النظرية ، وفيما يمكن الخوض فيه بالاستنباط والتأويل ، لذلك لا يعدم أحد الحزبين المتجادلين حجة يقارع بها خصمه ويحيره بها على اضاعة الزمن فى دحضها وتزييفها ومقابلته بأشد منها ، وهكذا حتى يسأم الخصمان ويؤوبا للسكينة وهما على ماابتدآ به المناظرة ، ومما يزيد المتناظرين طمسا فى البصائر وضلالا فى المشاعر ، مجاراتهما للسفهاء السفلة فى التقاذف بالهجر من القول والبذىء من الألفاظ ، هنا يحط الشيطان بينهما بحرانه وتستحيل المناظرة العلمية الى مشاتمة سفلية ، فيدخلها الباطل من هذا الباب الابليسى الواسع الى مسارب مضاله ، ومخالج متاهاته ، ويرتد عنهما أشياعهما زارين عليهما متبرئين من أخذ الدين عنهما .

لهذا لاينتفع من شهود المناظرات الا طالبو الحقيقة المتحرقون

على معرفتها ، الذين يعلمون أن كل عمل يعملونه غير متحرين وجه الحق فيه فباطل يعود عليهم وباله آجلا وعاجلا ، سواء كان عملهم ذلك أدبيا أو ماديا . وما أقل هؤلاء الرجال فى الأمم القوية فما بالك بالأمم الضعيفة .

انا نكتب مقالنا هـــذا ونحن عالمون بأننا فى عالم كله مجاهيل وأسرار ، ان علمنا منه شيئاً فقد غاب عنا منه أشياء وأشياء ، وان أشرفنا منه على قشر ظاهر ، فقد خفيت عنا بواطن بواهر ، وان تراءت لنا منه معالم ، فقد استترت عنا منه أمور جسام لها بنا علاقات خفية ، وروابط سرية ، ومن علم ذلك وتيقنه فأجدر به أن يتواضع فى بحثه ويضؤل أمام الحقيقة لا أن يتكبر ويتغشمر ، حتى تنطمس طريقه ، وتندرس معالمه ، فيلتجىء لأن يضرب فى دياجير وهمه ، ويخبط فى عشواء نفسه . ونحن فوق ماذكرنا نعرف أن فى هذا الأمر عهدة كبيرة ، لأنها تمس عقائد ناس من أرق الجهات حتى أنه لو مسهم من قبلها طائف خفيف ذهب ايمانهم كله وأصبحوا لا يعرفون للدين معنى . لهذا كان من الواجب علينا أن نكون بالنسبة لما نحن بصدده كالطبيب الشفيق يجس برفق ، ويقطع بمرحمة ، والله ولى الكفاية .

﴿ ماهى الولاية ومن هو الولى ؟ ﴾

الولاية بالفتح القرابة ، والولى معناه القريب والمحب والصديق

والنصير ، وفى الاصطلاح الولى هو الرجل الصالح الذى أدى أوامر الله واجتنب محارمه ، وتقرب اليه بالفرائض والنوافل ، حتى أشرقت عليه أنوار التجليات الالهية ، وعبقت عنه فوحات الأخلاق الملكية ، وأصبح مثالا يحتذى طريقته من أراد الكمال الصورى والمعنوى كما كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد ورد فى الكتاب الكريم مايشير الى هذه المنزلة السامية . قال تعالى : « الا ان أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة . » وجاء فى الكلام القديم مايومىء الى أن من نال هـذه المنزلة الرفيعة من القوة النظرية وهى الايمان ، ومن القوة العملية وهى التقوى ، فان الله يتولى شأنه ، ويسدده فى أموره ، وينصر حجته . قال تعالى : « الله ولى الذين آمنوا . » « وهو يتولى الصالحين » « أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » « ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وان الكافرين لامولى لهم » « انما وليكم الله ورسوله » « ان ولي الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين » « أنت ولي فى الدنيا والآخرة » هذا كله يشعر بأن من تولى الله (أى اتخذه وليا) تولاه الله وأفاض عليه من سبحات نوره ، واشراقات أنسه ما يجعله مثالا للكمال بمعنييه ، ونموذجا للفضيلة ينسج الناس عليه .

هذا مالا نتخيل أن ينكره أحد من أى قبيل كان من المسلمين ، انما عضلة العقد ، ومهب اللدد هو مسألة الكرامة ، فالناس أمامها

قسمان مثبت وناف ، ولنا فيها رأى لامناص لنا من ايراده .

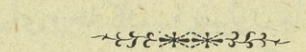

ماهى الكرامة ؟

الكرامة فى الاصطلاح هى مايكرم الله به خاصة أوليائه من جلائل المزايا ، وشرائف العطايا مما تقتضيه حكمته العلية ، وتتفضل به رحمته الأزلية . هل فى هذا مايثير أعاصير الانكار من منكر ، أو يهيج غبار الشك فى صدر مسلم .

ولكن ماذا يريد القائل من قوله (جلائل المزايا وشرائف العطايا)؟ هنا محط رحال الحجاج والجدال ، ومهب عواصف القيل والقال . لذهاب قوم فى شرح تلك المزايا والعطايا مذهب التسامح والاطلاق ، ووقوف الآخرين من شرحها فى الدائرة التى يعقلونها ويفهمونها ، وانا موردون لك طرفاً مما يتحاج به كلا الفريقين لنستطيع أن نحاكمهما الى نصوص أقوالهما ، والله ولى المؤمنين .

﴿ الكرامة فى نظر أنصارها ﴾

يظهر لنا من تتبع بعض أقوال مثبتى الكرامات أنهم لا يضعون لها حداً تقف عنده ، وحجتهم أن الله قادر على كل شىء وله أن يجرى على يد أى عبد من عبيده المختارين ما تتعلق به ارادته سواء فى ذلك فى الأمور الأدبية والمادية . ويقولون كل ماصحت معجزة لنبى صحت أن تكون كرامة لولى ،

والفرق بينهما أن النبى معجزته مقرونة بالتحدى ولكن كرامة الولى لا تحدى فيها من أى وجه كان . ويقولون ما دام إحياء الموتى وابراء الأكمه والأبرص وقلب العصا ثعبانا ورد الأعضاء التالفة إلى سيرتها الأولى وتكثير الطعام القليل حتى يكفى الجيش الكثير الخ الخ وغير ذلك مما حصل لعيسى وموسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام صحيحاً مثبوتاً بالنصوص المتواترة الأسانيد فأى مانع يمنع من أن يحبو الله رجلا من خاصة عباده بمثل هذه المزية لأمر خاص ومصلحة خاصة ؟ لم يرد فى الدين ما يشير الى بعد ذلك بل فيه نص على حصوله قال تعالى فى شأن مريم « كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا ، قال يامريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » وما حصل لأصحاب الكهف وليسوا بأنبياء بل « إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى » ويقولون مادام هذا كما نقول مثبتا بالنص القطعى الذى لا يخالفنا فيه واحد من أهل القبلة ولم يرد فى الدين ما يشير الى انتهاء ذلك الأمر وذهاب وقته ، وتبدل سنة الله فيه فما المانع اذن من استمراره وحصوله على يد أصحاب الأرواح العالية والنفوس الزاكية من خاصة أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؟

يقولون وكيف يجسر منكر على انكار الخوارق وقد أثبت العلم الاوروبى نفسه أنها أمور حاصلة على يد أصحاب الرياضات النفسية من الامم الشرقية كالهنود وسكان جزائر فيجى وغيرهم من أكثر الشعوب السحيقة وكلهم على دين غير حق ، بل وأثبت الاستاذ كروكس الانجليزى

وهو من أشهر كيماوي العصر ان النار لا تحرق من كان فى حال من أحوال النوم المغناطيسى ، وقد وضع بنفسه جذوة نار فى يد امرأة وهى فى تلك الحالة فلم تصبها بضرر ما ، يقول مثبتو الكرامات اذا كانت الرياضات النفسية توصل غير المؤمن الى درجة من درجات القوة الروحية يكون معها على ما نصف من الاقتدار على احداث الخوارق فما بالك بالمؤمن بالله وكتبه ورسله إيماناً حقاً خالصاً لا يشوبه شرك ظاهر ولا خفى وهو من تربية نفسه ورياضته لها على السمت الذى كان عليه الأنبياء والمرسلون والصديقون والصالحون من أصحاب الأفئدة العامرة بنور الله ، والنفوس المشرقة بجمال قدسه ، فكيف لا يصدر من مثل هذا الانسان أضعاف أضعاف ما يصدر ممن ليسوا على شاكلته فى شىء من الكمالات الخلقية ؟

يعتمد أنصار الكرامات على هذه القواعد ثم يفسحون لأنفسهم مجال القول ويبسطون للناقلين مهاد القبول فان أخبرهم مخبر بأنه رآى فلاناً الصالح أشار الى الصخرة قائلا لها كونى ذهباً باذن الله فكانت قالوا ان الله قادر على كل شىء يكرم عباده الأصفياء بما يكرمهم به ، لاراد لأمره ولا معقب لحكمه ، ثم ينقلها السامع لجاره وصاحبه ويجعلونها فاكهة مجالسهم ينشطون بها أنفسهم للعبادة ويزدادون بها حباً للصلاح والصالحين . ولو فرضنا أن قال لهم قائل ان فلاناً التقى قال لكوكب الزهرة على مرآى من الناس أغرب بأذن الله فغرب ، ثم قال له اشرق باذن الله فأشرق ، قالوا كما قالوا أولا ولم يجدوا فى أنفسهم

حرجاً من التصديق، ولا ألماً من الشك، لأنك لو ناقشتهم علقوا الفعل على قدرة الله وحوله، لاعلى مهارة العبد وحيلته، ومادام الأمر مسنداً لله فان ربى قدير لما يشاء.

منكرو الكرامات أو محمدوها

من الناس من ينكر الخوارق أصلا وفرعاً زاعما ان حصولها يقدح فى المعجزات والنبوات والآيات القرآنية. أما قدحها فى المعجزات على قولهم فلكون الله تعالى جعل المعجزات دلائل على النبوة فحصولها على يد غير النبى يخرجها عن كونها دليلا على النبوة. واما قدحها فى النبوات على دعواهم فلأن من بين مايعده للناس من تلك الخوارق انطواء الارض للولى حتى يقطع منها فى اللحظة مالا يقطعه غيره فى شهر. وقد انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة فى أيام عديدة ولم يروله فى طى تلك الشقة البعيدة مثل ماروى لبعض الاولياء، وهكذا حصل لسائر الانبياء عليهم الصلاة والسلام. واما قدحها فى الآيات على رأيهم فهو أن الله سبحانه قال عن الدواب «وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس» فكيف يتفق هذا مع ادعاء أن الولى يقطع المسافات البعيدة بلا تعب ولا نصب.

لايخفى أن مجرد النظر لهذه الاستشكالات يدل على انها واهية لاتحتمل كبير جدل. فان الكرامات لاتقدح فى المعجزة التى هى

دليل النبي لأن الولى نفسه يؤمن بمعجزة ذلك النبي ويعترف له بوظيفته ويعتقد أن كرامته من ضمن معجزاته الدالة على صدق شرعه. ولا تقدح فى النبوات أيضاً فان الله مع خاصة أنبيائه وأوليائه شأنا لا يحوم حول معرفة العامة، فانه تعالى إن لم يطو لرسوله الأرض حين هجرته فقد طواها له حين اسرائه، ولكل منهما حكمة يعلمها ربها. وأما عدم قدحها فى الآيات القرآنية فلأن الكرامات لا توهب إلا للأفراد المجتبين لا لكافة المؤمنين، فهى أمور نادرة والنادر لا حكم له.

هؤلاء المنكرون للخوارق يفسرون الكرامة بكونها كرامة أدبية روحانية محضة، فيكون من أثرها على الولى أن يفيض الله عليه أنوار الصفات الجليلة والسجايا الشريفة، ويسبل عليه رداء السكينة وبرد الوقار، فيصبح انسانا فاضلا يتخذ مثالا على الحياة والكمال، ونموذجا لغيره فى التخلق بشريف الخلال، ولزوم جادة الاعتدال.

بين هذين الحزبين (حزب مثبتى الخوارق وحزب منكريها) حزب شعواء، ومنازعات وضوضاء قامت فيها الحماسة على ساق وقدم، وحمى فيها الوطيس من القدم، تقاذف فيها الحزبان بالتفكير، وتنابذا بالتشهير والتعيير. وقد خاض هذه المعمعة كثير من أئمتنا السابقين ايجابا وسلبا فنال كل فريق من الآخر نيلا وكانت الغلبة دائما لا لأى الحزبين بل للعوائد البلدية والمصطلاحات القومية لأسباب شتى، بعضها ناشىء من ضعف القوة العلمية الوازعة، وبعضها من نقص دستور الحكومة، وأكثر مصدرها جهل الافراد ووهمهم فى معنى الدين. وقد توالت

على ذلك القرون وتعاقبت الشئون حتى وصلنا إلى مانحن عليه اليوم من موقفنا أمام أوربا المتمدنة معرضين لفتنها العلمية والدينية مستهدفين لسواحرها العادية والصناعية . ولا يستهين بهذا الموقف ولا يحقره الا من لم يضرب فى علم الامم بسهم ولم يأخذ منه بقسط .

شارفتنا أوربا بجواذبها وفواتنها من صناعة وعلم ، وقابلتنا بقواهرها وقواسرها من قوة وبطش ، ونحن فى دور سبات عميق فهبنا من نومنا حيارى طائشين لم نكد نشعر بدهشة المداهمة والمباغتة حتى غشيتنا غاشيات الزخارف والمموهات الصناعية من كل فج فكان حالنا من العجب بمكان : نشعر بمرارة الأخذ وحرارة الأسر مشوبة بلذة الافتتان وسكر الاغترار ، لاجرم فنحن بين تلك المرارة وهذه اللذة فى حال من الذبذبة القلبية تفقدنا من رشدنا كل يوم ولو استمرت هكذا أتت على البقية الباقية من إرادتنا فأصبحنا نوما فى زى ايقاظ ، وخشبا فى هيئة رجال .

تلك المرارة تعطفنا على القديم بكل فخامته وجلالته فتمر بنا على ما كان لنا من عظمة وسؤدد ودولة ورجال فتكاد تلك الذكرى وان كانت معنوية تمتلخ القلوب من نياطها وتحرق الكبود فى احشائها فتثور فينا ثائرة القيام على نهج آبائنا السابقين وأئمتنا المهديين استرداد المجد سابق ، وغبرة على شرف متداع ، فنقول ونكتب ، ونصخب ونخطب ، ونتحرك حركة يكاد رائيها يظنها حياة هبت من مكامنها ، أو روحا نزلت من مستقرها ، فانا لكذلك واذا بتلك الفتنة المدنية قد ساورتنا من كل مكان : من جهة العقائد . من جهة العلم . من جهة العادات . من جهة

اللغات . من جهة الزى . من جهة كل شىء . ساورتنا من جهة العقائد ببث الشبه المستعصية ونفث الاشكالات النفسية . وساورتنا من جهة العلم بهدم مقرراتنا العقلية والغاء بدائهنا الفكرية وساورتنا مما بقى من الجهات بما يناسبها . فماذا نتقى من هذه الأسنة وعن ماذا نروغ من هذه الشهب ؟

قابلتنا أوربا من جهة العقائد بحشو رث من أفكار فلاسفة القرن الثامن عشر ومقدمة التاسع عشر ، فنفذت أصولهم المادية الى اذهان الطبقة الملتصقة بها وبتقاليدها مناوسرى منهم الى من دونهم وهى فى كل دور تتطور وتتشكل على قدر عقول الطائفة التى تحل فيها حتى وصلت إلى العامة لابسة ثوباً يظنه رائيه عامياً شرقياً وهو نسيج اوروبى وإنما صبغته الافكار المنحطة والمقتضايات البلدية الساذجة بصبغ مختلفة يظهر للرائى انه منقطع العلاقة بأوروباوهو منها أصلا وان كان يباينها فرعا .

من هنا كان الناس أولى بالحماية من جهة أصول العقائد وأمهات المسائل ، ولهذا شعرنا بالحاجة الشديدة الى مكافحة التيار الغربى من تلك الجهة المتسلطة على كل جهاتنا الأخرى . لاناتحققنا أنه مادامت رابطتنا الاصلية سليمة من الانفصام وهى لاروح لها إلا الدين ، سلمت هيئتنا الكلية من فواعل التحلل ، ونجت من عوامل التفكك ، وصلحت الامة للمكاوحة والمدافعة ولايمضى عليها زمن ماحتى تفيق من غفوتها وتسترد شخصيتها . أما مسائلنا الدينية الفرعية فما كنا نهبها مثل هذه العناية لتحققنا أن المحافظة على الاصول أولى بالابتداء وأجدر بالتقديم

أما وقد انثالت علينا الاسئلة من كل فج وقطعت علينا خطوط الرجعة فلم نر الا الانصياع لمطلوب الأمة منا وان كان الكلام فيما تدعونا اليه سابقاً أوانه .

مما يزيدنا وجلا من طرق باب هذا الموضوع هو مانحن فيه من الافتتان بمدينة أوروبا وعلومها والحادها وليس لهذا الافتتان معنى فى لسان العلم العمرانى الاتحلل عناصرنا بقوة مؤثرة علينا ، فكل ذبذبة تحدث فينا وكل حركة تلم بجسمنا الكلى ونحن تحت ذلك التأثير المحلل لاتكون نتيجتها حسنة الااذا كان قائدو تلك الحركة على حذر ويقظة لأن أجزاءنا التى تتناثر بتلك الحركة لاتكون منجذبة الى اجزائها الأصلية فقط بل هناك قوة خارجية جذابة أيضا مترصدة لاجتذاب كل جزء يشذ عن الجماعة لسبب من الأسباب . أعنى بهذا الكلام اننا معشر المتكلمين فى مسألة الكرامات نخوضنا فى هذا الموضوع ايجابا وسلبا نحدث حركة كبيرة فى أخص جهة من معتقدات العامة والخاصة ولا شك ان كلا من الحزبين المتضادين سيؤثر على عقول ممن كانت تنكر عليه فتهم للخروج مما كانت عليه للالتحاق بالمذهب المضاد فيخشى أنه وهو فى هدنة الانتقال من مذهب لمذهب آخر ينجذب الى عالم الاباحة والالحاد المؤثر علينا من فتنة المدنية الغربية من منذ مائة عام فنخرج من هذه المناظرة وقد خسرنا خسارة لاتعوض وأحدثنا فى أمورنا اضطرابا لايغتفر لنا بوجه من الوجوه .

من هنا نرجو كل متكلم فى هذا الموضوع أن يؤوب الى رشاده وان

يهدىء من ثورته فى مقارعة الحزب المضاد له حتى لاتكون النتيجة عليه سواء كان غالباً أو مغلوبا . هذه اشارة الى موضوع خطير جدا جذير بالالتفات اليه والتعويل عليه .

آن لنا الآن بعد تقديم هذه المقدمة أن نشير الى موضوع النزاع بين كلاهذين الحزبين المتناظرين من باب السرد المجرد عن الحكم الشخصى حتى اذا أتممناه عدنا الى عقد فصل لمحاكمتهما على نصوص الكتاب ، والله ولى الكفاية .

موضوع النزاع

بين مثبتى الكرامة ومنكريها

ليس سبب كل هذه الجلبة والضوضاء فى هذا الموضوع اثبات الكرامة أونفيها ولكن فيما يجر اليه ذلك الاثبات والنفى من العقائد والعادات والذهاب بآيات الكتاب الشريف مذاهب التأويل والمخالفة لما كان عليه أسلافنا الصالحون الخ الخ ، وانا موجزون لك النقط الأساسية التى يؤسس عليها كل من هذين الحزبين عقائده ويناقض بها نظيره ، نوجزها على أسلوب شارح فنقول .

يقول مثبتو الكرامات (١) : ان لله تعالى من صفوة خلقه رجالا يختارهم فى كل زمان ومكان من عباده المخلصين يصعدهم الى مقامات سامية من الكمال الروحانى ويحبوهم بهبات جليلة لاتخطر على بال من لايكون على شاكلتهم ، ويحدث على أيديهم أموراً تخالف العادة ولا

يمكن تعليلها بما نعرفه من قوانين الطبيعة (٢) هؤلاء الأولياء لسمو أرواحهم وكرامتهم عندالله يؤثرون على من دونهم بالامداد الروحى ويكون لدعائهم أثر صالح فى أحوال المحيطين بهم الراجين معونتهم(٣) هذا الامداد لا ينقطع بعد موتهم وانتقالهم بل يقوى ويتزايد على قدر درجة رقيهم فى ذلك العالم النورانى الباهر . من هنا يجوز زيارة قبورهم والاستمداد من بركتهم وطلب النفحات منهم (٤) يجوز التوسل بهم الى الله كأن يقول الداعى : اللهم انى أتوسل اليك بعبدك الصالح فلان أن توفقنى وترشدنى الخ

أما منكرو الكرامات أو محددوها فيقولون : (١) ان لله أولياء يصطفيهم من خيرة عباده ولكنه لايخرجهم ذلك عن كونهم عباد الله الضعفاء مثلهم كمثل غيرهم من الناس أمام الله وأحسن مثال لهذا الصنف من الناس أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى واخوانهم وكل ولاية تقاس على غير ذلك المثال فليست بولاية ومايعزى لصاحبها من المقامات وما تقتضيها فتوليد الخيال وتصوير الأوهام مما ينطلى على عقول العوام ليس الا (٢) هؤلاء الأولياء لاتأثير لهم بشىء بل التأثير كله لله والانسان العاقل بدل أن يتمسح بهم ويتزلف اليهم يجب عليه أن يوجه وجهه لله وحده فهو المعطى المطلق والواهب الذى لامعقب لحكمه (٣) الانسان مهما كانت حاله من الصلاح والروحانية متى مات انقطع اتصاله ببنى نوعه واتصل بعالم آخر له مقتضيات أخرى لانعلمها . وان زيارة قبورهم لاتفترق عن

زيارة قبور اخوانهم المؤمنين الآخرين ولا ينالهم منها غير ماينال الزائر من زيارة قبر ميته من الثواب الذى أعده الله للمعتبرين ومن طلب الى ميت شيئاً فقد أشركه بالله وحبط عمله (٤) لايجوز التوسل الى الله بوسيلة غير الاعمال الشخصية الصالحة أمارفع اليد بالطلب من ولى والقسم على الله بعبد من عبيده فمحظور يكاد يكون شركا .

هذه هى النقط الرئيسية التى تميز مثبتى الكرامات عن منكريها أو محدديها ولاحاجة بنا لأن نقول ان كلا من هذين الحزبين يدعى أنه يستند الى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولكل منهم حجة عقلية فلسفية عدا عن الحجج النقلية نوجز لك أشد تلك الحجج العقلية على وقعا الطرفين وندع الحجج النقلية لفصل المحاكمة بينهما .

يقول منكرو الكرامات أو محددوها مما يدل على فساد مذهب خصومنا وأنهم ذهبوا بالاسلام مذهبا يوافق هواهم جملة أمور مهمة وهى : (١) حدوث مذهبهم بعد القرون الثلاثة الاولى من عهد النبى صلى الله عليه وسلم . فلم تعرف فى القرن الأول ولا الثانى ولا الثالث مسألة زيارة قبور الصالحين والتطواف بها وسؤال الحاجات عندها ولا غير ذلك مما يعملونه اليوم . (٢) وجود أمثال هذه العادات عند كل أمة وهى عند الأمم المتوحشة أكثر . فما من أمة الا ولها رجال مقدسون تقيم لهم الأعياد والموالد ، وتقرب لهم القرابين والعوائد ، وتبنى على قبورهم النصب والشواهد ، وتقصدهم

فى الملمات والشدائد ، وتروى لهم من عجائب الخوارق وغرائب الكرامات مالا يدخل تحت حصر ولا يضبطه استقصاء . أفلا يدل شيوع هذا الأمر بين طوائف الانسان واتحادهم عليه معنى وغرضا على أنه من مطالب الأهواء ومحسنات الخيالات ، وأنه تريكة الوثنية ومظهر مموه من مظاهرها الأولية ؟ (٣) استواء الحالتين عند من يدعو الأولياء لمعونته ومن لا يدعوهم فى شدته ، بل المشاهد ان الذين لايدعون الأولياء ممن يأخذون بالأسباب العادية ويتربصون للفرص الحيوية أحسن حالا وأكثر مالا وأفخم مظهرا وأكرم معشرا وأعلا كعبا من الذين يدعونهم ويتوسلون اليهم . بل هذه وفود الأوربيين الذين يأتون بلادنا للارتزاق لايدعون وليا ولا مقدسا ومع ذلك فقد احتكروا تجارة البلاد وثروتها وهم كل يوم يزدادون غنى واستيلاء ومناظروهم من تجار البلاد وسرواتها ممن لا يبدءون فى عمل ولا يشرعون فى أمر الا بعد الاستغاثة بالأولياء واستنزال معونتهم قد أصبحوا عيالا على أولئك الأجانب ولا يمضى كبير زمن حتى تتلاشى ثروتهم وتذهب فى خبر كان . وهذه الأمهات المصريات اللاتى يهملن الاخذ بالأسباب العادية والوسائل العلمية فى تطبيب أولادهن ويكتفين متى أصاب أحد عيالهن مرض أن يزرن به الأولياء ويغسلن وجهه من بئر مساجدهم يفقدن من أولادهن أكثر من الثلثاى فى الغالب بينما نرى الأمهات الأجنبيات اللاتى لا يعرفن غير الوسائل العادية لا يفقدن من بنيهن الا الشاذ النادر وهذه الاحصائيات تريك العجب . الا يدل

ذلك كله على وهم الناس فى مسألة الاستغاثة بالأولياء، بل الا يشير ذلك بأدل دليل على فساد رأى الخاصة والعامة فى ذلك الأمر وأنهم بذلك يحاربون سنة الله فى خلقه ويستعينون بما لا ينفع ولا يضر من عباده ويكونون السبب فى تسويد الأجانب عليهم ووصم دينهم بما هو براء منه ؟ (٤) لو كان مايرويه أنصار هذه العادات من تأثير الأولياء فى الأرض بعد موتهم وكرامتهم لمن يلوذ بهم صحيحا لكان الأحق بذلك أهل الصدر الاول من المسلمين وهم اجلاء الصحابة من المهاجرين الأولين والأنصار المبجلين ، فلقد قامت بينهم فتن على عهد عثمان وعلى رضى الله عنهما وحدث بسبب ذلك من الشغب والاضطراب ماشق عصا المسلمين وأوجب افتتانهم ومع ذلك فلم يجىء صحابى جليل لأخيه فى النوم فيرشده إلى الحزب الناجى أويزعه عن مشايعة الفتنة ومتابعة العصبية فهل يعقل أن يحدث لمن بعدهم من أهل القرون المتأخرة مالم يحدث لأولئك السابقين الأولين وهم أراكين الدين وأئمة الايمان واليقين ؟ هل يتصور أن يتمثل ولى لأحد مترفى هذا العصر مبشرا اياه برتبة أوبنيشان ولا يأتى رسول سلام بين المسلمين ؟ ألاتدل هذه الملاحظات على أن مايروى وما ينقل من الكرامات والمبشرات والخ الخ أمور أولدها الخيال وكبرها الوهم فاعتقدها الناس وجعلوها جل دينهم والعقد الأول من إيمانهم ؟

هذه هى الحجج العقلية الرئيسية التى يعتمد عليها منكرو الكرامات وما انبنى على اعتقادها من العادات ، ولخصومهم حجج

عقلية خطيرة الشأن أيضا يجب علينا سردها سردا أمام نظر القارىء ليرى بعينيه جهتى ضعف كل من الحزبين وجهتى قوتهما وليكون على بينة مما نصدره على كليهما من الأحكام الشرعية .

يقول مثبتو الكرامات : (١) اذا كان مما لايمكن انكاره من مقررات الدين أن الموتى ينتفعون من دعاء الأحياء لهم وهم فى هذا العالم عالم المادة ومقتضياتها فكيف لاينتفع الأحياء من دعائهم وهم فى عالم الجمال والتقديس حيث لامقتضيات جسدية ولامطالب سفلية ، بل تجرد لاستشراف الحق وسبحات وجهه واستشراق النوروتارات فيضه ؟ هل يتصور أن نكون نحن ونحن فى هذا العالم مع شغلنا الشاغل وهمنا المتواصل نتذكر موتانا ونتعطف عليهم بالدعاء والترحم ، ولا يتذكروننا هم وهم فى عالم الروح والريحان ومشرق الافضال والاحسان . مع أنا أحوج الى انعطافهم علينا منهم الى انعطافنا عليهم لتخلصهم من الجهاد الحيوى وبقائنا فيه ، ومن وقوفهم على حظهم من الحياة وجهلنا به ؟ (٢) اذا كان مما لايستطاع جحوده أن الموتى يسمعون من يسلم عليهم عند زيارة قبورهم وقد خاطب النبى صلى الله عليه وسلم قتلى بدر قائلا « هل وجدتم ماوعدكم ربكم حقاً » ثم لما قال له أصحابه كيف تخاطبهم يارسول الله وهم موتى ؟ قال « ماأنتم بأسمع منهم » أو كما قال ، فهل يستنكر على رجل ذهب الى قبر رجل صالح وسلم عليه ثم خاطبه راجياً اليه أن يدعو الله له لتفريج همه وكشف ضره ؟ (٣) اذا كان الانسان فى هذا العالم لايأثم من قوله للطبيب عالجنى وللرئيس اعطنى أو وظفنى

ولأخية احمنى وانصرنى وقد جاء هذا الاستعمال على ألسنة الأنبياء والصالحين ولم يجدوا فيه إثماً ولا حرجاً ماداموا يعتقدون أن خالق كل شيء ومحركه هو الله تعالى، فكيف يأثم أو يشرك من يخاطب الميت قائلا أريد وظيفة أو دواء أو نصراً أو حماية الخ الخ مع عقيدته بأن ذلك الولى عبد الله الفقير اليه الذليل بين يديه. ان قيل هذا يشبه قول مشركى العرب عن آلهتهم فانهم ماجعلوهم أرباباً الا توسلا الى الله بهم ومع ذلك فقد سجل الله عليهم الكفر والشرك. قلنا بعيد ما بين الحالتين. فان نص الآية هكذا « مانعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى » والمسلم لا يعبد وليه وانما هو يرجوه، بل لو قلت لاجهل جاهل أنك تعبد هذا الولى لأنكر عليك وربما أهانك، غيرة منه على التوحيد الذى امتزج بدمه وحياته، وشتان بين العبادة التى أقر بها مشركو العرب وبين الرجاء الذى لا يجاوزه الى مافوقه أجهل المسلمين. ان قلت ان منهم من يسجد أمام الولى قلنا ليس ذلك بسجود عبادة بدليل أنك لو قلت للعامى انك تسجد لهذا الولى كما تسجد لله لأنكر عليك قولك ولقال لك ان هذا سجود تعظيم أعمله لهذا الصالح كما تعمله أنت أمام السلطان فهل كفرت بسجودك أمام السلطان حتى تكفرنى بسجودى أمام هذا الولى العظيم، ومع ذلك فانى ماسجدت له ولكنى قبلت الأرض بين يديه كما تخر أنت أمام مليكك وتقبل قدميه فى نعليه. وقد سجد الملائكة تعظيما لآدم بأمر الله فهل تستطيع أن تلاحظ عليهم؟ (٤) انكم معشر منكرى الكرامات مفتونين بمدنية اوربا وتريدون أن تقلدوها حتى فى ترك

الدين ولما كنتم لاتستطيعون تركه لتبرئه من مطاعن العلم وتنزهه عن مآخذ الفلسفة فتريدون بالأقل أن لايجافى الفلسفة المادية فى شئ يلاحظ عليكم وتعيرون به ممن تقلدونهم . ولما كان الشكل الذى رسمتموه فى مخيلاتكم عن مدنية أوربا هو دفن الميت والانصراف عنه سراعاً إلى معاهد الأعمال واللهو واسدال ثوب النسيان على ذلك الفقيد ومن تقدمه من الموتى ، وكيف لا تهمل الجيف المضرة بالصحة ؟ وتنسى العظام الرميم والاشلاء المبعثرة ؟ لما كان الشكل الذى تخيلتموه عن مدنية اوربا هو هذا فلا يرضيكم أن نكون متأخرين عنكم فى ميدان المدنية لما يربطنا بكم من روابط الدين واللغة والوطن . لذلك لا تألون جهدا من السعى فى ابطال تلك العادات وعدها أمر افريا ، وقد غاب عنكم ان من وظائف الدين تعزية الانسان فى مصائبه وتسليته أمام اخطار الحياة وهوادمها وتذكيره بالآخرة وأحوالها وما ينتظر العاملين المجدين أو المقصرين المتثبطين من نعيم مقيم أو شقاء محدود أو غير محدود. ومن أخص مايجلى هذه التعزية ويعطيها وزنها الحقيقى هى ماينبه الدين الانسان اليه من أن الحاجز بين الموتى والأحياء رقيقاً وما يحجبنا عنهم إلا انصرافنا مع الشواغل البدنية واهتمامنا بالمطالب الجسدية وعدم عنايتنا بتربية نفوسنا وترقيقها . هذا من أخص صفات الدين وهو روح الهدو الذى ينزله على فؤاد الأم الثاكل والأب الحزين والابن الشفيق . فلو سعيتم فى تغليظ ذلك الحاجز بيننا وبين الأموات والذهاب بنا مذهب مادى اوربا يدفنون ميتهم ويرمون جثته أو يحرقونها ويذرونها

فى الهواء وهما منكم أنه أرقى مظهر مدنى فأنتم اذن تسعون فى ابعاد الناس عن التدين ، لأن التدين إذا كان مطلوبا لمحض التخلق بمكارم الأخلاق والصفات الجليلة فتلك موجودة فى كتب الماديين أنفسهم ، ويمكن الاكتفاء بها عن الأديان ، واذن تصح حجة العلماء الماديين أن فى العلم الاوروبى غناء عن كل دين . ومع ذلك فقد غاب عنكم أنكم بينما تمثلون مدنية اوربا المادية نرى علماء اوربا شعروا بوخامة انصرافهم عن عالم الموتى ونسيانهم له وهو مآلهم ومصيرهم ، فقاموا يبحثون من المباحث لاثبات الروح والخلود مالو سمعتوه لقلتم انهم مخرفون مجنونون. فهل تريدون أن توقعونا فى فتنة مادية ترجو اوربا نفسها أن تتخلص منها وتهرب من مخالبها ؟

المحاكمة بين هذين الحزبين

لقد سردنا أمام نظر القارئ أكبر مايمكن أن يتسلح به الخصمان من الحجج العقلية فان أردنا أن نسلك فى ارجاعهم الى خطة الوسط مسلك من تقدمنا بأفساد حجج الفريقين أو ردها الى الصراط القيم لم نستفد من عملنا شيئاً غير اثارة العواطف وتثبيت كل حزب فى مقرراته واقامته خصما لدوداً لمناظره ينتظر به الدوائر . وهذا ليس من أسلوبنا الذى اختططناه لأنفسنا فى شىء ، لذلك نريد أن نذهب فى محاكمة هذين الفريقين المتضادين مذهباً يرضيهما جميعاً بل لايجدان عن التخلف عنه عذراً فنقول :

تبين لنا من سرد أقوال الخصمين أن لكل منهما فيما يذهب اليه حجة قوية ولكنهما أعطيا حجتيهما من سعة السلطة ما ليس لهما فكان الافراط لأحدهما والتفريط للآخر من حكم طبيعة الحال ، ونحن فى حكمنا عليهما لا نستطيع مع هذا الوجه أن نخطئ أحدهما تخطئة مطلقة ونصوب مذهب الآخر تصويبا صرفا ، ولكنا سنسعى فى التوفيق بينهما من جهتيهما القويتين ، ليكون لمذهبهما المشترك قوة على قوة ، وليس للمسلم من كل محاولاته حظ غير الحق « وماذا بعد الحق إلا الضلال » .

اذا كان مما لا مشاحة فيه ان هذا الاحتفال بالقبور والمقاصير والتطواف حولها والطلب الى أصحابها واقامة الأعياد لهم لم يحدث الا بعد القرن الثالث ، وهذا من حجج منكرى الكرامات أو محدديها ، فمما لا مشاحة فيه كذلك أن النبى كان يزور القبور ويوصى بزيارتها للاتعاظ ويقرئ سكانها السلام والتحية ، وهذا من حجج مثبتى الكرامات فكما لا يحسن بعاقل أن يقطع علاقاته بموتاه وموتى المسلمين ارتكاناً على الحجة الاولى حتى يكون بالماديين أشبه ، والى اليائسين من أصحاب القبور أقرب ، كذلك لا يجمل بذى فطنة أن يحلل كل مناهى الشرع ، ويؤول نصوص الآيات والأحاديث الواردة فى الزيارة والدعاء والتوسل ارتكازا على قوة الحجة الثانية . وكما أن الحال الاول تفريط كذلك الحال الثانى افراط ، وكلاهما ليس من العقل ولا من الدين .

واذا كان مما لا جدال فيه أن الآخذين بالسنن العادية التى خلقها الله فى الكون أحسن حالا وأكثر مالا وأعلا كعبا فى كل شىء من

الذين أهملوا تلك السنن ولجؤوا الى الصالحين فى الطلب والاستغاثة وهذا من حجج منكرى الكرامات أومحدديها كذلك مما لاشك فيه ومما هو مقرر شرعا أن الموتى يشعرون بالأحياء ويعنون بأمورهم ويهتمون لما يهمهم ، وإن لمن يترحم عليهم ويستغفر الله لهم ثوابا من الله وأجراً عظيما ، وهذا من حجج مثبتى الكرامات ومؤيديها ، فكما لايليق بالمتبصر المعتدل أن يتكئ على الحجة الأولى ويوجه وجهه شطر السنن الوجودية المجردة مهملا ماينالـه من زيارة القبور والدعاء لأصحابها والاستغفار لهم من الثواب الجزيل والأجر الجميل ، كذلك لايجدر بالمسلم المحتاط لنفسه أن يتخذ الحجة الثانية مستندا له يبيح لنفسه بها مالم يفعله رسول الله صلى الله عليـه وسلم ولا اصحابه ولاتابعوهم ولاتابعو تابعيهم من الطلب الى الصالحين الميتين والاستغاثة بهم والتطواف بقبورهم ورفع القباب عليهم وغير ذلك مماورد النص بتحريمه صريحاً .

واذا كان مما لاشبهة فيه أن الاعتماد على زيارة القبور ونداء الصالحين والاشتغال بالموتى قد أحدث فى عامة الشرقيين نزوعا الى اهمال الأسباب العادية والسنن الكونية وأوجب عليهم بذلك خمولا وقعوداً عن العظائم ، وهذا من حجج منكرى الكرامات أومحدديها ، فكذلك مما لامراء فيه ان من أخص وظائف الدين ترقيق الحجاب بين عالم الأحياء وعالم الأموات ، وتلطيف الحاجز الذى يفصلنا عنهم ، ولولا ذلك لما كان الدين بشير السلام للأرواح ، وسفير

الرجاء للافئدة ، وسبب الطمأنينة والسكينة ولقام مقامه كتاب فى الاخلاق ورسالة فى التربية النفسية ، وهذه من حجج مثبتى الكرامات وكما أن من الغلط الشائن الاعتماد على البرهان الأول ، فى قطع كل علاقة بين هذا العالم والذى يليه وتغليظ الحجاب الذى يفصل الأحياء عن أعزائهم الميتين ، لما فى ذلك من غمط أخص حقوق الدين ، والغفلة عن أكبر عوامله تأثيراً على النفوس ، كذلك من الشطط البين التذرع بالحجة الثانية فى اعطاء تلك العلاقة التى تربطنا بالأموات وذلك التأثير المتبادل بيننا وبينهم شكلا لم يحصل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا على عهد أصحابه ، وتجعلنا من تلك الجهة محاكين للغلاة من أصحاب الأديان الأخرى التى جاء الاسلام عائبا عليهم سوء تصرفهم وشدة خبطهم فى أهوائهم .

اذا كنا غير أهل لأن نرفع من بيننا الخلاف ونحسم من أنفسنا مادة الشقاء بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وهدى أصحابه رضى الله عنهم ، فقد عظمت فتنتنا وطمت بليتنا ، وبتنا هدفا لفتن كقطع الليل المظلم تدع الحليم حيرانا ، وها نحن موردون عليك نصوصاً من الكتاب تبين لك مذهب القرآن فى هذا الشأن وهو صراط الله ودستور العلم السماوى ، فمن انحرف عنه ، فقد كفاه انحرافه دليلا على خبطه وخلطه فاليك .

(١) إن لله أولياء من خاصة خلقه هم المؤمنون المتقون . قال تعالى « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا

وكانوا يتقون » .

(٢) هؤلاء الأولياء لهم استمداد روحانى من جانب القدس الالهى ، واستشراق من عالم الجمال العالى . قال تعالى : « لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » .

(٣) لهؤلاء الأرواح العلية سلطة على عالم المادة ، وهى سلطة طبيعية اقتضاها لهم سمو أرواحهم ، وعلو قواهم ، ولا ينكر سلطان النفس القوية الخالصة من أسر المادة البشرية إلا من لم يضرب فى علم الانسان بسهم ، هذه السلطة تظهر أحياناً بايقاف فعل النواميس العادية والتأثير على المادة تأثيراً خاصا ، وهو ما يسمى بالكرامة وفى القرآن ما يدل على حدوثها للصالحين : كقصة أهل الكهف ، ولبثهم فى الكهف نائمين ثلاثمائة سنة وتسع سنين لم يصبهم تحالل ولا تأثر . وكاتيان آصف بن برخيا وزير سليمان عليه السلام بعرش بلقيس من سبأ فى أقل من ارتداد الطرف كما قال تعالى « فقال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك » الخ

(٤) بيننا و بين الموتى علاقات خفية ، فنحن نتذكرهم بالدعاء والترحم ، والله يذكرنا بالمثوبة الحسنة عنهم .

(٥) لا يجوز اتخاذ القبور فى المساجد ، واعلاؤها ونصب الشواهد عليها ولا بناء المقاصير حولها ، ولا رفع القباب فوقها ، ولا إيقاد السرج لأجلها ، ولا الطلب الى أصحابها ، ولا نذر النذور لها ، ولا ذبح الذبائح عندها . كل هذا ورد فى تحريمه النص شرعا ، ولم

يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أصحابه ولا تابعوهم ، وشيء لم يفعله الرسول ولا أصحابه ، وورد النهى بالنص عما يحيط به ويلابسه ، لجدير بأن ينصرف عنه المسلم خشية أن يكون فيه مالا تحمد عقباه وتعظم بلواه .

المسلم يكفيه من الدين ما كان عليه الانبياء صلوات الله عليهم ومن تبعهم بخير وإحسان أما ما نافى سمت الانبياء أو خالفه أو استدعى شيئاً من التأويل لكتاب الله ، أو أوجب عملا بالرأى أو كان مستندا فيه إلى أقوال العامة وغلوهم فما للمسلم وله ، وما أغنى فؤاده عن هذا كله ، وما أبعده عن الحاجة اليه . ألا يكفيه أن يكون على طريقة رسول الله خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم يضعها نصب عينيه ويجاهد عليها نفسه وهواه ويحتذيها خطوة خطوة مدققا متحرياً حتى يلقى ربه خالصا مخلصاً . هل يحسب عاقل أن رسول الله مع شدة تحريه لمراضى ربه ومحابه وكثرة توخيه لاتباع أوامره يترك شيئاً يعود منه على روحه خير أو أثر نافع ؟ وهل يتمثل فى تصور انسان أنه مع محبته لقومه وشدة شغفه بفلاحهم يترك ارشادهم إلى أمر فيه لهم خير فى الدين أو الدنيا ؟ اللهم لا ! إذن فكيف لانرضى لانفسنا من الدين والعادات بما رضيه رسوله لنفسه ولاصحابه ولماذا نعمل برأينا فى أمور تعظم فيها العهدة وتشتد فيها الورطة ؟ ما الداعى لذلك ونحن مسلمون كتابنا القرآن ، ورسولنا محمد ، ودیننا الحق ، ومذهبنا الصراط المستقيم ، وغايتنا السعادتان سعادة الدنيا وسعادة الآخرة

بقية المسائل

بقيت بقية لم يسعها هذا الجزء من المسائل الخاصة بهذا الموضوع وهو مسألة الشفاعة والتوسل بجاه النبى صلى الله عليه وسلم فى الدعاء نأتى عليها إن شاء الله فى الجزء المقبل ونعتذر لحضرات أصحاب المسائل الأخرى ونعدهم باجابتهم كلهم قريبا إن شاء الله.

الأدب الذى تفيضه عقيدة التوحيد والتنزيه على المسلم

« تابع ما قبله »

تخيل أمة يكثر فيها أمثال هؤلاء الافراد من الموحدين ترها أفخم مظهرا، وأكرم مخبرا من آية أمة عصرية ممن وقرت فى نفوس آحادها عاطفة الاعتماد على النفس، والثقة بالذات كالانجليز والألمان والامريكان مثلا، فان هذه الأمم استمدت هاته العاطفة من النظر فى نواميس الحياة نظراً مقصورا عليها أما أولئك الافراد فتنزلت عليهم هذه العاطفة من جانب الكمال الالهى الاقدس فلاجرم ان التاثت هذه العاطفة لدى الامم العصرية بشىء من النقص والجور والشره والمزاحمات الجنونية القاتلة لكثير من العواطف القلبية، ولا غروان نشأت تحت سمائهم الفوضويون والعدميون وغيرهم. أما الاولون فتراهم مع تمتعهم بتلك العاطفة عاطفة الشمم وكبر الفؤاد متراحمين متعاطفين،

جمعتهم الحياة برباط من حب خالص ، وود وثيق العرى لاتحاد وجهتهم فى طلب الكمال الالهى ، لالقيام أمرهم على النفع الدنيوى . هؤلاء لا يتنزهون عن أمراض المجتمعات الحية فتصيبهم لفحات من التنافس على اعراض الحياة ، وفواتن السلطة والحياة ولكنك مع ذلك لا تعدم فيهم تلك الأريحية للرحمة ، وذلك الميل للتصافى والحب ، فلا يضيع بينهم فقير ولا يهضم لديهم حق ضعيف ، وإن ضاع فقيرهم أو هضم حق ضعيفهم ، فهما ضياع وهضم يعد ان رحمة اذا قيسا بما يصيب ضعفاء سواهم من الامم التى فيها عاطفة الاعتماد على الذات ومرتكزة على قوانين الحياة الحيوانية .

هذا كله ولا تنس عاطفة الشجاعة والعزة التى هى من أخص صفات الموحدين وهى تنبع فى افئدتهم من اعتقادهم أن لا ينفع ولا يضر الا الله . نعم متى اعتقد الانسان أن الانس والجن لن يصلوا اليه بأذى لو حماه الله ، وأنهم لن يصيبوه بحسنة إلا إذا بعثهم الله ، سقط من عينه كل صم يقيمه الوهم فى ذهنه ، فتراه لايخشى إلا الله ولا يرجو إلا الله ، ومن كان كذلك كانت الشجاعة ألصق به من ظله ، فمتى رآى خطرا امر الله بغشيانه واقتحامه دفاعا عن دين أو قتالا فى سبيل الحق القى بنفسه غير هياب ولا متلكىء ، وكيف لايلقى بنفسه وهو لايخاف الا الله ، ولن يموت الا اذا أماته الله ، وهذا موقف قد أمر به الله ، فما الذى يؤخره عنه غير جيشات الوهم ، وسطوات الجبن ؟ هذا تفصيل موجز لبعض الخصال الكريمة التى تنشأ من عقيدة

التوحيد نشوءاً طبيعيا ولا احيلك فى نظر ذلك بالحس الاعلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهم وحدهم المثال الكامل الذى يليق أن يتخذ حجة محسوسة على مانقول :

من هنا ترى أن عقيدة التوحيد تهب على الانسانية بأدب الهى يقيم الشخص على صراط الحق ويبعثه للسير فيه بعثا ذاتيا ، ويحليه من الصفات الصالحة لعمارية الأرض وحماية الجامعة بخلائق تعجز عنها التربية وتعيا دونها أساليب التقويم والتهذيب المعروفة .

هذا الأدب لا يقتصر على تأدية الانسان لأرقى مظاهر الكمال الدنيوى فقط بل يؤديه لأسمى منصات الرقى الروحانى أيضاً ، لأن الروح الانسانية لا يحجبها عن مشارفة عالمها الذى تنزلت منه ، ولا يمنعها عن المتاع بجمال مشاهده ومعاهده الا ما استدعاه هذا الجسم من صفات الحيوانية ، ولوازم الحياة البهيمية . هذه الصفات واللوازم التى اكتسبها الانسان بتلبسه بهذه المادة كالهلع والجزع ، والبخل والشح ، والخوف والجبن ، والحسد والحقد ، وغير ذلك من الصفات الذميمة المستوعبة لحيوية أكثر الناس ، والمستولية على مجموع هممهم ، والمانعة لهم عن السكون الى ذاتهم ، والطمأنينة الى أرواحهم سببها نقص ايمانهم بالخالق الحق ، فان الهلع والجزع صفتان معناهما اظهار الحزن من فقد الصبر عند المصيبة . قيل هما بمعنى وقيل ان الهلع أفحش الجزع ، فهاتان الصفتان ليستا من صفات الكاملين قال تعالى « ان الانسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعاً واذا مسه الخير منوعاً الا المصلين الآية . » وكذلك

البخل والشح والحقد والحسد والخوف والجبن صفات خسيسة لاتحل الا قلوبا جاهلة خلت من الايمان الكامل لأن مدارها كلها على الشؤون السافلة ، والامور المنحطة ، ومن كان يؤمن بالله ايمانا كاملا ويرى أنه الفاعل الحق والمؤثر الفرد ، فلا يحقد ولايحسد ولا يخاف ولا يجبن ، ولا يشح ولا يبخل ، فيخلو فكره من الجولان فى هذه الصفات وما يلازمها ومتى خلا فكر الانسان من الرتوع فى قذر هذه الصفات الخسيسة وتوابعها التى يقضى فيها ناقصو الأيمان أعمارهم الثمينة جال بطبعه فى عالم الحقائق وسلك من باحاتها طرقا سلكها قبله الأنبياء والصالحون فيمر فى أثناء سيره على عوالم الجمال والكمال بطريقة طبيعية لاصناعية فتزداد علاقته بالعالم الروحانى متانة ، ويزداد الاتصال بينه وبين حقائقه أحكاما فيرتقى فيه ارتقاء تدريجيا كما يرتقى جسمه فى عالم المادة ، فتكون روحه فى عالم القدس تمرح وتتمتع ، وجسمه فى عالم الحس يكافح ويجاهد كما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وكافة المرسلين والصديقين مع اختلاف فى الرتب وتباين فى الهمم كما لا يخفى على القارىء .

من هنا يرى قارئنا أن (لا إله إلا الله مفتاح السموات والأرض) كما جاء فى الخبر النبوى ، فهى مفتاح السموات لأنها تؤدى الشخص الى الكمال الروحانى فى أبدع مجاليه ومعانيه ، وهى مفتاح الأرض لأنها أقوى عامل كما رأيت لتربية ملكاته ، وتهذيب مواهبه وتأديته الى أرقى مظهر من مظاهر الحياة الأرضية .

أما عقيدة التنزيه وهى اعتقاد أن الخالق أعلا من أن يحد بحد أو يصور بصورة ذهنية ، فأثرها على النفس من أكبر الآثار وأعجبها أيضاً واليك شيئا من التفصيل .

قلنا ان الانسان مفطور على العقيدة بالخالق عزوجل لمساسها بحياته الشخصية وعواطف فؤاده الداخلية ، وقلنا ان هذه المسألة مستولية على سائر مشاعره واحساساته استيلاء غير محدود فعقله وفكره وخياله وذاكرته مسخرة لها مشغولة بها شغلا يعرف بعض آثاره من أحوال الأمم قديمها وحديثها ، وأن مسألة هذا شأنها من التسلط على فؤاد الانسان لخليقة بأن تقف فى مهب فكره ، وتكون دائما حيال خياله ، ولا عجب بعد ذلك ان شطح الانسان بمدركاته فيها شطحاً استنفد فيه وسع الخيال ، وجاوز به حدود الاعتدال ، ولا غرو بعد ذلك أيضا ان أصبح لكل أمة فى صفات الله تعالى وذاته كلاماً ينافى كلام جاراتها ، ولماذا لا تكون هذه العقيدة بعد ذلك تابعة لنمو المدارك وسعة العقل ، فيصلح اللاحق غلط السابق ، وينقح الأبناء ماتسامح فى اعتقاد الآباء ، وينتهى الحال بالناس الى النظر لأصحاب الأديان نظرهم للمحرفين المؤولين ، المتذبذبين المتلاعبين ، ولهم الحق فى هذا النظر .

جاء الاسلام ساداً هذين البابين الهائلين باب الفكر فى ذات الله وباب أعمال الخيال فى ادراكه ، مقرراً أن كل ماخطر ببالك فالله بخلاف ذلك . منذراً بالهلاك والثبور كل من يتجارى على التطفل على الحوم حول هذا الحمى المنيع ، أو التطلع لاكتشاف هذا السر العزيز

لأنه ليس من اختصاص هذا العقل العادى الوصول اليه ، والاشراف عليه . الا ترى ان هذا العقل يهدم اليوم ما بناه امس ، ويزرى فى هذا القرن بما كان يكبره فى هذا القرن السالف ، فلو أطلقنا للعقل حريته فى الفكر فى ذات الله وشؤونه العالية ، وسمحنا للخيال ان يأخذ حظه من هذه المجالات السامية ، أصبحت عقائد الدين كعقائد العلم عرضة فى كل جيل للتحوير والتغيير ، وكفى بهذا مسقطا لمهابتها من نفوس الآخذين بها ، ولو تركت بلا تحوير ولا تغيير لكانت بنفسها أدل الأدلة على أنها أفكار بشرية ، وخيالات ذهنية ، صورها الجهل ، وزينتها الاهواء ، ولا صبحت بذلك فى واد وعقول اتباعها فى واد آخر ، اذ يستحيل على الانسان ان يعتقد مالا يعقل أو يحترم مايجزم أنه وهم باطل ، وخيال من الحقيقة عاطل ، كما هو حال اتباع أكثر أصحاب الأديان اليوم .

قلنا ان عقيدة وجود الخالق أمس مايمس حياة الانسان الشخصية فهو يبحث عن صانعه الحكيم طلبا للطمأنينة على ذاته ، وغيرة على حياته ، لأنه لا يستطيع أن يدرك له وجوداً أبدياً ، ولا حياة فيها جزاء عادل على الحسنات والسيئات ، ولا ناموسا عادلا سائداً على الكون والكائنات حفيظاً عليها ، ومراقبا لحركتها وسكناتها ، ولا قدرة شاملة ، وحكمة كاملة وضعت هذا الكون على قواعد الحكمة وحسن التقدير ، الا باعتقاد وجود ذات أولية متمتعة بكل الكمال ومتصفة بأقصى ما يمكن من صفات الجلال . ثم قلنا ان هذه العقيدة

لما كانت أمس العقائد بحياة الانسان ، فهى أكثر مدركاته تسلطاً على مداركه ومشاعره وقواه ، ثم قلنا وان مسألة هذا شأنها من التسلط على فؤاد الانسان لخليقة بأن تقف فى مهب فكره ، وتكون دائما فى مضطرب خياله ، ولا عجب بعد ذلك ان شطح الانسان فيها بمدركاته شطحا استنفذ فيه وسع الخيال ، وجاوز به حدود الاعتدال . ثم قلنا بعد ذلك جاء الاسلام ، فسد باب الفكر وباب الخيال دون هذه العقيدة ، وحال بين شهوات العقل و بينها حيلولة لا يصح إسلامه إلا بها ، فكيف يمكنه الصبر على هذا الفصل بينه وبين أكبر شىء يؤثر على فكره وخياله ؟

نقول ان الذى يصبره على ذلك ويثبته فيه : هو ما يشعره بسببه من الكمال المعنوى الحقيقى الذى ينبع فى فؤاده ، والنور الذى يشرق على سرائره فيملأه سعادة وغبطة . والانسان مغرم بالكمال ، ومشغوف بالنور والسعادة . واذا أردت معرفة طرف من ماهية تلك اللذة والسعادة وكيفية نشوءهما فاليك .

الانسان : ما انساق إلى الفكر فى ذات الله والطيران فى أجواء الخيال فى صفاته وشؤونه ، الا ما يجده من اللذة المعنوية فى ذاته من جراء التحسس على علم ما لم يعلم ولو وهما . وقد عودنا أنه متى عدم الحقيقة ولذتها قنع بالخيال وتلهى به ، وربما غلا فقهر نفسه على اعتبار خياله حقيقة ، وهو يعرف هذا الضعف من نفسه ولا ينكره .

كل منا يشعر بلذة العلم الذى يمس مصلحته من أى جهة كانت

فتراه يرتاح لسماعه أو لاستنباطه ، ومتى حصل له منه شيء طار به فرحا وترنح له عجبا وأودعه فى صميم فؤاده ، لا سيما لو كان ذلك العلم ماسا بما يشعره من الحاجة الدينية ، وما يرمى اليه من المقاصد الروحية ، وقد تحمل هذه اللذة بعض الناس على هجر أهله و بلده اكتفاء بها عن كل محبوب ، وتفصيلا لها على كل مألوف .

ما منا أحد إلا وقد شعر بهذه اللذة العلمية سواء كانت فيما يتعلق بمصالحه الدنيوية ، وبمراميه الدينية ، ومطالبه الروحية ، وهو أمر معقول لدى الكافة لا يتردد فى حصوله أحد لأن اللذة نتيجة سبب معلوم وهو العلم . ولكن ادعاؤنا حدوث لذة ونور وسعادة بمحض صد . قوى الفكر والخيال عن الجولان فى موضوع العقيدة وبمجرد القناعة بها كما هى بدون تحديد ولا تعريف ، أمر لا يسلم لنا إلا بدليل منير .

نقول اذا كان سبب اللذة المعروفة لنا هو العلم فان عقيدة التنزيه أكبر درجة ممكن أن يبلغها الفكر البشرى من درجات العلم ، فلا عجب ان كانت لذتها أكبر لذة معروفة عند البشر . أما كونها أكبر درجة من درجات العلم البشرى فلأنها تتعلق بصفات الخالق الأقدس من جهة كونها صفات غير محدودة ، وكمالات غير محصورة . وان أردت أن تعرف كيف أن التنزيه أكبر العلم فاليك .

قلنا ان التنزيه هو أن تنزه الخالق عن كل مايشاكل خلقه وان تعتقد أن كل ماخطر ببالك فهو بخلاف ذلك . ولما كان الفكر

والخيال عاملين دائبين وراء استكناه المجاهيل واستنباط المساتير ، باعثين للعقل على مجاراتهما فى تجوالهما فسيأتيانك من جهة هذه العقيدة بمحصول ويحثانك على اعتقاده فان كنت غير مسلم فرحت بنتيجة كدهما واعتقدت ما أتياك به من العلم حتى ينبهك منبه على ضلالك أو يرتقى فكرك وخيالك درجة فيهدمان من ذاكرتك مابنيناه أولا ويقيمان لك عقيدة جديدة وهكذا ، أو يحمدان بك على عقيدة راسخة رسمية من قبل الطائفة المسيطرة فلا تستطيع أن تتعداها وهماً وان كنت قدفقتهافعلا . وأما ان كنت مسلماً منزها عاملا بواجب التوحيد والتنزيه واقفا بقواك العقلية مواقفها الحقة على حسب التعليم القرآنى يحصل بينك وبين تلك القوى الادراكية فيك ثورة داخلية يكون نتيجتها من العلم العالى مايحييك ويسعدك . ولأجل تجلية عقيدةالتنزيه كما هى فى جلالتها ، وتصوير مايحدث فى المعنى الانسانى من الأخذ والرد فيها حتى يطمئن الضمير على حقيقتها نصف لك هيئة المناظرة التى تحصل بين القوى النفسية فى سر الانسان :

(العقل) انا نعتقد بوجود الخالق سبحانه وتعالى . ولكن ماهو وكيف صفته ؟

(الفكر) لقد سألت ما يجب أن يسأل عنه ، وسأبذل لك أقصى قواى فى الاشراف بك على أحسن ما تتوق اليه . وسأعتضد بالخيال .

(الخيال) لبيك وسعديك : انى معك حيثما تذهب فان عجزت

عن الطيران بمقتضى طبعك طرت وحدى وصدقتك فيما أحدث .

(عقيدة التنزيه) كفوا عن هذا الجدل . فأنتم ومن فى الأرض والسموات جميعاً أقل من أن تصلوا الى الله من هذا الطريق طريق المشاعر الحسية ، والعوامل الجسدية ، فان سلطانكم مقصور على عالم الشهادة وأشيائه وليس الله تعالى بما يشابهه أويشاكله حتى تقدروا على الوصول اليه من هذا المسلك .

(العقل) وماهو اذن وكيف الوصول اليه ؟

(عقيدة التنزيه) هو أكبر من أن يحيط الوهم بسرادقات كماله وأعلا من أن يصعد التصور الى معارج مجده وعلائه ، قدرة لاتحد بحد وحكمة لاتنتهى لغاية ورحمة دونها كل نهاية ، وصفات كمال لو أردت تصورها بهذا الفكر القاصر فلن تصل لشئ منها لأن فكرك مصوغ على قالب هذه العوالم المرئية المحدودة وأقيسته منتزعة من عالم الحس المتناهى فمهما صعدت فانت فى عالمك هذا لاتتعداه والله تعالى أعلا من أن يقاس بالحدود والهيئات أويدرك بالمعلومات والآلات

(العقل) اذن فكيف يعتقد الانسان ما يجهل ؟

(عقيدة التنزيه) إنى أقول لك ان حقيقة الله أكبر من أن يصل اليها العلم ، وأجل من أن يصورها الفكر ، وأعز من أن تحوم حولها المدارك . وصفاته أعظم من أن تحصر أو تحد ، أليس هذا أكبر درجة من درجات العلم وأقصى غاية من غايات قوة الادراك ؟

(العقل) العلم فى عرفنا أن نعلم حدود الشىء وصفاته وعلاقاته بغيره

أماهذا النوع الذى تذكره فلم نصطلح على تسميته علماً

(عقيدة التنزيه) ان مااصطلحتم على تسميته علماً أليس قابلا للتحوير والتبديل والزيادة والنقصان حتى فيما تدعونه علوماً تجريبية ؟

(العقل) نعم وهذا من أخص صفات العلم

(عقيدة التنزيه) أفتريدون أن يكون شأن العقيدة كشأن العلم من حيث قبولها للتحوير والتبديل علا حسب درجات العقل ورقى المدارك ؟

(العقل) لا ! لا يليق ذلك فان فيه حطا من كرامتها

(العقيدة) اذن فليس لنا الا أمران . اماتنا ولها بآلاتنا القاصرة وعقولنا المحدودة وتعريضها للتحوير والتبديل على نحو ماعليه عقائد الأمم المبطلة واماوقوف العقل عند حده والاقرار بعجزه المطلق عن تناول ماليس من عالمه ولم يؤت وسيلة الصعود اليه

(العقل) اذن كيف يثلج الصدر بالعقيدة وتطمئن الخواطر لها

(العقيدة) الاعتقاد على النحو الذى أرسمه له لا يكاد يخالفك فيه أكبر ملحد فضلا عن أنه أحسن ما يثلج عليه صدر المؤمن لانه مستند على الحس

(العقل) كيف ذلك ؟

(العقيدة) ألا تشعر بضرورة وجود قدرة أبدعت هـــذا العالم المدهش وتلك القدرة كبيرة للدرجة القصوى ؟

(العقل) هذا أمر بديهى لا يحتاج لجدال

(العقيدة) ألا نرى ان هذه القدرة المبدعة دائمة العناية بمبدعاتها مواصلة الامداد والتربية لها

(العقل) كيف ينكر الحس عاقل ؟ ولكن الملحدة يسمون هذه القدرة نواميس طبيعية

(العقيدة) اذا كنت تنكر عليهم تسميتهم لهانواميس طبيعية فلماذا تهم أنت أيضاً بتقليدهم فى تصورها على صورة ماوالحكم على صفاتها بحكم يناسب حالك ؟ اذا كان الملحدة قد جاروا بتحديدهم تلك القوة فلماذا تريد أن تجور أنت أيضاً من جهة أخرى ؟ ألا ترى انك لو اكتفيت بالعقيدة الفطرية وهى الشعور بوجود قدرة لاتحد أبدعت هذا الوجود على مقتضى الحكمة والعدل وأقلعت عن تحديدها وتصورها على قدر وسائلك القاصرة ، وكان اكتفى الملحد من جهة أخرى بشعوره الذى لا يمكنه أن يخالفك فيه مطلقاً لأنه شعار هذه الانسانية أمام هذا الوجود المعجز ، لأن الانسان لا يستطيع أن يدعى مطلقاً وجود هذا الوجود بلاقدرة عالية قلت لو كنت اكتفيت أنت بما تشعره بالفطرة من وجود تلك القدرة واكتفى هو أيضا ولم يسمها نواميس أما كان ذلك داعياً لاتحادكما فى العقيدة وتآخيكما عليها ؟ ولكنك لم ترض بالوقوف مع الشعور الفطرى فقمت تصور وتحكم ولم يقف هو أيضا فى فكره بل أخذ يجمل ويفصل حتى سماها نواميس طبيعية . فنشأ بينكما خلاف موهوم ما كان لينشأ لو وقفتما عند حدكما ولزمتما مقامكما أما ثلج الصدر واطمئنان الخواطر فهى من لوازم التنزيه وصفاته .

فان شعورك بقدرة عالية متوالية أمر الكون والكائنات على دستور العدالة والحكمة والعلم وانها كما تولتك وأنت نطفة وربتك تلك التربية الجنينية ثم هدت أمك لتربيتك وساقتها للعناية بك حتى كبرت وترعرعت ، هى نفسها التى تتولاك الآن وتبعثك بالدوافع التى وضعتها فيك الى كمال أنت مستأهل له وان لم تنته بعد اليه ولم تشرف عليه . شعورك بأنك مقود بتلك القدرة التى لاتحد ولاتوصف والتى لايستطيع أن ينكرها أحد يجعلك هادىء الضمير ثلج الصدر خاليا من جيشيات الشبه وسطوات الشكوك وهل الشبه والشكوك تطرأ الاعلى محصولك العلمى وقضاياك العقلية ولكن هذه العقيدة التى لاأسمح لك فيها بالحكم عليها بفكرك القاصر وعلمك الناقص وأريد منك أن تدعها فطرية طبيعية كما هى ، كيف يطرأ عليها الشك وليست من قبيل معلوماتك المتحولة وقضاياك المتغيرة ؟

ألاترى معى بعد هذا ان التنزيه أرقى درجة من درجات العلم وانه أوجب لأن يطمئن اليه الخاطر وينشرح له الصدر وأدعى لأن تجتمع الأمم كلها عليه وتتآخى فيه تآخيا خالصا لتساوى الكل فى الشعور بموضوعه شعوراً فطريا . وانه أعدل طريق يسلكه الانسان أمام حاجته للعقيدة وارتياحه لها .

أما النور الذى يحل بالصدر والسعادة التى تفاض عليه من حلول عقيدة التنزيه به فلأن ردع القوة الفكرية والخيالية عن الجولان فى أكبر موضوع يؤثر عليهما وإيقافهما عند حدهما دون الخوض فى

مسائله يستلزم حدوث انقلاب غريب فى دستور مملكة الانسان الباطنية واتجاهات قواه الداخلية . فانه بردع تينك القوتين عن الجولان فى هذه العقيدة المستولية على مهاب مشاعر الانسان ومسارب مداركه كما اثبتنا ذلك قبل قليل تنقطع عن شياطين الأوهام والخرافات التى تلصق بالدين زورا مادة البقاء فتنجلى عن النفس بحكم الضرورة وهذه الشياطين كما لا يخفاك قوى تسويلية تضليلية تحل بالنفوس المستعدة لها كما ينجذب الميكروب الى البقعة التى يجد فيها غذاءه فيفرخ فيها ويتكاثر حتى يخرج ذلك الشىء عن أصله بالتحلل . كذلك النفس الوهامة المخرفة تنجذب اليها تلك القوى الخبيثة فتفرخ فيها وتنمو وتستدعى ماهو أفتك بالحياة منها ولا تزال بضمير الانسان حتى تحلل فضائله أو تمسخها وتصرفه فى شؤونها وأهوائها الى أن ينتهى وجوده على حال من الأحوال . ولكن حلول التنزيه فى الفؤاد من جهة العقيدة وهى الجهة المتسلطة على سائر عواطف النفس واميالها يقف بالنفس موقف الطهر ويحميها من فواتك الصفات الخسيسة وخوانس القوى الشريرة فتدع الانسان لقواه الطبيعية ومواهبه الفطرية وهى أولى القوى بحق قيادته وأهدى الأدلة لارشاده وهدايته

عقيدة التنزيه تفعل بالنفس من التطهير والتنقية وتعمرها من أرواح السكينة والحياة الصحيحة مالا يفعله العلم الطبيعى الذى يزعم اليوم أنه يحل محل الدين فى قيادة الانسان وتخليصه من أسر الخرافات الاعتقادية التى حملها لنفسه ومسخ بها فطرته . يقول علماء الطبيعة

والانسان ان الخالق تقدست صفاته وهب الانسان مواهب جليلة ومنحه بمزايا نبيلة وركبه مادة ومعنى على صورة قابلة للترقى والتهذب ووضعه فى وجود مناسب له من كل وجه وصالح لصقل ملكاته لما بينهما من الارتباط والمناسبة ولكن الأديان وكهانها قد كانت ولم تزل عقبة كؤودا فى سبيل رقيه بما تفتحه له من مجال الخيال والأوهام وما تلطخ به فطرته من الضلال والأحلام وما تصرفه فيه من الأعمال التى تفسد كيانه وتمسخ طبيعته فتجعله مملوكا للأهواء مستعبدا للأساطير فجاء العلم الطبيعى بعد أن فاز على رؤساء الأديان ونجا من مخالبهم لتخليص هذا الانسان الضعيف من أيدى مستعبديه ومضليه بخلع كل تلك الكسف المتراكمة على فؤاده ولبه من عقائد باطلة وأوهام عاطلة وتجريد فطرته عما يقف بها فى أوحال النقص ويغمسها فى اقذاء الرجس فتخلص مواهبه من قيودها وتستقيم ملكاته على مناهجها ويزداد على نسبة العلم والعرفان الذى يعطى له رقيا ورفعة .

هذا مايزعمه العلم الطبيعى العصرى ويرجوه ويعمل عليه فماذا كانت النتيجة ؟ كانت النتيجة تخليص الانسان من أسر الأهواء حقيقة ولكنه جار فعراه من عاطفة الدين أيضا فضج العالم منه ضجة لم يزل دويها يخترق الآفاق للآن يسمعها أصحاء الآذان والأفئدة وان أنكرها الصم المفتونون قال (فيرنس جيافرت) فى كتابه الغمة الحاضرة « ان العلم قد غلا فى الاستفادة من سرعة تصديق العامة أكثر مما غلا رؤساء الدين ، فلقد أثبت لها عدم صحة رموزها الدينية

القديمة ووعدها بتعويضها لها بأصول ثابتة أبدية لدين حسى جديد ، فلم يف بوعده لها . ولما آب للانسانية رشدها ، وقد فقدت شعرياتها السابقة ، وجدت نفسها حيال فراغ أوسع مما كانت فيه قبلا . وفى الواقع ماذا يفيد الانسان علمه ببعض الحوادث الطبيعية بجانب ذلك الالحاد المتجدد المؤلم الذى يجرنا اليه ضميرنا الفاقد لحرارة الحياة »

«انهم ينصحون كل إنسان بأن يكون لنفسه دينه الخاص ، ولم يفطنوا إلى أن هذه النصيحة المزدوجة تحتوى على تناقض بين حيث ان المذهب الحسى لم يترك للأنسان مجالا فى غير المسائل المادية المحضة . »

« ان الحقد والعداء يزدادان يوما فيوما فى نفوس أهل البأساء المحكوم عليهم بالفاقة إلى الأبد ، وان جنون البذخ والكبر ينمو على قدر ذلك لدى أهل اليسار والبذخ ، وهذا الالحاد الآخذ فى النمو يسوق جميعاتنا بعاطفة المساواة إلى حالة ثورية دائمة . وأصبحت ترى الملوك العظام يتعاقبون على عروش الملك بسرعة لم تكن تشاهد فى وزراء الأزمنة الماضية . والحكم الاستبدادى بدل أن يتشبح فى بعض الافراد أضحى منتشرا بين الملايين فكل ديمو قراطى يتمنى أن يبلغ الرتب العلية . وترى الشعب لما أحس أنه خلص من أسر الواجبات الروحية التى تفرضها الكنيسة وازدرى بذلك الدستور السياسى الذى يراه يتغير بسرعة جنونية أعطى لعاطفة الأثرة فيه كل الحرية وصار يعتبر أن ماله من حق المساعدة فى إدارة شؤون حكومته وسيلة لنوال به مآرب الحيوانية بأسرع مايمكن ولقد رجونا أن نداوى مصائب النوع

الانسانى بالكنوز المادية التى ألقيت بين أيدينا من منذ قرن من الزمان. كما تكاتف العلماء والمهندسون والصناع والميكانيكيون على زيادة متاع الحياة الدنيا زيادة عظمى . ولكن لم يكن من نتيجة كل تلك المكتشفات الانشر حمى حب المال فى الطبقات السحيقة جداً

« فأى قانون أخلاقى يكفى لكبح جماح أهوائنا وادخالها إلى مجاريها الطبيعية المعتدلة » « لقد ذهب عنا الكمال المعنوى ولم يبق فينا إلا خوف مبهم من شىء غير مدرك . لان العقيدة بالله لا يمكن زوالها من النفس فترى الذين لا إحساس لهم يستفيدون من وراء ماوقعنا فيه من الظلمات . وترى العقول المستنيرة بالعلم ، المحرومة من الدين تعذرهم فى ارتكابهم الجرائم وبهذا فقد أصبحت الشهوات غير واقفة عند حد »

« ان تحت هذا السلم الذى اقتضاه الخوف العام لأحقاداً تختمر اختمارا بأشد مما كانت فى أى زمن من الأزمان . فان جرائم الفوضويين وافلاس الماليين وانتحار الاسر بأجمعها والوساوس الخرافية الآخذة فى الانتشار بين الناس والجنون الذى لا ينتظر الاسنوح الفرص ، وأصحاب الأثرة البائسين ، وكل هذا الفساد الخلقى الشديد الوطأة البعيد القرار الذى عم أجناسنا ناشئ من عدم وجود قاعدة دينية تصلح لاحداث الوحدة والاخاء بين احتياجنا الدائم للعمل وبين عاطفتنا للحب ،

« لذلك ترى ظلمات من الحزن والكمد آخذة فى الاسواد كل يوم

ملقية اطنابها على عالمنا . ويزعم الانسان فى غروره أن حرية الأثرة ستحصل له كل مايتمناه من سرور وانشراح حتى صرنا وكل يوم لنا من طلب جديد وكل طائفة تسعى لنوال امتيازات جديدة ، وكل فرد يدعى لنفسه حقوقا ليس لها حد تنتهى اليه وبذلك فقد أصبح الانسان بين هذا العذاب المنصب عليه من الكبر والتمرد معترفا بأنه أمام الحياة أضعف مما كان فى أى زمن من الأزمان »

وقال العلامة (كاميل فلا مريون) ونظن أنه غير مجهول لدى المسلمين : « لايجوز لنا ان نخجل من الاعتراف بما وقعنا فيه من الانحطاط لاننا رضينا به وأصبحت عقولنا المتشبعة بالاثرة لاهم لها الا اغراضها الذاتية اليس حظنا اليوم من الحياة قد استحال لجمع الثروة بلا مبالاة بوجوه جمعها ، والحصول على المجد بطريق الاغتيال لا الكسب والجمود وعدم الاهتمام بالدستور والواجبات ؟ » « وان من التناقص البين المؤلم ان ترى ان الرقى الباهر الذى حصل فى العلوم مما لا مثيل له فى التاريخ ، وان هذه الفتوحات المتوالية التى تمت للانسان فى الطبيعة بينما رفعت عقولنا الى المدركات العالية اهبطت انسانيتنا الى اخس الدركات . ومن المحزن ان نحس بأنه بينما نشعر بنماء قوتنا يوماً بعد يوم ، تنطفى حرارة قلوبنا وتتصوح زهرة حياتنا القلبية بتأثير غلبة المطامع المادية والشهوات الجسدية » انتهى

إذا علمت هذا رأيت أن الصراط الآلهى الأعدل والمخرج من كل هذه الفتن المزعجة المجتاحة هو الاسلام فانه المنهاج الوسط بين افراط

الأديان المحرفة وتفريط العلم الطبيعى . افرطت الأولى فى أسر الانسان واطلق كهانها لأنفسهم عنان الحرية فى اسر العالم وتسخيره بأرادتهم فثارت الانسانية فى وجوههم وقارعتهم بالحديد والنار حتى خلص العالم منهم فجاء العلم ولكنه فى طرف التفريط فازال عن النفوس اعز مطلوباتها وسعى فى اقناعها بامكان قيامها على الصراط الحيوانى مقصوراً على الطين ولذاته والحس ومقتضياته ، منكراً لها الروح والخلود والثواب والعقاب وعالم ماوراء المادة فاستراحت اليه هنية واستنامت لهبرهه ثم أحست بما أفزعها وازعجها ، فقامت تنشد مطلوبا عزيزاً وتطلب مفقودا غاليا . وما هو ؟ هو الاسلام لأنه حاصل على ارقى ماتتوق اليه النفس من مطالب روحية وكمالات نورانية وعواطف قلبية ، وحال بأقصى ما يتمناه العلم من معاداة الخرافات ومجافاة الظنون والوقوف بالنفس موقف الطهر عن اعتقاد الأوهام واقتفاء أثر الخزعبلات وتسليم قياد النفس للقادة المضلين والهداة الغاوين الخ الخ مما يطلبه العلم ويجهد نفسه فى تقريره . لأن عقيدة التوحيد وهى توحيد الله فى ذاته وصفاته وأفعاله وعقيدة التنزيه وهى ردع الفكر والخيال عن الحوم حول تصوير الخالق وتكييفه ومايقتضى ذلك من الأدب النفسانى الباهر وما يتبع ذلك من البعد عن الظن والتقليد والاعتقاد بلا دليل الخ الخ مما هو من قواعد هذا الدين القيم كل ذلك يجعل المسلم أشد حيطة لنفسه من أى عالم أو متعلم على الاسلوب الحديث فان المسلم يعتقد أنه مسؤول عن كل شىء

وعن أقل زيغ فى الدنيا والآخرة لافى الدنيا وحدها كما هى عقيدة طلاب العلم الطبيعى فهو بالضرورة أكثر احتفاظاً منه بنفسه . لاتقل فلم لانرى المسلمين كما تصف فانى أقرر ماهية الاسلام من أنه الصراط الالهى الأعدل الذى سيرث العلم والأديان معاً . أما المسلمون فلنا عليهم كلام آخر .

إذا تقرر هذا فقد ظهر لك بأجلا الأدلة أن الاسلام الذى عنوانه لاإله إلاالله محمد رسول الله وحليتاه التوحيد والتنزيه بأخص معانيهما هو الدين الحق الذى سيؤوب اليه المفرطون والمفرطون معاً . أما المفرطون من أصحاب الأديان فانهم يلاقون من أنفسهم ومن الوجود كل يوم حربا عوانا وقد رأيت وترى انهم يقلون فى كل صقع ويضؤلون فى كل جهة وليس هذا الاضمحلال عرض يزول بل هو مستند على موانع طبيعية تمنع من بقاء أديانهم لمخالفتها للعقل وللطبع معاً . وأما المفرطون من أصحاب العلم الطبيعى فلا يمكنهم الثبات فى وقفتهم مع الحس وقد أريناك أنهم أخذوا يجأرون ويصيحون بفقد العقيدة . اذن فلا بد من دين يتفق عليه الطرفان ويكون وسطا بين الافراط والتفريط وكتابه محفوظاً من التحريف والتخليط وتاريخه معروف مشهور . ولادين فيه هذه الصفة الالهية غير الاسلام الذى جاء يدعو الناس اليه محمد عبد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم الذى قال الله فيه « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لايعلمون » « سنريهم

آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد »

الامة اليابانية

ما كان لنا أن نذكر الأمة اليابانية فى مباحثنا ولا أن نهب البحث فى شؤونها ساعة من زماننا لولا أن بعضاً من كتابنا غلوا فى اطرائها وتقريظها ، وأغرقوا فى التنويه بها وبمدنيتها ، حتى وصل بهم الأمر لان يدعو أنها خرجت من العدم الى الوجود فى أقل من نصف قرن وهى فرية علمية لا تنطبق على الحقائق التاريخية ولا على المقررات الاجتماعية . وهى بهذه الصبغة المجردة لا تغتفر لقائلها مهما كان قصده حسناً ، فما بالك وهى قرية مضرة بحالتنا الاجتماعية والدينية ضرراً لا حد له كما نوهنا بذلك فى مقالاتنا السابقة .

أما ضررها بحالتنا الاجتماعية فلأن أولئك الكتاب يقررون ان تلك الامة كانت عدما محضاً ثم لما فتحت ابوابها للمدنية الاروبية والعلوم العصرية هبطت عليها روح عالية فاخرجتها من حيز الرمم الى مصاف الامم ، فنهضت فى أقل من نصف قرن بفضل تلك الروح الاوربية والمدنية الغربية الى ان استعدت لمقارعة دولة من الدول الاوربية وقهرها . هذا مايقرره اكثر كتابنا ولا يدرون كنه مافيه من السموم الناقعة فان تصور المصرى وهو فى هذا الدور الحرج ، دور الافتتان

بسحر التمدن الغربى ، بأن محض تقليد الأوربيين فى مظاهر مدنيتهم يرفع من شأن الأمم لهذه الدرجة التى تشاهدعليها الأمة اليابانية يحدث فيها أموراً جساما ويكون فى أحشائها جراثيم مضرة أكثرها مميت لعواطفها الذاتية مجتاح لعناصرها الحيوية ، لانها بذلك تلقى بنفسها بين يدى مظاهر المدنية الساحرة بدون حساب ولا روية وتتوهم بأن التقليد على اطلاقه سبب حياة الأمة وسر تقدمها فتنهمك بصورة علنية فى التقليد الشائن الذى هو عرض من اعراض مرضها الاجتماعى الشديد الوطأة ، ثم لما تأنس من نفسها الضعف والانحلال كلما تمادت فى التقليد والمحاكاة ظنت بنفسها الظنون ، ووقر فى قلبها انها أمة ميتة لامحالة ، ولولا ذلك لأفادها العلاج الذى أفاد غيرها ، ومتى سكن ميكروب اليأس فى فؤاد أمة تناسل وتكاثر وأنتج من صنوف الأمراض الاجتماعية والأدبية مالو نزل بعضه بأمة لنكث فتل الفتها ونقض حبل رابطتها ونخر عظام تماسكها وجعلها أثرا بعد عين . والله يشهد أن الأمة اليابانية أمة حية من منذ (٢٥٠٠) سنة أدتها حياتها لأن تختلط بالأمم الغربية بدون أن تفقد شخصيتها واستقلالها وناهيك بهذا دليلا محسوساً على سابق حياتها ثم لما شارفت العلوم الجديدة والمكتشفات الصناعية الحديثة التهمتها بهمة الاحياء وغيرة الأقوياء فبرعت فيها وكادت تفوق الأوربيين ، وستفوقهم لا محالة إن شاء الله . هذا هو الحق الصراح ولكن بعض كتابنا أبوا الا أن يتحمسوا لهذه الأمة بدون حق ، ولقد غالوا حتى جعلوها أعجوبة العالم مما لو رآه اليابانى نفسه

لانكره وضحك منه وعده شيئا فريا كما غالوا قبل سنين باطراء البوير والتمدح بشجاعتهم حتى زعموا أنهم أشجع أمة ظهرت فى الوجود من لدن آدم عليه السلام لليوم مع انهم لم يقفوا للعالم موقفا كموقف بدر وحنين واليرموك والقادسية وغيرها مما يتلألأ بذكره التاريخ العام وصار آية باهرة للأنام .

هذا هو الضرر الاجتماعى ، أما الضرر الدينى فهو أن هؤلاء الكتاب بزعمهم أن الأمة اليابانية حييت هذه الحياة المدهشة فى أقل من نصف قرن قللوا من أهمية معجزات الانبياء وخصوصاً معجزة امامهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فان المسلم متى تخيل أن الميكادو وبعض الزعماء رقوا الأمة اليابانية بعد أن أحيوها فى أقل من نصف قرن فلا يجد فرقاً كبيراً بين هذه الحادثة وحادثة احياء رسول الله صلى الله عليه وسلم للامة العربية فى ثلاث وعشرين سنة فيخرج الايمان من صدره رغم أنفه لما يراه من التشابه بين الحادثتين والتشاكل بين النتيجتين فيستعد فؤاده بذلك لقبول كل الأفكار الالحادية بدون نقد ولا روية . والله يشهد أن هذه جريمة لم يقصدها كاتبوها ولكنهم مدينون على كل حال كما يدان كل انسان يتكلم فى الشؤون الاجتماعية والامور الحيوية ويعطى نفسه وظيفة الارشاد والتقويم قبل أن يتخذ العدة الكافية التى تقيه شر السقوط بالامة فى أمثال هـــذه المخاطر الاجتماعية والأدبية ، فهو كالرجل الذى لم يتقن صناعة الطب وانما حفظ شيئاً من اصطلاحاتها وبعضاً من تراكيب علاجاتها فهو يعالج

كل مرض يعرض له ويقيس النظير على نظيره ولا يدرى أنه قد يتشابه الأمران فى ظواهرهما ويتخالفان كل التخالف فى طبيعتيهما وعلاجيهما حتى أنه لو عولج أحدهما بما يعالج به الآخر لاستشرى أمره وتفاقم خطبه وصار داء مميتاً لامحالة بعد أن كان قديرجى علاجه .

هؤلاء الكتاب كتبوا فى هذا الموضوع كثيراً ولا يزالون يكتبون ولا ندرى الى أين ينتهون بالأمة كما لا ندرى إلى أى درجة تروج مغالاتهم بعد أن كتبنا فى المؤيد كلمتنا تلك التى نقلناها فى مباحثنا فى شهر تقدم ونحن بالعود إلى الكتابة فى هذا الموضوع نرجو أن يؤبوا إلى الاعتدال فى مقالاتهم وان يتحروا المسائل الاجتماعية ويستنتجوا نتائج كل ماسيكتبونه قبل أن يخطوا حرفا واحداً فيه فان وظيفة ارشاد الأمة وظيفة عظمى يتهيبها العالم ولا يكاد يتولاها إلا مرتعد الفرائص ، مرتعش اليد واللسان ، لتحققه من خطرها . فكيف لا يكون غير العالم أولى بذلك التهيب وأجدر بأكثر من هذا التخوف ، ولكن هو الشعور وعدم الشعور فمن شعر بخطر المركز وحرج الموقف تأدب وتهيب ، ومن لم يشعر بشىء من ذلك أقدم غير هياب ولا متلكئ . ومما يزيد الأمر استعصاء ويكسب هؤلاء المتهجمين على مالم يحسنوا اقداماً وتهجما هو أن الأمة ضعيفة النقد خصوصاً فيما يختص بالمسائل العلمية لقلة المشتغلين بها فى بلادنا ولاحتقار من يشتغل بها بأمثال أولئك المتهجمين احتقارا لايجاوز أفئدتهم ولكن لو كان فى الأمة روح انتقادية شديدة تطالب كل قائل باقامة الدليل على مايكتب ونصب الحجة على مايقول لقل خطر

أولئك المعطين أنفسهم رئاسة الأمة الفكرية بغير حق .

هذا ماحدا بنا لكتابة ماكتبناه عن الأمة اليابانية ويحدو بنا لمواالاة الكتابة فى هذا الموضوع لنستطيع بحول الله أن نلاشى الخطر الذى تنتجه تلك المقالات الغلوائية على أحوالنا الاجتماعية والأدبية ونبدأ اليوم بترجمة مقالة كتبها الاستاذ الفسيلوجى الشهير (شارل ريشيه) (فى المجلة) الفرنساوية ثم نتبع مقالته بما كتبه الفيلسوف (جان فينو) مدير المجلة المذكورة ردا عليه ليقف المسلمون من خلال المحاورة بين قائدين عظيمين من قادة النهضة الأوربية على حكم العلم وحكم الفلسفة على الشرق والشرقيين لاسيما وان هذه المقالات تجمع الى الحقيقة العلمية اللذة العقلية مما يحسن بنا أن نجعل لها محلا من مباحثنا ، والله الموفق وهو حسبنا ونعم الوكيل .

قال الاستاذ شارل (ريشيه) : (المجلة مجلد ٤٩)

حضرة المدير المحبوب

اسمح لى أن استلفت نظر حضرات قرائك إلى نقطة يلوح لى أنها جديرة بالبحث الدقيق ولو أنها مهملة كل الاهمال ألا وهى مسألة الحرب بين الروسية واليابان . ولست فى حاجة لأن أقول ان هذه الحرب فى نظرى فاضحة ككل حرب تقدمتها ، لأنها حلقة من حلقات سلسلة الفظائع الانسانية المستمرة وأظن أن كل انسان متمدن يشعر بشىء من الخجل حينما يرى أن الوحشية والبربرية لم تزل موجودة قوية فى العالم رغماً عن مساعى العقول السامية الكاملة فى محوها .

لاشك عندنا فى هذه النقطة نخلنا منها

أما طلب بعض الناس لتداخل فرنسا فى حسم هذه المحنة فضلال لايستحق أن ندحضه نخلنا منه أيضاً

ولكن مما يصعب تفسيره أنه يوجد شيء من التردد فى الاحساسات العامة من جراء حدوث هذه الحرب

نعم ان هذه الحرب هى أول حرب فعلية حدثت بين عنصر وعنصر آخر . وقد تقدمتها حروب أخرى بين البيض والسود وبين البيض والصفر ولكنها لم تكن حروباً فى الحقيقة ، فان مقارعة السود أو الحمر أو الصينيين للبيض لم تكن صورة حرب فانها فارت ثم هدأت بسرعة وبصفة حاسمة . أما هذه الحرب الحاضرة فعلى الضد من ذلك فان الأسلحة فيها متساوية أو تكاد تكون كذلك فهى فيما أعلم أول حرب عنصرية محزنة هبت فى تاريخ العالم .

متى كانت أمتان أوروبيتان مشتبكتين فى حرب فتلك حرب أهلية حقيقية لأن كل الأمم الأوروبية مرتبطة ببعضها بروابط القرابة . فان سكان الممالك المتحدة بأمريكا هم خليط من كل الامم الأوربية والايطاليان وسكان جنوب فرنسا هم من القرابة القريبة بحيث يستحيل عليك أن تميز بعضهم عن البعض الآخر . وان الانجليز والالمان والبلجيكيين والفلمنك قد اختلطوا بعائلتنا بروابط أكيدة بحيث انه لو صح أن يقال ان هناك أمة فرنساوية وأمة انجليزية وأمة ايطالية فلا يمكن أن يقال جنس فرنساوى وجنس ايطالى وجنس انجليزى . هذا من الحقائق

الواضحة التى لايمكن المراء فيها من هناصارت كل حرب بين الاوروبيين فيما بينهم مستفظعة غير شرعية مثل كل حرب تقع بين الاخوان.

أما الاختلافات الحاصلة بين هذه الأمم فى أشكال حكومتها ولغاتها وطبائعها ودياناتها فليست الا اختلافات سطحية شأنها شأن التخوم والحدود التى يقيمها محصلو الجمارك . أما الذات الانسانية بالنسبة لكل الاوروبيين فهى واحدة لاتتغير . ان أردت الدليل فرب شاباً فرنسياً فى روما وآخر فى ادمبورج يصعب عليك بعد أن يشبا أن تميز الاول من الايطاليين الذين عاش بينهم .وأن تميز الثانى من الأيكوسيين الذين أخذ اخذهم فى اللغة والعوائد.

ولكن هذا ما لا يشاهد له أثر اذا قارنت بين رجال الأوربيين ورجال من الجنس الأصفر ويكون الخلاف أشد لو كانت المقارنة بينهم وبين رجال من الجنس الأسود . فاذا ربيت طفلا يابانيا فى روما أو لندرة أو مدريد أو برلين فلا تراه الا يابانيا دائما متميزا عن كل أفراد الجنس الأبيض الذين عاش بينهم ولم يختلط بهم . واذا غفرت لى هذا التشبيه الهزلى قلت ان ذلك اليابانى يمكن تمييزه بين الأوربيين كما يمكن تمييز الكلب الصغير ذى الشعر المجعد عن الكلب الاسبانيولى الكبير ذى الوبر الطويل فالغلط فى تمييز اليابانى عن البيض غير ممكن بوجه من الوجوه . لأن الخلافات بين الجنسين ليست غاشة سطحية تصورية تجلبها العادة واللغة والتربية بل هى اختلافات حقيقية متأصلة لاشىء يقلل من ظهورها أو يمحو أثرها . فان الجمجمة

اليابانية يعرفها رائيها عن بعـــد بينما لا أظن أن أكبر عالم بالانسان يستطيع أن يميز بين جمجمة أحد سكان أتينا وكومبانهاج أونيويورك .

وبناء عليه فيوجد بين الجنس الأبيض والجنس الأصفر خلاف ظاهر وهذه دعوى الثانية التى لا تفترق فى الجلاء والظهور عن سابقتها .

وبما أنه وجد الخلاف فلا بد اذن من أحد أمرين : فاما هنالك تساو فى الادراك أو فوقان أمة على أمة فيه . وهذه قضية لا أتصور أحدا يتردد فيها وهى ان الجنس الأبيض هو الأعلا مكانة والا سمى منزلة وهذا أمر واضح لا يحتاج لدليل فان قيل لى ان دعواك سمو الجنس الأبيض على غيره تجرئه على استحلال الخديعة والكذب والسلب والقسوة والوحشية ، قلت انى ما أبحت له ذلك ولا استحسن وقوعه منه ولا غرض لى من قولى هذا الا اثبات سموه على الجنس الأصفر وسأحاول أن أثبت ذلك له الآن بالبرهان .

لأبدأ موضوعى بابداء دليل يمس مصلحة مناظرى الذاتية فأقول : انى أظن أنه لو كلف أحد المعجبين باليابانيين بالتزوج بامرأة يابانية زواجا شرعيا لقطب وجهـــه وأبدى من ذلك آنفة واشمئزازا . ولا يرتاح أبدا أولئك الواردات الانجليز المتشيعين لسياسة المعاهدة اليابانية لو رأوا يوماً من الأيام أن بناتهم يمان الى أولئك الاعيان اليابانيين القصار المضحكين الماشين مشية العجب والخيلاء فى شوارع (طوكيو) وان كانت البستهم محلاة بأشرطة الذهب والفضة . وأرجح أن أحقر

عامل فى جريدة التيمس تلوح عليه علامات الغضب الحق اذا علم أن ابنه تزوج بامرأة من سروات اليابانيات ولاشىء من هذا الزواج يخشى منه ولكنى لا أظن أنه يمكن أن يسرد لى منه حوادث عديدة وقعت فعلا . وهذه مدام كريزانتيم ليست الا حيوانا صغيرا من مقتنيات أهل البذخ ، ظريفة طائعة ، بل ذليلة رقيقة تصلح لأن تكون فى البيت بجانب الببغاء والقرد تسلية فى أوقات النفى والانعزال .

هل هذا الاحتقار الذى يظهره الجنس الأبيض بازاء الجنس الأصفر مشروعا حقيقيا ؟ نعم وهذا هو التاريخ يجيبنا عن ذلك وهذه كل فتوحات المدنية ، وان لم تكن للآن شيئا كبيرا تثبت وتشهد بأن الجنس الأبيض هو الذى عمل كل شىء .

هذا (هومير) و (نميدياس) و (أرسطو) و (تاسيت) و (كبلر) و (كنت) و (ليبنيز) و (شيكسبير) و (نيوتن) و (فولتير) و (لافوازييه) و (باسكال) و (فيكتور هوجر) و (باستور) و (بتوين) و (جوث) لم يكونوا الا مليزيين ولا صينيين ولا يابانيين ولم يكن فى دمائهم قطرة واحدة أجنبية . فالعالم يرتقى مقوداً بالجنس الأبيض وحده ، وهذه حقيقة لايجسر على نكرانها الا من كان عديم الذمة . واذا قص علينا قاص بدون دليل ولا حجة بأن الصينيين هم الذين اخترعوا الطباعة قبلنا والبارود فلا نندهش من ذلك لأنهم لم يستطيعوا ان يستفيدوا منهما . ترى لهم ألف باء تدل على بهالة أهلها

وأدبيات مضحكة . أما من جهة صناعتهم التى ضربوا بها المثل فليسوا هم الذين نحتوا تمثال فينوز بميلوا ولا المصارع المحتضر من عمل صناع طوكيو . وليسوا هم أيضا الذين كتبوا قصتى « دون جوان » و « لوهانجرين » . وليس لديهم مايشبه أقاصيص فوست وهامليه والبؤساء . والعلماء فولتا وجالفانى وأمبير وفاراديه لم يستعينوا بعلماء تلك الأصقاع فى مباحثهم الكهربائية والحساب والهندسة التحليلية وقانون حفظ القوة ونظرية الميكروبات لادخل لعلماء الصينيين فى حدوثها . وهذه الخطوط الحديدية والتلغراف الكهربائى والفتوغرافيا وكل صنائعنا بدون استثناء من فتوحات الجنس الأبيض دون غيره .

ومن يضع بجانب كل فتوحاتنا العقلية الجليلة تلك الأوانى الصينية والحواجز والأشياء الصناعية التافهة وتلك الصور المضحكة المقطبة المعروضة فى المعارض العمومية فقد صنع ما يمثل المزاح فى أقصى درجاته .

فلنعلن اذن على رءوس الأشهاد بغاية الصراحة مايفتكره كل واحد منا فى ضميره ولنكن جسورين فى ابداء رأينا ولنقل أن اليابانيين هم من مهرة المقلدين ليس الا . فقد أريناهم كيف يعملون مدرعة فعملوها (فى انجلتره) وعلمناهم مزية الدستور النيابى فأحدثوه حتى أن لهم مجلسين عموميين . وقد قلدونا حتى فى الخدمة المتنقلة مما نسميه جمعية الصليب الأحمر التى تسعى أن تتلاقى بالليل شيئاً من المصائب التى حصلت بالنهار . ومما يدل على انهم يقلدوننا تقليداً أعمى هو أن لديهم

صحافة وطنية تطعن على الأجانب على شاكلة الصحافة الوطنية فى باريز ولوندرة . فاليابانيون اذن مقلدون بل من أمهر المقلدين ولا نبخل عليهم بهذه الصفة ولكن العالم لا يقوده المقلدون وقد دل التاريخ العام فى مدى الخمسين قرناً التى حييها الجنس الأصفر بأنه غير أهل للاكتشاف والاختراع .

هنا ربما يعترض على بذكر كونفسيوس . فأقول ان كونفسيوس هذا الذى لم يقرأ عنه أحدنا شيئاً ولم نتكلم عنه الا سماعا والذى ربما كان صورة ذهنية محضة هو من قبيل المستثنيات الظاهرة على خلاف العادة أو الظواهر المناقضة للعاديات فلم يكن نصيبها الا أن تكون مقصورة على المكاتب . واذا وضعنا كونفسيوس فى جهة وفى الجهة الأخرى سقراط وافلاطون وسينيك والمسيح ومارك أوريل وارسطو وسان اجوستان وكونت وتلستوى وليبنيز وباسكال وديكارت وكانت وكل فلاسفتنا الاخلاقيين فلا يمكنك أن تتمالك نفسك من الضحك اذا أردت المقارنة « نقول هكذا فليكن التعصب الذميم »

ان انحطاط الجنس الأصفر عن رتبة الجنس الأبيض لا تستنتج من حوادث التاريخ فقط بل يمكن اثباتها علميا أيضا .

النوع الانسانى قائم بذاته لا يشتبه بغيره فلا يمكن التردد فى تحديد فرد من أفراده حتى لو قارنت واحداً من أحط المتوحشين بقرد من أرقى رتب القرود ، لانه لا يوجد شك فى الحد الفاصل بين الانسان والحيوان . ومع ذلك فانه يوجد على كل من الحدين الفاصلين لهذين

المملكتين الانسانية والحيوانية بعض ظواهر مبهمة من القرابة ، فان ابعاد الزوايا الوجهية وحجم المخ ونسيج بعض العضلات وبالاختصار فان التشريح الذى لا تأول نصوصه يقرر هذه القرابة بين انسان الجنس الأسود وبين القرود . ولكن التشابه يقل فى الجنس الأصفر . هذا أدريه ولا أجهله ، ولكن مما لاشبهة فيه ان فى هذا الجنس علامات تشريحيه تقرب أفراده من القردة أكثر مما لدى الانسان الابيض منها .

هذه حقيقة مشاهدة فلا يعنينا ان أفرحت بعضا وكدرت البعض الآخر لانها حقيقة علمية يجب الرضوخ لها ولما ينتج منها ، نقول هذا بكل تحفظ واحتراس . وماعلى المتردد فى هذه القضية الا أن يزور دارا من دور تشريح المقارنة ليتحقق مما نقوله بالدليل المحسوس . وكل مايقوله محبو النوع الانسانى مما يخفف هذه الأحكام العلمية لايساوى تأثيره على العقول تأثير وزن مخ أو أخذ مساحة جمجمة أو قياس زاوية وجهية ، ومما قرره العلم وأصبح من بدائهه هو أن الفرق بين القرد الانسان الابيض أكبر بكثير من الفرق بينه وبين جنس من الاجناس الأخرى

من هنا لايتضح فقط ان بين الجنس الابيض والجنس الأصفر اختلافا بينا ولكن يتضح أيضا ان سمو الاول على الثانى من المقررات البديهية علميا وتاريخيا وباجماع العالم سواء كان هذا الاجماع استنتاجيا أو نصاً بين سائر البيض حتى بين الصفر والسود معا

نعم ان هؤلاء الرجال أمثالنا فى الانسانية وهم اخواننا . هـذا أمر لامرية فيه ولـكن مما لامرية فيه أيضا انهم اخواننا الأحطون .

اذا تقرر هذا فما هى النتيجة التى أستنتجها من هذا البحث ؟

انها بسيطة جدا ويمكن اختصارها فى كلمة واحدة الاوهى : العدالة . فانه مادمنا نعامل انسانا مثلنا سواء كان احط منا أومساويا لنا فله علينا مراعاة العدالة الحقـة . وان نقض العهد حرام فى ذاته سواء كان بازاء زنجى أو أبيض . واتصاف انسان بالوحشية والقسوة أمام أى كان لاتخليه من وصمة الوحشية والقسوة . ومن يسرق صينيا شيئاً أو يخون يابانيا أو يضرب زنجيا أو يكذب على مالينى فقد ارتكب آثاما فظيعة ولاعذر له على سرقته وخيانته وكذبه .

وإنى لأدعى بأن صفاتنا من السمو على الجنس الأصفر توجب علينا أن يكون لنا أخلاق أسمى من أخلاقه ، ولـكنا فى غالب الأحيان نرى الجنود الأوربية بأسلحتها المتقنة ونظامها العسكرى المخيف تظن أنها مطلقة التصرف فى حياة المغلوبين لهم ولايدرى أولئك الغفل أن سيرتهم هذه بهذا الاجحاف والسلب تسقطهم الى حضيض أدنى من الحضيض الذى فيه مغلوبيهم . اذ لاشئ أجدر بالتحقير والازراء من الافراط فى استعمال القوة

كلا ثم كلا إن انتساب الانسان لجنس أرقى من جنس آخر لايعطيه حق العسف والاجحاف مطلقا

ولـكنا اذا كنا مدينين لهؤلاء الأجانب ولهؤلاء البرابرة بالعدالة

فلسنا مدينين لهم بشيء آخر . ومتى ادعوا لأنفسهم كما هي الحالة الراهنة حق الصعود الى الدور المكروه دور الفتح والغارة على الأمم وجب علينا أن نرفض عليهم كل ادعاآتهم وان نردهم الى العدل .

يجب على كل إنسان أن يعنى بمستقبل النوع الانسانى . فان حدث فى تاريخ الانسان هذا الحادث المستحيل وهو فناء الجنس الأبيض أو خضوعه للجنس الأصفر فتلك حادثة أكثر خطرا على العالم من انكاء الحوادث الجوية التى يمكن أن تسقط من السماء على هذا الكوكب الأرضى . لأنه بهذا الحادث الجلل يكون مستقبل الانسان مهددا للغاية اذ تحل تلك الهيا كل الصينية وتلك الصور المضحكة وتلك اللغة المركبة من مقاطيع فردية محل مدنيتنا هذه الفخيمة الآرية ويكون هذا الانقلاب مبدأ لرجوع النوع الانسانى للحيوانية .

خوارق العادات والأسباب العادية كلاهما ممكن

(والفعل والتأثير فيهما لله وحده)

كتب لنا حضرة الأستاذ المحترم : صاحب الامضاء مقالة بهذا العنوان ، فلم نر بدا من نشرها فى مباحثنا واتباعها بما يعن لنا فى هذا الصدد الخطير الذى أصبح الشغل الشاغل لكثير من الناس ، والله الموفق للصواب . قال حضرته :

التوحيد هو افراد المعبود بالعبادة ، واعتقاد وحدته ذاتا وصفاتا

وأفعالا ، وتوحيد الأفعال : هو أنه لا تأثير لشيء من الكائنات فى أثر ما ، والا لزم أن يستغنى ذلك الأثر عن مولانا عز وجل ، سواء كان خوارق عادات أو أسباب عادية ، وهو محال . إذ أن سائر الأفعال لله تعالى وحده خلقاً وايجاداً ، وما نسب لغيره فمن باب الكسب والمجاز ليس إلا والناس بهذا الاعتبار مخاطبون ومكلفون .

وكما أنه لا يقال لمن اتخذ الأسباب الكونية العادية واسطة فى فى أحواله وشؤونه المعاشية ، كافر أو مشرك . كذلك لا يقال لمن اتخذ خوارق العادات واسطة مشرك أو كافر أيضا ، لأن كلا الامرين ممكن ، والفاعل المطلق فيهما هو الله وحده ، والا لزم عليه كون الأمرين المتساويين مساويا لصاحبه ، راجحاً عليه بلا سبب وهو محال .

والبرهان على أن الله سبحانه وتعالى كما شرع الأسباب الكونية ، شرع الاستشفاع والتوسل بالأنبياء والأولياء ما سنوضحه فيما يأتى واليك البيان : الاستغاثة بالنبى صلى الله عليه وسلم ، و باخوانه النبيين والمرسلين و بالأولياء ، والصالحين ، هى عبارة عن سؤال الشفاعة منهم لقضاء الحوائج ، ودفع النوائب ، وتفريج الكروب ، ولا ريب أن كل من يناديهم من المؤمنين ، فهو عالم أنه لا يعبد إلا الله ، ولا يفعل مايريد و يمنح مايطلب إلا الله ، وليس هؤلاء الا شفعاء فقط ، وقد أرشدنا الله ورسوله للاستغاثة بعباد الله الصالحين من الأنبياء والأولياء . قال الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا

إليه الوسيلة » والوسيلة ما يتوسل به الى الله تعالى من عمل صالح أو عبد صالح .

وجعل العبد الصالح وسيلة الى الله تعالى ، انما هو من اعظام جانب التوحيد لأن من شهد سوء حاله وكثرة ذنوبه لايجد له وجهاً ولا سبيلا للسؤال من ربه فتجتمع همته على التوسل لله تعالى بأوليائه وأحبابه اعترافا بالذنب ، وانكساراً للرب واعظاماً لجانب القدرة الالهية ، وايمانا بأن الله هو الفعال لما يريد .

وأحبابه المرضية شفاعتهم لم ينالوا ذلك الا لاتباعهم لنبيهم الكريم ولوقوفهم عند أمره العظيم قال فى الكشاف عند هذه الآية المتقدمة : (الا كل ذى لب الى الله واسل) وقال تعالى « ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيما » دلت الآية على حث الأمة على المجيء اليه صلى الله عليه وسلم والاستغفار عنده واستغفاره لهم وهذا لاينقطع بموته وإن وردت الآية فى قوم معينين فى حال الحياة لكنها تعم بعموم العلة كل من وجد فيه ذلك الوصف فى حال الحياة وبعد الممات ولذلك فهم العلماء منها العموم للجائين وذكرها المصنفون فى المناسك من أهل المذاهب الأربعة ودلت أيضاً على أنه لافرق على الجائين بين أن يكون مجيئهم بسفر أوغيره لوقوع جاءوك فى حيز الشرط الدال على العموم

وقد صح صدور التوسل من النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وسلف الأمة وخلفها أما صدوره من النبى صلى الله عليه وسلم فقد صح

فى أحاديث كثيرة منها أنه كان من دعائه (اللهم انى أسألك بحق السائلين عليك) وصح فى أحاديث كثيرة أنه كان يأمر أصحابه أن يدعو به فمنها مارواه بن ماجه بسند صحيح عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من خرج من بيته الى الصلاة فقال اللهم انى أسألك بحق السائلين عليك الخ أقبل الله عليه بوجهه واستغفر له سبعون ألف ملك) وذكر هذا الحديث الجلال السيوطى فى الجامع الكبير وكثير من الأئمة فى كتبهم عند ذكر الدعاء المسنون ، حتى قال بعضهم ما من أحد من السلف الا وكان يدعو بهذا الدعاء عند الخروج الى الصلاة ؟ فانظر الى قوله : بحق السائلين عليك ، فان فيه التوسل بكل عبد مؤمن ، وروى الحديث المذكور ابن السنى باسناد صحيح عن السيد بلال المؤذن رضى الله عنه ، ورواه الحافظ أبو نعيم فى عمل اليوم والليلة ، ورواه البيهقى فى كتاب الدعوات ، فعلم من هذا كله أن التوسل صدر من النبى صلى الله عليه وسلم ، وأمر أصحابه أن يقولوه ، ولم يزل السلف من التابعين ومن بعدهم يستعملونه ولم ينكر عليهم أحد .

ومن التوسل أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول فى بعض أدعيته بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلى رواه الطبرانى بسند جيد فى الكبير والأوسط وابن حبان والحاكم وصححوه عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه من حديث طويل يتعلق بالدعاء للسيدة فاطمة بنت أسد رضى الله عنها وروى ابن أبى شيبة عن جابر رضى الله تعالى عنه مثله وابن

عبد البر عن ابن عباس رضى الله عنهما مثله ورواه أبونعيم فى الحلية عن أنس رضى الله عنه ذكر ذلك كله الجلال السيوطى فى الجامع الكبير . ومن الاحاديث الصحيحة الواردة فى التوسل مارواه الترمذى والنسائى والبيهقى والطبرانى باسناد صحيح عن عثمان بن حنيف وهو صحابى مشهور (ان رجلا ضريرا أتى النبى صلى الله عليه وسلم الخ فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة يامحمد إنى أتوجه بك إلى ربى فى حاجتى لتقضى اللهم شفعه فى ، فعاد وقدأبصر) وليس لمنكر التوسل أن يقول إنما كان ذلك فى حياته صلى الله عليه وسلم لان هذا الدعاء استعمله الصحابة والتابعون بعد وفاته صلى الله عليه وسلم لقضاء حوائجهم رضى الله عنهم فقد روى الطبرانى والبيهقى (ان رجلا كان يختلف إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه فى حاجة لا يلتفت اليه فشكى ذلك إلى عثمان بن حنيف الراوى للحديث المذكور فأمره بالوضوء والصلاة والدعاء المذكور ثم أتى إلى عثمان بن عفان بعد ذلك فقضى له حاجته) وروى البيهقى وابن أبى شيبة باسناد صحيح أنه حصل قحط فى خلافة عمر فجاء بلال بن الحرث رضى الله عنه إلى قبر النبى صلى الله عليه وسلم وطلب منه أن يستسقى لأمته فسقوا ، وفيه النداء والتوسل والتشفع والاستغاثة به صلى الله عليه وسلم بعد الموت وهو من أعظم القرب وقد توسل به صلى الله عليه وسلم أبوه آدم عليه السلام قبل وجوده فى الدنيا حين أكل من الشجرة وهذا الحديث رواه البيهقى باسناد

صحيح فى كتابه المسمى دلائل النبوة عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ورواه الحاكم وصححه . وإلى هذا الحديث أشار مالك رضى الله عنه للمنصور حين سأله أأستقبل القبلة وأدعوا أم أستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأدعوا ، فقال له ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم الى الله تعالى ذكره القاضى عياض فى الشفاء باسناد صحيح والسبكى فى شفاء السقام والسهر وردى فى خلاصة الوفاء والقسطلانى فى المواهب اللدنية وابن حجر فى الجوهر المنظم

واستسقى عمر بالعباس عام الرمادة لما اشتد القحط فسقوا كما فى صحيح البخارى ، وفيه رد على من منع التوسل مطلقا وعلى من منعه بغير النبى صلى الله عليه وسلم ، واستسقاء عمر بالعباس دون النبى صلى الله عليه وسلم ليبين للناس جواز الاستسقاء بغيره كما يجوز الاستسقاء به صلى الله عليه وسلم . وانما خص عمر العباس دون غيره لبيان أنه يجوز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل ، فان عليا رضى الله عنه كان موجودا وهو أفضل من العباس رضى الله عنهما . فيحصل مما تقدم أن مذهب أهل السنة والجماعة جواز التوسل بالنبى صلى الله عليه وسلم فى حياته وبعد وفاته ، وكذا بغيره من الأنبياء والمرسلين والأولياء والصالحين كما دلت عليه الأحاديث السابقة وغيرها مما يطول شرحه ، لأننا معشر أهل السنة لا نعتقد تأثيرا ولا خلقا ولا إيجادا ولا اعداما ولا نفعا ولا ضرا الا لله وحده . والأنبياء والأولياء لا تأثير لهم فى شىء وانما يتبرك بهم ويستشفع بمقامهم لكونهم احباء

الله تعالى . والذين يفرقون بين الأحياء والأموات وبين الأسباب الكونية وخوارق العادات هم الذين يعتقدون التأثير للأحياء دون الأموات وللأسباب الكونية دون خوارق العادات ، ونحن نقول : الله خالق كل شيء « والله خلقكم وما تعملون » فالمجيزون للتوسل بالأحياء دون الأموات هم المعتقدون تأثير غير الله وهم الذين دخل الشرك فى توحيدهم فكيف يدعون المحافظة على التوحيد وينسبون غيرهم الى الشرك ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم . فالتوسل والتشفع والاستغاثة كلها بمعنى واحد وليس لها فى قلوب المؤمنين معنى الا التبرك بذكر أحباء الله تعالى ، على أن ذكر هؤلاء الأحباء سبب عادى فى حصول ذلك التأثير من الله تعالى مثل الكسب العادى فانه لا تأثير له أيضا بنفسه . ونقل عن الخطيب البغدادى عن الحسن بن ابراهيم الخلال أنه قال ما همنى أمر فقصدت قبر موسى بن جعفر فتوسلت به الا سهل الله سبحانه وتعالى الى ماأحب . وذكر ابن الجوزى فى صفوة الصفوة أن ابراهيم بن الحربى كان يقول قبر معروف الكرخى الترياق المجرب . وذكر مثله الخطيب البغدادى فى تاريخه وصح ان الامام الشافعى رضى الله عنه قال قبر موسى الكاظم ترياق مجرب . وقال سيدى أحمد الرفاعى الكبير فى كثير من كتبه ان التوسل بالأولياء انما هو بمحبة الله تعالى لهم . ومحبته لهم صفة له تعالى ونعم الوسيلة له صفته جل وعلا وما بقى بعد هذا الا العناد واختراع التأويلات الباطلة على غير مراده . وبالجملة فمن أفرط واعتقد أن

الانبياء والأولياء متصرفون مستبدون قادرون على الفعل والقطع والوصل من غير التجاء الى الله تعالى فهو مكفور به مبعود وقوله مردود . ومن فرط وقاس الأنبياء والأولياء بالأصنام والمسلمين المستمدين منهم الذين اتخذوهم شفعاء الى الله تعالى كعبدة الأوثان فهم أقبح من أولئك وأسوأ حالا وأضل سبيلا

والحق أنه لا معبود الا الله ولا تأثير لغير الله وأن التوسل والاستمداد والاستعانة والاستغاثة والاستشفاع بالانبياء والاولياء فى قضاء الحوائج الدنيوية والاخروية جائز عقلا وشرعاً وحاصل فعلا بمحبة الله تعالى وكرامته لانبيائه وأوليائه المنقولين وكرامات الاولياء ثابتة بالكتاب والسنة وواقعة بالفعل لهذه الامة من زمن نبيها صلى الله عليه وسلم الى اليوم

وكما أوضحنا معنى الوسيلة والاستشفاع وغيرهما مما يرادفهما وذكرنا الاحاديث الصحيحة الواردة فى مشروعيتهما وجواز فعلها عند أهل السنة والجماعة رأينا أن ذلك فضلا عن كونه لا ينافى التوحيد فهو من كمال التوحيد وانكسار القلب الى الرب جل وعلا

نأتى هنا على بيان معنى الكرامة وجواز تنوعها وبطائفة من الكرامات الواقعة بالفعل لهذه الامة وثبتت فى صحيح السنة يطلع عليها من لم يكن عالماً بها فنقول :

الكرامات جمع كرامة وهى أمر خارق للعادة غير مقرون بالتحدى ودعوى النبوة يظهر على يد عبد ظاهر الصلاح ملتزم لمتابعة نبى كلف

بشرعته مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح علم بها أو لم يعلم .

ودليل جواز وقوعها أن ظهور الخارق أمر ممكن فى نفسه وكل ماكان كذلك فهو صالح لشمول قدرة الله تعالى لايجاده إذ لو لم نقل بجواز الوقوع للزم تعجيز قدرة الله تعالى التى تتعلق بالممكنات وللزم ترجيح بعض طرفى الممكن على بعض وكلاهما محال .

ودليل امكان ذلك الامر أنه لايلزم من فرض وقوعه محال عقلا ، ودليل الوقوع بالفعل لهذه الأمة ماسيأتى بيانه

وقبل أن نأتى على ذكره نتكلم على بعض أنواع الكرامات فنقول :

من الكرامات مقام التصريف فى الكون للأنبياء والأولياء المنقولين اذ معنى ذلك أنهم اذا توجهت نفوسهم إلى الله بطلب شىء من الامور الدنيوية لعبد من المؤمنين وأذن لهم فى الطلب أن يعطيهم ماسألوا من غير تحويل لارادته تعالى بل ذلك يحصل بمشيئته تعالى وإرادته .

ومن الكرامات الاخبار ببعض المغيبات والكشف وهو درجات تخرج عن حد الوصف ولا يعارضه قوله تعالى « عالم الغيب فلايظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول » لأن مافى الآية يجوز أن يختص بحال القيامة بقرينة السياق والمراد سلب العموم نحو لم يقم كل انسان ، لاعموم السلب ، نحو كل انسان لم يقم ولا يعارضه أيضاً قوله تعالى « قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله » لأن علم الأولياء بالغيب انما هو باعلام الله تعالى لهم وعلمنا بذلك انما هو باعلامهم لنا وإعلام الله للأولياء ببعض المغيبات لايستلزم محالا عقلا

فانكار وقوعه عناد واطلاع الأولياء على بعض الغيبيات ثابت عند جمهور أهل السنة والجماعة من الفقهاء والمحدثين والاصوليين فانهم نصوا على وقوع ذلك للأولياء وان الكرامات واقعة للأولياء بجميع أنواع خوارق العادات لا فرق بينها وبين المعجزات إلا التحدى ودعوى النبوة ، ومن الأخبار بالمغيبات اخبار الصديق الأكبر رضى الله عنه فى مرض موته بولد يولد بعده ثم انثى وقد كان .

ولم يثبت فى شىء من كتب المذاهب الأربعة المتواترة اصولا وفروعاً القول بانقطاع الكرامات بالموت .

وليس من شرط مسائل الاعتقاد الثبوت بالدليل القطعى بل متى كان الدليل حديثاً صحيحاً وهو من روايات الاحاد جاز أن يعتمد عليه فى بعض تلك المسائل حيث لم يكن من مسائل الاعتقاد التى يشترط فيها القطع .

ولنأت على سرد بعض الكرامات الواقعة بالفعل لهذه الأمة فنقول :

الكرامات واقعة فى الكتاب العزيز كما فى قصة أصحاب الكهف والسيدة مريم ووزير السيد سليمان وغيرهم مما لو ذكرناه لطال المقال ، وقد ذكر ابن تيمية الحنبلى المشهور بخلافه لمذهب أهل السنة والجماعة فى بعض مسائل الاعتقاد فى كتابه الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان مانصه .

وكرامات الصحابة والتابعين بعدهم وسائر الصالحين كثيرة جداً

مثل ما كان (أسيد بن حضير) يقرأ سورة الكهف فنزل من السماء مثل الظلة فيها أمثال السرج هى الملائكة نزلت لقراءته وكانت الملائكة تسلم على (عمران بن حصين) وكان (سلمان وأبو الدرداء) يأكلان فى صحفة فسبحت الصحفة أو سبح مافيها . (وعباد بن بشر وأسيد بن حضير) خرجا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ليلة مظلمة فأضاء لهم نور مثل طرف السوط فلما افترقا افترق الضوء معهما ، رواه البخارى وغيره . وقصة (الصديق) فى الصحيحين لما ذهب بثلاثة أضياف الى بيته وجعل لا يأكل لقمة الا ربا من أسفلها أكثر منها فشبعوا وصارت أكثر مما هى قبل ذلك الخ و (خبيب بن عدى) كان أسيراً عند المشركين بمكة وكان يؤتى بعنب يأكله وليس بمكة عنب و (عامر بن فهيرة) قتل شهيداً فالتمسوا جسده فلم يقدروا عليه ، وكان لما قتل رفع فرآه عامر بن الطفيل وقد رفع . وقال عروة فيرون الملائكة رفعته وحديث أم (أيمن) حين هاجرت وعطشت فرأت دلواً معلقاً فى الهواء فشربت منه وما عطشت بقية عمرها . و (سفينة) مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر الأسد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فسار معه حتى أوصله الى مقصده . و (البراء بن مالك) كان اذا أقسم على الله أبر قسمه و (خالد بن الوليد) حاصر حصناً فقالوا لا نسلم لك حتى تشرب السم فشربه فلم يضره و (سعد بن أبى وقاص) كان مجاب الدعوة وهو الذى هزم جنود كسرى وفتح العراق و « عمر بن الخطاب » قال ياسارية الجبل فسمعه وأمر

أن يسند الجيش ظهره الى الجبل فهزم الله العدو . ولما عذبت « الزبيرة » فى الاسلام وكف بصرها قال المشركون أصابها اللات والعزى فقالت كلا والله فرد الله بصرها و « العلاء بن الحضرمى » مشى مع الجيش على الماء فلم تبتل قدماه وقد حصل مثله « لأبى مسلم الخولانى » الذى ألقى أيضاً فى النار فلم تضره الخ مما لو أتينا على جميعه لاحتجنا الى التطويل

فلنكتف الآن بما قدمناه ليعلم المنكرون للتوسل والكرامات المدعون أن أهل القرون الثلاثة لم يعملوا ولم يعلموا بها وان الكتاب والسنة والتاريخ ليس فيها شيء من ذلك أن دعواهم لا تروج الا على قليلى البضاعة وضعفاء العقول الذين لا قابلية لهم فى أنوار التوحيد ولا استعداد عندهم للخير

وهل يمكن لهؤلاء المانعين للتوسل والكرامات ان ينفوا لنا ما أثبتناه فى هذا الباب من الكتاب والسنة الصحيحة

ويجدر بنا فى هذا المقام أن نستلفت أنظار سادتنا علماء الدين الحنيف الى ما كتبناه فى هذا المقام وإلى مايجريه المبشرون بالدين الجديد فى طول البلاد وعرضها من التشكيك للأمة فى أمر دينها ولا يخفى على حضراتهم أن هؤلاء المبشرين لم يمكنهم أن يلبسوا على الناس مازعموه فى شكل اصلاح الا بدعوى الاجتهاد المطلق الذى يتعذر وجوده فى شخص فى هذا العصر كأئمة السلف المجتهدين رضوان الله عليهم أجمعين . وهل فى امكان رجل فى هذا العصر أن يحيط علما بالكتاب والسنة لغة وشريعة بحيث تكون اللغة له ملكة وسليقة

يدرك بها المعنى المراد كما كان البدوى فى القرون الاولى يدرك ذلك بمجرد السماع ويعرف بهذه الملكة سر إعجاز القرآن ، وأن يعرف الخاص من العام والمطلق من المقيد والمفصل من المجمل والناسخ من المنسوخ والمتقدم من المتأخر وتواريخ الرواة والمعدل والمجروح وان يكون له قدم ثابت فى العدالة والورع والزهد فى الدنيا فلا يرتكب كبيرة ولا يصر على صغيرة وان يزن أعماله وأقواله بميزان الشرع وان يترك شيئاً من الحلال خشية الوقوع فى الشبه والحرام وان لا يأخذ من الدنيا فوق ما يكفيه من الحلال فضلا عن الحرام إلى غير ذلك مما هو أندر من الكبريت الأحمر ويتعذر وجوده فى شخص فى هذا الزمان زمان أعاصير الفتن الغربية التى كادت أن تجرف العقائد والاديان لولا نفحة من نفحات الحق تهب على قلوب المؤمنين فتكسح عنها ظلمات الوهم لساءت العاقبة وعمت البلوى

وهل العمل بما عليه الأئمة الأربعة المجتهدون الذين تواترت مذاهبهم الينا بالنقل الصحيح ينافى شيئاً مما عليه الغربيون من الرقى المادى والمعنوى أو ماجاء به الكتاب والسنة من الهدى والارشاد الصحيح حتى يحتاج الدين لمن يكمله باجتهاد جديد يدعيه من ليس أهلا له فيتحول الدين عن صراطه ، الامر الذى يستحيل وقوعه الى آخر الدهر قال تعالى : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » وهل نسيتم ياعلماء الدين وحماة الشريعة ماادعاه الجلال السيوطى من الاجتهاد المطلق ورجوعه عن هذا الادعاء مع سعة علمه وغزارة مادته عندما قام عليه علماء عصره

يطالبون بالحجة والبرهان

فما سبب هذا السكوت والبدع قد احدقت بأمة محمد صلى الله عليه وسلم من الجهات الست أعجز عن الدفاع عن الدين أم تفضيل لحطام الدنيا الفانى على تأييد وخدمة شريعة سيد المرسلين

أناشدكم الله ايها السادة هل سكوتكم هذا يرضى به الله ورسوله صلى الله عليه وسلم كلا بل هو اقرار لما يأتيه المرجفون ولا حول ولاقوة الا بالله العلى العظيم ، وماتوفيقى الا بالله عليه توكلت واليه انيب ،

الامضاء

(ا.م.ا.)

﴿ ملاحظاتنا على هذه المقالة ﴾

ربما كانت هذه المقالة من أبلغ وأجمع ما اعتضد به أنصار الكرامات والتوسل فى تأييد مذهبهم ، وقد كنا نوينا بعد أن كتبنا ما كتبناه فى الجزء الماضى أن نقفل القوس على هذا الموضوع وعزمنا على الاعتذار لحضرة الاستاذ كاتبها عن نشرها فى مباحثنا لولا انا رأينا أن فى ادراجها هنا والملاحظة عليها حلا نهائيا للموضوع الذى نحن بصدده فاقول :

لم يضر المتدينين اكثر من توسعهم فى عقائدهم شىء ، ولو علم المتدينون مقدار الخطر الذى يجرونه على انفسهم وجامعتهم من قبل

هذا التوسع الذى أداهم اليه تبسطهم فى التأويل وتساهلهم فى التخييل لوقفوا مع نصوص كتابهم وقفة الحذر اليقظان ولبذلوا كل جهدهم فى حماية أصوله بما يسعه الامكان ثم لو درى المتدينون كم ينال الخيال من عقل الانسان وعلمه ، وكم تتسرب الاوهام الى عقيدته وحكمه ، وكم تأخذ الاحلام من كماله وفهمه ، وكم يتحكم الهوى على فؤاده ونفسه ، وكم يخف تبعاً لذلك فى قسطاس الوجود وزنه ، ويطيش عن وجوه الفوائد سهمه ، وينحط الى حضيض القصور قدره . لودرى المتدينون ذلك لدافعوا الهوى دفاع العدو الباطش ، وقارعوا الخيال قراع الخصم الغاشم. ثم لو فقهوا أن كتاب الدين باصوله وفروعه طب النفس ودواها ، وان واضعه هو خالقها ومولاها ، وأنه أعلم بعللها وأدواها ، وأدرى بمواهبها وقواها ، وأقدر على ضبط قانونها الذى يربها ويرعاها . وان ذلك الطب فيه سر مكنون ، وعلم مصون ، لا يقبل الزيادة ولا النقصان ، ولا يليق أن يتوسع فيه إنسان . وان ذلك الداوء اكسير مجرب ، ودرياق مقدر ، والدواء مركب على قوانين ، وعقاقيره مضبوطة بالموازين ، لو اختل وضع مركباته فسد مزاجه ، وتغيرت أمشاجه ، وخرج عن كونه الاكسير النافع ، وانقلب الى سم ناقع ، لو فقه المتدينون الى هذا الحال لحرصوا على عدم التوسع فى مقررات الدين حرص المحموم على ضبط مقدار الكينين ، وعلى مج دواء لم يقدره الاقربازين

ماهو الدين ؟ الدين اعتقاد بالخالق الاقدس ، الذى أقام الوجود على هذا الطراز الانفس ، وتصديق بالحساب والجزاء والملائكة

والنبيين والكتب والقضاء والقدر، وايمان بعدل الله ورحمته وحكمته، وتحل بصفات النجدة والسخاء والرحمة والانعطاف على الضعيف وعدم تهيب المتسلطين والنظر إلى الدنيا نظر المارها إلى دار أوسع وجناب ممرع الخ الخ من عقائل المحامد وجلائل الخلائق التى لو تحلى بها الحيوان لساد الانسان . الدين هكذا فلماذا نرى المتدينين فى هذا العصر فى أى بلد كانوا ، وفى أى طبقة من طبقات الهيئة الاجتماعية وجدوا « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم » ضعفاء جهلاء ، جبناء ، ماسورين للاهواء ، مسخرين للاقوياء ، مزدرين فى أعين أنفسهم ، ومحتقرين فى نظر ذواتهم ، كثرهم قل ، وقادتهم بهل ، وقد ضعفوا حتى خفت صوتهم وخشوا الناس حتى أصبحوا يراؤون بعدم التدين ، ويتظاهرون أنهم من أنصار التمدن ، إن سبح أحدهم سبح وحده ، لاخشية الرياء ، ولكن خشية أن يعد من أحلاس القديم وأنصار الفكر الرميم . . وان حج أحدهم أوهم من حوله أنها سياحة تفيده علما وتكسبه فهما ، وان دعى إلى شرب خمر اعتل بصحته ولم يعتل بعقيدته . . . . . إلى أين إلى أين ؟ ؟ ؟ ؟

انظر اليهم فى هذا العصر وهم مطعن كل طاعن ، وهدف كل نابل ، وغرض كل غامز ، ومطمح كل هامز ولامز ، ثم انظر إلى آبائهم فى ملكهم وسلطانهم ، وعزهم وسؤددهم ، وتبسطهم فى الارض يأكلون من رزق الله ويعبدونه ويهذبون العالم ويربونه ، خلفاء الله فى أرضه ، وورثة النبى صلى الله عليه وسلم فى علمه وحكمه . كلمتهم

العليا وكلمة أعدائهم السفلى . لماذا كانوا كذلك ونكون كما ترى ؟ نحن رجال أمثالهم ولدينا من القرآن وسيرة النبي ما كان لديهم وقد أرتنا الحوادث من مؤيدات الآيات مالم ترهم ، ولسنا بأقل منهم حبا لأنفسنا ، ولا بأكثر منهم زهدا فى الدنيا ، فماهذان الأثران المتعاكسان لعقيدة واحدة ؟ أليس فى هذا الاشكال ما يأخذ بالعقل حيرة ، يسطو على النفس قهرا وحسرة ،

لم هذا ؟ لكوننا غيرنا وبدلنا ، وشرحنا وتوسعنا وخرجنا بذلك عن حقيقة الدين وماشعرنا أو وشعرنا . فأصبح الدين المبدل وأثره أخف وزنا من قواعد العلم الأوروبى ونتائجها فمال الناس الى الراجح وتركوا المرجوح رغم أنوفهم

نعم ! عندنا أن علم أوروبا أرقى من (دين العامة) لذلك يضعف ذلك الدين كل يوم ويقل المتمسك به من العامة والخاصة كل حين بدون انقطاع . والى أين يذهبون ؟ الى التمسك بالاصول الأوربية لأنهم لايدرون ماهو الاسلام ولو دروه لخفوا اليه سراعا ولاعتصموا بحبله أجمعون . لأن علم أوروبا ومبانيه لو قيس بالاسلام الحق وقوانينه لما ظهر له رونق ولشعر المقارن بينهما بفارق لاتسده العلوم الطبيعية ولو توصلت لاحياء الموتى واطالة الحياة الانسانية

نشأت هذه النهضة العلمية فى الغرب قبل ثلاثة قرون أو أكثر فصاولت هنالك الدين وكاوحته ، وكان المشهد رهيباً مهيباً ، اعتضد فيه القديم بهوى الدهماء والغوغاء ، وتظاهر فيه الجديد بقوة النفع

والافادة ومتاع الحياة الدنيا ، ومازالا كذلك حتى انتهى إلى اليوم الذى نسمع فيه خبر التضييق على حملته وحفظته وحرمانهم حتى من فتح المدارس فى عقردارهم عجباً عجباً ، لقد اشتد مراس الفتنة وقوى زندها لدرجة أصبحوا يعدون دينهم الذى كم باعو أرواحهم من أجله مضرا . . . . لايصلح لأن ينفذ إلى ضمائر النشء الحديث لئلا يودعها مالا يحسن أن تلتاث به أحسب الذين يعنون بأمر الدين عندنا أن تلك النهضة التى قلبت شكل العالم الفكرى فى أوروبا وكان من أمرها مع دينهم ماترى تحابى لنا فتدعنا بمعزل عن شرورها ؟ كلا ؟ انها قد ساورتنا مساورة الليث الهصور فريسته ، وقد فعلت بنا فى هذه الخمسين سنة الاخيرة فعلا ليس وراءه الامثل مانال أوروبا من قبلنا . والافما سبب تظاهر كثير من فتياتنا بالالحاد ؟ ماسبب استشكالاتهم على مقررات الدين فى كل ناد ؟ ماسبب خفوفهم إلى تقليد الاوربيين فى الخلق والعاد ، أليس فتنة أوروبا العلمية التى يقال انها بعثت لتخليص الناس من ورطة الاديان ، وأقامتهم على سمت العرفان ، ليتأدوا إلى أعلا درجات العمران ، وينجو من حبائل الأساطير والكهان ؟ نعم هو كذلك وليس من الحسن أن نقف على المنابر وينادى منادينا ضاع الدين ضاع الدين ، ولكن الواجب النظر كيف يضيع الدين ، وأى قوة تجليه عن قلوب المسلمين ، ومن أى جهة ضعيفة تتسرب الينا الفتن ، وتصرفنا عن أقدس السنن . مما يطالبنا به الدين والوطن .

لايقف بنا على هذا السر العجيب الادرس ماحدث فى غيرنا

من الأمم الأوروبية فان سنة الله فى عباده واحدة ، فان أوجزنا فعله فى أوروبا واختزلنا حوادثه هنالك فى صورة مصغرة علمنا موقفنا معه وجهة تعرضنا لبطشه . فنقول :

نشأ العلم الأوربى الحالى والناس من العقائد فى دور الخبط ومن العلم العالمى فى طور العماية . عقيدتهم مايوجهه اليه رؤساؤهم وإن كان ضلالا ، وعلمهم مايتفضل به قادتهم وان كان خيالا وحياتهم بين يدى ملوكهم يتصرفون بها كيف شاءوا وسياستهم فى يد مواليهم يصرفونهم كما أرادوا ، غنيهم هائم فى وديان غروره وفجوره ، وفقيرهم هاو فى تيهور هلكه وصغاره ، لا ارادة لهم ولانفس ، ولاضمير ولاحس ، أمم تعد بالملايين يقودها افراد من المتسلطين ، جاء العلم الأوربى والأمم على هذه الصورة ضلال فى العقائد ، عبودية للحكومة ، جهالة للمنافع ، عبادة للأهواء ، طاعة عمياء للرؤساء ، وساوس لاتدع للحق سبيلا ، ولا للصدق مقيلا . جاء العلم :

فقال : « أيها الناس إن لكم نفوساً أماتها الجهل فتعهدوها بالعلم ولكم عقولا أفسدها الخيال فتداركوها بالحق ، ولكم أفكارا وجهها رؤساؤكم وجهة الوساوس فردوها شطر الحقائق ، ولكم حقوقاً على رعاتكم أضاعها الاستسلام فاطلبوها بقوة الارادة ، وسطوة العزيمة . أيها الناس جاءكم العلم يخلصكم مما أنتم فيه فأطيعوه ولا تنابذوه ، وأتاكم ينقذكم من مخالب المستبدين والمخرفين فآزروه وانصروه ، وشارفكم يعلمكم كيف تحيون وكيف ترتقون فاسمعوا مايرشدكم اليه

وعوه . أيها الناس إن أحكامكم مظالم ، وإن عقائدكم وساوس ، وإن أحوالكم عوابس ، وان مصائركم غياهب وحنادس ، فاخلعوا هذه الأثواب البالية ، التى لا يلبسها شعب الارم عظمه ، وهلكت نفسه » فلم يكد يتم العلم مقالته حتى رماه الخاصة والعامة بسهام الملام والتأنيب ، وغلا قوم فتولوا أشياعه بالتعذيب ، ولم يزالوا كذلك وهو دائب على صراطه يكتشف المجاهيل ، ويستنبط الاسرار ، ويخترع المخترعات الكبار ، فلم يلبث الناس أن رأوا مزايا الطب ، وفوائد علم الزراعة وخصائص علم الطبيعة والكيمياء ، وما أحدثا فى الصناعة من الرقى الذى لم يكن يحلم به العالمون ، ثم شاهدوا أسرار علوم الهيئة والرياضيات والميكانيكيات وما أحدثتها من التسهيلات والمرافق فى حاجيات الانسان ، وكان فوق هذا كله أولئك المؤلفون والكتاب ، والشعراء الذين تشبعوا بالروح الجديدة فقاموا ينفثون الحياة من أفواه أقلامهم ، و ينشرون الحقائق باسلات يراعهم ، فلم يلبث الناس بضعة عشرات من الأعوام ، حتى رأوا أنهم قد حيوا بحياة جديدة ، وشعروا بشعور عريب ، أحسوا بتناقض بين دينهم ودنياهم ، وأنسوا نزاعا بين الماضى مسرح خيالاتهم ، وبين الجديد محط آمالهم . فدافعوا الجديد (بالقول) زمنا ، ثم آل أمرهم الى اعتقاده قولا وفعلا . ثم شعروا بالتفريط الهائل من ترك التدين بالمرة ، فقاموا ينشدون الدين ، ولكن (بنور العلم) و يطلبون الروح ولكن (بارشاد الحكمة) وها هم فى هذا الدور لليوم .

أما نحن الذى منينا بفتنة العلم الأوروبى ، واستهدفنا لأفاعيله ، فسيرتنا معه ستكون بلا شبهة كسيرة الأمم التى تقدمتنا ، وقد لعبت تلك الفتنة بعقولنا دورا هائلا لا ينكره متبصر . ولقد علمنا ، وليس بعد المشاهدة علم ، أن هذه الفتنة لا تزول بالكلام ولا بالحسام ، ولو كانت تزول بهما لزالت عن أفق أوربا ، وقد أحرق المسيطرون من أشياعها ما يقارب نصف مليون من النفوس الأوروبية لأن فى هذه الفتنة حقاً و باطلا ، وحقها أكثر من باطلها ، فلا يقاويها إلا حق أكبر من حقها وافعل على العقول منه ، وهى تؤثر على العقول من جهة ما فيها من حق أكثر مما تؤثر عليها من جهة ما فيها من باطل ، فان يكن هنالك (دين حق محض) لا شائبة للباطل فيه ، فذلك هو الدين الذى يبقى ، و يكون العلم خادمه وممهد الطريق بين يديه . اما دين فيه خلط من أباطيل ، وشوب من أضاليل ، فلا يقوى عليه أبدا ، ولا يجتمع واياه فى قلب رجل ، ولا دليل بعد الواقع . نحن نقول ان ذلك الدين هو الاسلام ، ولذلك سمينا مباحثنا (الاسلام فى عصر العلم) واليك بعض التفصيل :

جاء العلم الأوروبى فأكسب الناس خصالا نشأت من طبيعة العلم نفسه ، واقتضاها موضوعه . وانا نوجزها فنقول (١) اقرار الانسان بجهله أمام هذا الوجود المدهش ، وعوالمه غير المتناهية . وهذا الجهل ليس بالنسبة لما يعلو عن مشاعرنا ، ويسمو على قوانا من الكائنات .

فقط بل بالنسبة أيضاً لأصغر ذرة من ذرات المادة فقد دلنا العلم على غاية جهلنا بها فانا انما نحكم عليها بالمشاعر الظاهرة والحدس والتخمين ونحن بمعزل عن كنهها وطبيعتها ومن كان أمام الذرة البسيطة كذلك فأجدر به أن يكون بماوراءها من العوالم أجهل ، وعما يسموها عنها من حقائق الكون أغفل (٢) عدم تصديق شيء الا بدليل محسوس : ذلك لأن الانسان كثيراً مايشتبه عليه الحق والباطل لقصور وسائله العقلية ، وضعف قوته الادراكية ، فيجب عليه بدل أن يترامى على الشيء بالتصديق ثم يرجع عنه منهزماً أن يتئدويتأنى ويتردد فى الحكم حتى يجد من الحس مايؤيد مطلبه . ولماذا يتعجل فيخطئ وهو لا ينشد إلا الحق ، وماذا بعد الحق إلا الضلال (٣) الانسان دائم الرقى لا يمنع رقيه شيء بل ان كل حوادث الكون وأهواله اسنة تخزه للتكمل وبلوغ غاية بعيدة فى العلم والعمل والفضيلة . ونوع هذا حاله من التقدم لا يتقيد بقيد ولا تصلح أن تحكمه قاعدة وانما له أن يقيد نفسه فى كل جيل بما يناسبه من المدركات والعقائد تحت رعاية نواميس الحق والعدل (٤) اعتقاد أن روح الكمال البشرى الحرية والدستور أما تسخير الالوف المؤلفة من النفوس لأهواء رجال معدودين فليس من الحق الطبيعى فى شئ بل هو عقبة كؤود أمام قانون الارتقام العام (٥) الحقائق مادة البقاء الانسانى وروح قوامه والأباطيل جراثيم الفساد وبواعث الفناء . فعلى الانسان أن يلتمس الحقيقة النقية كما يتلمس الغريق وجه المخلص ، وان يهرب من الباطل هربه من الافعوان الحقود ، وأن لا يزوغ عن

حق ولو هدم له عقائد عزيزة على نفسه أو هجن له عادات نفذت الى صميم كيانه ، فان الحق أحق دين بالاتباع وما فائدة عقيدة باطلة تورث صاحبها فى الحياة ذلا وفى المعيشة قلا ، وتجعله عرضة لما لا يرضاه قولا وفعلا .

هذه أكبر الخصال التى ينقشها العلم فى أذهان طلابه وقد سار عليها أقوام فتأدوا من علوم الكون الى غايات بعيدة المدى جعلت امهم أصحاب السلطان القولى والفعلى بما اكتشفوه لها من كنوز الوجود وسهلوه لها من وجوه الفوائد وابتكروه لصنائعها من ضروب التسهيلات وليس بعد الحس دليل . وقد واجهوا بهذا الأدب العالى والرواء الفاتن أصحاب الأديان فبكتوهم على جمودهم ، ونعوا عليهم سوء حالهم ، ثم قابلوهم بضروب من الجدل وأنواع من الاشكالات جعلت عقيدتهم بمعزل عن الحماية ، ولولا بقية من جمود الانسان على مايرث من آبائه لما بقى على سطح البسيطة (دين مبدل)

هذه تعاليم العلم أما ديانات العامة فى كل الامم فتنحصر جميعها بلا استثناء كما ترياه الفلسفة التاريخية فى (١) عقيدة بالخالق جل وعلا على صورة الملوك الدنيويين ولذلك فهم يفرضون على أنفسهم من الآداب والواجبات مثل الذى على الرعية بازاء سلطانها المستبد الذى لاتتقرب اليه الا بواسطة المقربين اليه ، ولا يدعوه الداعى مباشرة أدباً معه بل يتوسل بأولئك المقربين وهم يبلغونه حاجته فى الفرص المتناسبة . هذا الاصل عام فى كل دين وانما للوسطاء والمقربين أسماء

تختلف باختلاف الامم والاقطار (٢) عقيدة فى القدماء من أنهم كانوا أهل فضل وورع وأنهم نالوا من الفضائل العلمية والعملية مالا يمكن الوصول اليه ولا الحوم حوله . (٣) وأن كتبهم تشتمل على ماكان وما يكون الى يوم القيامة وان كل العلوم الحادثة أباطيل أو أنها أمور ظنية أو شيء مقتبس من تلك الكتب القديمة (٤) الثقة التامة فيما ورد عن الاقدمين والوقوف عند ألفاظهم وأفكارهم ومصادمة الحقائق الكونية بها والمكابرة فى الواقع من أجلها

هذه أكبر أصول الاديان العامية لدى كل أمم الارض قديماً وحديثاً لاتختلف فيما بينها الا باختلاف الاسماء واللغات فتخيل رحمك الله أمماً متورطة فى مثل هذه الأصول الحرجة ، ومغلولة العقول والمدارك بحبائلها ، ثم انظر كيف يكون الجمود لزيمها والخمود غريمها والضعف الخلقى والعقلى والنفسى صفة من صفاتها . ثم ضع هؤلاء جانباً وانظر للأمم التى جلت عن أعناقها هذه القيود الحديدية كيف ارتقت فى كل مجال من مجالات الحياة الانسانية فبينما ترى تلك الامم من جهة الحكومات فى أخس أشكال الاستبداد والاثرة ومن جهة العلوم والصنائع فى أحط دركات القصور ، ومن جهة الاخلاق والمعاملات فى أسوإ حالات الافراط والتفريط ؛ ترى هذه قد قامت على قطب الدستور فى حكوماتها وأنالت أفرادها حريتهم الكاملة وارتقت فيها العلوم والصنائع لدرجة يعدها ضعاف الأمم المتدينة معجزة تخرلها الأعناق خاضعة ، وصارت أفرادها فى المعاملات والاخلاق أمثلة

لايقاظ الغافل وزجر المتلكىء وأصبحت بذلك صاحبة النهى والامر على الأمم المتدينة بالأديان العامية ولا سبيل لانكار الحس .

نقول هذا لانفسنا قبل أن يقوله لنا مستشكل عنيد من مشككى رجال العلم الأوروبى ثم نتبعه بالحل الشافى اظهارا لفضل الاسلام ودليلا محسوساً على انه سيكون الدين العام لسائر الأنام

جاء الاسلا للعالم والأمم من العقائد على سنة الأديان العامية التى تقدم شرحها من تشبيه الله بالملوك واحتياج العبد للوسطاء والشفعاء واحترام مفرط للقدماء ومعاداة للجديد وجمود على التقاليد ، فواجه هذه العقائد الوراثية بدحض مابنيت عليه من قواعد باطلة . فقرران الله أعلم العالمين وأرحم الراحمين وأحكم الحاكمين ليس كمثله شىء لاتدركه الأبصار ولاالعقول ، لامعقب (بكسر القاف) لحكمه ، محيطة بكل الكائنات رحمته مهيمنة على كافة المخلوقات عنايته،غنى عن الوزير والمشير ، بصير بالجليل والحقير يعلم السر وأخفى ولاتزر عنده وازرة وزر أخرى ، لايشفع عنده الشافع الامن بعد اذنه « وكم من ملك فى السموات لاتغنى شفاعتهم شيئاً الامن بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى » ومن يتصفح كتاب الاسلام يجد فيه مئات من الآيات تشير الى ان مالك الشفاعة هو الله وحده وان النفس لاتغنى عن النفس شيئاً « يوم لاتغنى نفس عن نفس شيئا » وان الانسان لاينفعه الا عمله الشخصى « وأن ليس للانسان الاماسعى » ثم أفضى بالانسان الى ربه يدعوه تضرعا وخفية وخوفاً وطمعاً وقائماً وقاعداً وعلى جنبه

حر الفكر والارادة معتقداً انه لو اجتمعت الانس والجن على أن ينفعوه بشيء لم يكتبه الله له لما استطاعوا الى ذلك سبيلا. ولو أرادوا أن يضروه بشيء لم يقضه الله عليه لرجعوا عاجزين عنه. غير متوسع فى كلام الله ولا مضيفا اليه ماليس منه « قل أتعلمون الله بدينكم » ولا متبعاً برأيه واستحسانه المجاهيل التى لم ترد على لسان نبى مرسل ولا خطت فى كتاب منزل. وما الأنبياء الا عبيد امثلهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرا ولا حياة ولا نشوراً، وانما هم رجال من الله عليهم برداء الكرامة، وحباهم بنعمة الزلفى منه، مبلغين الى الناس كلام بارئهم، منذرين ومبشرين غير مسيطرين ولا متحكمين « لست عليهم بوكيل » « لست عليهم بمسيطر » « انما أنت منذر » « وما أرسلناك عليهم حفيظا » « فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب » وقد يسلط الله من رسله من يشاء على من يشاء.

حمل الاسلام للناس بهذا الأصل دستور الحرية وافتك الأعناق من اصفاد العبودية ثم خاطب الفؤاد وناجى العقل وسرد له من الحكم وروادع المواعظ مع ضرب الأمثال والاحالة على المحسوسات ماينقش فى فؤاده أدبا لا يسامیه أدب فأراه انه ضعيف المدارك يحتوشه الجهل من كل جانب « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » وان قوامه العلم وحياته فى الحكمة « لا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » ثم سرد له ما لحق الأمم الجاهلية من ضروب الخزى والخسران ودفعه للعلم دفعاً « وقل رب زدنى

علماً » وأشار عليه ببذل الوسع فى طلب العلم والنظر فى الملكوت « قل سيروا فى الأرض ثم انظروا » وكرر ذلك حتى عده بعضهم فرضا. ثم نهانا أن نقول على الله مالا نعلم وأن نحكم فى دستوره ونتحكم « ولا تقف ماليس لك به علم » وحذرنا من ذلك حتى أخبرنا أنه سيسألنا عن ميلات المسامع ولمحات اللواحظ وخطرات الفؤاد فقال تعالى « ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا » ثم دعانا لطلب الحق حيث كان وانشاد الصدق أنى وجد لانه وجد روح حياتنا وسبب بقائنا وعماد هدايتنا « وماذا بعد الحق الا الضلال » ونهانا عن الاصغاء للأهواء والأخذ بالظنون والحكم بالحدث والتخمين « ولا تتبع الهوى فيضلك » « وان الظن لا يغنى من الحق شيئاً » « قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » ثم أخبرنا عن الأمم الماضية وحكى لنا من حوادثها فى تحريف كتبها وصرفها عن معانيها والتوسع فيها والتأويل لأصولها ماخرج بها عن حقائقها وبعد بها عن مواضعها، وحذرنا من أن نسير سيرتهم أو نحتذى مثالهم وقال لنا مامعناه قد انزلت عليكم قرآنا فيه ذكركم وذكر من كان قبلكم وقد ضمنته دواء أدوائكم وطب قلوبكم وهو تام لا عوج فيه فايا كم واتباع الآراء والحكم بالاهواء وايا كم ومحاكاة الأمم المفسدة التى حرفت عقائدها واتبعت أوهامها وانكم تعلون وترتقون مادمتم متمسكين بكتابه المبين ، وتنحطون وتغلبون ان انفرطتم من سلكه المتين .

هذا الأدب رفع أمة العرب ومن هى أمة العرب وجعلها تاجا على

رءوس العالم كله وقد أنهضت نهضة فجائية فى كل ضرب من ضروب المحاولات الانسانية حتى صارت مفخرة التاريخ لليوم . وهذا الأدب عينه أرقى من أرقى تعليم للعلم وأعلا من أعلا فلسفة عصرية وفى التفصيل العجب العجاب مما سنأتى عليه ان شاء الله . وهذا الأدب هو الذى نتمنى أن يسود على مقررات العلم ويحيينا بنفحته حتى نؤثر بحالنا على مدنية الغرب فنكملها كما كمل آباؤنا مدنية الرومان والفرس . ولكنا لو صغنا ديننا على قالب الأديان العامية وجعلنا التوسل والتشفع وما أوجبته العوائد البلدية وخلقته المقتضيات الوسطية قاعدة له أو أصلا من أصوله فقد استهدفنا لفتنة العلم وعرضنا أنفسنا لنقد فلسفى لانقوى عليه أبدا ولو صح عنا بالمدافع والذوابل وجعلنا حججنا دينا ميت وفنابل .

هذه جملة نرجوا من مطالعنا امعان النظر فيها وتأمل مغازيها ومراميها ومجيئها من مسلم يعرف دينه ويحميه ، خير من مجيئها من ملحد ينابذ ديننا ويناويه ، ويجعلها فتنة على قارئيه وسامعيه .

هذا كله تمهيد لما سيأتى ان شاءالله بيانه عند مناقشة الاستاذ الكاتب فيما كتب من الخطر الكبير الذى يجره المتدينون على أنفسهم من توسعهم فى مقررات الدين وذهابهم فى بسطها كل مذهب حتى ان أهل الدين الواحد لينقسمون الى أكثر من سبعين فرقة متنابذة متعادية تدعى كل منها انها على الحق ، وتستند فى دعواها على الكتاب والسنة وما سبب ذلك كله الا سماحهم لأنفسهم بالتوسع فى الدين والتحكم

على قضاياه بالعلم . والدين متى تحكم عليه بالعلم صار علما ومتى صار علما صار موضعا للخلاف والتفاوت . فلا عجب بعد ذلك ان كان لكل أهل قطر دين خاص وتقاليد خاصة . ونحن فى مقالتنا الآتية سنرى قارئنا أن الدين فوق العلم والاهواء لا بمعنى أنه معارض للعلم والميل الانسانى ولكن بمعنى أنه من النقاء وظهور الحجة والاشفاق على الانسان بحيث يرى العلم نفسه امامه صغيرا ناقصا متحولا وترى الاهواء القلبية ان تسلم قيادها اليه فهو أرحم بها منها وأجلب لمناها من هواها ، وهذا بحث جديد جليل نرجو ان نوفق اليه ، والله ولى الكفاية .

﴿ الاسلام فى عصر العلم ﴾

صدر الجزء السادس فى هذا الشهر زائداً ستة عشر صحيفة اضطرنا الى زيادتها اتساع الموضوع معنا فى الملاحظة على حضرة كاتب المقالة السابقة ونعتذر من ارجاء بقيتها .

الدين والمتدينون (١)

(تتمة الملاحظة على مبحث الخوارق والأسباب العادية)

الدين لغة واصطلاحا هو ما يدين الانسان له من العقائد التى تنشا

(١) انظر صحيفة (٢٧٨) ، (٢٩١)

فى وجدانه نشوءاً طبيعيا أو يأتيه بها وحى إلهى أو يستنتجه من النظر والتأمل فى الكون . من هنا صار للدين ثلاث مصادر مختلفة لكل منها حال يجب الالمام به للوصول الى الحقيقة من هذا البحث .

أما العقائد التى تنشأ فى وجدان الانسان نشوءاً طبيعياً فهى مايجده كل انسان فى نفسه من الأيمان بأن لهذا الكون صانعاً حكيماً قديراً . وهذا الايمان ينشأ فى الضمير وينمو على الناموس الذى ينشأ عليه العقل الطبيعى ذاته . فكما ينشأ الانسان مفطورا على التصديق بأن الجزء أكبر من الكل وأن الشيء لايوجد فى مكانين فى آن واحد وأن المصنوع لابد له من صانع كذلك ينشأ مفطورا على اعتقاد أن له ولهذا الكون الكبير صانعا حكيما لأنه من بدائه العقل وضروريات النظر ومما لايعوز الروية والتأمل . ولكن من هو هذا الاله وكيف هو وأين هو ومم هو ؟ هذا مما لم يفطر على معرفته الانسان ولذلك حصل الاختلاف فيه بين سائر أمم الأرض بخلاف العقيدة الأولى الفطرية فلم يختلف فيها اثنان الا بعد ظهور الفلسفة كما ستراه ان شاء الله .

أما العقائد التى تأتى عن طريق الوحى الالهى فهى ما يجيء بها الأنبياء والمرسلون من وجود عالم الملائكة وعالم الأرواح المجردة وخلود النفس النعيم والشقاء الأخرويين الى غير ذلك مما هو مكمل لتلك العقيدة الفطرية ، وقد اتحد جميع الانبياء على تقرير دين واحد ولم يبطل اللاحق مما قرره السابق الاشيئا من قواعد الشرع السياسى الذى يجب ان يتغير بتغير حال الأمة واتساع دائرة معاملاتها

وشؤونها ، أما العقائد الدينية الرئيسية فكلهم فيها سواء لافرق بين أبعدهم عنا وأقربهم منا فى شىء « قل ياأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لانعبدالا الله ولانشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون » « شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا » أما ماتظهر به الأديان من الخلاف فيما بينها فأمره واقع على اتباع أولئك الرسل فانهم هم الذين غيروا وبدلوا وتوسعوا فأصبح كل دين يدعو الى مالا يدعو اليه الآخر وسترى السبب فى ذلك ان شاء الله .

أما العقائد التى تحصل من النظر والتأمل فهى كالاصول المستنتجة من النظريات الفلسفية : كدعوى الاقدمين منهم ان للكواكب ارواحاً وان مقر النفوس محيطات الكواكب أو أن الانسان متى مات تقمصت روحه جسد حيوان أو انسان آخر . وكدعوى محدثيهم أن ليس فى الكون الا المادة وحدها وان ما يقال من وجود روح وخلود وعالم روحانى وغيره هو من توليدات الخيال وتجسيم الامانى والمشتهيات وقد استند الأولون فى تقرير أصولهم على ماتهوى نفوسهم وتشتاقه أميالهم واعتمد الآخرون على الحس والتجربة زاعمين أن كل مالا يحس ليس بموجود فان زعمت ان لك روحاً قالوا لك أرناها وان قلت ان هنالك عالما آخر قالوا هل رأيته الخ الخ مما نحاربه دائماً بكتاباتنا

فالدين الاول الفطرى هو الدين الحق الناشىء فى الوجدان الانسانى على مقتضى الناموس الطبيعى الذى نشأت به عواطفه وأمياله وملكاته

الأخرى ولكن هيهات أن يقنع الانسان بعقيدة ضميرية وهو الكائن المغرم باكتشاف المجاهيل واستشفاف المساتير والنفود لكل سريرة والسريان فى كل دخيلة . اذا كان الانسان يخاطر بنفسه لرؤية ما فوق الجبال وماتحت البحار وما فى بطون الغيران وما فى أحناء الغابات والاحراش وقد رآى ويرى كل يوم من المعاطب فى هذا السبيل مايشيب النواصى ويرعد الفرائص فكيف يقنع بالظاهر مما هو أمس شىء بحياته واعلق أمر بفؤاده وآسر معقول للبه وأغلا محبوب لنفسه . فلا غرو ان بذل فى سبيل إدراك خالقه كل مجهود وتعدى لتصويره لفكره غاية حدوده ، ولاعجب ان لعب به الخيال فى كل ملعب وذهب به هواه فى كل مذهب ، ثم لاغرابة بعد ذلك ان رأيت لكل أمة مذهباً خاصاً وتصويراً خاصاً . من هنا كانت الحاجة للرسل والانبياء صلوات الله عليهم شديدة ، فأرسل الله المرسلين بدين الفطرة والحق فأهابوا بالناس عن التمادى فى الاهواء وزجروهم عن الجرى فى أعقاب الخيالات وأقاموهم على سنة الله المنزهة عن العوج فمكث كل واحد ماشاء الله أن يمكث حتى اذا ما اختار الله له جواره رجعت كل أمة لهواها فى التوسع بدينها والخروج بعقائدها عن حدودها فنقضت وأبرمت ، وقوت ووهنت ، وانقسمت وافترقت ، وزعمت فى كل مافعلت انها تستمد من روح الدين وتستقى من ينبوعه حتى أن الأمة الواحدة لتنقسم إلى عشرات كثيرة من المذاهب المتشاكسة المتعاكسة فترى كل مذهب يدعى أنه على حق وأنه مستند فى أصوله على صحيح الكتاب

ويسرد لك فعلا من الآيات والنقليات ما يؤيد به مذهبه ويقوى به فلسفته.
إن قلت ولم ذلك ؟ قلنا من سماح كل فريق لنفسه بشرح الكتاب على طريقته والتوسع فى أصوله على قدر مداركه وتسرية أسلوبه العلمى عليه فينقلب الدين علما ومتى انقلب علما صار عرضه للخلاف فيه ومحلا للتنازع فى أصوله وفروعه . وخرج عن كونه مهب الطمأنينة على النفوس ، ورسول السلام والوئام بين الافئدة ، ومتنسم الحب والاخلاص بين أهله وأصبح مثار التنابذ والتخالف ومهب التخاصم والتشاكس وآلة لتسخير النفوس وإذلال العباد ، وواسطة لنزالأموال وانتهاك الأعراض والتسلط على الرقاب وتكون نتيجة ذلك كله ثورة العالم ضده ثورة لا أناة فيها كما حصل من أوروبا ضد أديانها حتى أصبحت لاتسمع انصراء دينها ركزا

وأما العقائد التى تنشأ من النظريات الفلسفية والتأملات التصورية فقد فات زمانها وانقضى دورها وإن كان لها من دهماء الشعوب الشرقية نصراء إلى اليوم

هذا حال الناس قديما وحديثا أمام أديانهم وعقائدهم . تأملهم رحمك الله فى تنابذهم وتشاكسهم ، وتدابرهم وتعاكسهم ، وافتراقهم على فرق شتى ومذاهب لاضابط لها ولا حصر ، ثم تدبر فى موضوع افتراقهم ومحل تنازعهم ومهب تخاصمهم وابحث عنه جهدك فان وجدته فأنت فى حل من أن تذهب مذهب ملاحدة الفلسفة الحسية فى الدين وفى أهله ، وان لم تجده فاعلم أن الدين فوق ذلك كله فاطلبه فى كتاب

الله وسنن رسله بفؤاد طهره الاخلاص من الوساوس وعمرته التقوى بروح التواضع

قلنا الدين ميل فطرى فى الانسان يشرق على القلب فيلفته إلى النظر فى الوجود والتأمل فى الملكوت ويهيب به إلى مسارح الجمال والجلال من عالم الشهادة فيمتلىء عواطف تعطفه على أمر جلل وشؤون ليست من طبيعة هذا الجسد ثم تفيض عليه تاراته وأحواله فيخر الانسان ساجداً يناجى قدرة صورته من العدم وقضت له بهذه القيم . ثم يلتفت حوله فيرى الكل مثله ساجداً يناجى مثله تلك القدرة بلسان حاله وقاله لافرق بين جماد ولا حيوان وعلى كل منهم فى الطلب اليه ، والتعويل عليه طابع العبودية وميسم الافتقار والمربوبية وليس ذلك الطابع على الصلد الاصم بأظهر منه على الانسان الأكمل

هذا هو الدين فى أصله ، وكل كتب الله تعمل على تجلية تلك العاطفة وتكميلها ، وكل رسل الله دعوا بقالهم وحالهم الى احيائها وتجميلها ، فمن أين يتسرب التنابذ الى الناس فيما هم فيه سواء وحاجتهم اليه عامة ؟

لا جرم أن التخالف لا يتأتى من الدين ، وانما يتأتى من أهله بغياً بينهم « إن الذين فرقوا دينهم ، وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء » « وما تفرق الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءتهم البينة » .

جاء الاسلام والناس من أمر الدين على مثل الليل الأليل ظلمات بعضها فوق بعض . سيطرة من القائمين به ، واستبداد منهم بأمره ،

وأوهام وخيالات ، فى صورة شروح وتأويلات ، وكسف من الظلمات فى ثوب وحى والهامات ، لكل أمة أديان ومذاهب . ولكل مذهب طرائق ومسارب ، والعامة من جور قادتهم بين أنياب حادة ومخالب خشنة ، لا يصان لهم عرض ، ولا يحفظ لهم عهد ، ولا يهدأ لهم روع ، ولا يسكن لهم جأش ، ولا تطلق لهم حرية فى نظر واستدلال ، ولا يؤذن لهم ؟ فيتفكرون فى حال ومآل ، محصورون فى دوائر حددها لهم قادتهم ، فهم يموجون فيها موجاً ، ويترددون فى أرجائها فوجاً فوجاً . بهذا السبب انقرضت أمم بأسرها وصارت أحاديث وعبر ، ولبثت أوروبا ألف سنة فى حالة جمود وخمود ، لا ينبض لهم عرق بعمل نافع ، ولا يسمع لهم صوت بما يشعر بأثر من حياة ، جاء الاسلام ، والناس هكذا ، فقال . « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم ، وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً ، فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به ، فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ، ويهديهم اليه صراطاً مستقيما » ثم شرع يقرر لهم أصول الحق بذلك البرهان وينير عليهم مسالك الحياة بذلك النور ، حتى تكونت للاسلام دولة محكمة الأراكين فى أقل من ربع قرن ، قامت بما عهد اليها من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر خير قيام ، وجعلت لها أثراً لا يمحى على مر الأيام والأعوام . دعا الاسلام الى الله وحده ، ولفت العقول الى تنور أسراره ، وحكمه فى مصنوعاته ، وحذرها من أن يطوح بها الهوى الى البحث عن ذاته أو التفكر فى ماهيته مقررا أنه

أعلى من أن يدرك بصورة ، واسمى من أن تقف له الأوهام على كيفية . ثم قرر للناس قانون الاعتدال فى الأقوال والأفعال والحركة والسكون ، فقال « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافو ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون»

وبعبارة أخرى شرح صدور العالم للايمان بالله ، والتبرؤ اليه من كل ماعداه ، ثم وجهها للاحسان فى كل شىء على موجب ما تقتضى به الفطرة لا ما تزينه الاهواء وتقتضيه الشهوات ، فقال : « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن » ثم التفت لما بين يدى الأمم من تلك الشروح والمقالات التى جعلها أصحاب كل دين عمدة حجاجهم ومرائهم ، ومستقى جدالهم وخصامهم ، مما جعلوه شرحا لكتب الالهية ، وزعموه بيانا للأسرار الروحانية ، فبين لهم أنها من توليدات الخيال ، وتمويهات الضلال ، وأن المعتمد عليها معتمد على الأوهام ، ومرتكن على الأحلام ، ومستند على الظنون والبطلان ، ومستنيم الى التخرصات والبهتان . ثم نعى عليهم غفلتهم فى تصديقها ، وغباوتهم فى الايمان بها ، وعمايتهم عن رؤية سوءها وضلتهم عن إدراك فسادها . فطالبهم بالدليل تعجيزا وتبكيتا ، وكلفهم بالبرهان تقريعا وتضعيفاً ، فقال « قل هل عندكم من علم ، فتخرجوه لنا » « قل أتعلمون الله بدينكم » « أتقولون على الله مالا تعلمون » « إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس » ومن يكن يتلو القرآن حق تلاوته يجده لم يدع أسلوبا من أساليب الزجر عن الخروج بالدين

عن جادته ، ولا فناً من فنون الردع عن التوسع فى معناه إلا وأتى به على أبين طريقة ، وأوضح حجة وأمر رسوله أن يكون للأمة المثال الكامل فى إسلام الوجه لله والتبرؤ اليه من سائر الوراثات والتقاليد التى جمد عليها الناس جمودا وسنوها دينا تعصبا وضلالا فقال تعالى : « فاقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون » فعز على اسراء الوهم ، وعباد الخيال أن يتبرؤا مما جمدوا عليه من الظنون المتوارثة ، والمقالات المقدسة فى نظرهم ، وكبر عليهم أن يخلعوا هذه الأثواب البالية ، ويلقوا بأنفسهم فى حياض الاسلام المطهرة ليخرجوا طاهرين من دنس الأضاليل ، طيبين تتلقاهم ملائكة الرحمة بالتهليل ، فنابذوا رسول الله وجادلوه وحاربوه وكافحوه ، ولم يتركوا أسلوبا من أساليب الغش والخداع الا أتوا به لاحباط سعيه وابطال دعوته . فقال له ربه ، وهو أعلم بحاله وحال عباده : « قل يا أيها الناس إن كنتم فى شك من دينى ، فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين . وأن أقم وجهك للدين حنيفاً ولاتكونن من المشركين . ولاتدع من دون الله مالا ينفعك ولايضرك فان فعلت فانك إذن من الظالمين . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله ، يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم . قل ياأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى

فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل . واتبع مايوحى اليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين » « قل هذه سبيلى ادعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين » « قل لاأملك لنفسى نفعاً ولاضراً الا ماشاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ومامسنى السوء إن أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون » « قل ماأسألكم عليه من أجر وماأنا من المتكلفين إن هو الا ذكر للعالمين . ولتعلمن نبأه بعد حين » « قل ان ربى يقذف بالحق علام الغيوب . قل جاء الحق ومايبدئ الباطل ومايعيد » « قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً » « قل لاأتبع أهواءكم قد ضللت إذن وما أنا من المهتدين . قل إنى على بينة من ربى وكذبتم به ماعندى ماتستعجلون به إن الحكم الا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين »

نحن اليوم معشر المسلمين ليس لنا أمام القرآن الكريم وآياته الا أحد موقفين : فاما أن نعلم اناخاطبون بها ومكلفون بالجرى على سنتها وان مافيها ممانعى على أهله ، وأوخذ به ذووه من الأخذ بالظن وعبادة الهوى والانحراف عن جادة المؤمنين وشرح كلام الله بالفلسفة الخيالية والجمود على التقاليد الموروثة الخ الخ يجب علينا أن نحترز منه ونهرب عنه ونكون عباد الله على طريقة رسوله وأصحابه ؛ واما ان ندعى اننا غير مكلفين بها وانها إنما جاءت للكفرة والمشركين ، ووجهت للمسرفين والملحدين . أما نحن معشر المسلمين ، فصالحنا

مأجور ، ومذنبنا مغفور له ، والمنحرف منا مشفوع فيه ؛ فتكون كالأمة التى قال الله فيها « يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا »

أما الموقف الأول فهو موقف المؤمنين حقاً الذى يتلون القرآن حق تلاوته ويفهمونه كما فهمه الذين أنزله الله اليهم من قبل فيؤمنون بقوله تعالى مخاطباً لأصحاب رسوله : « ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به » « فمن نكث فانما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما » « ولا تكونوا كالذين نسوا الله فانساهم أنفسهم » « ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار » « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد »

من كان من أهل هذا الموقف قرأ القرآن قراءة المتهم نفسه ، المقر بالتقصير والاساءة ، المعترف بالافراط والتفريط ، فيقف مع كل آية ينظر فى نفسه وعيوبها ، ويبحث فى أدوائه وشعوبها ، ويفحص فى ثنيات أهوائه وفنونها ، ويسبر غور سرائره منقباً عن جراثيم الباطل ومكاريب الغى والضلال حتى يجدها فيطهر ذاته منها بكلام الله الشافى واكسيره الالهى « وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين » « ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » فلا يزالون يقرؤون القرآن ويتفهمونه ويبحثون عن دائهم ويجالدونه حتى يشفيهم الله ويقيمهم على طريقته المثلى ويجعلهم خلفاً لتلك الأمة التى كانت خير أمة أخرجت للناس أو يموتون وهم على هذا الصراط فيكون رجاؤهم فى النجاة عظيما ، وطمعهم فيما عند الله من الكرامة مؤسساً على أمر معقول .

ويكونون جرثومة صالحة لمن يأتى بعدهم

أما أصحاب الموقف الثانى فهم يقرأون القرآن تبركاً وتيمناً فيمرون بما يشعر بنعيم أهل الجنة فيضعون أنفسهم بانفسهم فى الصف الأول من داخليها، ويمرون بمايدل على العذاب فيتبرؤون منه وينزهون أنفسهم عنه، ويلتهون الى الآيات التى تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فيظنون أنهم مؤتمرون بها وأنهم من الجرى على سنتها فى المقام الأول، ويشارفون الآيات التى تأمر بالصبر عند البأس والتذمم للجار والعشيرة والجامعة فيدعون أنهم من المستضعفين فى الارض وأنهم غير مكلفين بشىء من ذلك، ويقرأون الآيات التى تنعى على المفسدين فى الارض وتلقى التبعة على عرفة الكتاب وقرائه وتحثهم على الامر بالمعروف والنهى عن المنكر والصدع بالحق، فيزعمون أن ذلك من واجبات الحكومة وأنها هى وحدها المؤاخذة بكل مايقع من صغير وكبير. وهكذا ترى لهم أمام كل زجر حجة، وحيال كل أمر حيلة، وازاء كل تقريع مخلصاً، والنتيجة أنهم يريدون أن يعيشوا كما وجدوا أنفسهم وآباءهم منغمسين فى الكسل، مشتغلين بالامانى، قانعين بالدون من الحياة، راضين بالذل ماداموا شباعا كاسين. وما وظيفة القرآن لديهم إذن؟ وظيفته أن يقرأ منه كل يوم ورد، أو يحفظ من أوله الى آخره عن ظهر قلب، وان يترنم به فى الولائم والمآتم، وأن يحشد له الناس كما يحشدون لسماع الآلات المطربة، وأن يقرأ بعض سورة لقضاء الحاجات أو نيل رتبة أو وسام أو للدخول على

الحكام الخ الخ !!!! هذا هو حال أهل الموقف الثانى ثم هم يدعون أنهم مسلمون وأكثرهم ممن يصلون الفرائض ويتنفلون ويتهجون ! بخ بخ !

إذا كان محض الفطرة السليمة والنظر المجرد يشعرك بأن هذا الحال ليس بدين ولا هو من الدين وانما هو الهوى بجميع أشكاله ، يتسرب إلى كيان الانسان فيقلب معناه ويسلط عليه قوى الوهم والخيال ويجعله من أسرهما فى أضيق من القفص فيخيل له الدين والدنيا والحياة والممات والوجود والخلود وما يتعلق بها كما يريد الهوى لا كما هو الشأن فى الواقع ، وما هو الا الضعف تمكن من النفس فقيدها ، وسطا على العقل فأسره فى خدمته وصرفه عن وجهته .

الهوى : هذا هو الداء الذى تسرب إلى أهل الأديان فأخرجهم عن صراطها وضللهم عن سبيلها . وجعلهم عرضة لفتنة العلم فى هذا العصر وهيهات أن يسترجعوا دولتهم ، ويستردوا صولتهم إلا بالتغلب على هواهم « ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » .

كان زمان الانسان فيه يرسف فى قيود العبودية للحكام والمسيطرين وكان التعلم بيد طائفة الرؤساء الدينيين لا يسمحون منه لجمهور العالم الا ما لا يضر بنفوذهم ، ولا يؤثر على مراكزهم وقد لبث النوع الانسانى فى هذا الدور ألوفاً من الأعوام ، جاء فى أثنائها الاسلام فخلص منهم أقواماً ووهبهم حقوقهم المسلوبة ، ورد لهم حريتهم المغصوبة ، فعاشوا طائفة من الزمن فى جناب هذا الحال الهنىء ، فخلف من بعدهم خلف ردوا

الحال لأصله واتخذوا الشعوب خولا وعبيداً . وكان ذلك الارتكاس مما اعلم به خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم بعض خاصته ، وشفع ذلك بأنه سيجيء زمان ترجع للاسلام دولته ، وتعلو فى كل صقع كلمته ، ويتقرر فى الأرض الاصلاح الذى جاء به رحمة لهذا العالم الضعيف . ولعل عصر الاسلام هو هذا العصر رغماً عن قول قادة اوروبا انه عصر العلم .

نحن اليوم فى زمان ، الشعوب فيه خلصت من نير الاستعباد ، والحرية فيه أطلقت من الاصفاد ، وصار الانسان بشراً سوياً ، يعرف أن له نفساً مستقلة وارادة خاصة ، وأميالا جسدية ومعنوية ، وأنه حر فى تصرفه ، مستقل فى شؤونه ، وان له الخيرة التامة فى امور حياته وتعلمه وتعيشه واعتقاده ووجهته . وأمم أصبحت كذلك لا تعتقد عبثاً ولا تدين لباطل ، ولا تقف مواهبها فى سبيل وراثة . فالدين الذى سيكون الدين العام بعد هذا الاباء كله هو الدين الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، الدين الذى لا يحتاج فى اثبات حقيته الى دليل . الدين الذى تنساق اليه العواطف بلا دعوة ، بل الدين الذى يقتضيه حال الانسان اقتضاء طبيعياً ، وينشأ فيه نشوءا ذاتيا ، ذلك الدين هو الدين الفطرى أو الطبيعى بلسان أهل العصر ، وهو الاسلام بمعناه الخاص .

ذلك الدين الفطرى ينشأ فى القلب وينمو فيه فيفيض منه على الجوارح والأعضاء روح السكينة والفضيلة أو أثر الكمال والنزاهة ،

لا يقبل التأويل ولا التوسع فيه ولا التخالف فى اصوله ولا التشعب فى معناه . أعنى بذلك أنه فوق العلم وفوق الفلسفة ، لا بمعنى أنه ينافيهما أو يخالف اصولهما . لا ولكن بمعنى انه بطبيعة أسمى منهما . فالدين ميل فطرى عام مالك لسائر أهواء الانسان وحاكم على جميع ملكاته . وأما العلم والفلسفة فأمران وضعيان ، قابلان للتكمل فى كل آن . وكل امة تتجارى على اخضاع الدين للعلم تكون قد قلبت دينها علماً ، ومتى صار الدين علماً صار قابلا للأخذ والرد ، ومحلا للتنابذ والتخاصم . لأن لكل حزب ولكل امة ولكل جيل علما خاصا ومدارك متخالفة فكيف يجمع الكل على علم واحد . ثم ان الامة التى تجعل دينها علماً تعرضه للتبدل والتغير على مر الاجيال وترقى المدارك ومن العبث أن نحاول حمل الناس فى القرن الخامس والسبعين مثلا على تقديس علمنا الحالى ونحن فى القرن الرابع عشر .

ليس بين يدى العالم اليوم كتاب سماوى حافظ لصبغته الالهية الأصلية وصائن للدين مركزه السامى ونقاءه الفطرى ، ونزاهته عن العلم والتاريخ والخيالات الا هذا الكتاب الكريم القرآن الذى أوحاه الله الى رسوله محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم . والأمة التى تدعى أنها أمة هذا الكتاب وشيعة هذا الرسول الكريم يجب عليها أن تقوم على الصراط الذى نهجه لها ذلك الكتاب وعلى السنة التى خطها لها ذلك الرسول الأعظم . أما الجمود على العوائد البلدية والتقاليد القومية وتأويل الكتاب او السنة فى سبيلها وصرف معانيهما لتنطبق

عليها فليس من الدين فى شىء بل هو مما يجب أن يتنزه عنه كل منتسب الى هذا النور المبين .

مذهب التأويل والمحاولة يسمح للانسان أن يثبت وجود الشىء فى ضده ويبرهن على عدمه فى مصدر وجوده . أمارأيت ان القدرى يثبت لك مذهبه من القرآن فيأتى الجبرى فينفى له مذهبه ثم يستدل له على صحة مذهب نفسه من ذات القرآن. وهكذا فعل التناسخى والمشبه والمجسم الخ الخ هل بعد هذا كله يصح أن نترك صريح الكتاب والسنة وظاهر حال صدر هذه الأمة ثم نرمى بأنفسنا فى بحار التأويلات والمحاولات لنثبت لانفسنا صحة ماألفناه فى بلدنا وتعودناه فى قومنا وما معنى اسلامنا اذن ؟

الاسلام أن تبرأ الى الله من علمك وحولك وموروثاتك وما قلت وماعملت وماتخيلت وماأملت ، مسلما وجهك اليه مجردا روحك له ، محازيا بروحك وهى على هذه الصورة النقية وجه مبدع الكون وقيومه ليمدك من نوره بما ينير عليك أمر الحياة وأمر الممات، ويهبك من روحه بما يهديك الى أعدل صراط . الاسلام لله أن تدع العلم وأصوله والفلسفة ومسائلها والعادات ومآخذها والأديان وتخالفها والأمم وتنابذها وأهواءك ومواطنها والوجود ومافيه ثم تتوجه بقلب خاشع وضمير صاف ونفس نقية الى قيوم السموات والأرض ، فارا اليه من الأغيار ، ملتجأ الى جنابه من دعوى الانانية والاستقلال ، معتصما بحضرته من التلونات البشرية والأحوال ، راغباً اليه أن يوفقك

لتعلم ويهديك فيما تعلم حتى تستوجب رضاه وتستحق كرامته فى دنياك وأخراك . هذا هو الاسلام ولامعنى له الا هذا وهو دين سائر الأنبياء قال الله تعالى حكاية عن ابراهيم عليه السلام بعد أن نظر فى النجوم واستعرضها وقال عن بعض اجرامها « هذا ربى فلما أفل قال لاأحب الآفلين » الايات . قال ابراهيم عليه السلام عقب ذلك كله « انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا ومأأنا من المشركين » « اذ قال له ربه اسلم قال أسلمت لرب العالمين . ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يابنى ان الله اصطفى لكم الدين فلاتموتن الا وأنتم مسلمون » « ان الدين عندالله الاسلام وماختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم » « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » وقال نوح عليه السلام كما حكاه الله عنه وهو قبل ابراهيم عليه السلام : « فان توليتم فما سألتكم من من أجر ان أجرى الا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين » وقال سليمان كما نقله الله عنه « وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين » وقال الحواريون: « آمنا واشهد بأنا مسلمون » وأمر خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم فيما حكاه الله عنه أن يقول : « قل انى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين وأمرت لأن أكون أول المسلمين » « قل اننى هدانى ربى الى صراط مستقيم . دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين . قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين» . « وقالوا كونوا هوداً

أونصارى تهتدوا . قل بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين . قولوا آمنا بالله وماأنزل الينا وماأنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وان تولوا فانما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم . صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون . قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون »

هذا هو الدين الذى أمر الله به سائر النبيين والمرسلين ولم يزل يوحيه الله الى صفوة خلقه جيلا فجيلا حتى خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم وهو الذى آمن به أصحابه صلى الله عليه وسلم بلا تأويل ولا تحويل . وان مجرد اسمه ليدل على ماقلنا بلا تردد ولاشبهة

هذا الدين الذى هو الاسلام الى الله أى الاستسلام له والتجرد اليه والتبرؤ أمامه من الحول والقوة والعلم والأديان والاغراض والأعراض والتلونات والأوهام والآمال مع محق كل دعوى، والتخلى عن كل انانية هو الدين بمعناه الخاص وهو الحال الذى سينتهى اليه العالم بعد أن يسأموا مما هم فيه من الخلاف فى العقائد والتنابذ فى المذاهب والتمارى فى الأصول ، وسيكونون عباد الله اخوانا ، دينهم الحق ، وديدنهم الصدق ، وقبلتهم وجه مولاهم الذى لايكيف بكيف . ولا يدرك بصورة ، وشغلهم الرقى فى كل شىء . «ان الذين فرقو دينهم وكانوا

شيعاً لست منهم فى شىء »

اذا أردت أن تعرف معنى الاسلام بمثال محسوس فاليك : جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس كما هم اليوم مذاهب فى الدين ، وأحزاب فى الملل ، لكل منهم أصول خاصة جعلوها معتمد مذهبهم ، وقواعد اصطلحوا عليها اتخذوها مرجع ملتهم ، فجاء النبى صلى الله عليه وسلم فقال ما فحواه ووجزه : أيها الناس ماهذا الاختلاف فى فطرة أنتم فيها سواء ؟ ماهذا التجادل فى الخالق وهو رب العالمين أجمعين ؟ ماهذا التفرق فى العقائد وكلكم سواء فى قصور المدارك ؟ ماهذا التمارى فى الكتب السماوية وهى كتب الله الى الناس كافة ؟ ماهذا التحاسد ماهذا التحاقد ماهذا التعصب ماهذا الجمود على الباطل ، ماهذا التقديس للآباء ماهذا الاستبسال فى الدفاع عن التقاليد الفاسدة؟ فروا الى الله أيها الناس مما أنتم فيه من هذه الاوحال المورطة والاحوال المهلكة . هلموا الى النور الالهى وخلصوا أنفسكم من هذه الظلمات المتكاثفة . والغياهب المتراكبة . الى عباد الله فقد اشتد بكم كلب الفتنة ، واستشرى فيكم داء العماية فقد أوحى الله الى اكسير شفائكم ، وطب أدوائكم .

— الى أين

— الى الله وحده أما يرضيكم أن تصلوا الى الله وتعتصموا بجنابه وترتقوا فى نعيم كرامته ورحابه ؟

— كيف ذلك وأين نحن من هذه الخطوة العليا والشرف

الصحيح

اخلعر عنكم هذه الآصار الوراثية . ألقوا عن ظهوركم هذه الاحمال المردية . نقوا أفكاركم من هذه المذاهب المتناقضة والاوهام المتعارضة . فانها كلها أحلام فى أحلام وكلام فى كلام والله من وراء ذلك كله « واذا سألك عبادى عنى فانى قريب » فلا تجعلوا هذه الكسف المضله بينكم وبين ماهو أقرب اليكم من حبل الوريد .

— وماهو الدين الذى تأمرنا به . هو الاسلام اليه والتجرد له وكفى بهذا دينا قيما . ألا يكفيكم من الدين أن تسلموا لله نفوسكم وأرواحكم وعقولكم واهواءكم وهممكم وهو خالقها ومصرفها ؟ بدل أن تسلموها ليد أوهامكم وأحلامكم ورؤسائكم فيضلونكم بالاباطيل ويغشونكم بالاضاليل وينشئون لكم خيالات وجهالات ويوهمونكم أنها دين وماهى الاوساوس اقتضاها ، لهم قصور علمهم وضعف ادراكهم . ومما يدلكم على أنها بهتان فى بهتان ، وشىء ماأنزل الله به من سلطان ، إن لكل أمة دينا خاصا ووساوس خاصة تدعى أنها هى الحق وماعداها الباطل . فبدل أن تسلموا أرواحكم لكهانكم وأهوائكم سلموها لبارئكم وهو أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين — وماهى العقائد التى تأمرنا بها ؟ — « قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم ، لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » تؤمنون بجميع ماأرسل الله من رسول وما أنزل

عليهم من كتاب ايمانا اجماليا ، أما التفصيل فلم تكلفوا به لأنه مما لا يفيدكم ، لاسيما وقد جالت أيدى التحريف بنصوص الكتب القديمة فادخل اليها ما ليس منها وقد تدارك الله ذلك بتضمينها فى هذا القرآن فهو الكتاب الجامع لسائر كتب الله المحفوظ من التبديل والتحريف بأمره سبحانه وتعالى « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون »

ـ « فما بال القرون الأولى ؟

ـ قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى» «تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون »

ـ وماذا تأمرنا به من مكارم الأخلاق ورياضة النفس ،

ـ « انما حرم ربى الفواحش ماظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » « وذروا ظاهر الاسم وباطنه » « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون » « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » . « ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين »

ـ ماذا تأذن لنا أن نأخذ من الدنيا ؟

ـ « ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك » « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى

للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » « من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة »

« ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة »

ـ ماذا لنا لو آمنا بك

ـ «وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » « انا لا نضيع أجر من أحسن عملا »

ـ ماذا علينا لو لم نعمل بما نقول ؟

ـ «انى توكلت على الله ربى وربكم مامن دابة الا هو آخذ بناصيتها ان ربى على صراط مستقيم فان تولوا فقد أبلغتكم ماأرسلت به اليكم ويستخلف ربى قوما غيركم ولا تضرونه شيئا ان ربى على كل شىء حفيظ » .

ـ ان فى العالم اما تكذب بالأديان ، ولا تؤمن بالرحمن وتزعم أن العلم كاف فى قيادة الانسان ، وإيصاله لأعلا درجات العمران ،فما بال هؤلاء ؟

ـ «فاذا مس الانسان ضر دعانا ثم اذا خولناه نعمة منا قال انما أوتيته (على علم) بل هى فتنة ، ولكن أكثرهم لا يعلمون . قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون فأصابهم سيئات

ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين » .

ـ ان الغفل منهم يدعون أنهم آمنون مطمئنون . راقون متدرجون لم يأتهم العذاب الموعود ، ولا اليوم المشهود

ـ « وان يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير » .

«ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » .

هذا هو الاسلام فى نقائه ، والايمان فى صفائه ، وهو كما ترى التجرد لله من كل ماسواه والتوجه اليه بقلب نقى خال من كل آثار العلم والوراثات والخواطر كأنه قذف به لهذا الكون من ساعته لكيلا يكون بينه وبين خالقه حجاب من هذا العالم الناقص . لان الانسان لو ادعى انه مسلم وتوجه الى الله وهو مشحون الذاكرة بعلم تعلمه أو بمعتقدات جمد عليها أو بوراثات قدسها واستنام اليها فيكون قد أقام كل تلك الأشياء حوائل بينه وبين الله فلا يخلص فؤاده لله أبدا مادام كذلك . ولن يرى عمره الا تلك الاشياء التى جمد عليها فيعيش ويموت وهو لم يتغير ، وليس هذا معنى الاسلام الذى هو دين كافة الانبياء ، بل معناه كما يدل عليه اللفظ ونص الكتاب الفرار الى الله من كل علم وعقيدة وراثية ، ومن كل خاطر وهمسة ضمير ، حتى

يخلو مابين الله وعبده فيفيض الله على عبده مايشاء من علم وحكمة . وبهذا الاعتبار فالاسلام نهاية ضرورية للانسان المستقبل لا بالبرهان والاستقراء ولكن بالغريزة الطبيعية . فان الانسان متى اعتقد الشيء وجمد عليه ثم لاقى من جرائه مايكشف له أنه مغرور به مغشوش فيه ، ثم اعتقد غيره فلاقى كما لاقى أولا سئم الظنون كلها وعاداها وتكون نتيجة ذلك كله الترفع عن التظنى والاقبال على المبدع الأقدس خالى الذهن من كل شيء مقهور على حاله هذا بالدافع الطبيعى الصحيح . من يتأمل فى حال أمم أوروبا اليوم يجدهم يعادون الأديان وينابذونها ويكتبون ضدها ولهم فى كل يوم عمل على تخليص العالم منها ، يرى المتأمل هذا فيظن أن أوروبا تتسفل وتتدلى والحقيقة أنها سائرة نحو الاسلام بدافع الطبيعة ذاتها وكلما أوغلت فى معاداة العقائد الوراثية تقدمت خطوة إلى امام نحو الاسلام مقهورة على أمرها . وهذا معنى قوله تعالى « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد »

اذا فهمت أن معنى الاسلام هو هذا فهمت معنى قوله صلى الله عليه وسلم (كل مولود يولد على الفطرة وانما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) ومعناه أن كل مولود يولد خالى الذهن من كل عقيدة وراثية ومن كل أثر من آثار التعصب لشيء دون شيء ، أى نقى الوجدان طاهر الذاكرة من كل أثر ، ولما كان ديننا دين الفطرة وهو الاسلام ، كان معنى الاسلام كما قدمنا أن يتوجه الانسان لمولاه خالى الذهن

من كل أثر من آثار الوراثات والجمود كأنه خلق من ساعته لكيلا يكون بينه وبين الله حجاب . هذا ماقلناه وهو معنى الحديث الصريح . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (وانما أبواه يهودانه .) الخ أى أن الطفل يولد مسلما على فطرة وإنما يأتى أبواه بعد ذلك فيلقنانه دينهما وقواعده وشروطه الخ فيخرجانه عن الفطرة وينشئان له نزوعا إلى الجمود والتعصب من صغره فيشب وبينه وبين الله تلك الحجب التى أقامها أبواه بأيديهما .

هذا هو معنى الاسلام الذى كان رسل الله كلهم والذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وأداه للعالمين بلا تأويل ولا تبديل ، وهذا هو الدين الذى قام به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وملكوا به الأرض وسادوا الملوك والقياصرة ، إذن فما بال الفرق التى نشأت فى الاسلام وكانت سبباً فى تشتيت أهله ؟ الجواب ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كلها فى النار الا واحدة) وما تلك الواحدة ؟ (هى ماأنا عليه وأصحابى) وما تلك الطريقة التى كان عليها صلى الله عليه وسلم وأصحابه ؟ هى الاسلام بالمعنى الذى قررناه لك هنا مستندين فيه على القرآن ، وهى مافهمه أوائلنا من قبل

هذا هو الاسلام الذى جعله الله دين رسله واصفيائه ومقدمة لافاضة أنوار علمه عليهم ، وهذا هو الأصل الذى نرجوا أن يرجع اليه العالم كله لأن الفطرة السليمة تتأدى اليه من تلقاء نفسها ويرضاه العقل بمجرد تصوره بلا تردد . فالاسلام بهذا المعنى غير قابل للخلاف ولا

للتأويل ولا للتحريف فلا يمكن أن تتفرق فيه أمة الا اذا خرجت عنه إلى غيره وزعمت ان ماهى فيه هو الاسلام ظلما وزورا

ان قيل فما ذلك الذى طولبنا بالتصديق به فى الكتاب الشريف من الرسل والكتب والملائكة والنبيين والآخرة والقضاء والقدر . قلنا هذا هو الايمان ومارأيته هو الفرق بين الايمان والاسلام وقد عبر الله تعالى عن هذا الفارق بأجلى عبارة فقال تعالى : « قالت الاعراب (آمنا) قل لم تؤمنوا . ولكن قولوا أسلمنا . ولما يدخل الايمان فى قلوبكم » وذلك أن نفرا من بنى أسد قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سنة جدبة فقالوا آمنا ، فرد الله عليهم دعوتهم بقوله تعالى : « لم تؤمنوا » لأن الايمان اعتقاد بالقلب لم يحصل لكم بعد « ولكن قولوا أسلمنا » أى وجهنا وجهنا لله وتركنا التعصب لأصنامنا وكهاننا وموروثاتنا وتوجهنا اليك فاهدنا

هذا هو الفرق بين الاسلام والايمان على الطريقة القرآنية والاسلوب المحمدى ، فكتاب الله يدعونا دعوتين : دعوة للاسلام أولا ، وهى أن نخلع عن أعناقنا تلك الربق الوراثية ، ونرمى عن أكتافنا تلك الآصار التقليدية ، وأن نرفع عن عقولنا وأفئدتنا تلك المضاغط الوسواسية الخرافية ، وأن نتوجه لله بالقلب والروح طاهرين من كل خاطر عقيدة ، أو أثر وراثة ، أو همس تعصب ، لتتحقق عبوديتنا وتتميز حريتنا ليفاض علينا مانحن أهله من روح وليصادف الفيض نفسا نقية وفؤادا طاهراً . لأنا لو توجهنا الى الله تعالى بغير هذه الطريقة

من التجرد والتطهر فنحن انما نتوجه لافكارنا وعقائدنا وخيالاتنا فنزداد فيها جموداً وعليها رسوخاً ، ولا ينفذ الينا من النور الالهى الذى توجهنا اليه بزعمنا شيء . لاننا لم نتوجه اليه إلا وهما ، وقد توجهنا فى الحقيقة لتلك العقائد الوراثية « ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور »

هذا من بعض أسباب تأخرنا عن آبائنا وعدم انتفاعنا من الدين بما كان ينفعهم ويحييهم جاء الاسلام لآبائنا وقد كانوا من الوحشية والجهالة والتشتت والفوضى فى أنزل المواطن فخلعهم عن هذه التقاليد الوراثية كلها وجعلهم يتوجهون لله توجها صادقا فحظوا من النور والامداد بما جعلهم مثالا يضرب فى تاريخ العالم ، ونحن مع وراثتنا للاسلام ودعوانا اننا من أهله ومن العريقين فيه أصبحنا لا ننتفع من عوامله المرقية عشر ما كان ينتفع منه آباؤنا * وماذلك الا لأننا غفلنا عن معنى الاسلام وصار الرجل منا يصلى لأنه عرف أن الصلاة فرض على كل مسلم ، فيصلى الركعات كما يجيء لا كما يجب وينصرف الى لهوه ولغوه منتظرا ان يعود لأمته مجدها وسؤددها . ومادرى هذا المسكين ان هذه الصلاة هى أقوى باعث بعث العرب الى الظهور بما ظهروا به من الجلالة والفخامة بما كانت السبب فى دوام المدد عليهم من قبل خالقهم جل وعز . لأنهم كانوا اذا صلوا صلوا مسلمين وجوههم لله ، مجردين أرواحهم وقلوبهم له ، قياما امامه كيوم ولدوا على الفطرة لامتعصبين لشيء ولا جامدين على وراثة ، ولا واقفين مع هوى ، بل مستسلمين له مقرين بالعجز والقصور والجهل والفقر ، عاملين

جهدهم ، على أن يظهروا بمظهر المربوب امام الرب ، والمخلوق امام الخالق ، والموجود امام قيومه . فكانوا يتلقون وهم على هذه الكيفية من افاضات نوره واشراقات وجهه وآثار علمه وهدايته مايعجز عن تصويره القلم ، ولا يكاد يدركه العقل ، ولولا أن أمر انتقال العرب فجأة من حالتهم الأولى الى حالتهم التالية محسوس مشاهد لعد بعض الناس ما نقوله عنهم شعراً . ومن كان يقرأ القرآن حق قراءته ويستعرض أمام عينيه الآيات الكريمة الحاثة على اقامة الصلاة (١) حتى فى مواطن الحرب والضرب يعلم أنها عماد الدين وروح الاسلام وسبب من الأسباب الأولية لسرعة رقى المسلمين الأولين . وليس هذا موطن التفصيل .

أنظر لهذه الصلاة التى كان يقيمها أباؤنا الأولون بهذه الروح العالية ، مستسلمين فيها لله من كل حول وقوة وعلم وتقليد ووراثة ، ثم انظر اليوم للرجل منا يصلى وهو غير عالم من أمر هذه الصلاة الا أنها فرض فرض على كل مسلم ، فيتوجه بها لله وهو محشو الفكر والذاكرة والقلب بكل مارآه وماقرأه وماسمعه وماعلمه وماعمله ويعمله وسيعمله ، مملوء النفس بالدعاوى والمزاعم والأنانية ثم يزعم أنه صلى ، ويصلى هكذا سبعين سنة ولا يذوق من صلاته شيئا ، لأنه صلى على طريقة الأديان المحرفة لا على طريقة الاسلام ، التى هى التوجه لله

(١) معنى اقامة الصلاة تقويم أركانها واتقان الاتيان بها . لا مجرد الصلاة كما يتوهم بعض الناس فان لفظ (اقامة) مأخوذ من أقام الامر أى عدله وأتى به على حقيقته .

كيوم ولدتك أمك متجردا من كل جمود وتعصب وهوى وعلم معترفاً بالقصور طالباً للهداية ، راجياً للكمال بطرف منكسر ، وقلب منفطر ، ونفس يتصعد ، ومهجة تتوقد حتى يصح أن يقال انك عبد معبود ، وحتى تكون عرضة للرحمة والعطف . أما لو دخلت المحراب وأنت ظان بعلمك الظنون . ودائر فى محيط مداركك القاصرة ، وحابس نفسك فى دوائر معلوماتك وموروثاتك الضيقة ، وموهم نفسك انك على شىء فماذا ترجى أن تنال ؟ لاجرم يكلك الله الى نفسك ، ويتركك لعلمك ويرقيك على قدر اشتغالك به ، ولكن ليس هذا من الاسلام فى شىء .

قلنا ان الذى قررناه هو الفرق بين الاسلام والايمان . والآن نقول ان الامور الايمانية الستة وهى الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر ليست خاصة بدين الاسلام فقط ، بل هى أسس كل دين وقاعدة كل فلسفة قديمة ومحدثة فهى مسائل العالم كله ، وللانسان فى الايمان بها طريقان : طريق الاسلام وهو طريق الانبياء والمرسلين وطريق الفلسفة والكلام ، أما طريقة الاسلام فهى أن تؤمن بها كما جاءت فى القرآن المبين على لسان خاتم النبيين بلا تأويل ولا تحريف ولا زيادة ولا تكلف ولا تعسف ، واثقا بصدق ناقلها وأمانة مؤديها فتكون من « الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا » أى على طريقة أصحاب رسول الله مكتفيا بنص الكتاب وصحيح السنة ، معتقدا أن الزيادة والنقص فى أوامر الله ونواهيه

خروج عن جادة الاسلام وتورط فى الضلال ، ملتفتا لأسرار روحك ومستودع مواهبك ، عاملا على اعلاء كلمة ربك واشادة صرح دينك بلا تفهيق ولا ثرثرة ، ولا خوض فى مجاهيل ، ولا افاضة فى مساتير .

وأما طريقة الفلسفة والكلام فأن تستورد على عقلك الشكوك والشبه . وتهم بالرد عليها ثم تنشيء مايفسد ردودك وتستأنف الكرة عليها ، ثم تجمع تلك الشكوك واجوبتها والمسائل وحلولها فى كتب ضخمة وتزعم انها الاسلام وتكون بذلك قد فتحت الباب لكل متكلم ولكل صاحب مقالة فتكثر المذاهب والأقاويل والشروح وينتهى الحال لكثرة الخلافات باسم الدين بل باسم الاسلام ، فتروج سنة الكلام والثرثرة وتضعف سنة العمل لانهما ضدان لايجتمعان ، فيستحيل الدين إلى كلام فى كلام ، ومابليت أمة بالكلام وتركت العمل إلا انحلت قواها وتحللت عناصرها وتراخت أواخيها وصارت طعمة لغيرها

يقول قائل وهل تريد أن نعتقد تلك المسائل الست بلا دليل على سنة رؤساء الأديان المبدلة ؟ نقول أوتظن أن الله تعالى الذى قال « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى » أتاك بتلك المسائل وأمرك بطلب الدليل عليها ولم يأتك بالأدلة عليها فتريد أن تستعين بالفلسفة والكلام على ايجادها وهو سبحانه القائل « مافرطنا فى الكتاب من شيء » . اعلم أن الله سبحانه وتعالى قد بعث لك الدين كاملا وأقام لك على أصوله من الأدلة أقصى ما يمكن الوصول اليه بوسائل هذا العقل ، فان جاش فى صدرك بعدها شيء فذلك من ذبذبة النفس

واضطرابها بتسلط قوة من قوى الشيطان عليها فلا نبحث عن دوائه فى الفلسفة فليس فيها وراء برهان الله مرمى ، بل ابحث عنه فى القرآن ذاته تجد دواءك فيه بالنص الصريح كقوله تعالى « ومن يوثق بالله يهد قلبه » « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون » هذا طريق مداواة الشكوك والشبه ، وما سلك طريق الفلسفة شاك الا وازداد عماية فى شكوكه وتوغلا فى شبهه « ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور » .

لهـــذا السبب استاء أئمتنا الكرام فى عهد المأمون من دخول الفلسفة اليونانية الى معاهدهم العلمية فقد رأوا رضى الله عنهم الخطر وهو بعيد ، ولكن لم يغن استياؤهم شيئا فجاءت الفلسفة بخيالاتها وخرافاتها لابسة ثوبا منطقيا جدليا فتانا فهام بها الناس ومزجوها بالدين فأصبح دينهم فلسفة خيالية فصار مثلها عرضة للأخذ والرد والشبه والشكوك والقوة والضعف ولم يزل الحال هكذا حتى ضعف أمر الدين بضعف أهله فوصلنا لليوم وهو عصر المدنية الغربية والشبه الطبيعية ، والعلوم التجريبية الحسية ، فلم نلبث الا قليلا حتى رأينا حزب الدين أسفل سافلين ، واتباعهم طعمة للآكلين . ينقصون ولا يزدادون يلحدون ولا يهتدون ، يؤخذون ولا يرجعون ، حتى انتهى بهم الحال لأن يظنوا بالدين الظنون ، بل حتى قال قائلهم : ضل المتدينون ، انهم لمفتونون ، أما يعلمون أن زمن الأديان فات ، وأن الجامد عليها

جاهل مفتات ،

هذا كله حاصل ومحبو الدين فى حيرة ، وأكثرهم قد أباس حسرة ، ليأسه من النصرة ، وعودة الكرة ، ومنهم من طلب الدواء لهذا الحال المريع ، بوسائل الزجر والتقريع . وكل ذلك ضاع سدى ، لأنه كائن على غير هدى . فان مانحن فيه أثر مدنية الغرب وعلومه على أحوالنا الاقتصادية وقوانا العقلية ، وقد توغلت تلك المدنية وعلومها فى أحشاء بلادنا وتشبعت بعقولنا وصارت عمدة أعمالنا وأمورنا لدرجة أصبحت كل محاولة فى صدها عبثا وكل جهد يصرف فى قطع الطريق عليها باطلا . ولما كانت تلك المدنية قامت بمنابذة الأديان المحرفة ، ومعاداة العقائد المبدلة ، فلا مناص لنا من التأثر بآثارها والالتياث بأقذائها ، فلا ينجينا من شرورها والعبودية لأهلها الا مقارعة أصولها المضللة بأصول أقوى منها كما هو شأن قانون المغالبة فى عالم الطبيعة والنواميس ، ولا يقوى على ذلك الا الاسلام كما جاء به القرآن وبلغه محمد صلى الله عليه وسلم وهو ماقررناه لك فى هذه العجالة

من كان دينه الاسلام كما قررناه هنا من القرآن فلا يؤمل فقط فى مقاومة تيار التعاليم الالحادية الأوربية بل يطمع أيضاً فى احالة أمم الغرب كلها الى الاسلام بمجرد معرفتها إياه .

هنا يقول قائل : بما ذا نحكم على مقالة حضرة كاتب مبحث الخوارق ؟ بصفتى مسلما على الطريقة المحمدية ، أقول انها رأى من

الآراء وقول من الأقوال ، لا علاقة لها بالدين أصلا ، ولئن كان حضرة الكاتب كتب ذلك وقرره ، ففي الكتاب من هم واياه على طرفي نقيض ، ور بما استدلوا على صدق مذهبهم بأكثر مما استدل ووجدوا من الأخبار ما يكون على دعواهم أدل ، ولكن هل هذا من الاسلام ؟ هل فعله نبي الاسلام ؟ هل ذكره كتاب الاسلام ؟ هل قوله شرط في الاسلام ؟ هل فعله قاعدة من قواعد الاسلام ؟ لا بل هذه كلها أقوال متعارضة ، وأقوال متناقضة اختلف فيها الناس قديما وحديثا وفي كل ملة ، وكان سبب اختلافهم في المدارك والمشارب ، سببا لاختلافهم في المدركات والمذاهب ، ولكن الدين وراء ذلك كله . الدين أن نعتقد بالله ورسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر والقضاء والقدر على ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ، أما ما زاد على هذا من الأقوال والدعاوى ، فآراء لا يكلف بها مسلم ، ولم تقم لها دعوة في دين الله ، وليست هي من الأمور التي تقام له دعوة مستقلة ، بل هي من الأمور التي لك أن تعتقد صحتها وعليك عهدتها ومسؤليتها ، ولك أن لا تصدقها ، وليس عليك سؤال فيها يوم الحساب ، وليس لأحد بوجه من الوجوه أن يقرر أنها من الدين أو أن اعتقادها شرط من شروط اليقين ، وانما الدين : هو ما جاء في القرآن وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

﴿ ملاحظاتنا على مقالة حضرة الكاتب (١) ﴾

نحن لا نقصد بهذه الملاحظات الجدل ، وانما نقصد زيادة بيان معنى الاسلام على الطريقة القرآنية والأسلوب المحمدى ، وليعلم الناس معنى قولنا . ان الدين الذى كلفنا الله به ، هو ما بين دفتى المصحف الذى عمل به رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه أما ما زاد عنه من باب التوسع والتأويل ، فآراء وأقوال ليست من الاسلام ، وانما هى آراء ناس عورضت بمثلها وحصل الأخذ والرد فيها قرونا طويلة ، ولم تزل لليوم عرضة للقيل والقال وكثرة الجدال لا نقول لمن عمل به كافر أومشرك ، لأن هذا الحكم من حق الرب سبحانه وتعالى ، فهو عالم بالسرائر ، وانما نقول ان من يعمل بها بعد ما يثبت له أنها زيادات وآراء ، فعليه تبعتها وهو وحده يسأل عنها ، ولا ينجيه قوله إنى رأيتها فى كتاب أو سمعتها من أستاذ ، فان الله لا يقبل هذه الدعوى من أحد ، فليختر المسلم لنفسه خير السبل « ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » .

أنا هنا أنبه قارئى بأنى ممن يعتقد أن لله أولياء منحهم من مواهب الكرامة مقاوم لايحوم حولها الخاطر ، ولايتوهمها الا من وصل اليها ، واعتقد أنه قديصدر عنهم من خوارق العادات مايحير المدارك ويدهش الفكر ، ولكنى من جهة أخرى اعتقد أن هؤلاء الأفراد

(١) انظر صحيفة (٢٧٨)

مانالوا مراكزهم هذه الا بسيرهم على خطة رسول الله خطوة بخطوة ، وبعملهم بكتاب الله على قدر جهدهم . لاأرفعهم عن مستوى البشرية ، ولا أغالى فى وصفهم بمالم يصفهم الله به فهم لايدعون ولا يستغاث بهم ولا يتخذون واسطة بين الله وعباده ، وكل مالهم علينا أن نعتبرهم قدوة صالحة وأسوة حسنة . هذه عقيدتى فيهم . أما مايعمله العامة من رفع القباب على صلحائهم وإيقاد السرج على قبورهم والتوسل والاستشفاع بهم وهم فى قبورهم ، فليس من الاسلام ولا مما وصى به نبى الاسلام ولا مما كان يتوهمه الناس توهما فى صدر الاسلام . لا أقول لمن عمله انه كافر أومشرك فتلك القباب ليس لى أن أصم الناس بها وإنما أقول أن من يفعل ذلك فهو على غير صراط محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى غير طريقة القرآن الذى يهدى للتى هى أقوم ، وأنها اراء ناس على من يقلدهم فيها العهدة والتبعة والمسؤولية « كل نفس بما كسبت رهينة »

إن كنا نعتقد أنا أهل الاسلام وحزب الرحمن ، ومخاطبون بهذا القرآن وان مافيه مما بكت الله عليه أهله ، وعاب لهم فعله ، يقع علينا مثل وزرهم إن فعلناه ، فها هو القرآن بازاء ماقاله حضرة الكاتب : اليك :

قال حضرته : « وكما أنه لا يقال لمن اتخذ الأسباب الكونية العادية واسطة فى أحواله وشؤنه المعاشية كافر أو مشرك كذلك لا يقال لمن اتخذ (خوارق العادات) واسطة مشرك أو كافر أيضاً » نقول أما اتخاذ

الأسباب الكونية العادية واسطة فى الأحوال المعاشية فمنصوص عليه فى القرآن والأحاديث قال تعالى : « ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الارض مراغماً كثيراً وسعة » « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » « فانتشروا فى الارض وابتغوا من فضل الله » « وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (سافروا تصحوا وتغنموا) (ماأعال من اقتصد) ولكن ماقاله حضرة الكاتب من قوله (اتخاذ خوارق العادات أسباباً) فلم يأت فى الكتاب ولا فى السنة . فهل يستطيع أحد أن يقول انه من الدين بعد هذا . لا ! انه ليس من الدين ولكنه رأى لك أن تعتقده وتحتمل تبعته وعهدته ، ولك أن تقول كما قال الملائكة « سبحانك لاعلم لنا الا ماعلمتنا »

قال حضرة الاستاذ : « الاستغاثة بالنبى صلى الله عليه وسلم وباخوانه النبيين والمرسلين وبالاولياء الصالحين هى عبارة عن سؤال الشفاعة منهم لقضاء الحوائج ورفع النوائب وتفريج الكروب ، ولا ريب أن كل من يناديهم من المؤمنين فهو علم أنه لا يعبد الا الله ، ولا يفعل مايريد ويمنح مايطلب الا الله وليس هؤلاء الاشفعاء فقط . »

نقول أما قوله الاستغاثة بالنبيين والاولياء الصالحين ، فلم يسمع مثل هذه اللهجة فى صدر الاسلام ولا فى عصر التابعين ولا من بعدهم . أما القرآن فخلو منها بالمرة وكله دعوة لتمحيض الاستغاثة به وحده ، وزجر عمن يدعو لكشف الضر غيره ، قال تعالى : « فلا تدعوا مع الله أحداً » « أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب »

ولو كانت الاستغاثة بالانبياء والمرسلين من الدين لجاءت ولو آية واحدة تشير الى ذلك وقد حكى الله دعوات النبيين والصالحين ،وتوبة التائبين من عباده المقربين ، واستغاثات المنيبين من أوليائه الطيبين فلم يأت فى خلال دعوة من تلك الدعوات مايشم منه أن نبياً أو صالحاً أو تائباً استغاث بغير الله فى كشف ضره وتفريج همه وقضاء حوائجه ، وقد أمر الله بالدعاء والتوبة فى مواطن كثيرة فلم يشر الى الاستغاثة بغيره أبدا وهذه سنة رسول الله من أولها الى آخرها لا يوجد فيها مايشير الى أن الاستغاثة بغير الله جائزة لأحد من الموحدين،ولم يسمع فى كلام أحد الصحابة من الأنصار والمهاجرين ولا فى كلام التابعين ولا من تبعهم حدوث الاستغاثة بأحد من الناس دون الله . وهذه كتبهم بين أيدينا ومقالاتهم وخطبهم فى أشد المواقف وأحرجها ولم نسمع بأن القائد فلاناً المحصور صاح اغثنى يافلان أو أدركنى أو ساعدنى أو أمدنى ، بل كان طلبهم كله موجها لخالق الكل وحاكم الكل ، انما غاية ماورد من طريق الآحاد جواز التوسل بالنبى صلى الله عليه وسلم كقول القائل « اللهم انى أسألك برسولك محمد أن تكملنى وتهدينى » وأنت ترى التوسل غير الاستغاثة اذ الاستغاثة تقتضى نداء المستغاث به والترامى بين يديه ، أما التوسل فلا يستدعى دعوة المتوسل به .

قال الاستاذ وليس هؤلاء الا شفعاء فقط ، وهى لهجة حادثة لا توجد فى كتاب الله ولا سنة رسوله ولا كتب المؤلفين من الأئمة المجتهدين فليست هى وكلمة الاستغاثة من الدين ، ولو تسامحنا فى قبول

الألفاظ التى لم ترد فى القرآن وهو أفصح كلام ، ولا فى حديث رسول الله وهو أبين الحديث جر ذلك الى اعتقاد مدلولاتها والتوسع فيها ، وسرى عليها مايسرى على الدخيل من الكلام ، وفهمت منها الأفهام على قدر محصولها ، وخرج بذلك الناس عن دينهم من حيث لا يشعرون وهذا سبب تحريف كل ملة .

قال الاستاذ فى تفسير قوله تعالى « وابتغوا إليه الوسيلة » والوسيلة مايتوسل به إلى الله تعالى من عمل صالح أو عبد صالح .

نقول أما قوله (من عمل صالح) فقد وردت فى كثير من آيات القرآن أما قوله أو عبد صالح فلم ترد فى القرآن ولا فى الحديث ولا فى التفاسير التى كتبت فى عصر التابعين ومن تبعهم . ولم ترد الا فى كتب بعض المتأخرين . ولا يخفى أن المتقدمين أعلم باللغة وبالدين من المتأخرين ، وان أضفت الى ذلك أن الصحابة وتابعيهم لم يفهموا من الآية الا التوسل بالأعمال الصالحة فجدوا واجتهدوا ، ولم يتوسل بعضهم ببعض ، بل ولم يرد لذلك أثر من ذكر فى كل خطبهم وكتبهم ، علمت أن هذه كلمة حادثة ليست من الدين ولا نقبلها فيه .

قال الاستاذ : (وجعل العبد الصالح وسيلة الى الله تعالى انما هو من اعظام جانب التوحيد لأن من شهد سوء حاله وكثرة ذنوبه لا يجد له وجها ولا سبيلا للسؤال من ربه فتجتمع همته على التوسل لله تعالى بأوليائه وأحبابه اعترافاً بالذنب وانكساراً للرب واعظاماً لجانب القدرة الالهية وايمانا بأن الله هو الفعال لما يريد)

نقول الله أعلم بمصلحة عباده ودينه ، وقد خاطب الله الكافرين والمترفين ووجه اليهم القول وطالبهم فى كتابه المبين بالتوبة وعلمهم كيف يتوبون فقال تعالى « استغفروا ربكم انه كان غفاراً » ولم يقل ولا فى آية واحدة ان الكافر الملتاث بالذنوب السئ الحال الذى لا يجد له وجهاً للسؤال من ربه عليه أن يتوسل اليه بأحد من عبيده ، وقد خاطب النبى صلى الله عليه وسلم كفار قريش وغيرهم ودعاهم للتوبة والانابة ولم يشرط لهم أن ذلك لم يقبل منهم الا اذا توسلوا له بوسيلة . اللهم ان هذا ليس من الدين أما مااستدل به الاستاذ من استغفار الرسول للتائبين فذلك ليس من التوسل ولا الاستغاثة وانما هو من قبيل مساعدتهم فى الطلب وهذا جائز لنا بعضنا مع بعض .

قال الاستاذ وقد صح صدور التوسل من النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وسلف الامة وخلفها ، أما صدوره من النبى صلى الله عليه وسلم فقد صح فى أحاديث كثيرة : منها أنه كان من دعائه (اللهم انى أسألك بحق السائلين عليك) ثم قال الاستاذ انه صلى الله عليه وسلم دعا بهذا الدعاء وأمر به أصحابه حتى ما كان أحد من السلف الا كان يدعو به .

نقول القاعدة عند ائمتنا المجتهدين (إن صح الحديث فهو مذهبى) فلو صح هذا الحديث جاز للمسلم أن يقول (اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك) دون أن يزيد عليه من عنده أسماء والقابا كأنه شهد توزيع المواهب فى عالم القدس وماوراء هذا العالم . نعم ان صح الحديث

جاز أن يدعو بهذا الدعاء دون أن يزيد عليه لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم بالله وأفصح لسانا واطلب لمراضى الله ومحابه واوثق برحمة الله وحسن ثوابه من كل من يميل للزيادة على ماقال . أمالو تذرع أحدنا بهذا الحديث فزعم انه يجوز للمسلم أن يقول (بحق فلان وفلان) فعليه التبعة والعهدة . لانقول انه مشرك أوكافر ولكن نقول انه زاد على ماقاله رسول الله وتعدى الحدالذى رسمه له . ولكن المسلم المتتبع أثر النبى صلى الله عليه وسلم الذى يعتقد أنه جاء بطب القلوب ودوائها، وكما أنه لايجوز الزيادة فى تعاليم الطبيب أو التوسع فى أوامره . والاستبداد بالرأى فى زيادة أو نقص مقادير العلاجات التى يصفها ، كذلك لايجوز لمؤمن أن يزيد على ماورد من أوامر النبى صلى الله عليه وسلم وهو الطبيب الروحانى الأكبر ولاأن ينقص شيئاً منها إن أراد أن يتأدى إلى الكمال الذى وصل اليه صدور هذه الأمة . وكما أنه لايجوز لغير أهل صناعة الطب والصيدلة والباحثين فى خواص العقاقير أن يزيد فى مواد القانون الصيدلى مادة مستندا فى إيرادها على رأيه الخاص، كذلك لايجوز لغير النبى صلى الله عليه وسلم أن يزيد برأيه شيئاً مهما كانت الزيادة صغيرة فان الصغيرة تجر الصغيرة ، والتوسع يستدعى التوسع فينتهى الحال بخروج الناس عن صراط الدين باسم الدين وقد حصل ذلك فى كل ملة ، بل لاطريق لتحريف الأديان إلا هذا ، ولو ثبت كل أهل دين على ماوجدوا عليه نبيهم ، وقنعوا من الدين بما علمه لهم بالحرف الواحد ، وتشددوا فى حفظ مبانيه ومعانيه كما هى ، لما وجدت

على سطح الأرض الادينا واحدا ، لأن مبنى دين الأنبياء كلهم واحد ، ولكنك ترى مئات من الاديان فى كل دين عشرات من الفرق ولا سبب لهذا كله الاعدم الوقوف عند النص وتناولها بالرأى ، ولما كانت الآراء تختلف قديما وحديثا كان الخلاف من شأن أهل الأديان وهلم جرا ! ولكن الى أين ؟ قدجاء العلم بسطوتة ، والالحاد بخيله ورجله يهددنا ويهدد العالم بأسره ، فلعمرك ان لم نعتصم بكتاب الله تهنا وضللنا ثم لا يفيدنا انتصارنا لرأى فلان ولا لفكر غيره .

قال الاستاذ « حصل قحط فى خلافة عمر فجاء بلال بن الحرث رضى الله عنه الى قبر النبى صلى الله عليه وسلم وطلب منه أن يستسقى لأمته فسقوا ، وفيه النداء والتوسل والتشفع والاستغاثة . الخ »

نقول : هب ان هذا الأثر ليس بصحيح فقط بل متواتر أيضاً لا يمكن الشك فيه فهل كل رأى يراه أحد الصحابة يعد من الدين ؟ الدين كمل بالقرآن والسنة النبوية ومايجئ بعد ذلك من الاقوال والاعمال فآراء يجوز أن تكون حقاً وأن تكون غيره لأنه لم يقل أحد بعصمة غير الانبياء فمن شاء أن يقلد ذلك الرائى فى رأيه فليفعل وعليه العهدة ، ولكن لا تنس أنه قدحصل فى خلافات الخلفاء الراشدين فتن كادت بها الدولة تتزعزع من أساسها ولم يسمع أن أبا بكر ولا عمر ولا عثمان ولا عليا ولا أحدا من كبار الاصحاب رضى الله عنهم فعل كما فعل بلال بن حارث ، مما يدلك على أن هذا رأى رآه لنفسه ففعله وهو مسؤول عما فعل ولو كان للصدر الاول أقل رأى فى نداء النبى

صلى الله عليه وسلم والاستغاثة به على الطريقة المعروفة الآن لدى العامة بالنسبة للصالحين لما وجد زائره مخلصا إلى ضريحه من كثرة المحيطين به والمطيفين حوله ولكانت الكتب مشحونة بأنواع الاستغاثات المؤثرة مما تسمح به بلاغة الصحابة ولكن الأمر بالعكس فلا يكاد يصادف الباحث من أمثال ماأورده الأستاذ الا حوادث فردية يتصيدها الانسان تصيدا .

ان قيل الا ترضى أن تكون على مذهب أحد الصحابة ؟ — أقول للمسلم إمام واحد وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو مرجع الكل وقدوتهم فلا يقتدى الا بفعله ، ولا يحتذى الا مثاله . هذا أصل جميع الأئمة فى أمثال هذه الأحوال .

يقال وكيف توفق بين هذا وبين قوله صلى الله عليه وسلم « أصحابى كالنجوم بايهم اقتديتم اهتديتم » — أقول لم يقل أحد بأخذ الحديث على اطلاقه بل فى الحديث تفصيل لايخفى على ذى فطنة . والا ففى الصحابة من أمر بقتل عثمان رضى الله عنه فهل يؤخذ برأيه فى ذلك . وفيهم من خرج على على رضى الله عنه وحاربه بالسيف فهل يقتدى به فى خروجه .

هب أن الانسان له أن يقتدى بما فعله بلال بن الحرث رضى الله عنه من الاستسقاء للناس وهى مصلحة عامة فهل ذلك يسمح لنا أن نقيس عليه ماعليه الناس اليوم من الذهاب الى القبور والتطواف بها وإيقاد السرج ورفع القباب عليها ، والباسها العمائم واعلانها فوق

الحد الشرعي وادخالها في المساجد والطلب الى أصحابها كل صنوف المطالب الشخصية مما يبعثه الطمع والحقد والفخفخة الخ الخ مما ترى عليه الناس رجالا ونساء ؟ هل مافعله ذلك الصحابي من طلب الاستسقاء للمصلحة العامة يبيح للمسلم ان يقر العامة فيما يفعلون من ضروب الجهالات التي يأباها الشرع والعقل والذوق ؟

قال الأستاذ « والحق أنه لامعبود الا الله ولا تأثير لغير الله وان التوسل والاستمداد والاستعانة والاستغاثة والاستشفاع بالأنبياء والأولياء في قضاء الحوائج الدنيوية والأخروية جائز عقلا وشرعا وحاصل فعلا بمحبة الله تعالى وكرامته لأنبيائه وأوليائه المنقولين وكرامات الأولياء ثابتة بالكتاب والسنة وواقعة بالفعل لهذه الأمة من زمن نبيها صلى الله عليه وسلم الى اليوم » .

نقول : أما التوسل فقد ورد في بعض الأحاديث المروية عن الآحاد مايدل عليه وقد رأينا في باب الدعاء من أحياء علوم الدين لحجة الاسلام الغزالي رحمه الله دعاء منقولا عن النبي صلى الله عليه وسلم فيه (اللهم اني أسألك بنبيك محمد الخ) ولا ينقل مثل الغزالي أمثال هذا الا اذا رآه جائزا . أما قوله : (والاستمداد) فلفظ محدث لم يرد في قرآن ولا حديث ولا أثر قديم ولا على لسان امام مجتهد من أئمتنا فيما نرجو . وقد قرن الله تعالى الامداد بذاته العلية في كل موضع ذكر هذا اللفظ ، فلا يجوز اطلاقه على غير الله في الدين لا لغة ولا مجازا ، لأنه من باب الزيادات في الدين التي تقبل التاويل والتوسع

وتستدعى نظائرها من الألفاظ المحدثة فنخرج عن صراط الدين من حيث لانشعر والعياذ بالله . ولماذا يستمد الانسان من غيرالله ؟ اليس من ورد البحر استقل السواقيا . أما قوله (الاستعانة) فلم ترد أيضا فى لغة الدين الرسميـة وهى لفظة محـدثة وقد ورد فى الحـديث (وان استعنت فاستعن بالله) فلا يجوز فى الدين أن يستعين أحد بأحد غير الله . — أما قوله (والاستغاثة) فمثل سابقتيها اصطلاح محدث بعيد عن صبغة الدين وقد ورد فى الحديث ولاأدرى أرأيته فى الجامع الصغير أم كنوز الحقائق (لايستغاث بى انمـا يستغاث بالله عز وجل) — أما قوله (والاستشفاع) فلم يرد فى القرآن بالمعنى الذى يريده الأستاذ الامسندا الى اذن الله قال تعالى « وكم من ملك فى السموات لاتغنى شفاعتهم شيئا الا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى » فالشفاعة واردة ولـكن على أن الله هو الذى يأمر بها قال تعالى « من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه » فطالب الشفاعة والحالة هذه لا يليق أن يطلبها من نبى ولا رسول بل من الله تعالى كأن يقول اللهم شفع فى رسولك كما أورده الأستاذ من حديث عثمان بن حنيف فى قوله (اللهم شفعه فى) فصار طلب الشفاعة من غيرالله غير واردة فى الدين

يقول قائل ماهذا الوقوف مع النصوص هل على الرجل من حرج ان قال لأخيه فى الدنيا أمدنى من قوتك ، أعنى بحولك ، أغثنى بجاهك ومالك ، اشفع فى عند الأمير الخ مما اعتاده الناس فى لغاتهم؟ ان قلتم لاحرج فلماذا لايجوز له أن يقول ذلك لأخيه الميت

وهو يعتقد أن فيه قوة وقدرة على ذلك »

نقول : اصطلح أهل الملل على أن العالم عالمان : عالم الجسد وله شؤون وعلاقات وأحوال مادية كلها محسوسة اصطلح الناس على تسميتها باسم جامع وهو (الدنيا) ، وعالم غير محسوس فوق هذا العالم يعلو عن مشاعرنا وعقولنا وله شؤون وأحوال لا نسبة بينها وبين هذا العالم المادى اصطلحوا على تسمية شؤونه وما يتعلق بها من عقائد باسم جامع وهو (الدين) وقد كلف الانسان قديماً وحديثاً بالخلط بين شؤونه الدنيا وشؤون الدنيا لميله للمحسوسات ، فكون القدماء أديانهم على هذه القاعدة وفرضوا لهم آلهة لهم وجوه وأيد وأعين وعواطف وانفعالات فجاءت الانبياء بالتوحيد والتنزيه فدحضت حجة المشبهين وأقامت امما على صراط الحق المبين ، ولكن كانت تلك الامم لا تلبث بعد موتهم أن تعود لما كانت عليه من تشبيه شؤون هذا العالم بشؤون ذلك العالم مع ما بينهما من المنافاة الشديدة والفارق الجسيم ، ولكن لما ارتقى العقل الانسانى وتوسعت المدارك فى المعرفة ، أنف الناس تشبيه الخالق بالجسمانيات فقدسوه عن ذلك ، ولكن صعب عليهم أن يتركوا ما جمدوا عليه بالوراثة فكونوا لهم أديانا على قدر ما يعرفون من أمور الدنيا ، وعندهم أن كل جائز عقلا جائز دينا أيضاً ، ولم يعلموا أن هذا العقل ابن هذا العالم الجسمانى ، وللعالم الروحانى (عقل اسمى منه) وهو ما يوهب للأنبياء والمرسلين بلا كسب فيدركون به ما لا يدركه الناس ويرون به ما لا يرون ، مما يوجب على كل (عاقل) أن يسلم عقله لرسول الله مع

اليقين التام بأنه لو اتبع عقله الخاص لأصبح دينه على قدر عقله واين هذا العقل مما خفى عنا علمه من عوالم الغيب والمعانى المجردة ولو أردت أن تعرف تخالف شؤون العوالم بمثال محسوس فاليك . هب ان الأجنة فى بطون أمهاتها يكون لها عقول تناسبها وقد جاءها ما أشعرها بأن وراء عالم الأرحام عالما يقال له عالم الدنيا سينتهى الجنين اليه بعد أن يمضى فى سجنه المظلم وقرارته الحرجة زمنا ما ، وعلمت أن الأجنة التى كانت قبلها موجودة فى ذلك العالم الواسع الزاهر (عالم الدنيا) وأنهم فيه متمتعون بما لايخطر على بالهم من حرية وانطلاق ومدارك ولذات حسية ومعنوية وان لهم من الحول والحيل والسلطان فى الطبيعة مالا يتخيله وهو فى سجنه المعتم ، هذه الأجنة ان علمت ذلك عنا فهل كل مايجوزه لها عقلها يكون له نصيب من التحقق ؟ هب أن جنينا منها قال بما أن أبى فى عالم الدنيا ؛ ذلك العالم الواسع الطلق ، وهو متمتع فيه من الحول والقوة والوسائل بما أعجز عن تصوره وبما أنه يود ان اقضى مدة وجودى فى عالمى هذا ، عالم الارحام ، الزمن المقدر ثم انتهى اليه بسلام لاعيش معه فى صفاء ونعيم ، وبما ان رأسى قد انحرفت عن موطنها الطبيعى الأمر الذى يجر لو دام إلى تشوه فى العنق وفى الجبهة أوعسر فى الولادة ، وبما أن سماعه صوتى وامكانه تقويم عوجى بوسائله أمر يجوز عقلا فهو ممكن فعلا ، فيدعو والده ويسلك فى أمر معتقداته هذا المسلك فيجمد على كل ما جوزه عقله حتى يكون لنفسه جوا موبوءا من أمثال هذه المعقولات الوهمية ؟ ومن يقتنع بالوهم يوشك

أن يتردى فى مهاويه فيهلك .

لامشاحة فى أن عالم الأجنة أدنى من عالم الدنيا فى كل حيثية وان الانسان فى العالم الأول ضعيف ضئيل محتاج ، عرضة للاخطار والمهالك بصنوفها ، وانه فى الثانى على شىء من القوة والحول والغنى وأقل عرضة للاخطار والموبقات ، وزيادة عن ذلك فهو حى حياة انسانية ومتمتع بالمدركات العالية والمعلومات النظرية ، ولكنك تراه مع ذلك لا يتسلط على عالم الأرحام الا من جهات عامة كتأثيره على الأمهات بالتربية والهداية أو الافساد والغواية ، ولم تزل قواه العقلية ومواهبه الجسمية أعجز من أن تسعف الجنين بشىء من قبيل ما يفيده خاصة ، ولم تنفك مشاعره قاصرة عن ادراك حاجة ذلك الجنين منه مباشرة ، فانظر كيف أن تخالف العالمين أحدث بين شؤونهما من التباين مايجعل المعقول لدى أبناء أحدهما غير ممكن لدى أبناء الآخر مع سمو أحدهما على الآخر سموا لاحد له . فاذا أراد أحدنا أن يجعل كل جائز بعقله المكتسب من هذا العالم ممكنا فى ذلك العالم ثم يرتقى من فرضه أنه ممكن إلى ضمه إلى عقائده وجعله ركنا من أركانها ، ثم يتدرج من ذلك إلى عده من الدين ووصم كل من لا يرضخ له بأنه مبتدع على غير مذهب أهل السنة ، فذلك ممن لا يرى لعقائده حدا يقف عنده ، لأن الجائزات التى يجوزها هذا العقل الدنيوى لاتحصر ، كما أن الخطأ فى المعقولات لا يحصر أيضا فيكون أمر المتدينين على هذه الصورة خطرا عليهم جدا . ولكن أين هذا من الاسلام الذى قانونه القرآن وأين هذا من

السنة التى هى مافعله النبى صلى الله عليه وسلم لاغير ؟ أين هذا من دين أبو بكر وعمر وعثمان وعلى والاصحاب الكرام والانصار العظام الذين أصبحوا مفخرة ملوك الأرض وآية ملائكة السماء ؟

الدين الحق الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو أن نقف بعقائدنا فى الحد الذى رسمه القرآن وأن لانحاكى الأمم التى اتبعت أهواءها وظنونها التى يقول الله عنها « ان هم الا يظنون » « ان هم إلا يخرصون » « واتبعوا أهواءهم ولقد جاءهم من ربهم الهدى » واذا كنانستسلم لظنوننا ونستنيم لأهوائنا وكل مايحسنه خيالنا ونرضخ لكل مارواه من قبلنا بلا محاكمة ولامناقشة ، فمامعنى أننا مسلمون إذن ؟ مامعنى نعينا على الامم التى اتبعت أهواءها سوء حالها وشر منقلبها وقد حاكيناهم فى اتباع الأهواء والاستنامة لسلطان الخيال ؟ واذا كنانزيد فى ديننا كل ماهو جائز بعقلنا هذا القاصر فماذا تركنا للأمم التى سبقتنا وأبادها الله لغوايتها ؟ وهل غوت تلك الامم وخرجت عماحده الله لها فى كتبها وعلى لسان رسلها الا بمتابعة أهوائها ومحسنات ظنونها والرضوخ لعوائدها ؟ واذا كنا على هذا المثال فى ديننا فما معنى الاسلام الذى نقول انه الدين العام ، الدين الحق الذى سيرضخ له الناس أجمعون ؟ أليس هو الدين العام لأنه الواقف بالعقائد مواقفها الفطرية ، الآتى بها فى بساطتها الالهية خالية من كل صبغة بشرية ، وآثار قومية ، وعوائد بلدية ، ولأنه مما يرضخ لاصوله بالفطرة ، ويخضع لسلطانه بالطبع(١) ؟

(١) انظر ما قررناه عنه فى مقدمة هذه المقالة

إذن فكيف نزيد عليه بما نجوزه عقلا ، ونستحسنه فكراً ، ونتصيده بالقياس ، ونتناوله بالتكلف والتعسف ، لعمرك ان لكل أمة فلسفة دينية متينة الأساس مستندة على قوانين المنطق أى استناد ، فلا يحسبن احدنا أن احقروثنى فى العالم فقير من فلسفة عقلية فى غاية الاتقان ، فان قابلنا الوثنى بمعقولاتنا قابلنا بمعقولاته ، وان جادلناه بجائزاتنا جادلنا بجائزاته وصرنا واياه فى كفتى ميزان واحد ، وهل هذاهو الاسلام الذى أعرض عن الصبغ الخاصة وجاء بالفطرة العامة ، الذى أضرب عن التقاليد المخترعة وجاء بالعقيدة الأولية فى حلتها الالهية ؟ ولوكان من شروط الاسلام تمييز شعب على شعب أو تقديس رجال قوم دون رجال قوم آخرين ، أو اعلاء معقولات على معقولات ، لما كان الاسلام هو الدين العام ولما كان لآبائنا حق فى عرضه على الناس بهذه الصبغة ، لأن لكل شعب أنانية وعجباً بنفسه لمفاخر سابقة ، ومحامد مؤثلة ، وما من قوم إلا ولهم اجلال واحترام لرجال منهم غلوا فيهم فرفعوهم الى مقاوم الملائكة ، ودونوالهم من الفضائل والخلائق مالا يتوفر مثله الا الملك مقرب أو نبى مكرم ، ثم مامن طائفة إلا ولها معقولات مناسبة لدرجتها فى العلم وحالتها من التربية فلا يتصور الانسان أن يكون هنالك دين عام يرضخ للشعوب عن طيب خاطر ، ويليق أن يسمى دين الفطرة حقيقة إلا اذا علا بطبيعته عن كل هذه الخصوصيات القومية التى لا يمتاز شعب عن شعب فيها والتى هى سبب تنافر الامم وتحاقدها من قديم الزمان إلى اليوم .

أما من جهة تمييز شعب على شعب فقد وضع الاسلام له حداً لا يتعداه الا من ظلم نفسه فقال تعالى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » بهذه الآية أصبح لا فخر لأمة على أمة مادام الكل مخلوقين من أب وأم واحد . من هنا تنمحى الانانية التى تسوق الامم للتنافر والتفاخر ويحل محلها ميل عام للاتحاد والتقرب كما حصل بين سائر قبائل العرب التى كان بينها من الاحن ماليس بين الأمم المتخالفة فى الجنس والمذهب .

وأما من جهة تقديس رجال قوم دون رجال قوم آخرين فقد حكم الله فيه بحكمه الفاصل فقال تعالى « إن اكرمكم عند الله أتقاكم » ولكن كل قوم يزعمون أن رجالهم أتقى فهم أكرم فرد الله على أمثال هؤلاء بقوله تعالى « ولا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » وهو أمر من الخالق بترك الكلام على اقدار الناس ومراكزهم من الكرامة والتقوى له سبحانه وتعالى فهو الحكم العدل ومن عصى هذا الامر فقد افتات على الله وتعرض لمقته .

وأما من جهة المعقولات فى الدين فليست من الدين وانما هى علم والعلم تابع لقانون الترقى فى كل أطواره كلها ، ومتى عرفت الأمة أن معقولاتها وكذلك معقولات غيرها أطفأت من نار التعصب لها وسعت فى تقريرها من بابها بأن تحاكمها بقانون النقد والتمحيص فما قواه الحس حفظته وما عارض الواقع تركته

خلاصة ماتقدم

يجب علينا بعد أن وفينا هذا الموضوع قسطا من البيان أن نوجز الأصول التى قررناها هنا لتكون بمثابة الصورة المصغرة يحيط بها الطرف من أول نظرة متنزعة عن شكل كبير يتوه البصر فى أنحائه ولا يكاد يضبطه الا النظر الطويل فنقول :

١ ـ معنى الاسلام أن تسلم وجهك لله مجرداً نفسك من علمك وعقلك وحولك وقوتك وتقاليدك كلها ، الفقر شعارك والخشوع دثارك والتقوى والرجاء والضراعة صفاتك ،متجردا له كيوم ولدتك أمك على الفطرة لتتحقق عبوديتك ، ولتمحى أنانيتك وليصح الاتصال بينك وبينه بلا حجاب من عرض عقلى أو أثر وراثى ، أما لو اتجهت له وأنت مملوء دعاوى ومزاعم ، وفاهم أنك على شيء فأنت انما تتجه لمعلوماتك ومعقولاتك وليس هذا من الاسلام فى شيء .

٢ ـ الاسلام بالمعنى المتقدم هو دين الانبياء ومقدمة الفتح عليهم وهو الدين العام الذى يرضاه كل من أدركه ممن يكون قد سئم الجمود وعرف مضاره .

٣ ـ الايمان أن تؤمن بالأمور الست المبينة فى القرآن ، بالله وكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر وقضائه وقدره كما جاءت فى القرآن الكريم بالادلة التى نص عليها الخالق العظيم بازاء كل واحدمنها

٤ ـ الزيادة على ماجاء فى القرآن من الأدلة هو من خلط الفلسفة

بالدين ومتى اختلطت الفلسفة بالدين تحول الدين الى فلسفة وصار قابلا مثلها للأخذ والرد وهو مايعلو الاسلام عنه لأن الاسلام لايمكن التفرق فيه .

٥ — دواء الشكوك فى أمور الايمان مبين فى كتاب الله وهو الذكر وكثرة الطلب من الله للهداية .

٦ — ماطرأ الفساد على الاديان الامن خلط أهلها العلم بها والذهاب بها مذهب معقولاتهم فيصبح الدين صورة علم الامة وشكل معقولاتها ، فاذا ترقت فى العلم لاحظت فرقاً بين علمها ودينها ، فان تمسكت بدينها تأثراً بالوراثة جيلا فلا تلبث على ذلك جيلين أو ثلاثة فيثور حزب العلم على حزب الدين فتصبح الغلبة للأقوى وحالة أوروبا شاهدة بما نقول ، وكل حوادث التاريخ تدل عليه .

٧ — الدين كمل بقوله تعالى : «أليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى » وقد أقامه صلى الله عليه وسلم على الصراط الذى لاينحرف عنه الا منحرف ، فلا يجوز أن يزاد فيه بالرأى ولا بالعقل شىء مهما كان صغيراً أو كبيراً . فان أراءنا ومعقولاتنا تابعة لدرجة معلوماتنا المتغيرة المتحولة وهى ليست من الدين فى شىء وكل ماجاء به أئمتنا الأربعة وغيرهم لم يجيئوا به بصفة وحى أو بطريقة اجبارية كما فعل زعماء الملل الاخرى . بل قالوا كلهم هذا غاية ما فهمناه والله أعلم . وكانت صلاة بعضهم خلف بعض وتحابهم وتراحمهم مع اختلافهم أكبر دليل على علمهم بأنهم لم يختلفوا فى الدين ولكن فى العلم والاختلاف فى العلم

سنة العالم كله ولا حق لاحد أن يكفر أحداً بدعوى أنه يذهب غير مذهبه .

٨ - العقل الانسانى فى هذا العالم خاص بأشياء هذا العالم ولكن مدركات العالم الروحانى لها عقل أرقى من هذا العقل ، يوهب هبة للأنبياء والمرسلين ، وهؤلاء الأنبياء والمرسلون لم يؤدوا لنا الا ما نستطيع ادراكه بهذا العقل ، وما خفى عنا أكثر مما لا يعبر بلسان ولا يتخيل بجنان ، فالدين يقضى بأن لا نحكم بما نتعقله فى عالمنا هذا على ذلك العالم الروحانى الذى له شؤون وأحوال خاصة فيلزمنا ، والحالة هذه أن نتتبع ما قال النبى صلى الله عليه وسلم ، لا نزيد فيه حرفا ولا ننقص منه حرفا ، فهو أعلم بمصلحة أمته من أكبر إنسان فيها ، وأدرى بما يجوز أن يفشى لها من الشؤون العلية .

٩ - مانحن فيه من اللوث والخبط فى العقائد والعواطف وماعرانا من الضعف والفتور فى الحياة والروابط الاجتماعية ، سببه فتنة المدنية الغربية بما حملته لنا ، من غث وسمين وحق و باطل ، وهى تقارع عالمنا الشرقى كله بكل سلاح ، وهى فتنة لا يمكن مقارعتها إلا بأصول أقوى من أصولها وأبعد مرمى ، كما هو شأن التغالب فى قانون الحياة ، ولا يقوى على هذه الفتنة من هذه الجهة إلا الاسلام النقى الخالص ، فان تدر عنا به فزنا ونجونا ، وصرنا خلفاء أمة عظيمة دعت إلى أكبر إصلاح فى العالم ، وان تركناه وتدرعنا بمعقولاتنا ومدركاتنا وبلدياتنا ، فقد استهدفنا لفعل تلك الفتنة من أرق مقاتلنا

وأصبحنا كما نحن ننقص ولا نزداد ، حتى ينتهى الأمر بهروب كافة حزبنا إلى الجهة المضادة لنا ، فيتدهورون فى تيهور الفتنة ، ونكون نحن الجانين على أنفسنا ، والمؤاخذين بجرائرنا وجرائر من كنا سبب هروبهم عنا .

١٠ - هذا هو الاسلام فى أصرح معانيه ، وأخص مراميه ، فالقرآن والسنة ، وحال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحال اتباعه المهديين دليل حسى عليه ، وهذا مذهب السلف كلهم وأئمتنا سائرهم وقد دلت عليه كتبهم تلميحاً وتصريحاً ، ومع ذلك كله فلا نقول إننا أتينا بشىء لا يمكن الجدل فيه ، لأن الذى يود الجدال لا يوقفه شىء ولا يبعد أن يتخذ بعض الناس ما نشر فى كتب بعض المتأخرين من الآراء والأقوال ، دليلا على أن ما عليه العامة اليوم من البدع فى الزيارات ، وإقامة المقاصير على القبور ، وإيقاد السرج عليها ، ورفع القباب فوقها ، ونذر النذور لها ، وادخالها فى المساجد الخ من الدين بدليل تحليلها فى تلك الكتب المحدثة ، فيقولون ان ذلك مذهب الشافعى وأبى حنيفة ومالك وأحمد بن حنبل بمجرد نسبة قائله إلى أحد أولئك الأئمة الكرام ، وهم براء مما يقولون بأفواههم . على أن أولئك الأفراد العظام أتوا بما أتوابه ، ثم قالوا إن صح الحديث ، فهو مذهبنا ، وأضربوا بما قلناه عرض الحائط . انظر إلى هذا الأدب الاسلامى الباهر ، ثم التفت للذين يؤولون الأحاديث والآيات لتنطبق على ما ألفوه فى بلادهم ، وما وجدوا عليه أقوامهم

« لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون » .

خاتمة

يتخيل من يطلع على ما كتبناه هنا اننا من الذين يتشددون مع الظواهر ويجمدون على الالفاظ ، وممن ليس لهم نصيب من جمال الباطن وبدائع الأسرار ، كلا ! إنما ممن يعتقدون ان عالمنا الحسى هذا مهما بلغ من الفخامة والجلالة فلا يقارن بما فى العالم الروحانى من آثار الفيض الالهى والاشراق القدسى ، ولنا مباحث خصوصية فى الولاية والأولياء والكرامة والالهام والكشف وقد رأينا من ذلك مايدهش العقل ويحير المشاعر ، ولنا مجالس ونواد نسمر فيها بذكر اللطائف الروحانية والرقائق الصوفية ولذائذ الذكر وأنوار الخلوة الخ الخ ولكنا لانعتقد أن هذا هو الدين بل الدين فى القرآن ، بلازيادة ولانقصان ، ولاتحريف ولاتأويل ، وأما مانميل اليه بطبعنا مماذكرناه فمن قبيل العلم يجوز علينا فيه الخطأ والقصور والتناقض ، ثم هو عرضة للزيادة والنقصان ، والأخذ والرد . وما كان كذلك فليس بالدين الذى يقول الله عنه انه لايصح الاختلاف فيه ، فالذى لايصح الاختلاف فيه هو الفطرة العامة التى يشترك فيها الناس كافة وهو الاسلام الذى قررناه من القرآن . أما معقولاتنا وأميالنا وتجاربنا الخاصة فما تقبل الجدال والقيل والقال اذن فليست هى من الدين بل من العلم . ولابأس أن يختلف المسلمون فى العلم بل ولامناص لهم من

ذلك . أما فى الدين فلا ! قال الله تعالى « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شئ » وقال تعالى « أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ماتدعوهم اليه الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب »

الاسلام بالمعنى الذى قررناه مستندين فيه على القرآن ومستضيئين له بحال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو آخر مرمى من مرامى الرقى العقلى والروحانى ، وأبعد غاية يمكن أن يتخيلها الخيال الانسانى من باحات الكمال النفسانى ، فكل مسلم فى نفسه يجب أن يكون حادثا جللا وأمرا عظيما ، وأثرا رحمانيا بديعا ، وناهيك بانسان خلص نفسه من أثر كل تعصب وشائبة كل جمود ، ونصب ذاته عبداً لله مخلصا له الدين ، متجردا اليه من الحول والحيلة والعلم والخيال ، وكل مايتخيل أن يكون قاطعاً عن الله وعن قبول فيضه واستشراق نوره . لاجرم أن كل مسلم حادث جلل وآية الهية باهرة ينشر الكمال والجمال والفضيلة والعدالة أينما ذهب وحيثما تحول ، ويؤيد بكل ماوهب من قوة وما منح من وسيلة دولة الحق وصولة الصدق محاربا الباطل أينما وجده وبأى صورة تقفه ، يفعل ذلك مقهورا بقوة مبدعه مدفوعا بروح مصوره لايجبن ولا يكسل ولا يخيب ولا يفشل ، كأنه ناموس طبيعى لايرجع عن متوجهه حتى يؤدى ماسبق اليه على الوجه الذى رسم له . ألم تركيف ظهر المسلمون الأولون بذلك المظهر الذى حير الأمم وادهشها ، لم تمنعهم فاقتهم والسخرية المحيطة بهم والعادات

والتقاليد التى تساورهم وتحتوشهم والصيحات التى تزعج الجبال الشم المتوجهة اليهم من كافة الأمم التى حولهم من أن يثبتوا على الحق ويؤيدوا الصدق وينابذوا البدع ويصدوا الباطل ثم لم يمنعهم ذلك عن بسط سيادتهم وسلطانهم على أعظم الأمم مدنية واستعدادا كأمة الرومان والفرس . ماهذا إن لم يكن كل مسلم فى نفسه أمرا جللا ؟ ما هذا إن لم يكن كل مسلم فى الوجود حادثا خطيرا . بل قوة الهية فعالة ؟ نعم إن المسلم لما تجرد من نفسه لله كان الله لسانه وسمعه وبصره ويده الخ كما ورد فى الحديث الكريم . فهل بعد هذا نسعى فى أن نجعل الاسلام على مثال الأديان المحرفة بكثرة الخلافات والمقالات التى تقذف بنا عن إدراك كنه معناه وتطوحنا الى البعد عن مغزاه « ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين »

(تنبيه) هذا الجزء زائد صحفا كالذى قبله

رجال أمام رجال

يتذكر حضرات قرائنا أننا ترجمنا فى الجزء السادس مقالة كتبت فى (المجلة) الباريسية تحت عنوان (البيض ضد الصفر) دبجها يراعى الاستاذ الفزيولوجى الطائر الصيت (شارل ريشيه) الفرنسى أثبت فيها بالأدلة التشريحية التاريخية سمو الجنس الأبيض على الأصفر ونقص من قدر اليابان وغض من كرامتها ماشاء . ويتذكر القراء أننا

قلنا ان (جان فينو) مدير المجلة رد عليه رداً علمياً بديعاً وعدنا بايراده ليتضح للمطالع من خلال تحاورهما مرمى العلم ومرمى التعصب . والآن لاحت لنا فرصة إيراد تلك المقالة التى هى رد مدير المجلة على الاستاذ (ريشيه) قال :

« لقد شرفنى الأستاذ الفزيولوجى المبجل باهدائى مقالته على شكل خطاب وإنى أبادر بالرد عليه والفضل فى هذا الرد راجع اليه ، ليس فقط لأن الموضوع الذى أثاره وأحمى وطيسه يستحق العناية والالتفات ولكن بالنسبة للمركز الخاص الذى يشغله المسيو ريشه . فان حضرته برئاسته جمعية التحكيم بين الأمم أصبح قولا وعملا واحداً من أقوى انصار السلام والاخاء العام . واذا كانت عقيدة المسيو ريشيه فيما يرى تخضع أمام تلك المسألة العتيقة مسألة اختلاف الأجناس ، فماذا يكون اذن موقف العقول الأخرى التى ليس لها مثل علو نظره ولا سمو عواطفه ؟ »

ومما لايجب أن يغيب عن الاذهان أنه لو رسخ الاعتقاد بوجود أجناس من البشر كريمة عالية تستأهل انعطافنا وحبنا ووجود أخرى منحطة تستدعى مقتنا لها واحتقارنا اياها وعدم العناية بها أو تستدعى ما هو اسوأ من ذلك منا وهو ما يسمونه العدل الاوربى ، لوصل الانحطاط بنا لان نغضى ونصفح عن جميع صنوف الجرائم المضادة للانسانية التى يرتكبها الاوربى ضد شعب من تلك الشعوب المنحطة فى زعمنا الى أن قال :

١

إذا قيل انه يوجد اختلافات بين الاجناس البشرية لا مناص منها فقد أنكروا قانون الترقى وجحدوا بتلك الأصول الانتربولوجيه وجعلوها نسياً منسياً ، وينتج من ذلك تناقضات مخيفة مزعجة . فاننا لو فرضنا أن هنالك أمما واقفة لا تتغير من جهة التشريح والعقل والاخلاق استدعى منا ذلك الفرض الاقرار بجملة أمور

(١) ان العلم والزمن عاجزان عن إحداث أقل التغييرات فى أجسامنا وعقولنا

(٢) وبينما نعتقد بتأثير قانون التدرج فى الكمال الذى كون هذه الكائنات المنتظمة نرانا ننكر عليه إحداث أقل تغيير فى الصفات الثانونية التى تخالف بين أجناس النوع الانسانى . على أنه ماهى طبيعة هذه الاختلافات ؟ يقول قائل انها اختلافات تشريحية وعقلية وأدبية. لاشك أن بحث كل هذه النقطة تفصيلا يستدعى بلا أقل شبهة عشرين سفرا ، فلنكتف بتحليل أصل تلك النقط وهى التى سمحت لهم بترتيب العالم فى رتبتين متضادتين رتبة الكائنات الممتازة ورتبة الكائنات التى يجب أن تستسلم لها . ونحن لأجل تمزيق هذه الكسف المتلبدة من الغيوم الوهمية حول هذه العقيدة الراسخة التى تعد نصف علمية فسنقارعها بالأدلة التى تأتينا عفوا لأن ضيق المقام لا يسمح لنا بايراد فذلكة أصولية مدعمة .

لنلاحظ قبل كل شىء أنه لم يقم دليل على أن هذه الاختلافات

التشريحية تحدث أثرا لاعلاج له على فكر وشعور تلك الكائنات البشرية . ومما يجب أن يلتفت اليه لأهميته هو أن تلك الاختلافات فى ذاتها ليست بشىء سوى نتائج الوسط العائشة فيه تلك الخلائق فهى تتغير وتتحول تبعا لتغير وتحول مئات من الأسباب المكونة لذلك الوسط المؤثر . وهذا (بوفون) المؤرخ الطبيعى اثبت لنا أن الجنس يبقى جنسا قائماً بذاته متى كان الوسط الذى كونه موجودا بذاته لم يتغير ويزول متى تغير ذلك الوسط (انظر تاريخه مجلد ٥)

لنبدأ بذكر اللون الذى يجمع كل الصفات التى يصم البيض بها من لم يكن منهم . هل اللون علامة أبدية ضرورية غير قابلة للتحول ؟ هاهم العرب ذوو اللون الناصع يأتون الى مكة فيكتسبون لونا أصفر معتما ويفقدون مع شكل أنوفهم المستقيمة الصفات الفخمية البدوية . وقد يصادف الانسان فى بلاد النوبة عربا سودا مع انهم لم يختلطوا قط بزنوج تلك الجهات (أنظر بريشار مجلد ٤) وأطفال الزنوج الذين يولدون فى بلاد يتمتع فيها آباؤهم بالحرية والاطلاق يجيئون بيض العيون ويكتسبون صفات تقربهم إلى البيض شيئاً فشيئاً . وقد نقل دوربينى ولويس وديه الخ بأن أغنياء الزنوج المستقلين يقربون منذ الجيل الجيل الثانى من اليهود السمر . وفى غينا ترى الزنوج المتمدنين يقربون من البيض ويحدث فى شكل أدمغتهم مثل ذلك الترقى بعينه (قال الدكتور هنكوك) . وقال (فيركو) ان الوسط الذى يعيش فيه الانسان يجعله أسمر أو أشقر على حسب الأحوال ولقد سبق كل

هؤلاء القائلين هيرودوت وأرسطو وأثبتا تأثير الوسط فى تلوين الناس

نعم ان الوسط بعوامله الكثيرة المتشبعة ، مثل الضغط الجوى والرطوبة والغذاء والضغط الكهربائى ومقدار الأزوت الموجود فى الهواء وشفافية وصفاء السماء وطبيعة الارض الخ هى الاسباب التى تؤثر على تلوين المادة الجلدية تأثيرا حقيقياً وليست بمجهولة علينا تلك التجارب التى عملها (پول برت) على ديدان أكسولوتل حيث أثبت اثباتا قطعيا بأن النور له فعل كبير على تلوين المادة الملونة لاسيما بواسطة سرعة ذبذبة تياراته . وتلك الحيوانات الثديية المجتلبة من الاراضى البائرة الأسيوية بواسطة (برجوالسكى) كانت ذات وبر أشقر أو أصفر باهت متجانس فأصبحت غير ملونة بوجودها فى أراض لا ظل للأشجار فيها .

فى بلاد الحبشة ياخذ لون الأهالى فى القتامة كلما صعدت على الهضاب أو ينجلى كلما هبطت السهول فى (عبادى) . وهنا لك مناخ جزائر الاتحاد له فعل عجيب فى التلوين ، وذلك أنه يجعل الالوان شقرا ولا يسودها حتى انك لترى الذين يولدون فى تلك المستعمرات من الاوربيين شقراً جداً .

لنخط خطوة للامام فنقول : التجارب أثبت أن الشمس لها تأثير كبير جداً فى احداث الالوان على الحيوانات والنباتات . وشوهد أنه لو أخذ طلع الزهر المسمى بيتونيا قبل نضجه وعرض لشىء من الحرارة انتج ازهارا ذات ألوان ليست لاصولها المأخوذة هى منها .

وهؤلاء هم الصينيون الذين يولدون فى كاليفورنيا بامريكا يفقدون فى جيلهم الثانى شدة اصفرار ألوانهم ، وهيئة جلودهم تقرب شيئا فشيئا من جلود البيض المجاورين لهم .

وليس بنا حاجة للكلام على القصر والطول فانه بينما نرى قصر اليابانيين نرى ان فى الصين شعوبا ممتازة بطول القامات وارتفاعها . ولا مشاحة ان فى هذه المسألة أيضا للعوامل الوسطية تأثيراً لا يصح التردد فيه .. فلنستعر أمثلة على ذلك من القطر الفرنسى نفسه الذى يسهل تحقيق مانرويه عنه بسهولة . كما أبانه « دوران دوجرو » بفصاحته المدققة عن أهالى مقاطقة « أفيرون » قال بينما نرى الرجل من « كوس » وهى تلك الجهة الكلسية يتغذى من الخبز الخشن المصنوع من الشعير والشوفان ويشرب من المياه الصافية فيكتسب نموا كبيرا فى مجموعه العظمى ويصل لمنتهى الطول البشرى ، تجد الافيرونى نفسه ساكن الاراضى المشجية التى تنبت الجاودار والكستنة والنبق يعرف بقصره المتناهى فى بعض تلك الاقانيم .

وقد أوضح مثل هذه المشاهدة «مانى» فى كتابه «الزراعة العملية» فقال الانسان يرى مثل ذلك الخلاف فى الوادى الواحد بالنسبة لاختلاف طبيعة ضفتيه ، فهذا مكون من أراض سليسية وآخر من أراض كليسية ولا يفصل بينهما الا غدير صغير . فيرى فى الجانب الثانى الغنم القوية المربعة والثيران البادنة وترى فى الأول الحيوانات النشيطة الشديدة الخلوية ولكنها قصيرة قنوع خفيفة .

ومتى جلبت ثيران « أوبراك » الى ريف « أفيرون » بمقاطعة (فارن) تبلغ طولا لم يكن لها فى مراعيها البركانية فى بلادها الأصلية ، فتصبح طويلة ضخمة ثخينة .

أثبت « كولينيون » فى «مذكرات الجمعية الانتروبولوجيه . فى السلسلة الثالثة من المجلد الأول » ان طول الفرنسيين تابع مباشرة لخواص الأراضى التى يسكنونها . قال ان سكان « بلوك ولو فالون وكنتان » من مقاطعة « سان بريوك » العائشين فى الأراضى الطفلية الرطبة القاحلة الممنونة بالقطع البائرة ، لا يبلغ طولهم فى المتوسط أكثر من ١ر٥٤٤ متر وكذلك حال سكان اقليم « مون دومارسان » الذين لا يجدون من الغذاء الا دون الكفاف بخلاف أهالى الجهات الخصبة الجيدة الهواء فيبلغ هنالك الطول المتوسط ١ر١٤٠ متر .

ذكر « ديلبون » فى « تاريخ مقاطعة لو ، مجلد ١ » ان أهالى اقليم « فيجاك » أقوياء أشداء متوسط طولهم ١ر٦٣٠ متر ، بخلاف أهل اقليم « لاتروكيير » الساكنين فى الأراضى الجرانيتية المجدبة الذين لا ينالون من الغذاء القدر الكافى فان متوسط طولهم ١ر٥٧٩ متر .

وأثبت « كوستا » فى كتابه « تجنيد أهالى كورسا » بأن القصر فى الجنود المقترعة يظهر بأخص مظاهره فى الأقاليم الممحلة مثل « ساليس وركونيانو وسيرا الخ » .

لأجل معرفة مقدار مايؤثر به الفقر وطريقة الحياة على الطول

الانسانى يكفى درس حالة سكان باريس .

أنبت « مانومريه » فى « مجلة الجمعية الانتروبولوجيه فى السلسلة الثالثة من المجلد ١١ بالنسبة لطول الباريسيين » وقرر « توبينار » فى « احصاء مدينة باريس » بأن شبان الاقسام الفقيرة أقصر من شبان الأحياء المثرية وأثبت « شامبويون » فى « مقتطف عن المذكرات الطبية العسكرية ، مجلد ٢٢ » بانه لايوجد الآن أحد من الجيل الخامس من الباريسيين لأن الغدد الخنازيرية والقصر وأشياء آخر من موجبات الانحطاط والضعف قضت بزوالهم وانقراضهم .

هذا الوسط الذى له هذا التأثير المحسوس فى تشويه وتسفيل الشكل الانسانى له مثل ذلك التأثير فى تغييره أو تحسينه .

هذا هو الجيل الامريكانى يتكون أمام انظارنا تحت تأثير الوسط فى ممالكهم المتحدة فان التغير الطارئ مشاهد محسوس . وذلك أن الامريكانى المعاصر لنا يقرب تدريجا من الامريكانى الاصلى ويتجلى ذلك التقرب بميل الشق الاسفل من وجهه إلى أخذ الشكل الرباعى بخلاف ماعليه تلك الجهة عند الانجليز فانها ذات شكل بيضاوى (انظر مورى وتودس) وأثبت (بروتيربى) أن الامريكى يقرب من أول جيله الثانى من ذوى الجلود الحمراء وابتدأت تظهر فيه تقاطيع مشابهة لتقاطيع أشخاص قبائل (لبينى لينابس والايروكوا أو الشيروكيس) . وان بشرته أصبحت خشنة كالجلد وأخذت فى التلون بلون الطمى وأصبحت المرأة هنالك ذات لون باهت قليل الجاذبية . وأخذت الرأس فى

الضعف والرخاوة ، والشعر فى الملاسة والقتامة . والعنق فى الطول والانافة . وصارت العظام تطول جهة الاطراف العليا أكثر من طولها إلى الاطراف السفلى حتى ان مصانع فرنسا وانجلتره تعمل للامريكيين قفازات ذات أصابع مستطيلة جدا ، واخذ جهة الحوض فى المرأة يشابه نظيره عند الرجل . وفى زعم (كرينتر) ان الامريكى المتروك ونفسه سينقلب إلى أن يكون مثل قبائل دوى الجلد الاحمر سكان أمريكا الاصليين . فماذا يكون الحال اذن فى الجيل العاشر ؟ نقول الجيل لان التغيرات التى تطرا على أجسام البشر يجب أن تعد بالاجيال كما نفعله لنسبة الحيوانات والنباتات لا بالسنين . ومن جهة أخرى إلى أى شكل يستحيل الشكل الامريكى مع الزمن تبعا لقانون الموازنة العضوية ؟ اذا كانت كل هذه الاعضاء آخذة لدى الامريكانى فى التغير فلاشك بأن شكله العام بما فيه هيئة جمجمته سيتغير أيضاً تبعاً لذلك . اذن فسيكون أمامنا جنسا جديداً ... مرتقيا أو منحطا على الارجح . . . يجب مجالدته وملاشاته ! ! (فى الكلام تهكم) (يتبع)

فتنة المدنية الغربية (١)

﴿ أو النيشرية الهندية ﴾

قرأت فى مؤيد الخميس الماضى ما كتبه حضرة مكاتبه المحترم

(١) هذا بحث عمرانى كتبته فى المؤيد تباعا ورأيت نقله هنا بالترتيب

فى كلكتا عن التبشريين الهنديين وما اندفعوا اليه من الدعوة الى أصولهم مما رآه خطرا على كيان الأمة وفتنة يخشى على وحدتها منها . فدعتنى غيرته أن أكتب للمؤيد هذه الجملة :

الشرق بازاء الغرب فى هذا العصر على حال لا يدركها مجرد النظر السطحى والتأمل القشرى والذهاب بالفكر فى تصويرها مذاهب التخيل . لأن تلك الحال نتيجة طبيعية أنتجتها فواعل وجودية كثيرة ذات آثار شتى وأفاعيل عدة تستدعى تحليلا علميا دقيقا وتشريحا عمرانيا متقنا حتى يأمن الباحث الاغترار بالعلل الثانوية وحسبانها عللا رئيسية بل حتى لا يطيش من تزاحم الظواهر على عقله فيعد الأعراض عللا . وهذا عيب كبير من كتاب الشرق الذين أخذوا على عهدتهم معالجته فى هذا العصر فان الأمر لدى هؤلاء الكتاب سهل جدا لا يستوجب من الشرقيين الا اطراح بعض عاداتهم القديمة والتمسك بشىء من العادات الجديدة فلا يمضى كبير زمن حتى يشق على المتأمل أن يميز الشرق عن الغرب فى مظاهر الحضارة ورواء المدنية ... ولكن الأمر بخلاف ذلك لدى سماسرة العلم العمرانى لأنهم يعلمون أن الشرق الآن بازاء الغرب فى موقف الضعف أمام القوة وما داما كذلك فبينهما حرب سلمية مستمرة سلاحها النواميس الطبيعية ونقطة النزاع فيها الأمور الحيوية . فان التنازع والتزاحم سنة عامة بين جميع الكائنات الارضية وهما فى النوع الانسانى أكثر صراحة ووضوحا واقسى أسلحة وأصعب مراسا . وبناء عليه فقواد فكر الامة يجب أن

يكونوا من المهارة فى أساليب الدفاع الحيوى والهجوم المعيشى وقيادة العواطف الى مظان الغلبة او الاحتماء على مثل ما يكون عليه أحسن القواد العسكريين دربة وحنكة . ولو صح ان كل ضارب بسيف أو مصيب برصاص يليق أن يقود فيلقا قليل العدد والعدد ضعيف المركز والمدد أمام خصم شديد الشكيمة حديد الشوكة لصح أن يقود الحرب الحيوية العامة فى أمة كل من يستطيع أن يمسك قلما أو يسود قرطاسا وكما ان جهل القواد العسكريين يقود الجيش مهما كان كثيفا مدربا الى مواقف التلف ومراكز الفشل كذلك نزق قواد الفكر يقود الأمة الى مزالق البوار ومزال الدمار ويجعلها فى الحرب الحيوية العامة طعمة باردة وغنيمة سائغة . وقد تكلمنا على شىء من هذه الحرب الحيوية فى المؤيد قبل عام . تحديد حال الشرق أمام الغرب ووصف تلك الحرب الحيوية وصفا دقيقا وتحديد مركز كل منهما أمام مناظره يخرجنا عن الدائرة المحدودة التى رسمناها لهذه العجالة . فنكتفى هنا بأن نقول ان هذه الحرب الحيوية لا تفترق فى شىء من نتائج الغلبة والقهر عن تلك الحرب الدموية الا أن لأشيائها اسماء مختلفة فى لغة التخاطب لا فى لغة العلم . فلا يقال مثلا دفاع وهجوم وهزيمة وانسحاب وقائد وجندى بل لكل هذه المعانى اسماء خاصة لا تشير الى مدلولاتها الصحيحة الا من بعد على قدر بعد لغة الناس عن حقائق العلم . من هنا يختلط الأمر على العامة وأكثر الخاصة ويستطيع الثرثار الفارغ أن يظهر بمظهر الكاتب المحقق بتقليده فى بعض الألفاظ التى تدل على

مدلولات تقبل التأويل ولا تأبى الشرح الطويل .

عنوان هذه المقالة (فتنة المدنية الغربية) واعنى بتلك الفتنة الاثر الذى يحدثه على النفوس رواؤها وزخرفها . هذا الاثر يفعل فى كل نفس فعلا يناسب قابليتها فيحدث عند بعض الناس يأسا لما يرونه من البعد الشاسع بين ماهم فيه وبينها فيحملهم ذلك اليأس على وقف عواطفهم وقواهم على منافعهم الذاتية وترك الامور العامة على غواربها ويولد عند الآخرين حركة تدفعهم لبلوغ شأوها والجرى معها فى ميدان واحد . هؤلاء أسلم فطرة واحيا فؤاد من الأولين ولكن سلامة الفطرة وحياة الفؤاد لا تغنيان شيئاً اذا لم يرشدهما علم لوجوه السير وبصيرة نافذة فى احناء الامور ومشتبهات الشؤون كما لا تغنى الشجاعة فى الحروب عن ذويها شيئا مالم تصحبها القيادة الحسنة والتدبير الدقيق أما وحدها فربما قادت أصحابها إلى موقف جعلتهم فيه عرضة لنيران العدو المجتاحة . فذهبوا كلهم قتلى اندفاعهم وصرعى تهورهم واستبسالهم

فى الشرق فرقة كبيرة لم يصبها داء اليأس من لحاق الغربيين لاسيما بعد رؤيتهم فخامة مظهر الأمة اليابانية الشرقية . ذلك المظهر كسر صنما كبيراً من أذهان الكثيرين حيث كانوا يعتقدون أنهم أحط من الأوربيين وأنه لامناص لهم من أن يكونوا مقودين بهم أبدالآبدين فجاءت هذه الامة الشرقية مكذبة لهذه الفرية الخطرة تكذيبا فعليا فأصبح حزب الراجين عظيم السواد . ولكن هذا الرجاء كما قدمنا لا يفيدنا شيئا بغير

العلم بوجوه السير وربما كان أدعى لفسادنا وأوجب لازدياد مصائبنا الاجتماعية

يرى كثير من انصار النهضة الجديدة أن مساواتنا للغرب لا تتأتى الا بتقليده تقليداً أطلقوه ولم يضعوا له حداً . وغفلوا عن أن للأمم أمزجة مختلفة كما للأفراد وان بين الغربيين والشرقيين من التباين فى القابليات ووجوه الاستفادة مالا يمكن لأحدهما أن يأخذ معه عن الآخر شيئا الا بعد قلب كيانه وسبكه على صورة تناسبه وتلائم طبيعته الخاصة .

لا أنكر أن أمامنا أموراً رئيسية يجب أخذها عن الغرب بطريق التقليد . ولكن أقول انه لا يتأتى أخذها الا بعد اعطائها شكلا شرقيا يناسب المزاج الشرقى ويتفق مع الطبيعة الشرقية . والا فما بالنا اختلطنا بالغربيين قرنا ولم نأخذ عنهم غير ترتيب نضائد البيت وتنظيم أدوات المائدة ؟ ولا نسمى هذا أخذا فانك لو أبعدت الغربى عن إشرافه على تلك النضائد وتلك الأدوات لما استطاعت أن تحفظ صفتها الغربية سنة أو سنتين . بل ان هذه الخلطة كلها لم تعد الشرقيين لمجاراة الغربيين فى اتقان ملهى مع شدة تفانى العامة فى تقليدهم من تلك الجهة . أليس ذلك لتباين المزاجين وتخالف القابليتين . إن شئت فقل مثل هذا فى التعليم والتربية وكل ضروب المحاولات الانسانية

كثير من أنصار النهضة الجديدة يتعجلون فى أحكامهم فينسبون لبعض الظواهر المدنية من الآثار والنتائج ماليس لها . وربما كانت تلك الظواهر فى نظر علماء تلك المدنية من الجوائح القاسية على الهيئة

الاجتماعيـة فيمهدون بذلك للأمراض التى ينوء بها الغرب طريق التسرب الىناويكونون علينا فى الحرب الحيوية العامة أشد من مساورينا من الأمم المزاحمة

هذه الظواهر المدنية التى يخيل للناظر اليها سطحياً أنها أخص مميزات الغرب عن الشرق ، هى مسائل وحدة الزوجة وعدم الطلاق (كان) ؟ وتـكشف النساء . واسـتحلال الربا . هذه العادات الغربيـة يحسبها بعض المتحمسين للمدنية أسباباً أولية لرقى الأمم الأوروبية ، وفواعل باعثة لنهوضهم وصعودهم . لأنهم يرون تلك الأمم لا تمتاز عن الشرقيين امتيازا حقيقياً فى شىء من العادات والأميال العامة الا فيها فيخالون أنها مستودع سر رقيهم ، ومهب حياتهم وقوتهم . وتراهم يتعجلون فى اتخاذها عللا رئيسية كما يتعجلون فى اسـتنتاج نتائجهما . فيبنون على وحـدة الزوجة ، وعـدم جواز الطلاق . كل ما يمـكن تخيله من وحـدة العائلة واتساقها واسـتتباب أمورها ، ومتى تـكونت الأمـة من عائلات منتظمة كان النظام لزيم هيئتها العامة ، والتضام صفة من صفاتها ، ويعلقون على تـكشف المرأة امكانها بلوغ شأو الرجل فى العلم والحـكمة ، ومشاركتها له فى الأمور الجسدية والأدبية فتصبح اماكاملة تربى أشـبالا ينفعون البـلاد ، وترقى بهم الأمة الى أوجها الأعلى . وينيطون باسـتحلال الربا انتظام سائر الشؤون التجارية ، وارتقاء نسبة الثروة العمومية ارتقاء لا حد له . ماذا يعوذ الأمة بعد ذلك (على قولهم) وقد توفرت فيها سائر الشروط المرقية

للأمم ؟ نظام فى العائلة . نظام فى الاجتماع . أدب فى الافراد . نماء فى الثروة العامة . أليس هذا كل ما يتمناه الغيور على أمته الهائم برقى بلاده ؟ . . . ها هو معقود بأهداب هذه العادات التى تعد على الأصابع ؟ فما المانع من الأخذ بها غير التعصب للعادات الموروثة ؟ . . . يقولون هذا و يغفلون عن أن هذه العادات بعينها كانت فى أوربا طول القرون الوسطى وما قبلها ، ولكنها رغما عنها لبثت فى ظلمات الفساد الفردى والاجتماعى ألف سنة لم تتقدم للامام خطوة واحدة وكانت أمامها دولة الشرق العظمى المجافية لكل هذه العادات فى رفعة وفخامة لم تصل اليهما دولة من دول العالم .

ربما كان لهؤلاء المتعجلين شبه عذر فى هذه العجلة فى الحكم فان لمظهر كل مدنية فخيمة أثرا على أفئدة مشار فيها من الضعفاء يشبه أثر السحب بل يفوقه . وقد أثر حال آبائنا أيام كانت لهم الدولة العظمى ، والصولة الكبرى على أفئدة الأمم ، فخلعتهم عن معتقداتهم التى جمدوا عليها قروناً متتابعة ، وصاروا من أشد أشياعها ، وأنستهم لغتهم التى نشؤوا عليها بلا إجبار ولا اكراه ، حتى كانوا من أفصح الناطقين بالعربية ، ومن حفظة قوانينها وقواعدها . فلا عجب بعد هذا أن يندهش أناس عندنا من فخامة هذه المدنية الغربية ، فيعللون رقيها بأمراضها ، و يعزون رفعتها لجراثيم أدوائها ، وقوفا منهم مع الظواهر الفتانة ، واكتفاء بالقشور الجذابة كما لا عجب لو كان قام رجال من تلك الأمم الغربية أيام فساد أحوالها واضطرابها فى

شؤونها أمام المدنية الشرقية الباهرة فى القرون الوسطى ، فكتب لبنى جلدته أن سبب تأخرهم وانفصام وحدتهم ، هو انحلال عائلاتهم ، واختلال نظامها الناشىء من قانون وحدة الزوجة ، وعدم جواز الطلاق ، وأن علة فساد تربية نسائهم : هى عدم تحجبهن عن أنظار الرجال ، وأن داعية اختلال أحوالهم الاقتصادية ، وانتشار الفاقة والفقر بين الأفراد ، واحتكار آحاد قلائل الثروة العمومية ، هو تسامحهم فى تجويز الربا . نعم لا عجب لو كان قام قائم منهم بهذه المقالة ، ولعله كان يجد من الحوادث ما يؤيد قوله ومن المصغين من ينصر حزبه .

نكتفى بهذا القدر فى هذه العجالة ، ونتبعها غدا بدرس هذه العادات من وجتها العامة بقصد إقامة البراهين المحسوسة على أنها أمراض هذه المدنية وجراثيم تلاشيها مما يجب أن يهرب منه و يبتعد عنه لا أن يدعى اليه و يعلق صلاح الشرق عليه .

﴿ وحدة الزوجة وعدم الطلاق ﴾

(١)

الانسان بين خياله وهواه على مثل حال الريشة بين الأعاصير المتعاكسة والعواطف المتقابلة بينما يجذبها تيار بقوة سريانه يصدمها آخر بشدة اندفاعه ، وفيما هى نقطة النزاع بينهما اذا اختلسها منهما ثالث عن اليمين أو عن الشمال . كذلك الانسان بين تيارات هواه

وخياله تتنازعه وتتقاذفه حتى يراه مضطرا للتنازل عن إرادته فيستسلم ولكن إلى ماذا ؟ . . . إلى ما يجهله ، وان كان يحس به . ولماذا ؟ . . . لما لا يدرى وان سيق اليه . والى متى ؟ . . . الى أن تمتد إليه أيدى الموت الطبيعى فى حده المحدود أو تنزل به جائحة فى أثناء سباحته فى تلك الأعاصير المضطربة فيودع الحياة على حال من الأحوال .

جسم نحيل وطرف كليل وعقل ضئيل وحواس قاصرة ومع ذلك فؤاد ملؤه مطامع وحشو إهابه مطالب ونفس تواقة لمجاوزة الحدود وتعدى التخوم وفكر جواب جوال لا يرتد عن غاية ولا ينتهى الى نهاية وخيال يجسم المستحيل وينفذ لما يعد دوائر الامكان . أليس هذا هو الانسان فى جملته ؟ نعم وهو بتلك الصفات المتضاربة فى وجود كله مجاهيل وكون كل مافيه أسرار ومساتير ، ولا نهاية تقصر عنها عزمات الفكر وتنحل دونها آمال الخيال . وجود كل مافيه جواذب لهذا الانسان وأواسر لفؤاده الولهان . ولكنه يهم بدون وسيلة فتخونه الحيلة . ويشرئب بغير آلة فتقعده الكلالة وضؤولة الحالة ، فيثور على نفسه يوسعها ذمائم ينبرى لبنى نوعه فيسلقهم شتما ثم يلتفت للوجود فيعزو اليه من النقص والقصور ماهو به أولى . كل ذلك جهلا منه بالحقائق وحدودها . وعماية عن القوانين ومجهودها . وخفه سجلها عليه الخيال ولطخه بها الهوى والضلال . وربما لحظ هو ذلك من طرف خفى ولكنه عتى عنيد يريد أن يجعل هواه دستوراً للوجود وخياله قسطاساً تقوم عليه الحدود .

الناس رجلان رجل استسلم لعوامله الذاتية والمؤثرات الكونية استسلاما سلبه ارادته فعاش عيشة آلية لا يفترق عن آلة الطحن أو السوق الا فى زعمه الحرية وان كان من أسر الهوى والجهل فى اوثاق أى أوثاق. ورجل لم يرد أن يستسلم لما ذكر أو انف أن يكون آلة لما هو أحط رتبة منه فطلب المفر وتحسس من المخرج فتمسك بأهداب الحقيقة فأوى الى حصنها واطمأن الى كنفها وان كانت لا تواتى هواه فى كل حين ولا تتملق لعواطفه بالتسويل والتزيين . بل هام بها لعلمه أنها قوام حياته وبقائه وعليها مدار فلاحه وكماله ، وان كلفته المشاق والمتاعب ، وصبت عليه أنواع المعاطب .

لكل من هذين الرجلين نظر فى نفسه وفى الوجود وعمل فيهما وحكم عليهما ونصيب منهما . أما الاول فيعتقد فى نفسه الكمال والجمال وفى خلاله الفضيلة والاعتدال . فلم لا يواتيه الوجود بمطلوبه وتكون حوادثه على وفق مرغوبه ؟؟؟؟ فهو بهذه الفكرة يعمل عمل المغرور ويحكم حكم النزق فلا غرو ان لم يصب من كده وكدحه غير النصب والوصب . ولا عجب ان قلنا انه يعيش معيشة الآلة مقوداً بنواميس الكون الميكانيكية وان أراه خياله أنه حر مطلق ، ودلس عليه هواه بأنه ذو ارادة واستقلال ؟ هذا الرجل تناله الجوائح وتغتاله النوازل فيتهم الوجود ولا يتهم نفسه ويذم الحوادث ولا يكمل نقصه . وكيف يطلب المزيد من يعتقد أنه كامل أو يتهذب من يرى أنه حال بكل الفضائل .

وأما الرجل الثانى فيعتقد فى نفسة النقص وفى خلائقه الافراط والتفريط وفى أدبه الحاجة الى الصقل وفى ملكاته الداعية إلى التهذب ، فان حزبه الوجود بمصيبة أورمته الحوادث بملمة رنا الى نفسه فبحث عن مثاردائه واستفاد من وقع المصيبة فنقب عن سرقوته وجهات ضعفه لايخطر بباله يوما أن يستسلم لخياله فيبنى قوانين الوجود على مقتضى أوهامه ويسن للكائنات دستوراً بعقل أقر بقصوره وتحقق من وهن وسائله . فلاغرابة ان ازداد هذا الرجل كل يوم تخلصا من أسر الطبيعة وأوقع فى اسره منها قوات تفيده فى تقويم أمره وتعديل معوجه ولا عجب ان جاءت الحوادث على وفق مطالبه ، لأنه لم يطلب مستحيلا ولم يجاوز فى التمنى مقدوره .

الناس قلنا أحد هذين الرجلين أما مابينهما فلايدخل تحت حصر ولا يطمع فى ضبطه عاقل . فكن ما شئت فالمقدمة معلومة والنتيجة غير مجهولة .

تعدد الزوجات والطلاق مسألتان اجتماعيتان تناولهما سماسرة الخيال واحلاس الهوى من كتاب الأقاصيص فى اوروبا بما قدروا عليه من ضروب السخرية فى القرن الماضى ولايزال لهم بقية حتى صارت عنوان الطعن على الشرق ومقدمة لكل ما يكتب ضد الشرقيين سواء فى المعتقدات أو السياسة . وربما كان الكاتب الاوروبى الطاعن على إباحة تعدد الزوجات له عشر صواحبات متزوجات يغريهن بماله تارة وبجاهه أخرى ويهتك من عرضهن مايجب أن يكون مصوناً فيخونهن

فى أخص صفاتهن ويعتدى على شرف أزواجهن جبناً وخسة ويكون سبباً فى خلط الأنساب وتنجيس الأعراق ، ثم تراه لا يخجل مما هو فيه فيستملى من هواه ما يستملى فى التشنير على ما يقطع جرثومه الدنايا ويقف بالأغراض فى حظائر الطهر ويحمى الأنساب من دنس الريبة . ثم يأتى أخونا الشرقى المفتون بمدنية الغرب المأسور لزبارجها وزخارفها المعجب بلغاتها وآدابها فيقرأ ما سوده أولئك الكتاب فى تلك الأقاصيص فتنتقش تلك الشبهة فى ذهنه انتقاش الرسم فى الحجر الصلد . فلماذا لا يثور عليها وهو يريد أن نكون كالغرب رقياً ومدنية . ولماذا لا يسعى فى بثها فى بنى جنسه وهو لا يعتقدها من المصائب الاجتماعية ؟

إذا طالع الانسان قصة حسنة الأداء ، الخيال فيها ظاهر بمظهره الفاتن وكان موضوعها شرح حال عائلتين . أولاهما للزوج فيها زوجة واحدة . وثانيتهما للرجل فيها زوجتان له من كليهما أولاد . فأبدع الكاتب ما شاء فى اطراء نظام العائلة الاولى واتساق أمورها وسريان الود والحب بين سائر أجزائها . وأطاق لقلمه العنان فى تقبيح نظام العائلة الثانية ووصف تلك البغضاء الملتهبة بين الضرتين وذلك التنغيص المتصل منهما الى الزوج وصور لك حال تلك الاخوة من الجفاء والتعادى وأعطى كل ذلك صقلة من الابداع الشعرى وبريقا من الاحسان الكتابى يريك الأمر مجسما . فماذا يشعر المطالع فى نفسه ؟ لاشك يجد فى نفسه من ألم ذلك الخيال ما يحمله على الطعن فى تعدد الزوجات بكل قواه . وماذا عليه من تغيير مذهبه وهو ملآن البطن والكيس ومتكىء على أسرة الديباج يطل على

حديقة بيته ؟ ماذا عليه لو طعن على تلك العادة لكل من يراه وسعى جهده فى تغييرها مادام هو قرير العين من حالته الشخصية ؟

يكتب القصصى الاوربى مثل هذه الخيالات ويتابعه مطالعه الغربى والشرقى من الذين يكتفون بالخيال ويخافون بطش الأوهام . بينما يكون العالم العمرانى الذى خلع ربقة الهوى والخيال من عنقه ينظر لتلك الملايين العديدة من النساء اللاتى لم يجدن أزواجاً يحمونهن شر الفاقة فرمين أنفسهن وأجسامهن الرقيقة بين لهيب التنانير فى المعامل ودخان المواقد فى المصانع لينلن قوتهن فيبكى على حالهن أسى ويندب حظهن أسفاً ويصيح فى أوجه الناس لوضع حد لتلك الحالة التعيسة . فيقول كما يقول الفيلسوف (فوربيه) « ماهى حالة المرأة اليوم ؟ انها لا تعيش الا فى الحرمان حتى فى عالم الصناعة الذى ألم الرجل بجميع أنحائه لغاية الاشتغالات الدقيقة بالخياطة والريش . أما المرأة فيراها الناس منكبة على أشق الأعمال فى الخلاء . فما هى إذن مصادر الحياة للنساء المحرومات من المال ؟ آ لمغزل أم جمالهن اذا كان لهن جمال ؟ نعم ان حيلتهن الوحيدة هى السفاد العلنى أو السرى ليس الا وهى الحيلة التى تنازعهن الفلسفة إياها للآن . » اه

وبينما يكتب أسرى الخيالات فى أوروبا أخبار تقدم النساء فى الصنائع والفنون ويلتقطها عنهم المقلدون بالبشر والارتياح فيتفكهون بها فى المنتديات ويظهرون بها سمو طالع المرأة الغربية ويتأففون من حال المرأة الشرقية وهم جالسون على نضائد الحرير والاستبرق . ينادى

العلامة الاقتصادى (جول سيمون) فى اوروباقائلا . «النساء قد صرن الآن نساجات وطباعات الخ الخ وقد استخدمتهن الحكومة فى معاملها وبهذا فقد اكتسبن بعض دريهمات ولكنهن فى مقابل ذلك قد قوضن دعائم عائلاتهن تقويضا . نعم ان الرجل صار يستفيد من كسب امرأته ولكنه بازاء ذلك قدقل مكسبه لمزاحمتها له فى عمله . ثم قال . وهناك نساء أرقى من هؤلاء يشتغلن بمسك الدفاتر وفى محلات التجارات ويستخدمن فى الحكومة بصفة معلمات وبينهن عدد عديد فى التلغرافات والبوسطة والسكك الحديدية وبنك فرنسا والكريدى ليونيه ولكن هذه الوظائف سلختهن من عائلاتهن سلخاً »

يقول جون سيمول فى فرنسا هذا فيجيبه زميله فى انكلترا العلامة (ساموبل سمايلس) فى كتابه المسمى الاخلاق . « ان النظام الذى يقضى بتشغيل المرأة فى الفابريقات مهما نشأ عنه من الثروة للبلادفان نتيجته كانت هادمة لبناء الحياة البيتية لانه هاجم هيكل الدار وقوض أركان العائلة ومزق الروابط الاجتماعية . فانه بسلبه للزوجة من زوجها والاولاد من أقاربهم صار بنوع خاص لانتيجة له الا تسفيل أخلاق المرأة لان وظيفة المرأة الحقيقية هى القيام بالواجبات البيتية مثل ترتيب مسكنها وتربية عائلتها والاقتصاد فى وسائل معيشتها مع القيام بالاحتياجات العائلية ولكن المعامل تسلخها من كل هذه الواجبات بحيث أصبحت المنازل غير منازل وأضحت الأولاد تشب على عدم التربية وتلقى فى زوايا الاهمال وانطفأت المحبة الزوجية وخرجت

المرأة عن كونها الزوجة المحبوبة والقرينه الغيور على الرجل وصارت زميلته فى العمل والمشاق وباتت معرضة للتأثيرات التى تمحو غالباً التواضع الفكرى والأخلاقى الذى عليه مدار حفظ الفضيلة »

مم كل هذه الشكاوى المرة وأى سبب لالقاء النساء أنفسهن بين أنياب هذه النيران المستعرة ؟ أليس لعدم وجود من يحميهن فى الحياة من الأزواج ؟ قل لأولئك الغيورين من الشرقيين أى الحالتين أحب للنفس الشفيقة واهداء للعواطف الثائرة أوجود ملايين النساء فى تلك الحالة التعيسة طول حياتهن هلكى فى الجسوم والأعراض أم ايواء كل أربعة منهن الى بيت رجل واحد يسعى طول نهاره لاقاتتهن ويكد بجسمه فى سبيل راحتهن ؟

لا جرم أن أنصار المدنية الأوربية لم يضعوا الشفقة فى محلها ولم يستعملوا المرحمة فى حقيقتها . واذا كان غاية مرمى شفقتهم ومنتهى منال مرحمتهم هى ادخال النساء فى هذا الدور الذى ينتحب منه العالم الغربى فانهن براء من أنصارهن راضون بما هم فيه من حالتهن .

ليس هذا كل العجب . بل العجب كله أن يتخيل قوم أن بين وحدة الزوجة وعدم الطلاق علاقة بالتمدن الأوربى وقد علموا أن أوروبا لبثت ألف عام لم تترق عما كانت عليه خطوة واحدة رغماعن وحدة الزوجة وعدم جواز الطلاق فى قوانينها وكانت أمامهم مدنية آبائنا الأولين المعددين للزوجات والمجوزين للطلاق تحير مداركهم وتدهش أبصارهم وتجعلهم يظنون بأنفسهم الظنون . وهاهى أوروبا اليوم قد

أحست بسوء مغبة عدم جواز الطلاق فقررته فى قوانينها ولعلها على مقربة من تقرير جواز تعدد الزوجات تخليصا للمرأة من أنياب الفاقة وابقاء على جسمها اللين الشديد التأثر من نيران المعامل ودخان التنانير المستعرة وقد بدءوا يتكلمون فى ذلك كما بدءوا فى التكلم فى الطلاق قبل تقريره بمائة عام ومن يعش ير العجب فياصاح لا تقنع بأنك صاح .

تكشف النساء

(٢)

ليس العجب أن يقوم قائمون منا يشيرون علينا بالقاء الحجب عن النساء وتخليصهن من أعباء الأزر والبراقع وانما كان العجب أن لا يقوم بتلك الدعوة داع ونحن تحت تأثير فتنة المدنية الغربية التى أخذت بمتنفسنا فى كل مكان .

نحن بازاء هذه المدنية الباهرة ومظاهرها الساحرة كالفقير المعدم أمام المثرى المكثر . فكما أن ذلك الفقير يكون مفتونا بكل مايراه فى أخيه المثرى ومعجبا به وذاهبا فى تقدير قدره وتفسير فخامته مذاهب الخيال والوهم . كذلك نحن بازاء مدنية أوروبا مستهدفين للفتنة بها ومرغمين للاعجاب بكل مظاهرها وظواهرها ومجبرين على الأخذ فى تصويرها وتكييفها مآخذ التخيل والتوهم . فلا غرو ان جعلنا حبتها قبة ودرهمها قنطارا وحكمنا عليها حكم المفتون على الفاتن .

كنت قبل اليوم أعجب من قيام داع بالذهاب مذهب الاوربيين

فى عادة من عاداتهم الخاصة فصرت اليوم أعجب كيف اننا لم نكن كلنا دعاة الى الأخذ بسائر عاداتها مع مانحن عليه من التعرض لسائر مؤثراتها الصارمة . وكنت استكبر ظهور بعض الناس بمظهر الغربيين فى الامور التافهة كنظام المأكل والملبس فصرت الآن استكبر عدم سريان هذا التقليد فيما هو أخص من ذلك وأمس منه بحياتنا الشخصية والعمومية مع مانحن عليه من الانكشاف لفواعل تلك المدنية وعواملها القاسرة . فلم يسعنى الا ابدال التعجب بالاعجاب وأصبحت أستدل بقلة هذا الانفعال لتلك المؤثرات القوية على مقدار قوة المقاومة التى أودعتها فطرنا وصرت كلما رأيت سرعة تأثر بعض الطوائف الشرقية المختلطة بنا ممن كانت آخذة أخذنا فى العوائد ازددت اعجابا بقوة مقاومتنا ورجوت خيراً فى المستقبل ، وان استدل كتاب تلك الطوائف وبعض السطحيين من كتابنا بسرعة تأثرها على جودة قابليتها للترقى وباستعصائنا امام تلك العوامل على نقص قابليتنا له . دعهم يعيرونا بذلك فان لهم نظراً فى أنفسهم يخالف نظرنا فى أنفسنا وهم ان فرحوا بسرعة تأثرهم وبنوا على ذلك آمالا فنحن أفرح منهم بسلامة شخصيتنا وقوة مقاومتنا وان جرت علينا أهوالا . ولكل امة قدر فى نظر نفسها وليس هنا مجال تفصيل .

شبهنا أنفسنا أمام الغرب بفقير معدم حيال مثر مكثر ولا يكون هذا التشبيه مطابقا للواقع الا اذا وصمنا ذلك الفقير المعدم بصفة الجهل ووسمنا ذلك المثرى المكثر بسمة العلم . هنا تستقيم أجزاء

المشبه والمشبه به ويكون التطبيق مشخصاً لصورة الواقع . فلنستعر من هذا التشبيه أمثلة فى تصوير مركزنا وفتنتنا فنقول :

الفقير المعدم الجاهل يفتتن بكل شيء فى المثرى الموسع المتعلم ويراه حسناً وان كان قبيحاً . لأنه يرى من جلال وجهه صورة هواه ومسرح مناه ومطمئن همه وضالة حسه وهى الثروة ، فيتوهم أن كل ما فى ذلك المثرى متنزل اليه من أفقها ومستفيض عليه من ينبوعها . حتى لو سعل لرأى لسعلته نغمة يحب أن يتعلمها ليتعملها ولايزال بحنجرته يوسعها قبضا وبسطا حتى يحاكيها أو يكاد . وهكذا تكون كل حركات المثرى وسكناته فتنة لمن دونه من الفقراء الجاهلين . يروى فى تعليل رفع الساعد عن الابط فى التسليم الذى انتشر بين شبابنا وكهولنا فى هذه السنين الأخيرة أن أميرة من أميرات أوروبا من اللاتى لهن الميزة فى المحافل دعيت مرة الى ناد جمع صفوة القوم وعليتهم وكانت مصابة بدمل فى إبطها الأيمن فاحتاجت عند المصافحة الى رفع ساعدها عن موطن تلك البثرة تحاميا من الألم فظن ذلك بعض الناظرين نوعاً مبتكراً فى التسليم فشاع وذاع حتى أتى هذه البلاد فرسخ بها عند بعض المحبين للجديد .

يرى الفقير قصور الموسع وبساتينه ومركباته ومايسحبه من الوشى والحبر ومايحتاط به من الغاشية والخدم ومايجمل مجلسه من البنين والصحب ومايهال عليه من البيض والصفر ومايعده فى بعض لياليه من معالم اللهو والقصف مابين وتريرن وشاد يفتن . وخوان

يوضع وصحاف تصف وثريات من الكهرباء تشملهم من أنوارها بما يزيد مجلسهم بهجة وناديهم فخامة . يرى الفقير ذلك فلا يتخيل أن فوقه مزيدا ويظن أن السعادة بأخص معانيها قد ألقت بجرانها فى هذا البيت وأن هذه الحال هى مايجب أن تشحذله العزائم وتشدله الرواحل وإن عابها الفيلسوف وزرى عليها المخشوشن . هات لهذا الفقير المفتون مااستطعت من مقررات الفلسفة ونوابغ الكلم المأثورة وما كتبه العلماء على السعادة ومواطنها والراحة ومعادنها والثروة وهمومها فلا تراه يأبه بما تقول ، لأنك تودأن تهدم له بالقول مايدعى أنه شارفه بالعين ، وتفسد له بالكلام مايزعم أنه ذاقه بالحس . إن قلت له ألا ترى من خلائق ذلك المثرى الذى فتنتك حاله . المقامرة وهى مدعاة للفاقة ، مجلبة للاملاق ، والمعاقرة وهى متلفة للصحة مذهبة للمروءة ، واللهو وهو مضيعة للفضيلة معجزة للهمم ، والقصف وهو مدحرة للذكاء مكسلة عن العظائم . أجابك أن كل ذلك من لوازم ذلك النعيم ومتمماته ولن نجد ثروة تخلو من تلك الآفات قط . ومهما كان من أثرها على صاحبها ففى وسائله مايعوض عليه مايخسره بسببها . ثم يتحرك تحفزا للانصراف رغبة عن قولك وسأما من محاضرتك ، من شدة ورطته فى فتنته وتشبث عقيدته بمخيلته . فان استلفته الى أن ذلك المثرى مدين لكثير من المصارف المالية وأن ثروته على شفا التلاشى إن لم يؤب للاعتدال ويرجع للكمال أغرق فى الضحك منك وقال ماذا تقول ؟ أين تذهب تلك الالوف المؤلفة من الفدادين التى ريعها

السنوى كذا وكذا من الدنانير ؟ أليس فى ذلك العقل المنير الذى اقتدر على جمع تلك الثروة من الوسائل مايمنع عنه غائلة الافلاس ؟ وهل يعقل أنك وأنت أحط منه قدرا تنتقد عليه مالايدركه فى نفسه وتتخوف عليه مالم يعدله ألف حيلة فان ضربت له المثل بفلان وفلان ممن كانوا أضرابه فى الثروة وأملقوا ، هز كتفه صلفا وقال : تلك كانت عقول قديمة وأفكار عتيقة أماصاحبنا فحديث النشأة مصوغ على الطراز الجديد . ثم يسرع بالتسليم عليك ويهرول هربا من ثقل محاورتك

هذا المثل ينطبق تمام الانطباق على مانحن فيه من الافتتان بمدنية الغرب : نرانا مجبرين مرغمين على الاعجاب بكل شىء فيها واهمين فى تقديره ذاهبين فى تصويره مذاهب الشطح . وكيف لانكون كذلك وكل مافيها يصور لنا النعيم فى أبدع صوره ويشخص لنا السعادة فى أخص صفاتها ؟ وكما أن الفقير الجاهل لا يتخيل أن يكون للثرى أدنى شاغل يشغل باله أو أقل عوج يهدد مستقبل أمره ، وإن كان له شىء من ذلك فهو على مقتضى فلسفته عرض يزول وملمة لا تلبث أن تتلاشى ، كذلك ضعفاؤنا بازاء هذه المدنية يكبر عليهم أن تتخيل ان فيها مرضا يهدد كيانها أو بها عوجا يخشى أن يعدو على حياتها . ولهم فى تعليل ذلك فلسفة تنطلى على أكثر العقول وتقف بها موقف الحيرة والذهول . إن عددت لهم من آفاتها فى النفس والعقل والعرض والجسد والمال مايرهب الجسور مجرد سماعه ويدهش الجامد محض ذكره . قالوا ماذا يغنى الكلام إذا كان الواقع ضد ماتقولون ؟ تقولون إن

هنالك خلطا وخبطا وحياة مهددة وسقوطا وشيكا ووو الخ ولا نرى نحن بل ولا ترون أنتم الا نظاما وكمالا وقوة وعلاء . فهل يقنعكم أن تنكروا الحس فى سبيل الكلام أو تبيعوا الحقيقة بالأوهام ؟

إن قلت لهم : إن ذلك النظام والجمال لا ينافى أن يكون بجانبهما مرض يمتص الحياة و يحلل عناصرها . كما قد يكون المثرى المسرف فى أبهة وفخامة تأخذ بالعين والقلب ، وهو من مهاجمة الدائنين فى أضيق من قفص ببغائه قالوا هذه أحلام تنطلى على النائمين والمهومين . أما الأيقاظ الصاحون فلا يطربهم الضرب على هذا الوتر الخيالى وان كان حسن الوقع على النفس والسمع ثم ينصرفون عنك قانعين بما هم فيه .... وأى شىء هم فيه ؟ هل حفظوا موجودا ؟ هل استردوا مفقودا ؟ هل أرشدوا تائها ؟ هل قلدوا فنجحوا .

أنا لا أغالى ، فأقول ان المدنية الأوربية واهية الدعائم ، وشيكة الانهيار والتلاشى . كيف أقول ذلك وقد كتبت هنا وفى مباحثى ما يشير الى قيام هذه المدنية على أصول ثابتة مأخوذة منا ومنقولة عنا بشهادة واضعيها . ولكن قلت وأقول ان من العبث وعدم التروى أن نأخذ بضاعتنا مطبوعة بطابع أجنبى ومصبوغة بصبغة غير صبغتنا الأصلية لأمرين : (أولهما) ان ذلك يقدح فى الحمية ويحقرنا أمام أنفسنا وأمام غيرنا (ثانيهما) لأنه لا يتأتى أن تصح أمة بعلاج أمة أخرى مباينة لها جنساً ولغة ومزاجاً الا اذا ركبت ذلك العلاج على نسبة مزاجها وقابليتها كما فعلت أوربا فيما أخذته عنا قبل قرون .

وهذا هو سر عدم فائدة التربية والتعليم لدى المصريين الذين يتعلمون على الأسلوب الغربى كما سنبينه فى مقالاتنا المستقبلة مواتاة الاقتراح أحد محررى هذه الجريدة المحترمين .

قلت ان أوربا قائمة من جهة مدنيتها على دعائم ركينة ، ولكنى لا أنكر أنها مصابة باصابات خطرة على كيانها ماسة بحياتها . لتلك الاصابات أشكال وصور شتى يجمعها أصول ثلاثة : العقيدة والمرأة والمال ، ولكنى مهما كتبت وكتب غيرى فى تلك الاصابات وخطاراتها فلا يكون لكتاباتنا كبير أثر على أذهان المفتونين بمظاهرها . وما أقل الخاضعين لسلطان العلم فى هذه البلاد .

تخيل رجلا من الشرقيين يرى سربا من النساء الأوربيات يتلألأن فى الحرير والوشى وبجانبهن رجالهن وأولادهن ، والكل يروح ويغدو بين الحدائق الناضرة ، والغدران الجارية تلوح على وجوههم ظواهر السعادة ، وتنم أساريرهم عن الصفو والهناء . تخيل رجلا من الشرقيين الضعفاء يرى هذا المنظر ، ثم تعال فقل له ان جسرت عليه : لا يغرنك هذا المظهر الباهر ولا تقس عليه ماخفى عليك ، فان فى أوربا مسألة يقال لها (مسألة النساء) يزعم العلماء أنها مسألة خطيرة تهدد مدنيتهم بسقوط سريع ، نراه يتهمك بالغلو والخشونة ، ويزعم أن بك جمودا على الموروثات ، وتعصباً للعادات فلو قلت له إن أهل تلك المدنية أنفسهم يشكون من جهة تكشف النساء وما جر اليه من البذخ والترف كتب العلامة (لويز پرول)

فى مجلة المجلات الفرنساوية (مجلد ١١) تحت عنوان (الفساد السياسى) يقول « إن فساد الأسس السياسية وجد فى كل زمان ومكان ، ومن الغريب المدهش ان مظاهره فى الزمن السابق مشابهة تماماً لمظاهره فى الزمن الحاضر بمعنى أن المرأة كانت العامل الأقوى فى هدم الأخلاق الفاضلة » ثم قال : « لقد كان الرجال السياسيون فى آخر عهد الجمهورية الرومانية يعيشون بصحبة النساء ذوات الطباع الخفيفة اللاتى كان عددهن بالغا حد الكثرة . فصار الحال اليوم كما كان فى ذلك العهد ، ترى النساء اندفعن فى تيار الحب البالغ حد الجنون وراء البذخ واللذات .

إن تلوت عليه ذلك قال تلك آراء الأفراد ، وقد بليت كل مدنية بالمتطرفين ممن لا يجوز الحكم بأقوالهم عليها . ألا ترى أن فى أوربا فوضويين ؟ فهل تستطيع أن تستدل بقول واحد منهم ان أوربا على وشك ملاشاة الحكومة والقوانين والجيوش بحجة أن الفوضويين ينددون بذلك ؟

فان قلت اليك فكر الأمة فى دائرة معارفها المتداولة بين آحادها . جاء فى دائرة معارف القرن التاسع عشر عقب ذكرها خطبة (كاتون) الرومانى فى مجلس النواب ضد ابتذال النساء قالت « وفى هيآتنا الاجتماعية الحاضرة التى فيها النساء يتمتعن بحرية مفرطة نرى دناءة ذوقهن وميلهن الشديد للزينة يحملهن دائما على الاشغال بجمالهن وبكل ما يزيد حسنهن . كل ذلك أكثر خطرا وهولا مما كانت عليه

الحالة فى روما . »

هنا تبدوا على صاحبنا علائم التبرم من فداحة الحجة وصرامتها ، ولكنه ربما تغلبت الشهوة ، فقال ان الكاتب يقول : (أكثر خطرا وهولا) وهى لهجة الكتاب وديدنهم فيما ينتقدون ، فبأى حجة تصرفها على حياة المدنية ، وتستنتج من ذلك أنها على شفا الدمار ؟

فان قلت له مكانك فسأنقل لك مالا مجال لتأويله ، ثم تلوت عليه ما جاء فى تلك الدائرة فى ذلك الفصل بعينه وهو قولها : « نعم انا لسنا أول من لحظ هذا الأثر السيء الذى يحدثه حب النساء للزينة ، يوماً فيوماً على أخلاقنا فان أشهر كتابنا لم يهملوا الاشتغال بهذا الموضوع الهام ، وكثير من أقاصيصنا التى قوبلت بالاستحسان العام قد وصفت بطريقة مؤثرة الخراب الذى يجره على العائلات الشغف الجنونى بالتزين والتبرج . فكيف النجاة (تأمل) من هذا الداء الذى يقرض مدنيتنا الحالية ويهددها بسقوط سريع جدا وان شئت فقل بانحطاط لا دواء له » .

هنا يشعر صاحبنا بحرج الموقف فان كان ممن شوهت الفتنة الغربية فطرته انصرف عنك مصراً على مافى رأسه وان لم يجد له دليلا غير الأمانى وأما ان كان فيه بقية من خير رجع الى نفسه وتحقق أن مسألة المرأة لايحلها خلع عذار واطراح برقع وازار . وانما هى مسألة تحتاج لنظر طويل وبحث دقيق وجدال تتحطم فيه الاقلام وتجأر منه المحابر .

استحلال الربا

(٣)

الربا فى الاصطلاح أجر المال وربحه والكلام فيه والحكم عليه من الوجهة العلمية الاقتصادية أمر خطير يعوز منا عقد فصل خاص فى بيان أحوال المال من حيث وجوده ونماؤه ووظيفته عند الاحاد والامم ومكانه من الاسلحة الاجتماعية على قدر ماتسعه المعلومات الاقتصادية . ولا نبلغ الغرض المقصود مما نرمى اليه من ذلك الا بتقديم فذلكة اجتماعية عن الحرب الحيوية العامة وأسلحتها نودعها تمهيداً موجزاً فنقول :

(تمهيد)

قلنا ان الامم حيال بعضها فى حرب سليمة مستمرة لها قوادو جنود وفيها انتصار وانهزام وهجوم وانسحاب . وقلنا ان قواد هذه الحرب السلمية هم قادة أفكار الأمم ومدبروا شئونها . وقلنا ان غلبة الامة فى هذه الحرب الحيوية العامة أو انخذالها مرتبط بمهارة قوادها وحذقهم أو جهلهم وقلة خبرتهم بخدع الحرب وأساليبها . قلنا كل هذا وهو قول يخاله بعض البعيدين عن الحقائق العلمية شعراً وما هو الا صورة الوقائع ونسخة الحوادث . وربما كان لهؤلاء الظانين شبه عذر فيما خالوه فانهم يصورون لانفسهم حالات الحياة وشئونها حوادث غير مرتبطة ببعضها ولا حاصلة على مقتضى قانون ثابت يهب النتيجة على قدر المقدمة . بل

شئون تقذفها المصادفات وتهيئها على غير قاعدة ومن كان منتهى علمه بحال الحياة هكذا فأجدر به أن يجهل من أحوال الحرب الحيوية العامة ما كان يجب أن يعلمه لو أراد أن يكون جندياً مقداماً في أمة غالبة

تعال لأحد هؤلاء الغافلين عن هذه الحرب الحيوية العامة وقل له : ان الامة المصرية قد فقدت فى الخمسين سنة الأخيرة جزءاً عظيما من أراضيها الزراعية وهى فى أكثر الجزء الباقى مغلولة الأيدى عن التصرف فيه تصرف المالك فى ملكه وأسرد له ما اندرس بسبب ذلك من بيوتات المجد وما هوى من معاهد الشرف القومى والفخار الاهلى وما تعطل من صنائع البلاد وتخرب من مصانعها ومعاملها وما انتقل من تجارتها الى يد سواهم من الأجانب وما استدعاه كل ذلك من ادعاء كل أمة صالحاً خاصا لها فى هذه البلاد وغل أيدى حكومتها عن التصرف فى مالها لما وضعت عليه من المراقبة . قل له هذا اجمالا ودعه هنيهة يفصل ما أجملته له على قدر ما رأى وما سمع وأنا زعيم بأنه لا يخرج من جولته الفكرية هذه الا وهو متعلق بك يستميحك أن تصف له شأن هذه الحرب السلمية الصارمة التى جرت على البلاد ما لا تجره الحرب الدموية فى أقسى أشكالها وأخشن صورها .

لا جرم أن هذه الخسائر الهائلة التى تكبدتها الامة المصرية التى ضربناها لك مثلا من بين سائر الامم الشرقية تدل على هزائم متوالية تكبدتها فى هذه الحرب العامة وأجبرتها الظروف فى كل هزيمة منها على ترك مقادير كبيرة من زخائرها وأسلحتها والرضاء من شرائط

الصلح بما يمس شرفها ويحط من قدرها ويزيدها استسلاماً على استسلامها ولياناً على لينها . ولا شبهة فى أن القواد الذين تولوا قيادة هذه الامة فى تلك المدة الماضية كانوا جهالا غير مدربين . لان مجموع ما أصيب به المصريون فى هذه الخمسين سنة ينبىء بارتكاب القادة لاغلاط فاضحة سببت من الخسائر مازاد عن الحد المعقول فيما لو كانت هزائمنا اتبعت قانوناً طبيعياً منتظماً .

أمر تصور هذه الحرب الاجتماعية العامة التى وقف عليها علماء الانسان أعمارهم وأعمالهم لايحتاج لكثير امعان لو أراد الكاتب تصريرها على أسلوب خال من المصطلحات الفنية وهانحن شارعون فى ذلك توطئة لما نحن بصدده .

فهم هذه الحرب العامة وادراك مايطرأ فيها من غلبة وانخذال ومن هجوم ونكوص الخ الخ مرتبط بفهم الحرب الخاصة بأحاد كل أمة فيما بينهم لأن الاولى صورة من الثانية ومتبعة قانونها وان خالفتها من جهات عامة لذلك فنحن نبدأ بتصوير تلك الحرب الخاصة المستعرة بين آحاد كل أمة ثم نعقبها بتصوير الحرب العامة الشاغلة لكل الامم لنمهد لأنفسنا سبيل الكلام لموضوعنا الأصلى .

هب أن عدداً من الناس رحلوا عن بلادهم لسبب من الأسباب وأناخوا ركائبهم بقطعة من الارض حاصلة على شروط الاستعمار وأجمعوا على اتخاذها وطناً لهم . لو تأملت فيما يحصل بينهم من شؤون وفيما يؤول اليه حال كل فرد منهم بعد أمد محدود ودققت النظر فى تلك

النواميس الطبيعية التى اقتضت تلك الحال وتتبعت كل أثر من خلال علله المتعاقبة حتى وصلت لعلته الاولى أشرفت على جملة نواميس اجتماعية عامة لو تتبعتها فى الامم لرأيت لها من الآثار والأحوال مايشابه أحوالها وآثارها على تلك الامة الصغيرة بصرف النظر عن اختلاف الأسماء وتباين المسميات .

فرضنا نزول هذه الفئة فى تلك الأرض بقصد استعمارها والقيام عليها . فتأمل فيما يحصل بينهم ومايصطلحون عليه أو مايرغم بعضهم بعضاً على اعتباره . لكل هؤلاء الأفراد حاجات تطالبه طبيعته بايفائها وله فى مقابل ذلك قوى جسدية ومعنوية تمكنه من العمل على سد تلك الحاجات . فينساقون كلهم للعمل فيعود كل منهم بجملة ماحصله ولكنهم لما كانوا يختلفون من جهة قواهم الجسدية والمعنوية كان التفاوت بين مقادير محصولاتهم أمراً مقضيا فمن كان جسده أقوى على المشاق وأقدر على مكافحة الصعوبات وكانت قواه المعنوية من مدارك وأخلاق أسرع فى تصيد وجوه الاستفادة وأصبر على خشونة المقدمات فى سبيل حسن النتيجة كان بلاشك أكبر محصولا وأوفر نصيبا وأفوزسهما . فاذا تكرر العمل وتوالى الكدر والكدح ظهرت مواهب أولئك الاحاد وتجلت قواهم وتلألأت ملكاتهم . فلا يلبث أولئك الاقوياء جسداً ومعنى حتى يجتمع لديهم مازاد عن حاجاتهم ويتراكم عندهم مايصرفهم عن بذل أعمارهم فى محض الاعمال المادية فيلتفتون لاستصلاح قواهم الأدبية واستثمارها فيزدادون علماً بنواميس الكون وطرق استغلالها

وتسخيرها فيرتقون عن اخوانهم الضعفاء درجات فتحصل لديهم قوة رابعة هى قوة المال . تأمل فى هذين الصنفين من هذه الامة الصغيرة . صنف الاقوياء أجساداً وعقولا وأخلاقا وماأدتهم اليه مواهبهم من رغد العيش ومادعاهم ذلك اليه من تحسين أحوالهم الأدبية حتى ارتقوا عما كانوا عليه درجات واكتسبوا قوة رابعة هى المال . وصنف الضعفاء الذين بقوا حيث هم لضعف أجسادهم عن مواصلة العمل أوعقولهم عن ادراك وجوه الاستفادة أو أخلاقهم عن الصبر على المكاره . تأمل هذين الصنفين بامعان وانظر ماذا يكون بينهما . ترأن الصنف الأول دعته طبيعة الاحوال الى ادعاء السيادة على القسم الثانى وتخويل نفسه حقوقا عدة وطالب خصمه بالاعتراف بها ان لم يكن طوعا فكرها : أهمها أولويته بحكومته وسياسة أموره وسن النظامات له وتربيته وتهذيبه على مقتضى أسلوبه وحمايته واستخدامه وتصريفه على مقتضى ارادته واعتباره أحط درجة منه الخ الخ .

يطالب القسم الغالب خصمه بهذه المطالب فلا يسعه إلا الرضوخ لها لأنه ضعيف من جهة أوجهات من تلك الاربع جهات التى ذكرناها وهى الجسد والعقل والاخلاق والمال . فان شرع فى مقاومة خصمه بجسمه خانه عقله من خطئه فى تخير أخصر سبل المقاومة ولانه أحط عقلا منه . وان واتاه عقله أقعدته أخلاقه من الجبن وعدم الصبر أو الافتتان بمظهر الاقوياء وزخرفهم . وان وافته أخلاقه هاضت جناحه الفاقة وكسر قوادمه الاملاق فلم يسعه الا التسليم بشروط أو

بغير شروط . فيسلم بشروط ان كان فيه بقية من حياة فيرضخ ولكن باستقلال وحرية وأنفة وشعور . أو يسلم بغير شروط ان كان الضعف بلغ منه حده الأقصى فيصبح عبد الأقوياء فيرى كل مافيهم حسناً وان كان قبيحاً وكل مافعلوه عدلا وان كان جوراً وكل ماقالوه علماً وان كان جهلا وكل ما عملوه شرفا وان كان خسة .

إذا أدركت سر هذه الحرب الخاصة المستعرة بين آحاد كل أمة أمكنك أن تدرك سر هذه الحرب السلمية بين سائر الامم . وذلك أن كل أمة فى حد ذاتها تشبه الفرد الواحد ونقطة النزاع بينها جميعا هى هذه الكرة الارضية ومرافقها . وكما أن سلاح الافراد هو الجسد والعقل والاخلاق والمال ، كذلك سلاح الامم هو مجموع مظاهر هذه القوى الاربع فى الافراد .

درس هذه الأنواع الأربعة من الاسلحة الاجتماعية من جهاتها المختلفة على قدر ماتسعه العلوم العمرانية والفلسفية والاقتصادية يخرجنا عن الدائرة التى رسمناها لهذه العجالة . فلنكتف هنا بأن نقول إجمالا ان هذه الأنواع الاربعة من الأسلحة هى التى تهاجم بها الأمم بعضها بعضاً . وعلى قدر ماتكون فى أمة أمضى حداً وأصفى جوهراً بلغت تلك الامة من السبق الى غايات المجد والتقدم الى منابع المنافع أقصى مايرمى اليه قائدو حركتها فى ميدان تلك المعمعة الحيوية العامة .

تفسير تقدم الامم وغلبتهم بهذه الاسلحة الاربعة ليس بموقوف على العلماء بل هى مرئية لكل متأمل فى أحوال الامم وما من جاهل

فى الامم المغلوبة الا ويدرى تلك الامم الغالبة ما تسلطت على أمته الا باستعمال قوى جسدية وعقلية واخلاقية ومالية تفوق مالدى أمته منها . ولكن مما يختص به العالم الاجتماعى معرفة مواطن تلك القوى وطرق انمائها وتربيتها وجهات ضعفها عند الأمم الضعيفة وجهات قوتها عند الامم القوية ووجوه استخدامها والمقارعة بها وحمايتها من الطوارئ الخ .

ليس لعامة الأمم سواء كانت غالبة أو مغلوبة حظ من معرفة مجموع الحركة العامة التى تجريها الأمم بازاء خصومها فى مجال التنازع الحيوى . ولا تسهل عليه تلك المعرفة لو أرادها كما لا تسهل على الجندى البسيط رؤية حركات الجيشين المتقابلين رؤية جلية لهذا ترى العامى لا حظ له من هذه المعارك الحيوية الا تأمل ظواهرها فيعلل الغلبة والانهزام بما يؤثر على تصوره قبل غيره من مظاهر المشاهدات فيضل الطريق ويضل غيره وتكون النتيجة ضلالا عاما يستفيد منه العدو المساور مالا يستفيد من قوته الذاتية .

لما كان أظهر مظهر لهذه الأسلحة الأربعة وهى القوى الجسدية والعقلية والاخلاقية والمالية هى الجيوش المدربة والأساطيل المصفحة والمعامل العامرة والصنائع الفاخرة والآلات الباهرة النظام المستفيض على الأفراد والآداب المسبغة على الطباع والعزائم القوية والارادات الثابتة والأموال الصالحة للاستغلال واحداث جلائل الأعمال ، فالناظر اليها نظرا سطحيا يرجو أن يكون لأمته مثل ذلك لتستطيع أن

تحفظ كرامتها بين الأمم فيدعوها اليه بلسانه وقلمه ويتذرع لاقناعها بكل مايستطيعه من ضروب الحث والحض لايمل له لسان ولا تحنى له براعة . ولكنه لايرى فائدة لندائه لأنه يدعو الى الظواهر ويغفل عن أسرارها وطرق الوصول اليها فهو كمن يجيء لفقير فيؤنبه ويلومه على تقصيره عن تشييد قصر يحاكي قصر جاره ويتلتل به للاسراع فى العمل وكأنه يجهل أن ذلك الفقير قد رأى ذلك القصر قبله ورجا ان يكون له مثله ولكنه لما لم يجد اليه سبيلا رضى بحاله مرغما . ولكن صاحبنا الذى يدعوه متى رأى منه عدم الانصياع لاشارته رماه بالموت والجبن وعدم الشعور وتفنن فى أساليب تبكيته والنعى عليه ما شاء وتكون النتيجة من هذه الضوضاء تضليل المدعو ويأس الداعى وذهابهما طعمة سائغة لمن ينازعهما الحياة .

هؤلاء الدعاء السطحيون كما تستخفهم هذه المظاهر المؤثرة لهذه القوى الاجتماعية الأربع كذلك تستخفهم أعراضها المتحولة وصبغها المتغيرة ولم يؤتوا قوة علم تزعهم عن الوقوف مع القشور فتراهم مرغمين على تصيد أقرب تلك المظاهر اليهم وأشدها تأثيرا عليهم وأكثرها شبها بالعلل الفعالة فيدعون اليه سنين بلا سأم ولا ملل نعدهم ان انتظام الجيوش وحنكتها وبناء الأساطيل وتصفيحها هو نتيجة فتح المدارس الحربية على الطراز الجديد وايصاء المعامل بمد عشرات من المدرعات والنسافات وهى نتيجة صحيحة المقدمة سليمة ، فما المانع عندهم من ادمان الدعوة اليها ؟ ويغيب عنهم أن الاحوال الاجتماعية

ليست مقودة بقوانين المنطق وان فتح المدارس الحربية التى تعتبر مقدمة للجيوش المنتظمة هى أيضا نتيجة المقدمة سابقة وتلك المقدمة السابقة نتيجة لمقدمة أسبق . يلزم الالتفات اليها والتعويل فى البحث أو فى الدعوة عليها وهكذا ترى لهم لكل نوع من الاسلحة الاجتماعية سببا قريبا وربما كان السبب الذى أثر عليهم مظهره هو فى الحقيقة سبب ممرض يغر الرائى ظاهره ويهوله باطنه كوهمهم فى أمر الربا وظنه مدار المعاملات وسبب زيادة الثروة العمومية ويغيب عنهم ان الثروة العمومية تابعة فى حصولها ونموها لقوانين اقتصادية طبيعية ليس الربا منها فى شىء بل هو عرض خبيث عن أعراض الثروة كما ستراه .

لا مشاحة فى أن الذى أوهم البعض منا بضرورة استحلال الربا وخيل لهم أنه مدار الثروة هو اشرافهم على خطارة الدور الذى تلعبه بنوك أوروبا فى مرسح الشئون العامة . وهى نزعة من نزعات النزق فى الاستدلال والعجلة فى اصدار الاحكام وأثر من آثار الخبط فى تقدير أوزان الحوادث والخلط بين ظواهرها وحقائقها . فلا لوم علينا لو قلنا انالم نر مظهرا من أكبر مظاهر الرقى الاجتماعى الاورباوى نسب الى عرض من أحقر أعراضه كما نسب انتظام أمر الثروة العمومية الى قاعدة الربا . لم لا تكون هذه النسبة صحيحة فى نظر العامة وهم يخالون ان لفظتى بنك وربا مترادفتان وما داموا يسمعون عن بنوك أوروبا وأمريكا وعمالها من الآثار الهائلة فى الشئون العامة أمورا تشبه الشعر أو السحر وبما أن بنكا وربا فى نظرهم كما قلنا شىء واحد

فيستنتجون من ذلك أن الربا هو دعامة تلك الثروة وينبوعها ويغيب عنهم ان ايراد تلك البنوك واطراد نماء ثروتها مصدره تجاراتها الواسعة ومشروعاتها الكبرى من استخراج معادن وحفر مناجم وتمهيد سبل الخ وما حظ الربا فيها الاشيئا حقيرا بجانب أرباحها الاخرى .

نحن نكتفي هنا بايراد شواهد عامة تريك أن الرباعرض اصطلاحي اتحدعليه أصحاب الثروة من المتعاملين لاأنه الاس المولد للغنى والقاعدة التي عليها نظام المعاملات أو أنه دعامة من دعائم العمران .

من أعظم الادلة المحسوسة قيام دولة آبائنا الاولين ولم يكن الربا من أصولهم وقد دلت الآثار والتواريخ على أن أولئك الرجال بلغوا من العمران وسعة التجارات وبعد مدى المعاملات الغاية القصوى وقد كانت المبادلات التجارية حاصلة بين الأطراف المترامية من مملكتهم المدهشة بدون أن يحدث مايعرقل سيرها بل كانت ثروتهم في نماء مستمر والأموال في تضاعف دائم متبعة في ذلك قانونها الطبيعي وكان الغرب أمامها اذ ذاك رغما عن أن الرباقاعدة من قواعد سيرته يشكو الفاقة والاقلال ونضوب ينابيع الأموال واختلال نظام المعاملات .

فاذا كان عدم تقرير الربا لم يمنع تلك المدنية من الظهور بأجلى مظهر في كل فرع من فروع المحاولات الانسانية ولم يؤثر على نمو التجارة وانتظام المعاوضات بشيء بل شهد التاريخ ان آباءنا كانوا أمهر رجال عصورهم في التجارات وأبعد مدى في نظام المعاملات من كل أمة مناظرة لهم . اذا كانت حالهم كذلك وهم أعداء الربا الالداء وثبت

ان حال أوروبا المقررة للربا كان على نقيض ذلك أى فى اختلال واعتلال أفلا تدل هذه الحادثة بالبداهة على أن الربا عرض يصطلح عليه الناس اصطلاحا ويتفقون عليه اتفاقا ؟

دعنا الآن من بيان وجه ضرر الربا أو نفعه وكشف أسرار أحد هذين الوجهين لمن يجهلها ولنساجل أولئك الذين يودون استحلال الربا رسميا البحث فى هذا الموضوع وان لم يعطونا من آرائهم الا الاجمال فنقول : هب أن أمة من الأمم الشرقية أحلت الربا وعدته من قواعد الثروة العمومية كما يريد أن يوهمها بعض نصحائها فماذا ينالها من وراء ذلك ؟ لا حاجة إلى إجالة الروية فان الأمر ليس من الامور المغيبة التى يعوزها الخوض فى المجهولات والرجم بالظن فان الربا فى مصر وان لم يحلل رسميا فقد استحله قومنا عرفيا اما افتتانا واما اضعفا وصار لهم نحو من أربعين سنة وهم يتاملون به اعطاء وأخذا سواء من جهة الافراد أو الحكومة فماذا كانت النتيجة ؟ كانت كما ترى خروج معظم أطيان القطر المصرى عن ملك مالكيها وخراب ألوف مؤلفة من البيوتات القديمة وتداعى أكثر البيوتات الباقية إلى الاضمحلا والانحلال . فهل هذه هى النتيجة التى يرمى اليها مرشدونا كلا ! انهم يريدون بتقرير قاعدة الربا أن ينمحى من عندنا ذلك المانع الهائل الذى يمنع اغنياءنا عن ضم رءوس أموالهم معا وتكوين عصابة مالية تؤلف بنكا أو بنوكا وطنية على نحو ماهو موجود منها فى كل بلد متمدنة والدخول بتلك الاموال فى ميدان الامور الاقتصادية والمضاربات المالية واحداث ماتحدثه

البنوك من الآثار الحسنة على بلادها وحكومتها .

هذه شبهة تروج فى أكثر الاذهان وتنطلى على غالب العقول لاسيما ونحن تحت تأثير فتنة شديدة يضيع أمام مظاهرها كل تحقيق . ولكنا مع ذلك لا نتأخر عن مصاولة هؤلاء الدعاة بالحجج ولن تعدم الحقيقة فؤاداً حياً وفؤاد حى خير مما لا يحصى من غيره .

هب أن الغاية التى يرمى اليها مستحلو الربا هى الواسطة لاجتماع الاموال المتراكمة وظهورها فى ميدان المغالبة الحيوية وهب أن الربا هو قوام ذلك المال المجتمع وحياته فهل ذللت كل الصعوبات التى تحول دون ذلك الاجتماع كما تحول دون كل اجتماع آخر يراد منه فائدة عامة؟

اذا كان المغترون بقشور المسائل تزدهيهم المناظر المتنوعة المتحولة فيطلبونها بألسنتهم ولا يسمعون لاصواتهم صدى ويكتفون من لقب مرشدين بأن يكونوا مجرد دعاة يأتى كل منهم من حين لآخر بجريدة تشمل قوانين مطالبه فى الاصلاح وقواعد مذهبه فى استرداد المجد المفقود ،

اذا كان بعض الناس تزدهيهم المناظر فتحملهم على النداء والصخب بالمطالب المتنوعة فى كل فرصة من الفرص الممكنة فان العلم لا يرى تلك المظاهر المتعاقبة وان تعددت فى الاشكال والاحوال الامظاهر مختلفة لقوة واحدة هى (الحياة) ليس غير . واذا كان أولئك المتعجلون لا يدرون سر تلك العوامل الطبيعية والنفسية الحاملة الى الاجتماع على الاغراض الصالحة والاتحاد على الغايات المشتركة فيطلبون من الامة مطالبهم بدون التفات لتلك العوامل والتحسس منها

لاثاراتها وتنشيطها فان العلم يرى أن الامم كالافراد لاتتحرك إلا بحياة تحل فيها . وان تلك الحياة تظهر فى صغريات الامور كما تظهر فى كبرياتها وان العاطفة التى تحمل انكليز بلدة على الاتحاد لتأسيس ميدان للعب الكرة هى بعينها التى تحملهم للاتحاد على مقارعة الاعداء وتذليل الصعوبات والقيام بعظائم الاعمال . وان تلك الدوافع التى تدفع فى صدور المصرين عن الصبر على تكوين جمعية أدبية هى عينها التى تدفعهم عن تأليف شركة تجارية أوعصابة مالية . فالعلم قبل أن يطالب الامة بمطلب من المطالب العمرانية يتأمل فى مقدار ماعندها من القابلية له تحاميا عن مفاجأتها بطلب تعجز عنه فيكون انخذالها بعد الشروع فيه سببا فى غرس بذر اليأس فى فؤادها وتعودها على النكوص بعد الاقدام وعلى الفشل بعد العمل . فالعلم يحسب لهذه المطالب حسابا دقيقا جدا ويدرك خطر تلك الجراثيم المضرة التى يولدها فى الامة مجموع ذلك الضخب بالمطالب المتنوعة والمزاعم المتوالية المتكررة .

اذا تقرر ذلك فدون الاجتماع على تأسيس بنوك وطنية تلعب دورا ماليا فى ميدان المحاولات الاقتصادية العامة صلاحية الامة للاجتماع والثبات فى المشروعات الكبرى ولا تكون تلك الصلاحية إلا إذا دبت فى الامة نفحة الحياة الاجتماعية بمعناها الخاص . هنالك يكون الاجتماع لاحداث الأعمال الحيوية اضطراريا كاجتماع أعضاء الجسم وتكاتفهم بالفطرة على أداء الاعمال اللازمة لحفظ الجسد فالعلم يسعى فى تهىء الأمم واعدادها لقبول تلك الحياة والتصرف بها وهو

بعيد عن مثار تلك التيهات المزعجة والزواجر المفعمة المثالب.

اذا علمت هـذا فتحكك بعض الناس فى أمر استحلال الربا سابق أوانه ولا يكون من وراء خوضهم فيه الا تكدير أذهان الناس بما لا طائل تحته. ذلك ان كان الربا فى حد ذاته قوام المعاملات ودستورها وكان تحريمنا له خطأ منا فى الفهم وليس الأمر كذلك.

هذا من جهة. وأما من جهة أخرى فان الذين يريدون من تحليل الربا بعث أغتيائنا من خمولهم المالى وتحريضهم على النزول بأموالهم المجتمعة فى غمرات المعارك الاقتصادية ومزدحم المقارعات المالية على نحو ما عليه الأمم الحية هم فى مطلبهم هـذا كمثلهم فى سائر مطالبهم الأخرى يرمون للنتائج الكبرى ولم يقدموا لها مقدمة تناسبها ويريدون أن يبنوا على الأسس الواهية علالى تزاحم السحب فى مدارجها كأنهم يتخيلون أن الكلام قوة تحيل الأشياء عن مجاريها الطبيعية وتوقف النواميس الاجتماعية عن بلوغ حدودها. لاجرم أن الذين يطلبون تحليل الربا ويكون غرضهم منه تحلية الأمة بهذا السلاح المالى على نحو مارسمناه هنا قد برهنوا على عدم المامهم بشىء من القوانين التى تجرى على مقتضاها هذه الحرب الحيوية العامة خصوصاً من جهة الأمور الاقتصادية والأعمال المالية ولو عرفوا أن قيادة بنك تستدعى من القائد من المهارة وبعد النظر وسعة مدار الفكر أكثر ماتستدعيه قيادة جيش ألقيت عليه عهدة حماية حدود الأمة من عدوان العادى عليها لامكنهم أن يفسروا تغاير البنوك الأوربية وتزاحمها على اقتصادى

واحد تود كل منها أن يكون صاحب الزعامة فى ادارة أموره وتدبير شؤونه وكثيراً ما تحصل هذه المزاحمة على بعض الاقتصاديين فى البلاد الأوربية ومن يطلع منا على خبرها يندهش ويتعجب وليس فى الأمر عجب لمن يعلم أن لكل شىء قانوناً خاصاً ولكل صناعة فى هذا العصر فناً له أصول وقواعد . وأن للشئون المالية علماً قائماً بذاته يقال له علم الاقتصاد السياسى له أصول وفروع وقوانين مستندة على الحوادث والوقائع . ولادارة الأموال على مقتضى ذلك العلم أساليب وطرق شتى تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والمزاحمات وطبيعة المقارعات والمنازعات ولتلك الشئون المختلفة فرجات وأزمات لكل منها أحوال تقتضيها وأمور لا بد من دراستها والتعمق فيها . فكيف لا تتزاحم البنوك على رجل دلت أعماله المالية ومراميه الاقتصادية القصية على بعد نظره فى الأمور وكمال دربته بادارة أموال الجمهور ؟ ومن يعلم أن الأمم فى هذا العصر أصبحت تتنازع البقاء بالأسلحة المالية وأن ماتحمله الواحدة للأخرى من أنواع النكايات وصنوف الهزائم من تلك الجهة أشد وأقسى مما تحمله لها من الجهة العسكرية . عرف تبعا لذلك أن كل أمة تود أن تلقى بنفسها فى ميدان المنازعات التى من هذا القبيل يجب عليها قبل كل شىء أن تبحث عن القادة المدربين والاقتصاديين الوطنيين الذين يحسن أن يسند اليهم أمر قيادة مال الأمة فى مجال هذه المصارعات المالية الخشنة ومن الخطر المحض دعوة الأمة الى حشد قوتها واسنادها الى من لا يعرف من أساليب الحروب

الاقتصادية شيئا فان فى ذلك ضياع مالها كله ضياعا قانونيا . . ثم لا تستطيع أن تطالب به غريماً .

فاذا كانت أمتنا لم تدخل بعد فى دور الاجتماع على احداث الأعمال العامة ذات النتائج البعيدة كما أثبتنا ذلك وكما يلحظه كل متأمل من آحادها . واذا كان من العبث المحض البحث فى أمثال هذه الأمور المالية الهائلة قبل وجود من يلقى اليهم زعامة قيادتها ورئاسة ادارتها منا كما برهنا على ذلك فأى فائدة فى تكدير ذهن الأمة بالتكلم فى حلية الربا واحداث قيل وقال فى هذا الموضوع الذى ليس وراءه أدنى فائدة .

هذا فكرنا فى عموميات هذا الموضوع أما فى خصوصياته من أمرا باذاته وفيما يتعلق به مما يمس الأخلاق وهيئة الاجتماع فذلك موضوع المقالة التالية .

(٤)

لكل أمة أصول حيوية صبت على قالبها عقولها ومداركها وقاست على مقياسها دستورها وقوانينها ووزنت بقسطاسها عوائدها وأخلاقها وأنهت اليها محامدها ومفاخرها وناطت بها حياتها و بقائها . فأصبحت تلك الأصول عينها التى تبصر بها الوجود فتحكم عليه حكما يناسبها . وعقلها الذى تدرك به الأمور فتقضى عليها قضاء يشاكلها . ومشاعرها التى تشعر بها الاشياء فتنزلها من نفسها المنزلة التى تلائمها . وعواطفها التى تتحرك بها فتتجه بنفحتها الى حيث ترمى اليه

وتنقاد له .

هذه الأصول تسود على الأمم فتؤيدها لها الحوادث أو تحورها وتمكنها منها الشئون أو تزعزعها ولكن لا يزول أصل حتى يحل محله غيره اما وحياً من مؤثرات الحوادث الوجودية أو نفثا من جائشات الأوهام الضميرية . ونحن كما يرى كل راء أمة عظيمة تبلغ أحادها مئات الملايين حالين من الأرض بأخصب البلاد تربة وأجودها هواء وبقعة وقد سجل لنا الوجود تاريخا يخفق على كل صحيفة منه علم مجد وسودد وتشرق من كل سطر من سطوره لألاء فضيلة ومحمدة . وقد أثر ماضينا على ماضى أكثر الأمم فأصبح تاريخها مرتبطا بتاريخنا فلا تعطفهم لقديمهم عاطفة ذكرى حتى يكون لنا قسط منها وهى بقية من بقايا تلك السيادة الصورية والمعنوية التى كانت لآبائنا على أسلاف هـذه الأمم . فان مانالوه من بسطة الملك والجاه نشر سلطانهم شرقا وغربا وأحاط بمآخذ الأمم جنوبا وشمالا فكان القطر الذى لم تجل لهم فيه الدهم المطهمة تقوم مقامها العلوم المنقحة والآدب الموشحة والصنائع النافعة وأمة تحل من العالمين محل الهامة من الجسد أو العين من الرأس وتأخذ على عهدتها تخليص الأمم من أيدى الآخذين بمتنفسها حيفاً وهضما والماسكين بأكظامها اذلالا واهانة لاشك يكون لها أصول فى الحياة تحافظ عليها وتحتذى طريقتها . ولا مشاحة فى أن تلك الأصول قد انتقلت منهم الينا جيلا بعد جيل فاختلطت بدمنا وحياتنا وتلبست بأجسادنا وأنفسنا وان دخل اليها

ماليس منها وخرج عنها ما كان متمما لها فنحن وان فصلتنا عنهم القرون وأبعدت بيننا وبينهم الأجيال وغيرت منا الحوادث وبلغت فينا الوساوس نسخة منهم وصورة مأخوذة عنهم وان لم تكن صورة مطابقة ونسخة مضبوطة . خلاصة القول أنا أشبه الناس بهم أو أكثرهم حبا لهم وتحككا فيهم . نزعم أنهم كانوا الأكملين أخلاقا ونقيم على ذلك الأدلة وندعى أن مدنيتهم كانت المدنية الفضلى ونأتى على ذلك بالشواهد ونعتقد أن اليوم الذى نتمسك فيه بسيرهم ونحتذى فيه سمتهم هو اليوم الذى نسترد فيه المجد المفقود والشرف الضائع ويكون لنا من السلطان على الشعوب ما كان لهم .

هذه عقائد امتزجت بعقولنا وعواطفنا واختلطت بكياننا وطبيعتنا حتى صار دون نزعها منا نزع أفئدتنا من نياطها ، وخلع أكبادنا من مواطنها .

نعم إنا لسنا عاملين بتلك الأصول التى نحبها ونهواها والتى نصف لك من تعلقنا بها و بأهلها ما نصف . ور بما كان من الأمم الأجنبية عنا من هى أكثر عملا ببعضها منا ، ولكنا رغما عن ذلك ورثة تلك الأصول وأهلها ، وما مثلنا فى عدم العمل بها ومجرد تمنيها إلا كمثل ولد ترك له والده مالا جما ، وعرضا كثيرا ، فحالت بينه و بين ميراثه حيلة محتال أو غيلة مغتال ، أوجب وقوعه فيها ضعف عقله ، وسورة اهوائه ، فهو لا يزال يحلم بميراثه ، و يمنى نفسه بالاستيلاء عليه متى بلغ أشده وساعدته الحوادث . أتستطيع أن ترده عن تمنيه

هذا ؟ كيف وهو غاية ما يسليه فى وحدته ، و يعزيه فى بلاءته وشدته فهو لن يزال يترقب استرداد ميراثه حتى يناله ، فيعيش غنيا أو يموت طالبا له فيروح وفيا .

كذلك نحن حرمنا ميراث آبائنا لأسباب كثيرة ، ولكن حب ذلك الميراث امتلك أهواءنا وتسلط على عواطفنا ؛ فلا تزال تذكره وتردده ، وان كان منا من أخنت عليه الملمات المؤيسة ، ونهكت ضميره الفتن المفنطة ، إلا أن السواد الأعظم ينشد تلك الضالة و يترقبها ، لا يهنأ له بال ؛ ولا يتم له سرور إلا بحصول أمته عليها ، فهو فى خلوته أو جلوته . فى تجارته ، أو صنعته . فى حله ، أو رحلته . فى عرسه أو مأتمه يذكر ذلك الميراث و يتمناه و يحادث به أصدقاءه وخلصاءه و يثق من استرداد أمته له وظهورها به بمظهر أوائلها واسلافها ، حتى انه ليقول ، وقد جاشت بصدره الآمال ، ولمع له بارق الاقبال « ترى هل نعيش حتى نرى ذلك اليوم » .

تلك الأصول الحيوية العالية التى كانت لآبائنا . فملكوا بها الأمم وأفئدتها ، والتى لا نزال نتمنى الرجوع اليها والعمل بها ترينا الحياة وتكاليفها ، والانسان ومواهبه ، والأمم وشؤونها ، والوجود وممالكه ، والفضائل ومواطنها على غير الصفة التى ترينا الأصول الأوروبية التى يسعى بعض كتابنا فى اشرابها نفوسنا ، وصبنا على قالبها .

من أكبر تلك الأصول التى أشربتها نفوسنا . إننا ننظر للحياة

الأرضية نظر الغريب منها النازح عنها ، ونرى أن لذاتها ومسراتها بروق خلب واعراض خدع ، وان مثل العالم فيها ، مثل قوم شدوا رواحلهم ، وزموا ركائبهم طلبا لمرعى خصيب فيه العيش جفض ، والحياة رغد فهم فيما بينهم يجب أن يكونوا على مثل حال المزاملين فى الظعن ، والمنقطعين فى الفلوات ، متراحمين لامتزاحمين ، ومتواهبين لا متناهبين ، ينعطف غنيهم على فقيرهم ، ويحنو كبيرهم على صغيرهم ويعلم عالمهم جاهلهم تخفيفاً لألم الترحال ، وتلطيعاً لمضض الأوجال هؤلاء القوم لا يحرمون على أنفسهم اللذائذ ، ولا يخلونها من شيء من الملهيات ، ولكنها لذات لا تقعدهم عن المسير ، وملهيات لا تقطعهم عن التفكير فى المصير ، ولا تنشىء بينهم و بين إخوانهم الأدنين نيران الحسد ، ولا تزرع بين المثرين منهم والمقترين بذور اللدود ، وكيف يتحاسد المتزاملون فى السفر والتحاسد مقطعة عن الوصول ، ومدعاة للتيه عن الجادة ؟ غنيهم لا يتيه بغناه ، ولا يتخذه آلة الاستعباد من دونه ، بل يعتبر نفسه مؤتمنا على عروض عهدت اليه لانفاقها فى حدودها ووضعها فى مواضعها من المصالح التى تستدعيها طبيعتها . فهو لا يريد الغنى الا ليواسى به فقيرا أو يفك به أسيرا ، أو يقيم به بيتا ، أو يكسب به عارفة سكن اليها فؤاده ، وتسرح فى لذاتها المعنوية نفسه . ومن كان ينظر للحياة وتكاليفها ، وللثروة واختصاصاتها بهذا النظر (فكيف يعد الربا مباحا) و يتقاضاه من معوز لا يملك قوت عياله ، فاذا لم يؤده اليه حرمه من طعمته ، وصادره فى أمتعة أطفاله

وزوجته ؟ بل كيف يعد الربا مباحا من هو مدين لأمته سنويا باثنين ونصف عن كل مائة من أمواله مهما بلغت ، وبما يقارب ذلك من عروضه المالية الأخرى ؟

يريد مرشدونا السطحيون أن يحيلونا بتحليلهم الربا وغيره إلى هذا الأصل الأوربى قلبا وقالبا . أما قالبا ؟ فها نحن فيه ، وقد سار أكثرنا على صراطه وتورطوا فى أوحاله ، وهم أعلم الناس بأحواله وأما قلبا فلا يمكنهم ذلك ، فان الحس لا يعارض بالكلام والحقيقة لا تزول بالأوهام ، فلا يستطيعون مهما قالوا وكتبوا أن يمنعونا عن اعتقاد أن أصلنا هو الأصل الموافق لحقيقة الحياة المخفف من أوصابها ومصائبها ، وأنه سيأتى يوم يراه العالم كله أحق بالاتباع وأجدر بالعمل به ، ولكن بعد أن تكون الفتن قد أدبته بسوطها والجوائح قد عركته بأظلافها . هنا أشعر أن أسرى الظواهر ، وصرعى الفواتن أخذوا يهزون أكتافهم استبعاداً واستهجاناً ، وربما كان لهم شبه العذر ، فان مظاهر الرقى الصناعى الأوربى قد سترت عيوب تلك المدنية المادية ، بحيث أصبح لا يراها إلا أصحاء الأفئدة والبصائر وهل نطمع أن نستشهد على ما نقول بأحسن من علمائها ومقيمى صروحها . قال الفيلسوف (فيرنس جيافرت) فى كتابه (الغمة الحاضرة) إن الحقد والعداء يزدادان يوماً فيوماً فى نفوس أهل البأساء المحكوم عليهم بالفاقة الدائمة . وان جنون البذخ والكبر ينمو على قدر ذلك لدى أهل اليسار والترف ، وهذا الالحاد الآخذ فى النماء

يسوق جمعياتنا بعاطفة المساواة إلى حالة ثورية دائمة . وأصبحت ترى الملوك العظام يتعاقبون على عروش الملك بسرعة لم تكن تشاهد فى وزراء الأزمنة الماضية والحكم الاستبدادى بدل أن يتركز فى بعض الأفراد أضحى منتشراً بين الملايين ، فكل ديموقراطى يتمنى أن يبلغ الرتب العلية ، وترى الشعب لما أحس أنه خلص من أسر الواجبات التى تفرضها عليه الكنيسة ، وازدرى بذلك الدستور السياسى الذى يراه يتغير بسرعة جنونية ، أعطى لعاطفة الأثرة فيه كل الحرية ، وصار يعتبر أن ماله من حق المساعدة فى إدارة شؤون حكومته وسيلة لنيل مآربه الحيوانية بأسرع ما يمكن ، ولقد رجونا أن نداوى مصائب النوع الانسانى بالكنوز المادية ، التى ألقيت بين أيدينا من منذ قرن من الزمان ، كما تكاتف العلماء ، والمهندسون والصناع ، والميكانيكيون على زيادة متاع الحياة الدنيا ، فلم يكن من نتيجة كل تلك المكتشفات ، إلا نشر حمى حب المال فى الطبقات النازلة جداً . » ثم قال :

« إن تحت السلم الذى اقتضاه الخوف العام لأحقادا تختمر اختمارا بأشد مما كانت فى أى زمن من الأزمان . فان جرائم الفوضويين وافلاس الماليين وانتحار الأسر بأجمعها والوساوس الآخذة فى الانتشار بين الناس والجنون الذى لا ينتظرون الاسنوح الفرص وأصحاب الاثرة البائسين وكل هذا الفساد الخلقى الشديد الوطأة البعيد المقرار الذى عم أجناسنا ناشئ من عدم وجود أصل يصلح لاحداث

الوحدة والاخاء بين احتياجنا الدائم للعمل وبين عاطفة الحب فينا »
« لذلك ترى ظلمات من الحسد والكمد آخذة فى الاسوداد كل يوم ملقية أطنابها على عالمنا . ويزعم الانسان فى غروره أن حرية الاثرة ستحصل له كل مايتمناه من سرور وانشراح حتى أصبحنا وكل يوم لنا مطلب جديد وكل طائفة تسعى لنيل امتيازات جديدة وكل فرد يدعى لنفسه حقوقا ليس لها حد تنتهى اليه ، وبذلك فقد أصبح الانسان بين هذا العذاب المنصب عليه من الكبر والتمرد معترفا بأنه أمام الحياة أضعف مما كان فى أى زمن من الأزمان » انتهى

وقال الاستاذ (كاميل فلامريون) : « لايجوز لنا أن نخجل من الاعتراف بما وقعنا فيه من الانحطاط لأننا رضينا به وأصبحت عقولنا المتشبعة بالاثرة لاهم لها الا أغراضها الذاتية . أليس حظنا اليوم من الحياة قد استحال لجمع الثروة بلا مبالاة بوجوه جمعها والحصول على المجد بطريق الاغتيال لا الكسب والجود وعدم الاهتمام بالدستور والواجبات » « إن من التناقض المؤلم البين أن نرى أن الرقى الباهر الذى حصل فى العلوم مما لامثيل له فى التاريخ وإن هذه الفتوحات المتوالية التى تمت للانسان فى الطبيعة بينما رفعت عقولنا الى المدركات العالية أهبطت انسانيتنا الى أخس الدركات » انتهى

فهل بعد أن نسمع عن أعلام تلك المدنية أمثال هذه الحقائق الحيوية نستطيع أن لانحب أصلنا ونتمناه وأن لاندعو أنفسنا والعالم كله الى حماه ؟ نعم أنا لاأنكر انالسنا ناهجين منهاجه ولامتبعين أعلامه

ولكنا فى تنكبنا عنه نعتقد أننا ضعفاء مفتونون وأننا لصنوف الجوائح مستهدفون ، ولانزال نمنى أنفسنا بالرجوع اليه والتعويل فى الحياة عليه وكل مانلاقيه فى أنفسنا من المصائب ومانقرؤه عن سوانا من الحوادث يزيدنا ثقة فيه ويجعلنا نعتقد بضرورة رجوع العالم اليه فى المستقبل القريب ، وليس ذلك بعجيب . فياصاح لاتقنع بأنك صاح .

ماهو المخلص

(من فتنة المدنية الغربية)

(٥)

ليس من الصعب سرد الأمراض ووصف الاعراض والاشارة لجهات الألم ومراكز السقم وإنما الصعب كل الصعب تعيين عللها وأسبابها وتحديد عواملها وموادها فاذا تعينت العلل وتحددت العوامل أمكن للطبيب مكافحتها بأسلحة العلاج وحصر نفوذها فى دوائرها وأخذ المسارب عليها من كل جهة حتى لاتتعدى حدودها وتبلغ نهاية استشرائها

نحن أمة منتشرة فى كل قارة من قارات العالم وما من طائفة منها الا وهى مصابة بأمراض اجتماعية خاصة أكسبتها لها أحوالها الحيوية وشؤنها السياسية وأمراض وراثية عامة هى ماأصابها بصفتها جزءا من

جسم أمة عظيمة ذات شأن كبير فى تركيب الانسانى . فيحسن بالباحث العمرانى قبل أن يسترسل فى بحث أن يشير على أى شعب يتكلم أو فى أى نوع من أمراضه يبحث أما ذلك الخلط بين الأمراض الخاصة والعامة وبين شعب وآخر فما لا يكون له نتيجة ولا يناله غير الاغفال والاهمال . وإنى بما كتبته فى المؤيد لم أحم حول الأمراض الخاصة لأى شعب من شعوبنا لعلمى أن تلك الأمراض الخاصة مما لا يدخل تحت حصر وهى كيفيات رديئة اقتضاها شئ من النقص الخلقى أو العقلى لا تلبث أن تزول كما تزول العلل الجسدية متى بلغت حدها الطبيعى وسيرها المعتاد اذا كان الجسد محمياً من المؤثرات الخارجية ، ولتحقق بأن العلة العامة هى الأحق بالعناية والا دعى لبذل أقصى مجهودات العلم فى تحديدها وتعيينها .

أثبتنا فى مقالاتنا السالفة أن مرضنا العام الشامل لجميع شعوب أمتنا وهو المرض الذى تلاشت فيه سائر أمراضنا السابقة هو تلك القوى المحللة المنصبة علينا من أوروبا تحت أسماء ومظاهر فاتنة مموهة وقلنا ان هذا التدافع بيننا وبين تلك القوى أمر طبيعى تقتضى به نواميس الوجود قضاء لامرد له بل ان نظام الكون يستدعيه لحفظ التوازن الحيوى فى العالم وسوق الطوائف البشرية الى بلوغ غاية ماعدت له من منصات المدنية الفاضلة والحياة الطيبة .

قلنا كل ذلك وبسطناه على قدر الامكان ولكن قارئنا ينتظر منا بعد هذا كله أن نريه وجه الخلاص من هذه الورطة الهائلة وهو ما وقفنا

له الشق الثانى من هذا البحث .

الحيلة الوحيدة الفعالة للخلاص من هذه الورطة المجتاحة هو التربية والتعليم وبذل الوسع فى تعميم أنوار المعرفة بين سائر طبقات الامة . هنا أشعر أن بعضاً ممن يأبهون بكتاباتنا يحسون أنفسهم بطائف من عدم الارتياح لفوت ما كانوا ينتظرونه منا من الذهاب فى شرح الدواء المذهب الذى سلكناه فى تشخيص الداء مما كانوا يؤملون أن يجدوا فيه الاكسير المجرب الذى لايخيب متعاطيه ولا يخلص مجافيه . وهل هنالك اكسير مجرب شهد له الوجود وتاريخ الانسان قديماً وحديثاً غير التربية والتعليم ؟ أى شىء أحدث ذلك الفارق الهائل بين أوروبى القرون الوسطى فى خضوعهم للخرافات وعجزهم عن حماية بلادهم وعمايتهم عما يلزمهم من الصنائع النافعة ، وبين أوروبى هذا العصر فى حذقهم ومهارتهم وصنائعهم وقوتهم غير التربية والعلم ؟ وانى بقولى التربية والتعليم قد قلت أحسن مايمكن أن يقوله قائل وجئت بما لاتقوى أى فلسفة على دحضه ، وان كان من الشيوع والشهرة بحيث لايجهله أحد .

يقول قائل . « لاينكر أحد فضل التربية والعلم ولكن يظهر لنا أنهما فى بلادنا سائران على أسلوب ناقص لايصلح لايقاظ عواطف النفس واحياء ملكات المدارك ودليلنا على ذلك ضؤولة نتيجتهما وضعف أثرهما بما فى حالة البلاد . » نقول ان الامة لم تشعر بحاجتها الى التربية والعلم الا من منذ ربع قرن تقريباً ولا أحسب ماسبق ذلك فان سعى الامة اذ ذاك وراء العلم لم يكن شعوراً طبيعياً منها بل سوقاً

قهرياً من حكامها والنظر لنتيجة التعليم فى هذه المدة الوجيزة ممن يكون على علم بحال الامة قبلها يدرك لاول وهلة أن الامة قد خرجت من دور غفوة وظلمة الى دور يقظة ونور بسرعة لم تشاهد فى أكثر الامم. ومن يتأمل فى هذا العدد العديد الذى نبغ منا فى الكتابة والتأليف والطب والقوانين والهندسة والمشروعات والزراعة الخ يعلم ان البلاد أنجبت من الرجال من لم يكن يحلم به رجال الزمن الماضى. ومن كان لايزال على قيد الحياة من أبناء الجيل السالف يعترفون بهذه الحقيقة الجلية. ومن يلتفت حوله فيشرف على الجرائد اليومية والاسبوعية والمجلات المتنوعة العلمية والمؤلفات التى تترى كل يوم لايتمالك نفسه من الاعجاب والتعجب ويزيد اعجابه وتعجبه لو نقل نفسه الى الجيل الماضى وأشرف على حالة الخمود والخمول اللذين كانت فيهما البلاد وانصراف الناس حتى عن الفكر فيما يسمى تحريراً أو تأليفاً أو نصيحة. ولست فى حاجة للتنويه بهؤلاء الكتاب والشعراء الذين شرفوا عالم الآداب بقرائحهم الخصيبة وملكاتهم النجيبة ورفوا اللغة العربية الى مايقارب درجتها فى زمن المدنية العربية الباهرة أليس هذا كله أثر فى التربية والتعليم على مافيهما من نقص فى الاسلوب وتشوه فى الشكل على ان ذلك النقص يتكمل من نفسه وهذا التشوه يتجمل بذاته شيئاً فشيئاً مادامت الامة تشعر بالحاجة الى التربية والتعليم شعوراً ذاتياً ولم تدفع اليه دفعاً كما كان شأنها فى الزمن السالف. ولو دام الحال على هذا المنوال لبلغت الامة المصرية من التنور والمعرفة درجة الأمم الراقية

لامحالة . وهل ثم من يستطيع أن ينكر علينا ان التعليم فى العشر سنين الأخيرة قد ارتقى عما كان عليه قبلها رقياً محسوساً ومن الشطط البين أن توجد مدارس حاصلة على أرقى أساليب التعليم المناسبة لحالة الامة طفرة بدون تدريج .

يقول قائل آخر : « لا ينكر أحد درجة التنور التى وصلت اليها البلاد فى مدى هذه المدة الأخيرة ، ولكن المشاهد أن هذه الدرجة من العلم لم تؤثر على المصرى فى تحسين حاله أو الفكر فى مآله ، بل هو لم يزل كما كتب بعض الانجليز فى الاجبشن غازيت فى الدور الذى كان عليه قبلا لم يطبق علمه على العمل فى ادارة امور ه الشخصية ولم تفده التربية فائدة فى تكميل نفسه واعدادها للمكافحة والجهاد » نقول ليس هذا بعجيب وانما العجيب أن يكون المصرى فى هذه المدة القصيرة كالانجليزى أو الألمانى استعداداً للعمل وجلدا فيه وصرفاً للعلم فى تحسين شؤونه وأحواله ؟ أليس من الاجحاف البين أن نطلب إلى المصرى الذى لم يشعر بذاته ولم يعرف له وجوداً الا أمس أن يحاكى فى الحياة والنظام من أحيته الحوادث منذ قرون وهيأته المكافحات لادراك أحسن وسائل البقاء وأوجه وجوه الاستفادة من الوجود ؟ إذا كان المصرى فى هذه الخمس والعشرين سنة أدرك أن له وجودا وشعر بأن سيكون له مستقبل حسن أو ردىء ، فظل يبحث فيه وينقب عنه وان لم يعمل له بمقتضى علمه فقد أتى بكل مايمكن أن يأتى به كل ناشىء لم يصل بعد لفهم خطاب الحوادث وادراك معنى وخز الكوارث لقرب عهده بالشعور والحركة

وقلة خبرته بالحياة وتكاليفها . وهل يرجى من الطفل الناعم أن يبلغ مبلغ الكهل البادن دربة فى الأعمال وتصريفاً للامور ورأيا فى المعاضل وبصرا فى أعقاب الأحوال ومصاير الشؤون ؟ يكفى المصريين فخراً أن يتمنوا مجاراة غيرهم فى مضمار الحياة وان لم يجروا شوطا واحداً للآن لعدم استعدادهم له . وهم بذلك كالناشىء الذكى يحب أن يأخذ أخذ الرجال فى الأعمال والعظائم فيقعده لين جسمه وضؤولة شخصه وقصور أعضائه فيتألم ويستكين وقد يبكى ويظن بنفسه الظنون ولا يدرى أن الزمان عامل فى اعداده وتكميله ، فاذا وصل الى مستوى الرجال قوى على الكفاح وصبر على مكارهه وشدائده ونال من نتائج كده ماينالـه كل عامل دائب .

قال قائل ثالث « وكيف إذن أدركت اليابان شأو أمم الغرب فى ثلاثين عاماً ألسنا مثلهم جسما وعقلا ؟ » نحن لا نؤاخذ هذا المعترض فانه ليس بعمر انى يدرك وزن المسائل الاجتماعيـة فيتحاشى ما يستهجنه العقل ويمجه العلم وينكره الواقع ، وانما نؤاخذ أولئك الكتاب المغالين الذين يتحمسون لبعض المسائل بدون تدبر فيسوقون الشعريات والخيالات مساق الحقائق الثابتة بغير نقد ولا بحث . أليس من المضحك المبكى أن يصور بعض كتابنا للامة أن الشعب اليابانى خرج فى مدة ثلاثين سنة من غيهبة الخمول الى نور الحركة والحياة وأتى فى هذه المدة الوجيزة بما يعجز البشر ولم يسمع به الحظ لامة من الامم مع أن صنائع اليابان كانت قبل (ألف سنة) تعرض فى قصور ملوك أوربا كما تعرض

الأعاجيب المحيرة للمدارك ؟ أليس من العجيب أن الامة التى ترد غارة كوبلاى خان عن بلادها وهو فاتح العالم وضارب الجزية على الروسيا وتلقى أجنحة حمايتها على كوريا رغما عن جارتها الدولة الصينية الضخمة تصبح بفضل بعض كتابنا الامة الحديثة النشأة الجديدة العهد بالحياة . الاعجوبة الاجتماعية التى لم تسمح النواميس العمرانية فى مدى تاريخ العالم كله بمثل ما سمحت لها به من الرقى السريع والحياة الفجائية أى مانع يمنع أمة مثل الامة اليابانية ظلت الفين وخمسمائة سنة مستقلة ومعرضة لتأثير حوادث مهذبة للمدارك وكوارث مهيئة للرقى وشؤون محيية لمواهب النفس أن تصل بعد كل هذه المدة الطويلة الى مثل ماعليه امة اوربية ؟ بل أى مانع يمنعها من أن تكون أرقى من أرقى امة لقدم عهدها بالاستقلال والمدنية ؟ لاجرم أن الذى يقيس الامة المصرية بالامة اليابانية يشط شططاً بيناً لعدم انطباق الحالين على بعضهما من كل وجه كما بيناه هنا فى مقالات متوالية .

الخلاصة أن التربية والتعليم هما المخلص الوحيد مما فيه الشرق عامة وكل امة على حدتها خاصة لكن هنالك أمران خطيران يجب الالتفات اليهما وهما : (الاول) القوى الاوروبية المحللة (ثانياً) المفتونون منا بمدنية الغرب . أما تلك القوى المحللة فقد درسناها فى مقالة سبقت فهى دائبة لا تكل ، وكلما أدمنت وتمادت مصت دماءنا وأفنت قوانا واستنزفت حيويتنا شيئاً فشيئا .. وأما المعجبون منا بمدنية أوروبا إعجاباً لاحد له فهم فى تحمسهم لعاداتها وأصولها ونصحهم للامة بالاخذ بها يساعدون فعل تلك

القوى المحللة مساعدة خطيرة للدرجة القصوى . ألا ترى تزاحم امم أوروبا على فتح المدارس ببلاد الشرق وتصرف المصاريف الطائلة عليها وهي أحق بها في بلادها ؟ ماذا يعني ذلك من تلك الامم ان لم يكن السعي في نشر لغتهم وعاداتهم بيننا تسهيلا لتحليلنا لما قرره لهم العلم من أن اللغة والعادات من أكبر المحللات لعناصر الامم المستضعفة . فهؤلاء الذين يلقبون بعضهم بعضاً بالمصلحين هم أكبر أعوان تلك القوى المحللة من حيث لا يدرون بل من حيث يريدون الاصلاح فان كان هنالك وجه للتخوف والشك من المستقبل فهو من جهة هذين الخطرين الكبيرين ليس إلا ، وعلينا أن نبدي رأينا فيهما تتميما لهذا البحث خدمة لامتنا المحبوبة .

زيادة بيان

لاحظ على بعض ما كتبته تحت هذا العنوان في مقالاتي المتتالية كاتب نبيل بمقالة نشرت يوم الخميس الماضي في المؤيد وجعل أمام ملاحظته جملة ثناء وتحبيذ بها عن أدبه وحياة شعوره وإني أحييه وأحي فيه تلك النزعة الفاضلة . واني بمقالتي هذه أرجو أن أزيد موضوعي بياناً وأولى ما أغمضته سعة وشرحا .

ان ماذكره حضرة الكاتب من ان هذا الاحتكاك بين الغرب والشرق كما هو سبب فتنتنا هو سبب يقظتنا أيضاً مما لا مشاحة فيه ، واني للآن ما بحثت في أسباب هذه اليقظة ولا في العوامل التي هيأتها ولعل لها موضعاً فيما يلي من القول .

أما تشبيه المصريين باليابانيين فلا أراه جائزاً بوجه من الوجوه لتخالف الامتين فى جل أحوالهما الرئيسية التى لها الشأن الاول فى حياة الامم ونموها . ولأسرد امهات تلك الأحوال على عجل فأقول :

(١) الامة اليابانية أمة تبلغ خمسة وأربعين مليوناً من النفوس قائمة بذاتها غير مرتبطة بأمة اخرى فى حركتها الحيوية . والأمة المصرية يبلغ عددها عشرة ملايين نسمة وهى جزء من امة عظيمة لامناص لها من التأثر بحركتها العامة جذباً وانجذاباً وسكوناً واضطراباً .

(٢) الأمة اليابانية دولة مشكلة تحت زعامة ملك هو حلقة من سلسلة ملوك يصعد تاريخ أولهم الى ماقبل الفين وخمسمائة سنة ، والأمة المصرية ولاية تابعة لدولة أخرى كانت لامناص لها من الرضوخ لمن تؤمره عليها وتطلق يده بالتصرف فيها وكثيرا مااضرت تلك اليد بالمصالح الخاصة والعامة معا ، ثم لما حصلت العائلة الحاكمة فى هذه البلاد على شىء من ظواهر الاستقلال احتوشتها اطماع الأجانب وأصبح أمرها تابعا لارادات الدول جمعاء ، ولا يخفى على أحد ماهية تلك الارادات ووجهتها .

(٣) الأمة اليابانية لم يذلها الاستعباد الأجنبى ولم يتسرب اليها الحين من قبل الحكومات القاتلة للعواطف الفاضلة ، ولا يجد المؤرخ أمة تحاكى الأمة اليابانية فى كثرة اضطراباتها ومشاغبها الداخلية وناهيك بشعب يقضى أكثر من ألفى سنة فى حركة وهياج لاتهدأ لهما ثائرة الا ريثما تستجمع قوى جديدة وتدخر أسلحة أحد ضريبة

وما أوجب لها كل هذا الشغب الا دم يغلى بحرارة العزة وعوامل الانفة والفتوة . أما الأمة المصرية فقد رضخت لحكم فاتحيها وسلمت لهم قيادها بعد أن اعياها الجهاد قبل أكثر من ألفى سنة فخنعت للسكون وتركت أمورها لتصرف قادتها حتى ان الأجانب المتنازعين فى السلطة كانوا يتقاتلون فى دارها بجيوشهم المخيفة وهى ساكنة تنتظر الغالب لتخضع له مكرهة وتقدم له الاخلاص منكرة عجزا منها عن مناوأة العالم كافة فانه لم يكن أمامها الا أحد أمرين : اما أن تقف لكل فاتح بالمرصاد وما كان أكثرهم فى العالم السالف فكان يجب عليها لذلك أن لا تغمد سيفا ولا تروى زرعا ولا تدخر شابا وليس هذا فى وسع أمة ، واما أن تخضع للفاتحين وتكون تابعة لأقوى دول العالم فى كل جيل وقد فعلت ولم تزل على ذلك . أين هذا من الانفة اليابانية التى لم تقبل أن تضيف الأجانب فى بلادها وتشملهم برعايتها ؟

(٤) الأمة اليابانية تسكن جزائر بعيدة عن مرامى الانظار ومطارح المطامح فلم تزعجها غيل المغتالين ولم تكن يوما من الأيام مغنما يستدعى شره الفاتحين ، أو طريقا يرجو مالكه أن يحكم به الأمم أجمعين . والأمة المصرية تسكن قطعة من الأرض تعد مفتاح الشرق كله دانيه وقاصيه ويعتبرها الجغرافى والسياسى نقطة الاتصال بين الأمم المستعمرة والشعوب المستأهلة للفتح . لذلك قاست مصر من ضروب الهجمات وصنوف المباغتات وألوان الغارات والطامات ما لم تذقه أمة من أمم الأرض . وكابدت من أخلاق الفاتحين وشراسة المغتصبين مالم يصبر

عليه غيرها

(٥) الأمة اليابانية فى كل أدوار حياتها تحدث نفسها بالمجد والسؤدد والغلبة والظهور ولكن المصرية من منذ الفى سنة لاتحدث نفسها الا بأمنية واحدة وهى عدل الفاتح ومرحمته لا الخلاص من ربقته والتفصى من حبالته . وفرق جسيم بين أمتين احداهما تحدث نفسها بالعزائم والعظائم وأخرى تستعطف المراحم وتستلين الغاشم . تلك تنمو فيها ملكات الاقدام والجرأة والشهامة وهذه تنعدم فيها على طول الزمن صفات الأحياء ولا تزداد على توالى الأدوار عليها الا استكانة وخمولا ولو تلاقى أمة مالاقته الأمة المصرية لكانت مثلها لامحالة فلا جرم ختمت الامة اليابانية تاريخ اضطراباتها باقامة حكومة دستورية شورية وكان ذلك نتيجة جهادها كل تلك القرون الماضية قبل أن يدرس درسا واحدا من مدنية أوروبا .

لما استتب للحكومة الجديدة الامر حانت منهم التفاتة فاذا الغرب أسبق منهم الى كثير من كماليات الحياة فمالوا إلى الاخذ بها ولكن ميلة العالم يريد أن يتكمل لا الجاهل يود أن يتعلم : لذلك لم تفتنهم مدنية أوربا بل كانوا بازائها كمن لاحت لهم نهزة وسنحت لهم غنيمة فخفوا اليها سراعا كخفتهم الآن فى سهوب منشوريا ورعان بور اثر بهمة لاتعرف لها حداً خشية المباغتة لانهم كانوا يعلمون أن أوروبا لو فطنت لهم لعلمت كيف تناقشهم الحساب على مايأخذون منها . ولم تكن أوروبا تعرف عنهم وعن حياتهم الصحيحة إلا ماينقله لها كتاب

الرحلات ولايخفى على أحد مصدر نقلهم ومسرح نقدهم ومبلغ معارفهم . وكلنا يعلم أن جلهم لاحظ لهم من كتابتهم على الشرق الاذكر العجائب وإيراد الشوارد فى الاخلاق والعادات ومن يرد أن يعرف طرفا من خلل نقلهم وبعدهم من الوقائع فى أكثر مايوردونه فليطلع على مايكتبونه عن المصريين وعاداتهم .

أخذ الاوربيون معلوماتهم عن اليابان من أولئك الرحالات فصوروا اليابانيين لانفسهم بصورة مافلما حسرت عن وجهها اللثام وظهرت بمظهرها الحقيق خالها الناس أعجوبة اجتماعية وغالوا حتى كادوا يعلون بها عن مستوى البشر وسيعلون بها حتى ينبههم المنبه الاوروبى

أما الاحصاءات التى يمكن إيرادها عن ترقى أحوالها الاقتصادية والحربية فى مدى هذه الثلاثين سنة فهو من طبيعة الحكم النيابى وخصائصه فان للأمم حاجات فى نفوسها تشعر بها ولا تستطيع ابرازها لقصور طاقة الافراد عنها فهم يؤملونها من القائمين بشؤونهم تأميلا فان شاؤا حبوهم بها وان شاؤا أرجؤها لانه كثيرا ماتخالف إرادة الحكومة مطالب الشعب وحاجاته فتهملها بل وتميت العاطفة الباعثة اليها ولكن متى حصلت على الحكم الدستورى تدفقت تلك الحاجات وبرزت إلى عالم الظهور بسرعة مدهشة . هذا مايرينا تاريخ كل أمة دستورية ولووازى المنتقد بين ماحصل من الرقى الفجائى فى ممالك أوروبا بعد تقرير تلك المجالس مباشرة وبين اليابان لرأينا أن فى اليابان بطأ فى السير عن

غيرها

أما الذى صد (كوبلاى خان) عن اليابان فهو جسارة اليابانيين واقدامهم وتمكن الانفة والحفيظة من نفوسهم، فقد داهمهم الفاتح الاسيوى فى ديارهم بمائتى ألف وأربعين ألفاً من الجنود العتاة المعتادين على شرب المهجات وخوض الغمرات. فلم يصدهم المحيط ولم يعوزهم للوصول إلى جزر اليابان إلا تعدية بحر اليابان الذى يفصل تلك الجزر عن القارة الأسيوية. ولقد نازل فرسانه رجالات اليابان كتفا لكتف فلم يسعه بعد أن رأى مارأى من شكيمة شديدة وجلد لا يغالب الا أن يرضى من الغنيمة بالاياب.

أما عرفان فصل اليابان بخمول ذكر الصين ففيه نظر. فان الصين ليست كما يصفها كتاب الرحلات من خمود الحركة وموات العزيمة وهمود الاحساس. وماصور لنا هذه الامة الفخيمة ذات المدنية القديمة وجعلها فى أذهاننا عنوان الخمول والانحطاط الا أولئك السواح المتهورون الذين يكتبون عنا أشد من ذلك مما لا حقيقة له ولكن أهل العلم منهم يقرون للرجل الصينى بصفات تضعه قبل اليابانى بدرجات وان قهرة هذا الاخير فى سنة ١٨٩٤ والجأه للتسليم بشروطه. ويستنتج هؤلاء العلماء من صفات الصينيين وقبولهم السريع للرقى بأخص معانيه وعددهم البالغ حدود الكثرة أن هذه الامة سيكون لها شأن هائل فى العالم وان أوروبا التى لا تعبأ بها الآن ستلتجىء لان تحتمى منها بالهرب إلى بلادها وهذا مايعبرون عنه (بالخطر الأصفر) ولولا ما يتوقع

من النهضة السريعة للصين لما كان للخطر الاصفر وجود البتة فان الامة اليابانية ان قاومت دولة أوربيه فلا قبل لها بمقاومة دولتين وهى عبارة عن جزر لا تبلغ مساحتها مساحة فرنسا ولو تحطم أسطولها لتلاشت خطارتها وزال كل خوف من جانبها .

يقول قائل كيف قهرت اليابان الصين وكيف سبقتها الى الأخذ بالنافع من المدنية الأوربية مع ما تصف به الصينى من السمو على اليابانى نقول أما سبب غلبة اليابانيين فجودة السلاح وحسن القيادة العسكرية وقد دهمت هذه الأمة جارتها الضخمة بهذه الوسائل المخيفة وهى فى غفلة عن خطارة الجديد وخطره فلم تقو على الدفاع فسلمت لعدوها فى مطالبه لا عجب من هذا قهر المصريين الأتراك فى بلادهم تحت قيادة ابن مؤسس العائلة الخديوية مع ما هو مشهور من شجاعة الأتراك وشدة بأسهم . ولكن هى الأساليب الحربية والأسلحة المتقنة التى أصبحت مدار الفوز فى حروب هذا الجيل .

أما سبب سبق اليابانيين فى الأخذ بالنافع من أوربا فله أسباب اجتماعية كثيرة من أكبرها (١) أن الصين أمة كبيرة جدا يبلغ افرادها نحوا من خمسمائة مليون أى ثلث العالم كله وهى تشغل حيزا شاسع الأطراف من الأرض يصعب على أهله أن يلتئموا على غرض واحد أو يتآمروا على أمر مشترك . وهى مقسمة الى ولايات كل ولاية تزيد فى المساحة عن أربعة أضعاف مساحة جزر اليابان لها حاكم شبه مستقل وله جيش خاص منعزل فى ارادته ونظامه عن جيوش زملائه

الحكام حتى عن جيش الامبراطور نفسه . فما سهل على اليابان من ضم نفسها والتآمر على حفظ كيانها وتدبير أمورها من تأييد دستور وتدريب جيش وتنظيم أساطيل يصعب على أمة الصين الكبيرة لهذه الأسباب كما لا يخفى .

(٢) اليابانيون أمة تكونت من المهاجرات المتولية من الصين واصقاع آسيا القريبة منها وكل أمة تتكون على هذه الصورة تكون أقبل للترقى من الأمم الأصلية لأنه لا يقوى على هجر وطنه وأهله الا من كان يحمل فؤاداً كبيرا وتحمله نفس تواقة للمعالى . وبناء عليه فالأمة اليابانية المتكونة من المهاجرات تعد أمة مقداما بطبعها قابلة للأخذ بالنافع بفطرتها مستأهلة للأقدام على كل غاية قبل غيرها . وقد أخذت بالصالح من أوروبا وضمته الى ما كان لديها وغدا تسبقها لا محالة . لهذا السبب ترى أمريكا الشمالية التى تكونت من المهاجرات قد سبقت الأوربيين الذين هى منهم وهى لم تزل أسبق الى كل جديد وأقبل لكل فكرة حديثة من غيرها .

(٣) اليابانيون أمة محصورة بالبحر جزائرها ووسائلها الحيوية محددة تكفى عدداً محدوداً من النفوس ولكن متى زادت عدد سكانها عن القدر اللازم تستدعى طبيعة العمران منها ان تتخذ لنفسها سبلا الى خارج بلادها والا هلكت . من هنا كان اندفاع الأمة اليابانية متركزا على دوافع قهرية وبواعث طبيعية لا يمكن احصاؤها . فلا عجب ان تأملت فى ذاتها وتفكرت فى وسائلها وجمعت أمرها ورقت شؤنها قبل غيرها .

أما الامة الصينيه فهى أمة أصلية تفتخر بأن مدنيتها تبلغ من العمر آلافا من السنين ولها تاريخ يرفع من معاطسها ويزيد من أنفتها وهى فى بقعة فسيحة خصبة تقيت ضعفيها وتؤوى مثليها . فليس لها والحالة هذه دوافع قهرية تدفعها رغما عن إرادتها فلا عجب ان سبقتها الامة اليابانية التى لم تبلغ ولاية من ولايتها أما وقد تولدت بعض تلك الدوافع من جراء مطامح الاوربيين فقد ألقى الصينيون بأنفسهم فى ميدان الرقى وقد نقل المؤيد هذا الاسبوع عن بعض جرائد أوربا أنه يوجد فى مدارس بلجيكا وحدها خمسة آلاف طالب علم منهم ولا تسل عما يوجد منهم فى أمريكا القريبة اليهم وفى اليابان جارتهم وفى سائر ممالك أوروبا واذا استمرت هذه الحركة عشر سنين انتقلت الصين فجأة من حال الى حال آخر وعلم الناس هنالك أنهم كانوا غير مقدر بها قدرها ولا أواضعيها فى الصف اللائق بها .

هذا ما استطعت إيراده فى هذا الموضوع الخطير وانى أرجو أن أعود لهذا البحث نفسه بعد الفراغ من أعمالى المتراكمة على فى هذه الأيام وانى ماجئت اليوم بهذه العجالة الا توطئة لما أرجو كتابته فى هذا الصدد بعد الفراغ من مبحث فتنة المدنية الغربية

القوى المحللة

(٦)

قلنا فى مقالاتنا السابقة أن الأمة بجموعها سائرة نحو الحياة والتقدم

سيراحثيثا . ثم خصصنا الشعب المصرى ببعض التفصيل فأثبتنا أنه نال فى الخمس والعشرين سنة الأخيرة من اليقظة والشعور مايعز على غيره نيله فى هذه المدة الوجيزة . قلنا ذلك كله ولم نبحث عن موجبات هذه اليقظة بل ولم ننوه عما يحتوشها من العيوب المؤيسة التى خصها كثير من الكاتبين بالبحث والتحليل وأفردوا لها الأبواب والرسائل وعقدوا فيها فصولا لعيوب الأفراد وأخرى لمثائب العائلات وغيرها لسائر طبقات الهيئة الاجتماعية . وما حدا بأولئك الكتاب الى تكلف المشقة فى تلك المباحث الا أنهم يتخيلون لهذه النقائص أسبابا قريبة وقانونا سهل المأخذ . وعندهم أنهم متى كشفوا القناع عن بعض الحوادث التى نكب فيها بعض العائلات اتعظ الناس بها واتخذوها لهم عبرة . ولكنا نرى أنه ليس يصح أن تعير الامة بمعائبها الا فى أدوار دون أدوار ولو صح أن يقال ان للأمم فى حياتها طفولية فلا يليق ان تبكت الأمة بنقائصها فى ذلك الدور كما لا يليق أن يجعل فضح مثالب بعض الأطفال بالتفصيل والتحليل عبرة للأطفال الآخرين فى دور نشأتهم

من هنا صار تعيير الأمة بنقائصها فى نظرنا من العبث المحض ولو أردنا أن نحكم حكم العمرانى الصارم لقلنا انها تزيد الناقصين نقصا وتغرى الكاملين على الخروج عن حدهم لوجدانهم العذر والقدوة السيئة خصوصاً لو كان الناقصون من الطبقات العالية . وقد ثبت فى علم الانسان أن مكاشفة الامم بعيوبها فى بعض أدوارها يجرئ المستعدلها على غشيانها وينشئ فى الغافل عنها نزوعا اليها . لذلك كان أمر سياسة

الامم من أدق السياسات وأشدها على قادة العلم وأساطين الحكمة .

يرى الناس أجمعون أن قد نشأت فينا مع هذه النهضة أدواء لم تكن معروفة لآبائنا من قبل وان تلك الادواء آخذة فى النمو والانتشار كل يوم حتى آل أمر بعض أصحاب البصر بسببها الى اليأس من المخلص فان الالحاد على أشكاله والعقوق بصنوفه والفساد والسفاد بسائر ضروبهما الخ الخ كلها عيوب لم تكن لدى أهل الجيل السالف الذى وصفناه بالخمول والخمود الا بدرجة محدودة أما الآن فهى فى جسمنا الاجتماعى بثرات درنية خبيثة عدت على كيان الامة والعائلة وسرت الى سائر الطبقات فأحدثت فيها أموراً لو عددها المعدد لأدمت العيون أسى وكلمت الأفئدة أسفاً .

نعم كل هذا كائن وليس من الصعب سرده سردا وقذف مرتكبيه بالمثالب والملاوم والنعى عليهم بما هم أهله ولكن الصعب كل الصعب أن تنقب على العلة فتجد جرثومتها فتجتثها أو تهتدى الى ميكروبها وتعرف مادة حياته فتبيده بالمطهرات . هذا أمر شاق وأشق منه على النفس أن تهتدى الى علل هذه الأعراض السيئة ولا تستطيع أن تعالجها لاستدعاء علاجها عقيدة من الآحاد راسخة فى امكان الخلاص منها وأملا واسعا جدا فى المستقبل وصبرا على شدائد الصبر وهى صفات عالية لا تعطاها أكثر الأمم .

تلك النقائص التى التثنابها وارتطمنا فى شعابها فى هذه السنين الاخيرة وأصبحت وصمة درنية فى وجه هذه النهضة الجميلة لم تنشأ فينا

نشوءا طبيعيا كما ينشأ الشوك بجانب الورد حتى كنا نضيفها الى باب الأعراض التى لا تنتزه عنها كل نهضة من هذا القبيل بل اجتازت تخوم المعقول وخرجت الى متاهات العسف فهوت تيارها بيوتا وانقرضت أسر بأسرها وتهدم بها من مجد البلاد معاهد كانت قوية القواعد ركينة الوطائد . ولا غروان وجد الكاتب المتشائم مجالا واسعا ليراعته من هذا الحال الحالك ولا عجب ان استطاع أن يسرد من ضروب الحجج العيانية الحسية مايذهب بالبقية الباقية من الرجاء فى قلوب الراجين .

انا نتحد كلنا فى هذا الباب وليس فينا واحد يرى أن النهضة نزيهة عن نقائص مجتاحة عاملة على الدوام على اطفاء نورها وتصويح زهرتها ولكن الخلاف يأتى بعد ذلك . يأتى فى وجه معالجة هذه النقائص المهلكة فيذهب قوم الى لزوم تكميل التربية واعطائها قسطا وعظيا مؤسسا على قوانين الحكمة . ويذهب آخرون الى أن هذا التعديل الخلقى مما يجب أن يوكل لساطة الحكومة فهى التى يطلب منها أن تسوس البلاد بما يقف بأهلها عن الترامى على مهاوى الهلكة والتهافت على مزال الفتنة . ويظن غيرهم أن هذا وظيفة المهذب المدرسى والوازع الحكومى معا . أما نحن فلا نرى واحدا من هذه الآراء الثلاثة يصلح لعلاجنا مما نحن فيه . نعم ان فى تكميل التربية والتهذيب ودعمهما بقوانين الحكمة أثرا لا ينكر فى تحسين الأخلاق . وكذلك فى قيام الحكومة بسن القوانين الرادعة للناس عن التهالك على الموبقات

وصدهم عما يبيدهم ويبددهم دخلا لا يستهان به فى كبح الاهواء والابقاء عليهم من التحلل ولكنا مع ذلك لا نعلق عليهما خلاص البلاد مما هى فيه .

أما الاعتماد على الحكومات فى سن مايحفظ الناس فى دوائر الاعتدال ويحميهم شرور نفوسهم فليس بطريق طبيعى لطالب الاصلاح لانه من باب الاعتماد على المصادفات الا اذا كان للشعب قوة على انتخاب الحكومة التى ترضيه . أما شعب مثل الشعب المصرى لم يصل لدرجة انتخاب حكومته بنفسه فلا يجوز له أن يرتكن على الحكومة فى أصلاح شؤونه . لانه ان كان فى حكومة اليوم شىء من العدالة والمراعاة للعواطف فعسى أن تكون حكومة الغد على نقيض ذلك حتى لاتحتمل أن تسمع منه طلبا للاصلاح وقد رأى المصريون من تغير الحكومات عليهم ضروبا من أهواء الحاكمين تعلمهم كيف يعتمدون على أنفسهم ولا يضعون حياتهم فى يد حكومتهم

لاجرم أن اعتماد الأمم على حكوماتها فى أمر رقيها وتعديل أخلاقها اعتماد على المصادفات ولا تفلح أمة تعد بالملايين تتكل فى أمر حياتها على افراد من المسيطرين . وعندى أن القول بأن الأمة المصرية لا تصلح الا مقودة بقوة حاكمة مستبدة من الأمور التى لا يقوم عليها دليل ولاشبه دليل . والاستدلال من التاريخ على أن المصريين صلحوا تحت الحكومات الصالحة حتى فعلوا الأعاجيب وفسدوا تحت الحكومات المفسدة حتى سقطوا للحضيض فلا يؤخذ حجة على أن المصريين خلقوا لأن يعيشوا مجردين من الارادة والشعور

وسيبقون كذلك أبد الآبدين . وانما غاية ما يؤخذ منه انهم فتنوا بالضغط الشديد المتوالى وحملوا بالعسف المتواصل على أن يستسلموا للمستبدين استسلاما لا حد له . فهل يصح أن نجعل هذا الاستدلال تكأة نتكىء عليها فى القول بأن المصريين لن يبلغوا قط مبلغ الأمم الراشدة فيشعروا بشخصيتهم ويعملوا لأنفسهم بأنفسهم بدون سيطرة حكومتهم عليهم ؟ وهل يليق أن نرتكز على هذا الاستدلال فنقرر أن هذا الشعب لن يرتقى عن هذا الدور الاتكالى كما ارتقى عنه كل شعب فى العالم بالعلم والتربية ؟ ان ساغ لنا ذلك الزعم فقد ساغ لنا أن ندعى أن المصريين خلقوا نسيج وحدهم وفطروا على غير فطرة سائر الناس وان مارفع الأمم الى مقاوم الشعور والأنفة من العلم والتربية لا ينفعهم .

وهذا مما لا يسمح به مذهب فلسفى من مذاهب العالم . وما سبب صدور هذه الآراء البعيدة الا استبطاء مبديها حول الأدوار وحدوث الانقلابات والتغيرات فهم يودون أن تتسلسل أمامهم الحوادث الاجتماعية بما تستدعيه من اصعاد قوم وتسفيل قوم وتقويم أمة وتعويج أخرى كما تتوالى أمامهم حوادث العام أو الشهر . ولذلك فمتى رأوا أن شعبا لبث ألفى سنة على حالة واحدة متبعا سنة واحدة استنتجوا من ذلك أنه خلق عليها ولن يتعداها الى غيرها . وربما لا يغيب عنهم أن هنالك أقواما باقين على حالة الوقوف من يوم خلقوا للآن لأسباب لا يسع هذه العجالة سردها سرداً . وما ألفا سنة فى عمر الاجتماع

البشرى الا كعامين من عمر الانسان الواحد .

ظهر من هنا أن الذين يعتمدون على سلطة الحكومات يخطئون خطأ عمرانيا جما ويرتكنون على المصادفات وهى مما لا يصح الارتكان عليها فى شىء لأنها كالرياح يوم لك ويوم عليك والعاقل من يعتد لنفسه عدة تقيه ما عليه من الأدوار فان عجز اليوم وأخفق جهده فلا يجوز له أن يعتقد أنه عجز الى الأبد فان للأمم فى حياتها أدوارا وللحوادث نتائج وآثارا . ونحن ان ربينا أبناءنا على هذه السنة سنة الاعتماد على الحكومات فقد أنشأناهم على ذلك القالب البالى وجعلنا منهم أشباحا لا ارادة لها ولا عزم على سنة من تقدمهم من الأجيال . وأما ان قررنا لهم الحقيقة العمرانية وصورنا لهم واجب الأمة على نفسها وحددنا لها وظيفة حكومتها بازائها فقد أقمناهم على صراط الحياة الاستقلالية فان لم يحيها الجيل الخالف حيها من بعده .

هذا هو الدستور العلمى المؤسس على التجارب وما بعده الا الآراء المنتزعة من حوادث جزئية خاصة لا تصلح لان يستنتج منها قانون عمرانى له وزن فى الأمور العامة .

أما التربية فانا ممن يعتقد أنها تفعل الاعاجيب ، وهل بعد تدريب الحمام على حمل الرسائل فوق القنابل وتمرين الكلاب على قيادة العميان والتفتيش على الجرحى فى ساحات الوغى وتعويد الخيول والفيلة والمعزى على الألعاب الرياضية المدهشة . وهل بعد هذا يشك انسان فى فضل التربية على الانسان ؟ لا . لا يشك فيها أحد ولكن الانسان

ليس على سنة الحيوان . هـذا محدود القوى والمدارك مقيد القابلية والاستعـداد وذلك مطلق المواهب والملكات بعيد مـدى التصور والخيال ، ثم هو مع ذلك مرتبط بطائفة من بنى نوعـه تستطيع أن تنقض له مايبرم وتبرم له ماينقض فما يتم لك على الحيوان فى عام لا يتم لك عـلى الانسان فى أعوام ، بل ربما لا يتم لك فى أجيال متعاقبة تبعا للاحوال التى فيها الامة . وقد سبق لنا ان تـكلمنا على الحرب الحيوية القائمة بين الامم وقلنا ان الضعيف منها معرض لتحليل القوى وهضمه والفناء فى جسمه وقلنا ان هذه الامة مصيبها قسط هائل من تلك القوى المحللة المنصبة عليها من أمم الغرب فما تفعله التربية فى عقول الناشئة فى سنى المـدرسة تبدده لها تلك القوى المحللة بأسلحتها السلمية الفاتنة فى يوم واحـد . وهل بعد أن يرى أحدنا أنه تربى فى المدارس الاوربية الخاصـة لتخريج القادة والزعماء فخرجت الفرقة التى كانت معـه من الأجانب فتولت ادارة بلادها بين عالم عمرانى وفيلسوف اقتصادى وقائد عسكرى أو سياسى وخرج هو لايدرى أى شىء يعمل وربمـا جاء ساخطا على بلاده زاريا على أهلها ويود أن لو لم يـكن من بنيها . هل بعـد ان يرى أحـدنا نفسه على هـذه الصورة يستطيع أن يمتنع عن اعتقاد اننا بعـد التربية تتلقانا أيدى فتنة آسرة تسلبنا ارادتنا وعزيمتنا وتتخذنا آلة لتحليل من دوننا ؟

هذه الفتنة هى مظهر من مظاهر القوى المحللة ولها أشكال وصور شتى يأتينا ميكروبها محمولا فى صدور الاقمصة الملمعة وجيوب الالبسة

المؤنقة وأطواء الفرش المنضدة وأثناء الجمل الفلسفية المفوقة وغير ذلك مما يعلم بالبداهة ولا يحسن قوله علينا .

مادامت هذه الفتنة عاملة دائبة فهى تلاشى آثار التهذيب أو أكثرها ولا تزال بنا حتى تجعلنا فلاسفة قولا وسفهاء فعلا .

يقول انصار المذهب الثالث مذهب الاعتماد على الحكومة والتربية معا : « ألا ترى الآن أنه لو كانت حكومتنا مع مانحن عليه اليوم من الميل للتهذب والتعلم تمنع عنا هـذه الفتنة التى نهوى فيها هويا سريعا لوصلنا فى مدى قريب الى درجة عالية من درجات الحياة الصحيحة » .

نقول : نعم ولـكنه لم يحصل ويكفى لبيان وهن أساس هذا الرأى أنه من قبيل الامانى .

يقول قائل : اذا كان الأمر كما ذكرت فما المخلص من هذه القوى المحللة الهاضمة ؟ نقول لانستطيع ان نبدى رأينا فيه الا بعد ابداء كلمتنا على المفتونين منا بالمدنية الغربية لارتباط الامرين ببعضهما .

***

المفتونون بها

(٧)

لست من أعداء المدنية الاوربية ولا من الواهمين فى تقدير قدرها . بل أنا ممن يعتقد أنها أفخم مظهر من مظاهر الرقى الانسانى فى عالمى الصناعة والعلم الطبيعى وانها قد ورثت سائر ماحفظته بطون الاوراق . وخزائن

الاملاك من آثار أعلام العرفان والحكمة . وذخائر نقباء الطبيعة والصنعة . فوحدت بين متفرق هذا الميراث الادبى وضمت بين أجزائه . وركبت منه مزيجا جمع نتائج قرائح الامم فى أمة . وصبت نهايات المدارك الابداعية فى قالب واحد . ثم ضمت اليه ما اكتشفته من مساتير الوجود . وما هديت اليه من خفيات المعارف : ودقيقات المسائل . فجاء هذا الكل شكلا يأخذ بالقلب هوى ويملأ العين سحرا .

الناس بازاء هذا البدع الفخيم أحد ثلاثة رجال :

(١) فهم إما خفاف الأفئدة سريعو التأثر بالظواهر فيزدهيهم هذا الشكل الآسر فلا يرون لحياتهم قيمة ولا لوجودهم وزنا الا بتقليد أهله فى شأنهم كله فيكدون فى هذا السبيل صارفين له همهم وهممهم واقفين عليه جدهم وجهدهم فيعيشون متطفلين على موائد غيرهم ومن يرض أن يعيش متطفلا فلن يكون صاحب دار أصلا .

(٢) واما موهمون أنفسهم بأنهم زارون على هذه المدنية ومعتبروها رجسا من الأرجاس وقنعوا بهذه الأقوال ثرثرة وتفيهقا ولكنهم آخذون فى تربية أولادهم على سنتها المهلكة (فى نظرهم) فهم من القسم الأول ويزيدون عنهم إثما فى التلبس بالتغرير والتضليل وهؤلاء حجة الطاغين وفتنة اليائسين

(٣) واما هم (أحياء بالفطرة) شارفوا هذا المنظر المدهش فعراهم ماعرا غيرهم من دهشة المفاجأة ولكنهم لم يفقدوا رشدهم فوقفوا بما وهبوه بالفطرة من قوة الفؤاد واستقلال النفس وقفة المفكر فى

وجه السير وجهة العمل فتبين لهم بعد اطالة الروية أن الذى ظهر به أصحاب تلك المدنية من المظهر الآسر ليس بطبيعى فيهم وانما هو عرض اقتضته لغيرهم من قبلهم . وإن تلك الصفات والآداب ليست بوقف على أمة دون أخرى فعلموا أن الأمة متى أدركت تلك الصفات فتخلقت بها وأخذت نفسها بأدبها استقامت فناتها وتيسرت أمانيا وعلت علما وعملا وغنى حتى تساوى مناظريها أو تفوق عليهم . فدرسوا تلك الصفات الاجتماعية بنور الفطرة التى أوتوها فرأوها ليست شيئا سوى ماطبع الانسان بفطرته على اعتباره أصولا للكمال والسيادة مثل العلم والعمل والدأب والصبر والاعتدال الى غير ذلك من الصفات التى لايشك فى جمالها رجلان . فنظروا الى ملتهم وقالوا لو علمت أمتنا وعملت ودأبت وصبرت واعتدلت لوصلت الى مثل ماوصل اليه هؤلاء ولولم يصل جيلها الحالى لوصل اليه من يخلفه أومن بعده وإن أخطأ الأمة اليوم المتاع بما ترمى اليه فلا يخطئها شرف التمهيد وفضيلة التأسيس .

وصل الأحياء بالفطرة الى هذا السر فنظروا لأسرى التقليد فرأوهم يسعون الى حتفهم بظلفهم . كيف لاوهم واقفون رءوس أموالهم على الظهور بغير مظهرهم ومتكلفون من الحياة مالاتسمح لهم به وسائلهم . وهم بما ينشئونه كل يوم لأنفسهم من الاحتياجات الوهمية التى بتأصلها تصبح ضرورية . واضعون أنفسهم بحيث يصيرون طعمة الآكل وهدف النابل . ثم رنوا الى القسم الثانى فرأوهم كالأولين

ويزيدون عليهم تغريراً فتحققوا ان هذين القسمين واقعان لامحالة فى رق أصحاب تلك المدنية طوعا وكرها وساقطان فى حضيض من النقص حتى ليؤول أمرها الى الغبطة بأسرها والتبجح برقهما فيكونان بحالهما وقالهما مثلا محسوسا لفساد الفطرة ومسخ الطبيعة

نظروا هذا النظر وانتهوا الى هذه النتيجة ولم يدعوا أنهم منزهون عن تلك الفتنة ولكن ذلك الأثر الذى علق بهم منها فضلا عن أنه لم يطمس بصيرتهم يحرضهم على عدم الوقوف لئلا يقعوا مع الواقعين فلا يعودوا يذكرون الخلاص ولا تخيلا .

هؤلاء الأحياء لايحقرون مدنية الغرب ولايهمون فيها . بل هم أكثر من المتحمسين لها تقديراً لقدرها وعلما بجهات قوتها وأشد من المفتونين بها حبا فى مساماتها ومسابقتها ولكنهم أصحاب بصر وعلم لايدعون اليها لأنه لامعنى لذلك ولو دعوا اليها لأوهموا الناس أنهم يدعون الى قشورها من ملبس وملهى كما هو حاصل . ولكنهم يدعون الى الأصول الأولية التى هى دعائم كل مدنية . يدعون للفضائل ويزجرون عن الرذائل . يعلمون أن القوى يغلب الضعيف ويهضمه وان الأمم فيما بينها فى حرب سلمية أسلحتها الوسائل الاقتصادية والتمويهات الصناعية الى غير ذلك من موجبات الفتنة فيحذرون اخوانهم من التعرض لفعل هذه الأسلحة المدمرة بكل مافى وسعهم من علم وحكمة ومايسعه امكانهم من سيرة طيبة وقدوة صالحة .

هؤلاء الأحياء هم مادة حياة الامة وملاك قوامها ومساك هيكلها

ونظام جامعتها بهم تحفظ شخصيتها ومنهم تستمد قوتها . فهم كالخلايا الحية فى الجسم الآلى تبعث الحياة لمن يجاورها . وليسوا مقصورين على فرع واحد من أفرع المجهودات الانسانية بل تصادفهم فى كل مجال : فى التجارة . فى الزراعة . فى الصناعة . فى العلم ، وهم فى أى مسرح وجدوا تراهم نسيج وحدهم وأئمة مذهبهم لا تستعبدهم العادات ولا تسترقهم التقاليد ميالون بفطرتهم للتوفيق بين علمهم وعملهم وبين عواطفهم وأسلوب حياتهم شديدو الارادة قويو العزيمة لا يبالون بما ينتاب جسومهم فى مرضاة أفئدتهم .

هؤلاء الأحياء ينشؤون نشوءا لا يعرف له قانون طبيعى لليوم ليس للمدارس فى إيجادهم إلا أثر لا يعتد به وربما استعصت فطرهم على نظامات المدارس ودوائرها الضيقة فلم ينبغوا إلا مستقلين عنها كما أثبته الاستاذ (سيزار لومبروزو) فى كتابه على النابغين المشاهير .

هذا الصنف من الناس الذين نسميهم (أحياء بالفطرة) لا يمتازون عن اخوانهم الخاملين فى شىء من الخلق الظاهر فلا يتوهمن قارىء أنا نصور له عالماً فوق العالم الانسانى بل هم من أفراد الدهماء وانما هو فؤاد اشم سكن بين جنوبهم فقلب كيان سرائرهم وجعل لهم وجداناً غير وجدان معاشريهم فهم منهم جسما ومولدا وليسوا منهم غاية ووجهة . يشغلهم من الشؤون مايئس منه اخوانهم ويعنيهم من الامور ما نفض منه الناس أيديهم لم يدخل اليأس أفئدتهم بينما يكون اليأس سنة شائعة . ولم يدان الانحلال عزائمهم بينما يكون الخور جنة واقية .

يرى الأحياء هذا من أنفسهم وربما أثر عليهم حال الوسط فتألموا من شدة شعورهم وربما سحرهم حال اخوانهم المفتونين فودوا لو غلظ حجابهم ووردوا موردهم ولكن هيهات أنهم مقهورون على حالهم لا يزدادون فى شعورهم الا رقة وفى حجابهم إلا لطفا. متوالى أمامهم الامور وتنقلب بهم الأدوار ويرون الناس حولهم على طرائق من الاثرة شتى فيهم بهم خاطر لمجاراة الناس فيردهم عن ورود هذا القذر وجدان عال وعاطفة كريمة فيحجمون وربما تألموا من احجامهم لغلبة الفتنة المحيطة بهم وسواء علموا أنهم على هدى أو لم يعلموا فهم مقهورون على سلوك جادة المحامد مدفوعون اليها دفعاً وان لم يتنزهوا عن شىء من النقائص فان شئت أن تصفهم بوصف جامع فقل انهم مقودون رغم انوفهم إلى سبل الحياة بدوافع ضميرية قاسرة لا يعرفون مستقرها من أنفسهم.

بماذا تعلل حركات الامم الحية واضطرابها وبيعها نفوس بنيها رخيصة فى سبيل استعمار بلد أو حمايه عن مصلحة؟ بل بماذا تعلل بيع الانكليز نفوس فلذات أكباد أشرافهم وعليتهم أمام حصون البوير ومعاقلهم وتهاون اليابان فى أمر الحياة وبذلها الالوف من رجالها أمام حصون (بورأرثر) ومضائقها؟ بماذا تعلل هذه الحركات المدهشة من أمم تستطيع أن تعيش مئآت من السنين هادئة ساكنة إلا بما قدمناه لك من أن الحياة فى الأحياء حركة اضطرارية فوق الارادة وفوق العقل وأنها تنشأ على ناموس غير معروف للانسان ولا هو مما يمكنه علمه.

قلنا ينشأ هؤلاء الأحياء على ناموس غير معروف وانما الذى

تعرفه هو أن كثرتهم فى الأمة حياة لها وزيادة لأمد بقائها وقلتهم موت لها وتلاش لعناصرها .

هؤلاء الأحياء لارتباط لهم بالمدارس والعلم الا من جهات ثانوية فهم قد يكثرون فى أمم قليلة المدارس ولو انشئت لهم المدارس لزادت حياتهم سلطاناً وانتشاراً .

وقد يقلون فى أمم كثيرة المدارس حتى لاتصادف منهم فى الألف واحداً . وقد تراهم يكثرون فى جيل من أجيال الامة الواحدة فيرفعون شأنها للسماك الأعزل وقد يقلون فى الجيل التالى رغماً عن زيادة عدد المدارس وارتقاء العلم فى تلك الامة ذاتها فتسفل حتى تتهددها الحوادث فى تركيبها الصميم ورابطتها الأصلية . ومن ينتقد حال بعض أمم أوروبا العصرية يجد مصداقاً لما نقول .

إذا تقرر هذا فخلاصنا من هذا الضعف الذى نحن فيه وظهورنا بمظهر الأمم ذات الحياة الصحيحة والشعور لايتأتى الا بنبوغ كثير من صنف الأحياء بيننا الذين قلنا انهم ينشئون على مقتضى قانون لا يعلمه البشر .

أنا لاأقول ان العلم لاأثر له ولكنى أقول انه لا يفيد الا اذا صادف تلك الأفئدة الحية بالفطرة فهى التى تنتفع به وتزداد منه حياة وحركة . أما العلم فى أمة لم توهب أولئك الأحياء بالفطرة فلا يفيدها بشىء بل يكون سبباً فى التياثها بكثير من النقائص وعلة لسرعة خطاها الى التلاشى . مثال ذلك (وهذا تشبيه مع الفارق) البخار المضغوط يدير الآلات

ويجعلها تحدث أكبر الأعمال وأعجبها ولكنه لايدير الا الآلات الصالحة أما الناقصة والمصنوعة من معادن غير صالحة فلا تنال بضغط البخار الا تبدداً وانفصاماً.

يقول قائل: «انك فى مقالك السابق لم ترض رأى المعتمدين على الحكومة لاستنادهم على المصادفات فكيف تعتمد عليها أنت فى ظهور من تسميهم بالاحياء؟» أقول انى قلت ان ظهور أولئك الأحياء يأتى على مقتضى قانون غير معروف لنا فأرانى أثبت له قانوناً وان كنت أجهله. ولكن لم يقل أحد ان لظهور الحكومات الصالحة قانوناً الا مايكون من حياة الأمة وانتخابها لحكومتها بنفسها.

فان قيل ان هذا يوجب الكسل ويحلل العزائم. أقول أما ان كان من يسمعه من الموتى فليست له عزيمة يخشى على تحللها. واما ان كان من الأحياء فقد أدرك نفسه ومضى فى شأنه وذلك لايخشى عليه من شىء فان حركته ذاتية اضطرارية.

صفوة القول أنه متى قدر لنا أن نحيا نبغ فينا أحياء كثيرون مدفوعون لعمل الاحياء بفطرتهم لا بدافع من القول ولا زاجر من الكلام وانما هى حركة ذاتية اضطرارية توجه الكافة وجهة الحياة الصحيحة بلا تردد ولا روية أشبه شىء بحركة الجسم الحى بأجهزته العاملة المدفوعة لاداء وظائفها دفعاً طبيعياً لادخل للارادة فيه.

هذا رأينا فى وجه خلاصنا من الضعف والفتور الذى نحن فيه وهو مااستنتجناه من استقراء الحركة الأنسانية بأطوارها وأدوارها

فى كل أمة مستندين فيه على الحوادث الاجتماعية والظواهر التاريخية ولا خلاف بيننا وبين المتكلمين قبلنا الا فى أنهم يرون أن أولئك الأحياء توجدهم التربية ونحن نرى أنهم يوجدون بقانون فوق التربية وانما التربية ان وجدت زادت مواهبهم قوة وحياتهم بركة فاذا لم يوجدوا فى أمة فلا تفيدها التربية بشىء ولو بلغت نهاية الكمال وغاية الاتقان .

ليس فى مذهبنا هذا من الفراغ الا عدم اهتدائنا الى الناموس . الذى ينشأ على مقتضاه الاحياء ولقد كنا نستطيع أن نحاول تلمسه بالاحتمالات ولكنا نراه فوق كل احتمال ومهما أنضينا أفكارنا بالبحث عليه فلم نهتد الا الى مايسيقه من الممهدات أو مايصاحبه من الشؤون والاعراض أما هو نفسه فيدق عن مداركنا . وكأنه مما لم يقدر لنا علمه .

فعلى الأمة أن تستمر فيما سبقت اليه من التربية ونشر العلم فان ذلك من الأسباب الظاهرة التى لامندوحة لنا عن الأخذ بها أما ماخفى علينا من العلل والأسباب فلم نكلف بعلمه وما تطرفنا اليه فى بحثنا هذا الا من قبيل اعطاء البحث حقه من التحليل والنظر قسطه من الاعتبار .

هذا وانا نرجوا الله سبحانه وتعالى أن يهدينا للسداد وأن يجمعنا على هداه وهديه انه ولى الكفاية ومولى التوفيق . وصلى الله على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

والحمد لله أولا وآخرا على ماهدانا ووفقنا لخدمة دينه ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وتابعيه إلى يوم الدين . آمين

فهرست

(الجزء الثانى من الاسلام فى عصر العلم)

صحيفة

٣ خطبة الكتاب
٦ حال الناس فى العقائد
٦ حال المكذب منا بالعقائد
١٠ قسم الموهمين أنفسهم بالعقيدة
١٢ قسم الشاكين
١٣ كيف نحن بين هذه الأقسام
١٤ كيف نقاوم هذا التيار
٢٣ كيف نحيا بلا وجهة ولا غاية
٢٩ كيف نتخذ لأنفسنا غاية ووجهة
٣٧ الاسلام دواؤنا الوحيد
٥٠ مبلغ مدارك الفلاسفة اليونانيين بالمسألة النفسية
٦٢ محاكمة مدارك الفلاسفة فى مسألة النفس
٧٦ جهة اعجاز القرآن
٨٣ مجلس نواب للأمة المصرية
٨٦ أصل المصرى
٨٧ تاريخ المصرى القديم

صحيفه

٨٨ المصرى فى استقلاله
٩٠ المصرى فى عبوديته للأمم الغالبة
٩٣ المصرى فى خلاله الأصلية وعيوبه المكتسبة
٩٣ كيفية استحضار الأرواح
٩٨ العلم عند المسلمين
١١٤ العوامل الاجتماعية فى رقى الامة اليابانية
١١٦ جغرافية اليابان
١١٨ الرجل اليابانى
١١٨ تاريخ اليابان الاجتماعى
١٢٢ نظرة على ماتقدم
١٢٨ ما وراء المادة
١٣٤ كروية الارض
١٤٢ استشكالات على دوران الأرض
١٤٦ ماهو الاسلام . زيادة بيان
١٤٧ الناس أمام الأديان
١٤٧ حظ الجاهل من الدين
١٥٠ الأوساط والدين
١٥٧ العلماء والدين
١٧٣ المحاضرة ـ أى مناظرة بين مسلم وفيلسوف فى اصول العقائد

صحيفة

١٨٧ ماوراء المادة ـ تجارب فى التنويم المغناطيسى
١٩٥ الأدب الذى تفيضه عقيدة التوحيد والتنزيه على المسلم
٢٠٣ المحاضرات ـ مناظرة بين مسلم وفيلسوف مادى
٢١٨ الولاية والكرامة والوسيلة والشفاعة
٢٢١ ماهى الولاية ومن هو الولى ؟
٢٢٣ ماهى الكرامة ؟
٢٢٣ الكرامة فى نظر أنصارها
٢٢٦ منكرو الكرامات أو محددوها
٢٣١ موضوع النزاع بين المثبتين للكرامات والمنكرين لها
٢٣٩ المحاكمة بين هذين الحزبين
٢٤٥ الأدب الذى تفيضه عقيدة التوحيد والتنزيه على المسلم
٢٦٥ الأمة اليابانية — أدلة اثبات سمو الجنس الأبيض على الجنس الاصفر بقلم الاستاذ الفسيولوجى (شارل ريشيه)
٢٧٨ خوارق العادات والأسباب العادية . بقلم الاستاذ (ا. م . ا) يلاحظ فيها على بعض ما كتبناه على الكرامات والخوارق
٢٩١ ملاحظاتنا على هذه المقالة
٣٠٦ الدين والمتدينون — تتمة الملاحظات على مبحث الخوارق والأسباب العادية ، وهى مقالة جامعة استوعبت نحواً من أربعين صحيفة

صحيفة

٣٣٩ ملاحظاتنا على مقالة حضرة الكاتب
٣٥٦ خلاصة ماتقدم
٣٦٠ خاتمة
٣٦٢ رجال أمام رجال - بقلم (جان فينو) مدير (المجلة) الفرنساوية يرد بها على زعم (شارل ريشيه) سمو الجنس الابيض على الاصفر
٣٧٠ فتنة المدنية الغربية - النيشرية الهندية
٣٧٧ وحدة الزوجة وعدم الطلاق
٣٨٥ تكشف النساء
٣٩٤ استحلال الربا
٤٠٩ الأصول الحيوية للأمم
٤١٨ ماهو المخلص من فتنة المدنية الغربية
٤٢٤ زيادة بيان
٤٣٢ القوى المحللة (فتنة المدنية الغربية)
٤٤٠ المفتونون بالمدنية الغربية

(تم الفهرست)

ما لحق

الإسلام في عصر العلم

تأليف

محمد فريد وجدي

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بشارع محمد علي بمصر

لصاحبها مصطفى محمد

١٣٥٠ هـ — ١٩٣٢ م

مطبعة المعاهد بجوار قسم الجمالية بالقاهرة
ادارة محمد عبد اللطيف حجازي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسولك الامين ، محمد عبدك ونبيك خاتم المرسلين ، ونور العالمين ، وعلى آله وصحبه أساطين الدين ، وأراكين اليقين ، وتابعيهم بخير وإحسان من عبادك المؤمنين . آمين .

(أما بعد) فانا وان كنا آلينا على أنفسنا أن نجعل كتابنا (الاسلام فى عصر العلم) سهل العبارة ، قريب المأخذ ، من جهة القالب العربى ، والاسلوب الكتابى ومن جهة البعد عن مصطلحات الفلسفة العويصة ، والهجر لتراكيبها الحرجة ما أمكن ، الا أننا رأينا أن كل ذلك لن يقف بالاذهان الطالبة للاستفادة ، ولن يقعدها عن ابتغاء الزيادة ، فعولنا أن نجعل للكتاب ملحقا يصدر ان شاء الله تعالى معه كل شهر فى ست عشرة صحيفة ، يكون موضوعه شرحا لما يغمض من المدركات الفلسفية التى تأتى فى الكتاب ، وإيضاحا لما يستبهم على القراء فى بعض أبحاثه فى المواضيع الجديدة التي لم يعتد على سماعها أصحاب اللسان العربى ، ولكننا لن نشرح الا ما نسال عنه ، فعلى كل من يود استيضاح مبهم ، أو استبانة معجم ، أن يكتب لنا سؤاله ويرسله قبل انتصاف الشهر ليجد الجواب ان شاء الله فى الجزء اللاحق .

بهذه الطريقة المبتكرة نرجو أن يكون قارئنا على بينة تامة بكل مايطالعه من كتاباتنا أولا فأولا . وإننا هنا نعد قراءنا باننا لم نزل على عهدنا من مقابلة

كل سؤال بصدر رحب ، وذرع واسع ، غير متبرمين من تشدد سائلنا ، ولا متزدرين بمن يعترض علينا . وقصدنا من ذلك أداء خدمة للملة نرجو أن تكون خالصة لوجه الله الكريم ، وان تطهر من كل مايحبطها من همزات الشياطين ، والله الموفق المعين ، وهو حسبنا ونعم الوكيل . وصلى الله على إمام المرسلين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . آمين .

(تنبيه) — رأينا أن ننشر فى كل شهر ملزمة من كل مبحث بدل قصر القارىء على مطالعة موضوع واحد طول السنة . وسيكون لكل مبحث نمرة متسلسلة ليضم لاحقه الي سابقه

رأينا فى داء الأمة ودوائها

ما هى الأمة الاسلامية ؟ كيف تكونت فى مبدئها وعلى أى أساس قامت وحدتها ؟ ما هى تلك الروح التى هبطت عليها فلمت شعثها ، وضمت أجزاءها ، و بعثتها بعدموتها ؟ الي أى درجة وصلت أهميتها فى الوجود وما هى آثارها فيه لليوم ؟ الي أى حالة وصلت الآن ، وما هى العوامل التى أثرت عليها فاوصلتها الي هذه الحالة السيئة ، هل يؤمل لها استرجاع مجدها واسترداد عظمتها السابقة ، ان كان نعم فباى الوسائل يكون ذلك ، هل لرابطتها الأصلية قوة تصلح لاقامتها على منهاج الرقي والفلاح أم لا بد من تغيير تلك الرابطة برابطة أخرى أصلح منها للبقاء وأليق بمناسبات الجيل

هذه مسائل يجب أن يضعها نصب عينيه كل من كان له قلب يتألم وحمية تهزه لان يكون حيا بين أمة حية لها مقام بين الأمم . نعم ان درس

هذه المسائل يحتاج لدقة نظر في العلوم العمرانية ، والمام عظيم بحوادث صعود الامم وهبوطها ، ونفوذ فكر فى ضمائر التاريخ ، و يحتاج فوق كل ذلك الي غيرة حقة تلم بفؤاد الباحث فتريه أن حياته الصحيحة هى حياة أمته ولو كان من بين اخوانه فقيراً حقيراً ، وان موتها هو موته ولو كان من بينهم يملك الخزائن ذهبا . ربما كانت هذه الغيرة الحقة وحدها أنفع من كثير من العلم فانها ان لم تجعله الا خلية حية فى الامة لكفاه بذلك تأثيرا ، فان حياته تنبعث منه الى صاحبه ومنهما الي جارهما وهكذا حتي تتكون جرثومة أساسية تنبت شجرة طيبة ولو بعد حين .

الأمة الاسلامية أصلها نبي كريم اصطفاه الله خاتما لأولى العزم من الرسل وفاتحا لتاريخ جديد للنوع الانسانى بعدما كمل عقله و بلغ رشده ، وأعدته الاحداث للسير فى باحات الكمالات الصورية والمعنوية آمنا علي نفسه من العطب .

قام هذا الرسول الكريم فى وسط أمة لاعهد لها بنظام ، ولا استعداد لها لوئام ولا التئام ، لا رابطة تجمعها ولا وشيجة تضمها ، لها من قحولة أرضها ، وجدوبة أوديتها ، وحال معيشتها ، عوامل قوية على التفريق ، وفواعل قاهرة على التشتيت والتبديد . قام ﷺ بينها وحيداً بلا مال ولا انصار حاملا اليها تعاليم ربه قرآنا عربيا غير ذى عوج ، يضمن لها سعادة الحياة وسعادة الابد . فأيده الله بروح من عنده ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، فاقامهم بروح القرآن الشريف على صراط الوحدة فى العقائد الدينية والجامعة العمومية الدنيوية ، فنهضوا فى بضع وعشرين سنة نهضة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الانسان ثم لم يلبثوا ثمانين سنة حتي صاروا خلفاء الله فى أرضه ، لا ينازعهم فيها منازع ، ولا يزاحمهم مزاحم ،

كلمتهم العليا ، وصراطهم الا بلج ، يقيمون حدود الله علما وعملا ، ويتمتعون بنفحات دنيا ودينا ولم زالوا فى حركتهم هذه حتى طرأت ظروف ونجمت أمور قضاها الله لحكمة يعلمها و يعلمها للراسخين فى العلم ، فدخلت الامة فى دور من الخدر يشبه الموت ولم تزل ساكنة والامم تتقدم حولها حتي وصلنا و وصلوا الي مانرى اليوم ، فما سبب ذلك الخدر ، وما علة تلك الوقفة بعد تلك النهضة المدهشة ؟ ماذا طرأ على العقائد ، ماذا حدث فى العواطف ، ماذا أصاب العقول والمواهب ؟ ماهو العامل الذى ثبط تلك الحركة الهائلة ؟ وهل يمكن اعادتها الى ما كانت عليه ؟ هذا مختلف الاذهان ، ومضطرب الافهام ، ومشتجر الاقلام : ان قلنا طرأت على العقائد بدع اخرجتها عن أصولها ، وضلت الامة عن صراطها ، رددنا على أنفسنا وقلنا : ولماذا لم تضر البدع الدينية الا المسلمين دون سواهم ؟ هاهى أمم فى العالم قائمة على ساق وقدم ، ولا يخلو دين واحدة منها من بدع لا تعد بدع المسلمين بجانبها شيئا ، فان كان التقدم متوقفا على دين بلا بدع فكان يلزم من ذلك ان لا يكون رقي فى العالم اليوم . لا نقصد بهذا ان نثبت عدم ضرورة الدين لقيام الامم ورقيها . حاش لله ! فسيمر بك أثناء الكلام على ماهية الدين فى مبحث الانسان ان شاء الله مافيه الكفاية من هذا الموضوع فانتظره . أما الذى نريد ان نقوله هو ان الاصل الاولى الذي يكون الامم و ينهض بها ، بعد ان يبعث فيها روح التقدم والارتقاء ، ويهيئها الى قبول أكمل صفات الاجتماع هى (الرابطة بين الآحاد) . هذه الرابطة نفحة من (الدين المطلق) المغروز في طبيعة البشر كما سنراه فى موضعه ان شاء الله ، ومكانه منه كمكان سائر الاصول الحيوية كالعدل والحرية وغيرهما المنقوشة فى صميم معناه الانسانى . وكما ان العدل قد

يوجد فى حكومة وثنية على صفة أكمل مما هو عليه فى أمة توحيدية لاسباب شتى كذلك قد توجد الرابطة على أفضل أشكالها فى شعب كافر وتكون دون ذلك فى شعب مؤمن .

لكل أصل من أصول الفضائل أثر ظاهر على كيان الأمة لا يشتبه بآثار الأصول الأخرى ، فأثر العدل فى الأمة لا يشبه أثر الحرية فيها ، وآثار كليهما لا تشتبه بآثار التساعد والتناصر والارتباط وان كانت كلها تتحد فى النتيجة وتضع الأمة بقوتها الرافعة الى أوج المدنية الفاضلة .

وظيفة الرابطة كوظيفة الحياة فى الفرد الواحد . فكما ان (الحياة) فى الجسم تربط وظائف الأعضاء ببعضها بعد ان تمدها بالحس والحركة وتكون للانسان شخصية متميزة متاهلة للتحلي بسائر الكمالات الحيوية الاخرى كذلك (الرابطة الاجتماعية) تجمع بين قوى الافراد ، وتنشىء لهم منها شخصية كلية هى روح الأمة التى تبعثهم للحركة وتهيئهم للترقى ، وتجعل لهم حياة مشتركة بحيث لو تالم واحد من الجمعية تالمت له سائر الآحاد تالما طبيعيا لا تصنعيا كما يتالم الجسم كله لوجع عضو منه . (فالرابطة) روح الاجتماع بين الافراد ، وأصل يهيء الأمة لقبول سائر الفضائل الأخرى ولا يعقل اجتماع بدونها كما لا يعقل ان يحس جسم أو يتحرك بغير الحياة . وقد أشار الله تعالى الى ذلك اشارة عالية غالية فقال: « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم »

ومما يدلك دلالة صريحة على ان الرابطة حياة الامم وان غيرها من الأصول الاجتماعية متوقف عليها ، وان لكل منها على حالة الامة اثرا لا يشتبه بغيره ، الحرب التى شبت بين اتباع امير المؤمنين على وسعاية رضى الله عنهما . ترى ان اتباع الامام مع أنهم كانوا من صميم العرب ، و بيوتات

المجد ، واولى السابقة الحسنة فى الاسلام ، لم يتوصلوا الى تدويخ جيش معاوية مع ان اكثره من جفاة الاعراب ، واخلاط من الشام ، بل رأوا أن لا مناص من الانصياع لهم وقبول شرطهم بعد موت امير المؤمنين . وماذلك الا لشدة (ارتباط) اصحاب معاوية فيما بينهم بخلاف اصحاب الامام فقد كان التفرق بالغاً منهم مبلغاً خطيراً فلم تغنهم فضائلهم الأخرى شيئا ، بل غلب (الارتباط) سائرها ، واستتب له الامر دونها . وقد أدرك ذلك الامام وباح به في بعض خطبه . فان كان شيء من قلة الارتباط بين أصحاب امام من أكبر أئمة المسلمين ، وهم أصحاب القدم الراسخة فى الدين ، جعلهم يتنازلون عن حقوقهم السياسية لاخلاط من الاعراب والسوريين ، لا يقارنون بهم دنيا ولادينا ولاقوة فى الحرب ولاصبرا عن احتدام الشدائد ، فكيف ، لاتتاخر الامم الشرقية المنحلة امام الامم الغربية المتحدة ؟ ماذا تفيدنا خصوبة ارضنا ! وجمال بلادنا ، واعتدال هوائنا ، وعذوبة مائنا ، ولطف أخلاقنا ، اذا كانت رابطتنا اقل احكاما من روابط الامم المحيطة بنا ؟

يقول : قائل « آمنا بان مصيبتنا عدم الرابطة بين الآحاد ، ولكن كيف الوصول الى إيجاد روح تضمنا ، وتجعلنا اخواناً كآبائنا ، وتفيض علينا من نفحاتها مثل ماأفاضت عليهم من قبلنا ؟ اليست هذه عضلة العقد وموضع الحيرة ؟ كم كتب الكتاب فى ضرورة الارتباط ، وكم خطب الخطباء بلزوم الاتحاد وكم أقاموا الحجج البينة ، واقسموا الايمان المعظمة ، على اننا ان لم نرتبط ببعضنا تلا شينا ، وذهبت ريحنا ، ومع كل ذلك فالاثر هو ماترى اليوم : يأس وانشقاق ، وتلاعن وافتراق . لقد سئم الناس سماع هذا الدور ، وشبعوا من هذه النغمة ، حتى ان مايكتب الآن فى الجرائد من هذا الباب يعده القراء من سقط المتاع . »

للمعترض الحق فيما يقول فان الدواء المعروف المستعمل الآن لما نحن فيه هو الدعوة الى الارتباط و بيان فائدته ، وهودواء غير معقول ان جاء بمفرده ، ومامثل القائمين به الا كمثل رجل يقوم امام اشلاء جثة فيصيح بها : ان ارتبطي ايتها الأعضاء المبددة وتضامى ، فان فائدة الاتحاد كيت وكيت ، و يأخذ في سرد صفات الاحياء ، وخصائص الاصحاء ، فان تفد هذه الصيحة فى اشلاء الجثة ، أفادت تلك الدعوة للامم المنحلة اوالآخذة فى الانحلال

الارتباط مظهر الحياة الكامنة فى الامة والدليل عليها ، ومتي لم يوجد أو لووجد فانرا ، دل ذلك على عدم الحياة أو على ضعفها فالعلاج المعقول فى هذه الحالة هو الالتفات الى الحياة أولا لاعادتها أو لتقويتها ، ومتى وجدت وجد الارتباط بدون دعوة ، لانه مظهرها ، ووجدت تبعاله سائر المزايا الاجتماعية

يقولون الاتعلق ادنى أهمية على كثرة صياح الجرائد اليوم بلزوم الاتحاد والارتباط ، أتعد ذلك كله ذاهبا ادراج الرياح ؟ نقول ان كل هذا اللغط مما لا يحسن بنا أن نتخذه فألا حسنا ، فقد دل الاستقراء التاريخي وأيده العلم الاجتماعى ان الامم اذا أخذت فى الانحلال تصيح بلزوم الارتباط ، وتجعل ذلك شغلها الشاغل ، كان الطبيعة تشعرها بداءها فتصيح به كما يصيح المريض بلزوم الصحة له . فان شفى المريض بمجرد صياحه بطلب الصحة ، تحيا الامة أيضا بمجرد طلب الحياة . ومن يطالع تاريخ اليونان والرومان يرأنه قد نبغ فى اثناء انحلالها خطباء ووعاظ لم يكونوا من قبل ، ولكن ماذا أفادت صيحاتهم مع عدم معالجتهم للمرض ؟

أنا لا أنكر فائدة الجرائد فى تحسين اللغة ونشر العلم ، ولكنى لا أكتم

عليها انها قد بذرت فى القلوب روح اليأس بكثرة ندبها ، ونعيها على الناس سوء حالهم ، وانذارها لهم بسوء منقلبهم . ولو كانت سلكت فى تربية عواطف الامة مسلك الحكيم المربى العارف بمكان الضعف والقوة من ثنيات القلوب ، واحناء الصدور ، لكانت ساعدت على ارجاع حياة الامة مساعدة تذكر لها وتشكر . ولكنها بدل ذلك كله أسرفت فى النعى على الامة تأخرها وتقهقرها واستهترت فى ذلك حتى ياست الامة من مستقبلها ، وأضعفت ثقتها بنفسها ، وغالت جدا فى تشريح طبقاتها من كبراء وعلماء وأرباب زراعات وتجارات وجعلت أهم مباحثها التنقيب عن عوراتهم ، وأخذت تطعن عليهم صنفا صنفا حتى جردت سائرهم من كل مزية وأهلية . فماذا أصاب الناس من هذا ؟

وقر فى نفوسهم وانتقش فى مخيلاتهم ، انه ليس لهم فى أى طبقة من طبقات أمتهم مرجع يرجعون اليه عند الحيرة ، وموئل يعتصمون به وقت الشدة ، فمرنت السنتهم على الطعن فى كل صنف والتنديد بكل طبقة منهم حتى صار ذلك اليوم فاكهة للمجالس الخاصة والعامة فأصبحنا والامة كلها يلعن بعضها بعضا . ولو كان أولئك الكتاب حفظوا لانفسهم امام الامة مكانا صالحا ، لوضعت فيهم ثقتها ، وعلقت على أرواحهم الطيبة مستقبلها ، ولاعتبرتهم خلايا حية تبعث الحياة الى مايجاورها و ينتظر منها استرداد مجد مفقود ، أو استرجاع شرف ضائع ، لكن أكثرهم لم يحفظ لنفسه تلك المكانة فسقطوا من عين الامة ولحقهم فيما بينهم (ناموس التلاعن) فصاروا أمهر المتلاعنين . تراهم بدل ان يتعاطفوا ويتراحموا ويعلموا الامة بتواضعهم و بعقائل صفاتهم كيف تسلك سبيل الحياة وكيف تهتدى الى سعادتها ، متقاطعين متنابذين ، اذا اعترض أحدهم على مقالة لاخيه ، أو لاحظ على فكرة من أفكاره ، تقع بينهما الحرب العوان ،

فيشمرون لها الاردان ، ويشحذون لها أسنة الاقلام ، ولا يزالون يتلاعنون ويتشاتمون ، والامة أمامهم تضحك عليهم تارة وتبكي حتى تفنى عبارات اللعن ، وتضيق مسالك الطعن ، فيهدأون على مضض تربصاً للفرص . فاذا كان أكثر جرائدنا بهذه الصفة ، فلا يكون لما يجيء فيها من مقالات الحث على الارتباط والاتحاد والتحاب أدنى أثر ، ويمكن أن يقول لهم اليائسون وغير اليائسين : « اذا كنتم على ماترى من التباغض والتحاقد فيما بينكم مع أنكم فى مقدمتنا علما وفضلا ، فكيف تطمعون ان نطيع لكم أمراً ، أونعمل لكم بنصيحة ، أتأمرون بالمعروف ولاتأتمرون ، وتنهون عن المنكر ولا تنتهون « كبر مقتا عند الله ان تقولوا مالا تفعلون »

يستحيل على أمة أن تحيا بلا وجهة تعرف حدودها فتسير عليها ، وغاية عالية تتحمس بها وتميل بعواطفها اليها . وسترى فى أثناء الكلام على حياة الامم وموتها ان شاء الله ، ان كل بناة الهيئات الاجتماعية وضعوا نصب أعينهم هذا السر الاقدس ، ولم يبدؤو عملهم بتضليل أممهم فى مذاهبها ، وتيئيسها من قوتها الذاتية ومواهبها الكامنة فيها . فليعلم كتابنا ان نهاية مايتمناه لنا أعداؤنا هوماوصلوا الامة اليه اليوم من تشتيت فكرها ، وتشويه أجزائها فى عينها وسلب الاحترام المتبادل من أفئدة أحادها . وكفى الأمة نذيرا للتلاشي أن تصبح يلعن بعضها بعضا . فالدواء الذى وقفناله قلمنا هو تخطيط وجهة مثلى للامة تسير عليها ، وابانة غاية لها فى الحياة تحبها وتميل اليها ، لتنضم سائر مواهبها وقواها الى طريق واحد ، وتتركز فى مركز مشترك ، فتحيا حياة اجتماعية ، وتنشأ فيها الروح القومية . وهو دواء كل المصلحين الذين لهم اكبر الآثار فى تاريخ الامم .

درسنا هذا الموضوع الهائل درسا مدققا وسيمر بك تفصيله فى الكتاب ،

فرأينا أن أجمل وأفضل وأكمل غاية يصح أن يضعها الانسان نصب عينيه بصفة الغرض المقصود من الحياة هى (الاسلام) بمعناه الحق ، ولكن كيف يتأتي لنا ذلك ونحن فى جيل يظن آحاده أن زمن الاديان قد فات، وان المدنية شيء والعقيدة شيء آخر ، وان العلم قد حل محل كل المدركات السابقة ، وان هذه المدنية الغربية المادية هى أكمل وأفضل مدنية ظهرت فى العالم ، وانها لن تتلاشى أبدا ولن تتغير عما هى عليه ؟ ان دعونا للاسلام فى جيل هذه فلسفته الآخذة فى الانتشار كل يوم ، بدون أن نحمل ذلك العلم الذى يتبجحون به وبناة تلك المدنية الساحرة من ضمن الشاهدين على ما نقول ، ذهبت صيحاتنا ادراج الرياح ، فان لكل مقام مقالا ، ولكل جيل رجالا . ونكون غير عاملين بقوله تعالى : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة » . لذلك رأينا أن نفيض القول فى المسائل الاسلامية مع مقارنتها بالتعاليم الفلسفية من جميع جهاتها التى تتسرب منها الشكوك والشبه ، حتي اذا نجحنا فى مشروعنا هذا رجونا ان يتجلى الاسلام لهذه العقول الجديدة فى مظهر يملأ العيون مهابة وجلالا ، والقلوب حماسة وهياما . لا نقصد من هذا أن نقول ان الاسلام يحتاج لمثلنا في شيء ، وانما نريد أن نقول اننا سنواجه به الافكار الجديدة من جهات شكوكها وشبهاتها ، وسنقارعها ببيناته وحججه من شطر معارفها وعلومها . اذا فعلنا ذلك رجونا أن تصبح تلك العقول الطائحة أحسن أنصاره ، وأقوى أعضاده ، ومتي طأطأت أمام نوره رقاب الخاصة من الناشئة المتهذبة وجدت الحياة وظهرت نفحاتها فى مظهر الارتباط والوئام ، وصار شعار كل منا « ان الدين عند الله الاسلام »

داء الأمة ودواؤها

قلنا فى ملحق الجزء الماضي ان داء الأمة الاسلامية اليوم ضعف فى قوتها الحيوية الاجتماعية طرأ عليها من حوادث كبرى انقضت عليها وأدوار شتى انتابتها منذ قرون كثيرة ؟ وقلنا ان هذا الداء قد ظهر فيها بمظهر المعتاد وهو ارتخاء فى روابطا الاجتماعية وانحلال فى عرى وحدتها الملية . هذا الداء طرأ عليها من ضعف اعتراها فى عقيدتها الدينية وسلطتها الدنيوية معا أما العقيدة الدينية فجاءها الضعف من قبل المبادىء الفلسفية التي سرت اليها من اليونانيين ومن بعض الأجانب الذين اعتنقوا الاسلام ولم يدركوه فكسوا سائر معتقداتهم القديمة باسماء اسلامية وصبغوها بصبغ قرانية وعدوها إسلاماً

جاء الاسلام يطهر الفطرة الانسانية مما ران عليها من أنواع الوساوس، ويخلص العقل من شباك الخرافات ، ويوجه الروح الانسانية نقية طاهرة لخالقها حتى تستطيع أن تستمد منه حياة تكافح بها مايكتنفها من فواعل الكون ومبيداته وتستعير منه نوراً تستحق به خلافته في كائناته . فجاء من العقائد بمالا يجافى الحس الظاهر ولا الشعور الباطن ، ومن الأحكام بما يلائم الفطرة ، ويوافق الطبيعة ، ولكن شهوات العقول ، وأمانى الأفكار لم تشأ أن تقف به عندهذا الحد ، بل سلكت به مسالك الفلسفة والعلوم النظرية فتركب بعد ان كان سهلا ، وخرج عن حقيقته بالكلية كل ذلك والقرآن يقيم الحجج ببيناته ولم يزل يقيمها حتى يرجع إليه الغلاة ويلحق به المقصرون ، وسيكون ذلك فى يوم قريب إن شاء الله . هذا من جهة الضعف الذى طرأ على العقائد الدينية ، أما الضعف الذى دخل على السلطة الدنيوية فأسبابه اجتماعية استلزمتها أسباب شتي ليس

هنا موضع بحثها

لو كان داء الأمة ينحصر فى هذين السببين لامكن حصره فى مكانه بنشر العلم ، وتهذيب الأمة ، وكان لا يمضى ردح من الزمان حتى تتلاشى البدع من ذاتها وتشتد أساطين السلطة بمحض ذلك التهذيب نفسه كما هى السنة الطبيعة ، ولكن داؤنا اليوم أصبح داء أوروبيا ، جاءنا ميكروبه محمولا على أجنحة هذه المدنية الساحرة فصار السعى فى مدافعة أدوائنا القديمة من العبث المحض ، أما البدع الأصلية فقد سرى عليها ناموس الترقي (الداروينى) فاستحالت الى شبه ، ونشبت هذه الشبه فى رؤوس القائمين على السلطة فانقلب داؤها الأصلي بتطورهم الى ادواء أخرى ناتجة كلها من ذلك الميكروب الأوربي المتمدن ، فصارت وظيفة العالم العمرانى المسلم والحالة هذه محاربة هذا الميكروب وحده الذي لحق كل عضو من أعضاء الهيئة الاجتماعية فاحدث فيه الداء الذى يناسبه . دخل للعامه فأحدث فيهم اليأس وفساد الأخلاق على اختلاف أنواعه وللخاصة فأصابهم بالبذخ والسرف والتقليد الأعمى والالحاد الجهري والسرى على جميع أشكاله . فأضحت أعراض أمراضنا لا تدخل تحت حصر يظنها الرائى أدواء مستقلة وماهى فى الحقيقة إلا داء واحد له ميكروب واحد ، وما دمنا لا نعرفه لنكافحه استشري أمره ، وطم خطبه ، وصار كل بحث فى الاعراض الأخرى لا يفيد شيئا ماذا عسى ان يداوى أحدنا اذا لم يهتد إلي هذا الميكروب القاتل ؟ أيداوي اليأس أم البذخ أم الطمع أم التقليد الأعمى أم التآكل أم التواكل أم عدم الحياء أم التجادل أم عدم الثقة بالذات أم القنوط من قوة الأمة . كل هذه اعراض رئيسية يتفرع منها إعراض ثانوية لا تدخل تحت حسبان ، ولو أراد الطبيب الاجتماعى أن

يقصر نفسه و يقف قلمه على علاجها اضطربت فى ذهنه ، وشوشت عليه عقله ، وأصبح أكبر اليائسين رغم أنفه ، لانه لا يصادف فى تطبيبه إلا أدواء مترا كبة على بعضها ، مشتبكة فى حلقاتها ، يتوه فكره في مباديها ونتائجها ، وما ذلك الا لكونها اعراضاً لداءواحد تتلون وتتصبغ بحسب الظروف والمقتضيات على نسبة استحالة الداء الاصلى من حال الى حال آخر فى أثناء سيره الطبيعى .

هذا الميكروب الأوروبى الذي اهتدينا اليه بمنظار البحث والتنقيب أصاب رابطة الامة مباشرة وعدى على قوتها الحافظة . أما البدع فليس هذا وقت محاربتها فانها كما قلنا استحالت الي شبه وشكوك واثن بقي منها شيء لدي بعض العامة فامره بسيط لا تستلزم ازالته الاهمة صغرى من القائمين على حفظ الدين ومع ذلك فهى لا تضر مع سلامة الرابطة الاصلية كما لم تضر المسلمين في عصري بنى أمية و بنى العباس ولم تمنعهم من احداث اكبر الاعمال فى العالم وكما لم تضر البلغاريين مثلا مع سلامة رابطتيهما .

بناء على هذا فمذهبنا فى الاصلاح هو تعهد رابطة الامة بالعلاج والتقوية ولا يمكن تقويتها الا من الجهة التي أصيبت فيها وهى جهة دينية محضة . تلك الجهة المصابة كان ميكروبها يقال له (بدع) حملته الفلسفة العقلية فى كمها ، ونفثته الشعوب التي دانت للاسلام من أفواه خزعبلاتها . أما ذلك الميكروب اليوم فقد تطور وارتقى على حسب (مذهب داروين) واكتسي ريشاً لما عا سحريا فصار يدعى (شبها) حملته العلوم الطبيعية على أسلاك التليفون واسطوانات الفونوجراف .

استحالة ميكروب البدع الى ميكروب الحاد وشبه لا يشاهد أثره فى

الخاصة فقط بل فى أحط طبقات العامة أيضاً . الا تري العامة اليوم بعد أن كانوا يلتفون فى حلقات الذكر و يجتمعون زمراً زمراً فى الطرقات حاملين للاعلام صائحين صاخبين ، صاروا يتحلقون فى الحانات حول الصهباء ، و يحتفون فى المنتديات بالراقصات طول الليل واذا مر بهم رمضان قابلوه بالافطار غير حاسبين لاحد حسابا . فهل هذا أثر ميكروب البدع أم ميكروب الالحاد الذي حمل الينا من أوروبا وأخذ يفرخ فى كل قلب بما يناسبه و يتلون لكل عين بما يؤثر عليها ؟ هذا الميكروب القاتل هو الذى وقفنا لمحاربته مجموع قوانا واعددنا له المنظارات التى تكتشفه فى كل تشكلاته وهيأنا له الأسلحة التى تبيده ان شاء الله

أنا لا أنكر أن الأمة قبل أن يجيئها هذا الميكروب المتمدن كانت جامدة ساكنة ، ولكن لا يستطيع أحد أن ينكر علينا انها كانت مع ذلك الجمود حية حياة كامنة ، وكان خطبها كله لا يعوز غير نشر التعليم والتهذيب فى الطباق المختلفة على حسب الحاجة ، ولكن هذا الميكروب أخذ الآن يحللها تحليلا و يبعثر اجزاءها الى كل جهة . ولئن سألنا سائل عن ذلك الجمود قلنا انه كان نتيجة طبيعية يجب ان تدخل فيه أمة عظمى تحركت ألف سنة حركات مختلفة فى جميع المجهودات الانسانية : فتحت البلاد السحيقة ودوخت الأمم الكبيرة وابتنت الأساطيل الماخرة ، وشيدت المدائن الزاهرة ، وسنت القوانين العادلة ، وبحثت فى مساتير الكائنات ونقلت النوع الانساني بأسره من حالة الي حالة أخرى من الجهتين المادية والمعنوية . فحرمان هذا الجسم النشيط من الهدو قليلا من الزمن ليهب انشط مما كان لا يعد عدلا . وهل مثل الامة فى مجموعها الا كمثل الفرد الواحد يكد طول النهار ويكدح و يكافح الصعوبات ثم لما يجن عليه

الليل ينام فيظنه الرائى ميتاً وما هو بميت ويحسبه جامدا وما هو بجامد وقد يغط ويلغط فى النوم فيحسبه يهذى وما هو كذلك ، ولكنها حالة طبيعية لابد منها ليسترد قوة فقدها فى المكافحة ، ويسترجع خلايا اماتها بالمجاهدة .

هكذا كانت الأمة فى دور النوم الطبيعى بعد جهاد طويل وإذا ببعض أبنائها قد استيقظ لآلام أصابتهم فبدل أن يوقظوها بتلطف أو ينتظروها حتى تفيق بنفسها هالهم سكونها فى وسط هذه الحركة الكبيرة ؟ حركة هذه المدنية الأوربية ، فذهب الخوف عليها منهم مذاهب شتى : فأخذ بعضهم يصيح فى وجهها باكيا نادبا ، لاطما وجهه صارخاً ، يعدد مصائبها تعديدا ، ويوسعها عليها تقريعاً وتنديدا ، وطفق بعضهم يزجرها إلى الحركة زجرا ، ويزعجها إلى المسابقة والمزاحمة إزعاجا ، وأنشأ بعضهم يهيب بها لانشاء المعامل ، ويقرصها بزواجره قرصاً لتشييد المصانع ، وأخذ بعضهم يدفعها بيديه دفعا ويدعها بلسانه دعا لتجرى أمامه فى باحات الرقى مع الجارين وتركض على صهوات التقدم مع الراكضين فانهم لكذلك واذا بها قد استيقظت مذعورة ذاهلة لا تسمع غير لغط بين يديها ومن خلفها وعن ايمانها وشمائلها . وناهيك بأم انهكتها متاعب التربية طول النهار تستيقظ بين يدى ابنائها على هذه الصورة المفزعة . ويا ليت الأمر وقف عند حد الايقاظ والتنبيه بل تعدى من ذلك الى الزجر والشتم والتعبير والندب واللطم والبكاء والنوح والشهيق والتعديد وشتم الآباء والجدود والتشدق بسرد مساويهم ومعائبهم ، وفضح مخازيهم ومشائنهم على حسب ما صوروه لاذهانهم .

ماذا يكون حال هذه الأم الشفيقة بين يدى أبنائها فى هذا اللغط

المصم ، وهـذا العقوق المستغرب . جاهدت لاجلهم جهاد الأبطال فى وسط المزاحمات الهائلة ، وكافحت لحفظهم كفاح الاقبال فى معمان المقاومات العنيفة ، ثم جعلتهم بعد شدة التعب ، وعظم النصب ، فى حضنها فأنامتهم ليستريحوا واضطجعت لتستريح معهم ، فلم تكد تتم دورتومها الطبيعى حتي استيقظت فوجدت أن أولئك الأبناء قد أصبحوا كلهم فلاسفة بغير علم وأساطين شرائع بغير فهم ، وأطباء عمرانيين بغير حكمة ، وانتقاديين بغير لطف . الى أى جهة لفتت وجهها رأت هذا يتفلسف لها و يتقعر وهذا ينهج لها شرعة السير و يتعسف ، هذا يعلمها طرق العمران ومناهج المزاحمات و يتكلف ، وهذا يلفحها بسموم الانتقاد ويشتم منها الآباء والأجداد ويزعم انهم سبب تعاسته ومثيرو شقاوته وانهم لو فعلوا كيت وكيت ولم يفعلوا كيت وكيت لكان هو اليوم كيت وكيت مما يصوره له عقله .

أليس هذا مثال محسوس لحال مجموع هذه الأمة مع بعض أبنائها ؟ ماذا عسي أن تفعله أمة يكون أبناؤها على هذه الحالة من الخلاف والتلاحي والتصاخب والصياح ، ماهذا التفلسف ، ماهذا التعسف ، ماهذا البكاء ماهذا الندب ، ماهذا اللطم ، ماهذه الضوضاء ، ماهذا التنديد بالآباء ، ماهذا الازراء بالأسلاف ؟ هل عهد مثل هذا العلاج لامة من الأمم ؟ نحن لو التفتنا الى أنفسنا معشر المتفلسفين المتعسفين لرأينا أننا داء الأمة الوحيد ، وخلاياها المصابة التى يتسرب منها الداء الى مجموعها . ولو كنا غير ذلك لكنا علمنا وعملنا ، نصحنا وانتصحنا ، أمرنا بالمعروف وائتمرنا ، نهينا عن المنكر وانتهينا ، نهجنا طرائق الخير وانتهجنا ، سددنا مخالج الشر وتنكبنا . ولكن الذي تشاهده الامة بخلاف ذلك ، كاننا ننصحها

باللسان الى الصلاح ونعلمها بالفعل كيف يكون الفساد نثرثر لها بالكمالات والفضائل ، ونزرع في نفوسها بايدينا بذور الرذائل ، سحرتنا المدنية المادية حتي انستنا أنفسنا ، ويا ليتنا احببناها من جهتها التي تحب منها ، بل همنا بها من الجهة التى يشكوها أصحابها ، ويتألم بها واضعوها ، ويعتبرونها جراحا داميه فيها ، وبثورا عفنة فى وجهها ، يخشى عليها من نتائجها ويتوقع الفساد لكيانها من اعراضها . اين يتاه بنا ؟ ما هذا السحر الذى غشي بصائرنا . هل الذى بني هذه المدنية الفتانة البزخ ، السرف ، الترف الابتذال ، الخمر ، القمار ، المراقص ، التياترات ، الأكل بالشوكة ، شرب النبيذ على المائدة ، التفاخر بتكلم لغة أجنبية ، عدم الصلاة ، نكران العقيدة الالهية والروح والخلود ، جحود فضل الاسلاف وتعليق أسباب التأخر بهم ، الهزء والسخرية بالصاق تبعة البدع التي نحن فيها على وجوههم هذه كلها ادواء أكثرنا من المتفلسفين وكلها سرت الينا من الفتنة التى أصابتنا من هذه المدنية ، ولكن هذه المدنية لم تقم على هذه الاباطيل المهلكة والامراض المجتاحة بل قامت على أساطين الهمة والاقدام والعلم والعمل ، أما ما يشاهد فيها من هذه المخازى التى سحرت أكثرنا سحرا فهي أدواء هذه المدنية وسمومها ، ولقد قام فى وجهها رجال منهم يدافعونها كما يدافع الانسان العقارب القاتلة ، والأفاعى السامة . مما سيمر بك فى محاله من كتاب الاسلام فى عصر العلم ان شاء الله .

نعم قامت المدنية الاروبية بهدم العقائد ولكن الباطلة منها ، وكذبت بالاديان ولكن المضرة التى تقتل العواطف قتلا ، وأنكرت الروح ولكنها هبت تثبتها بالحس كما فصلناه فى مؤلفاتنا السابقة وسنزيده هنا تفصيلا إن شاء الله : وحرمت المرأة من ربقة الرق وأصفاد العبودية وغلت فى ذلك

ولكنها أدركت غلطتها فى افراطها فقامت ترجعها الى وظيفتها الطبيعية الاصلية كما قررناه من ذات أقوالهم فى كتابنا (المرأة المسلمة) . أما تلك القاذورات التى هام بها أكثرنا هياماً جنونياً فأدران المدنيـة ، وأوضار النفوس البهيمية . فهل يصح بعد أن نكون أول المسحورين بهذه القاذورات الشائنة ، أن نعطى أنفسنا وظيفة تطبيب الأمة ومعالجتها ؟ وهـل تموت الامم وتهلك إلا من هذه الجهة ؟ وهل تزول الفضائل ، وتحـل الرذائل الا من هذه المسارب ؟

يجب أن يكون الطبيب مثـالا حسناً للمريض ليكون لنصحه أثر فى نفسه ، ولعلاجه فعـل فى دائه ؟ لا أن يكون هو أول المصابين يحمل الميكروب فى كمه ، وجرثومة الداء فى جيبه ؟

الامم النـائمة يجب أن يكون موقظوها قدوة صالحة للسير في باحات اليقظة والحياة حتي اذا استيقظ عضو منها تبعهم فى سيره ، واقتاس باعمالهم فى عمله وجرى على خطتهم لتحقيق أمله . فماذا عسى أن يصادف منـا المستيقظ من غفلته ؟ لن يصادف الا لغطا مشوشا وجلبة عمياء تحيره فى تلفته ، وتعثره فى مشيته يجد هذا يدعو بالويل والوبال و يندب سوء الحال والمآل ، وهذا يصيح بالزواجر و يثرثر بالقوارع ، وهـذا يدعو لبناء المعامل ، وتشييد المآثر ، ولكنه قد لا يجد قدوة صالحة فى قوله وعمله فيضرب عن الـكل صفحا ، و يلوى عن الجميع كشحا ، و يتجه كما يجىء لا كما يجب ، ثم تنطبع فى ذهنه صورة تلك الولولة فيحاكيها ويرددها بفمه لا بقلبه . فلا يكون مرتبطا بالأمة لانهم أروه انها مريضة أو ميتة ، ولا يستطيع ان يرتبط بنا لأننا كلنا متنابذون متخاصمون ، متشاحنون متحاقدون لا نجتمع على أصل ، ولا نرتبط بفرع فيداخله داء الاثرة و يسعى أن يكون

مستقلا رغم انفه . على هذا المنوال ينسج كل عضو يستيقظ أي يتعلم ولو استمر هذا الخال زمنا مناسبا لاصبحت الامة افرادا مستقلين يصح أن يطلق على كل منهم أمة وحده . اليس كل أب يعلم ابنه يشاهد فيه هذا الاثر ؟ هل هذا أثر التربية ؟ هل هذا نتيجة التعلم ؟ هل هذا فعل التهذيب بالنفوس ؟ هل تعلم السكر فى المدرسة ؟ هل تعلم القمار فى المدرسة ؟ هل فيما بين يديه من الكتب ما يعلمه ذلك ؟ هذا أثر الذين تعلموا قبله وسموا أنفسهم ايقاظا وأرادوا أن يوقظوا الامة فسعوا فى حل رابطتها الأصلية من حيث لا يشعرون . كل هذا بفضل انسحارا كثرنا بقاذورات هذه المدنية ولا نقول بها ذاتها : لأنها ذاتها لاتسحر العقول ولا تميت العواطف ولكنها تبعث الغيرة الى النفوس الحية وتوقظ الحمية فى القلوب الثابتة ، بل وتحيي الروح الاسلامية فى اشباح المنتسبين اليها ، لانها نفحة من القرآن أصابت الاندلس فسرت منه الى أوروبا وأحدثت فيه هذه الحركة اليوم بشهادة بناة هذه المدنية أنفسهم . ولو كنا نريد حقيقة أن تكون لنا مدنية مثلها ، لكنا استرشدنا باقوال اقيالها الذين أسسوها ودعموها لا باقوال مؤلفى الروايات فيها وأصحاب الخلاعة منها وكنا بهذه الصفة نهتدى الى أكبر علومها وهو علم العمرانى المقتبس كله من القرآن كما سترى ذلك فى كتابنا (الاسلام فى عصر العلم) ان شاء الله ، وكنا عرفنا منه كيف نأخذ الامة باللطف لا بالعنف ، و باللين لا بالشدة ، و بالهدو لا بهذا اللغط المزعج ، و بالاتحاد على مبدإ لا بهذا التخاصم والتلاعن ، وكنا عرفنا مكامن الادواء ، ومظان القوة من أنفسنا ، وكنا لانزعج أمتنا هذا الازعاج المدهش ، وكنا لا نفتن من المدنية بمراقصها وملاعبها ، وتياتراتها وزخارفها ، ومقاذرها ومشائنها ، فماذا عسانا نجني من وراء هذا ؟ لاشك

نجني منه هذا الانحلال التدريجي الذي طرأ عليها من قبلنا معشر المتفلسفين الآخذين على عهدتنا تطبيبها ومعالجة دائها . أما الأمة نفسها فقل انها جامدة أو قل انها نائمة ، وان شئت فقل انها مريضة ، ولكن لا تستطيع أن تقول انها ميتة لانها تجتمع كلها على أصل واحد وهي العقيدة ويشملها روح واحدة وهي روح الدين . لك أن تقول ان تلك العقيدة قد غشتها البدع ، وحجبت نورها الخرافات ، كما ان لك أن تقول ان تلك الروح الدينية التي تحركها ضعيفة لما يعطل حركتها من جهل الناس وغباوتهم ولكن ليس لك أن تقول ان الامة محلولة العرى ، مبددة الأجزاء لا تصح ن يطلق عليها لفظ أمة . ولكننا معشر المتفلسفين ماهي العقيدة التي تجمعنا وماهي النقطة التي تحسسنا، وماهي الغاية التي تتركز فيها سائر عواطفنا ؟ هل عهد في تاريخ أمة مريضة يتوقع لها الشفاء ان يكون بين معالجيها مثل هذا الفشل المخجل قل لي بعيشك ماذا يكون حال مريض يجتمع على رأسه شرذمة من الاطباء و بدل ان يستشير بعضهم بعضا في تشخيص مرضه و وصف العلاج المناسب له بالاجماع ، ليكونوا باجماعهم تسلية له في آلامه ، وليحدثوا باتحادهم في نفسه أملا في شفائه ، يتصاخبون ويتشاتمون و يستقلون ، ثم يأخذ كل منهم في وصف علاج لا يقر عليه جاره بل يدعي أنه مميت مهلك ؟ ألا يكون ذلك المريض بين أيديهم في حال هي أشد عليه مما به وأسرع في اهلاكه من جميع أوصابه ألا يكون لذلك المريض العذر في حيرته ، والحق في احتقار أطبائه وطردهم من حضرته ألا يقال والحالة هذه أن هؤلاء الأطباء هم أشد أدواء ذلك المريض المسكين ، ولو تركوه وشأنه لكان الرجاء في شفائه أكبر منه وهم يتنازعونه بينهم تنازعا ، و يتزاحمون على رأسه تزاحما ، و يقتحمون

حجرته اقتحاما مفزعا، يتدافعون بالمناكب ويتآخذون بالنواصى ، ويتماسكون بالخناق ، ثم ينهالون عليه صائحين فى آن واحد ، هذا يشتمه وهذا ينهاه ويزجره وهذا يقرعه ويؤنبه . كل ذلك فضلاعن هاجم عليه يجس نبضه ومنقض على صدره يفحص قلبه ، وحاضن له يبحث رئتيه ، وعاجن بطنه يفتش أمعاءه ، ومستول على عينيه يختبر بياضهما الخ الخ وهولا يسمع الا لغطاً مشوشاً ، وعجيجاً مصدعا ، ولا يحس إلا تنازعا في جسمه ، وتزاحماً من الايدى على أعضائه . فهل على هذه الصورة يعالج مريض ، وهل على هذا الشكل المفزع يشفى عليل ؟

ايه ايه ! لقد حقر الناس شأن تطبيب الامم ، وصغروا أمر احياء الهمم مع أن هذا وظيفة الانبياء خاصة ومن ينهج سبيلهم من العلماء والحكماء لا كل من يمسك القلم ويعبر عن فكره بكلمات عربية ويعطي نفسه بنفسه تلك الوظيفة العلية .

(البقية بعد)

الاسلام فى عصر العلم

﴿ ملاحظة على ملاحظة المقتطف ﴾

أهدينا نسخة من مقدمة كتابنا إلى (مجلة المقتطف) الشهيرة بصفتها أقدم المجلات العربية فى هذه البلاد ولم يكن ليصدنا عن ذلك ما نعلمه من الخلاف الجوهرى بيننا وبين حضرتى الدكتورين محرريها النشيطين فتكرما بأن كتبا عنها فى مقتطفهما كلاما صدراه بتمهيد أبانا فيه فكرهما

على الدين وتأثيره على النفوس — وإنا وان كنا لا نوافقهما على كل ما جاء فى ذلك التمهيد إلا أننا لا نخلهما من الشكر على حريتهما . وليس لنا أن نناقشهما هنا على فكرهما فان كتابنا شامل لكل ما ورد على الدين من مدركات الفلاسفة سواء كانوا ملليين أو ماديين ، أقدميين أو محدثين ويتلوا كل ايراد من ذلك محاكمة دقيقة تنتهى بفكرنا الخاص فى الموضوع ولا موجب للتعجيل به الآن .

أما غرضنا الوحيد من هذه المقالة اليوم فهو إيضاح أسلوبنا في البحث تصحيحاً لحكم حكمه علينا المقتطف لا يؤخذ من كلامنا تصريحاً ، ولا يستنتج منه استنتاجاً .

أما أسلوبنا فهو كما قلنا فى مقدمتنا في صحيفة (٣) : « وسأتوخى إن شاء الله في بناء هذا الصرح تسخير ذلك العلم الهادم للعقائد غير ذاهب بمدركاته مذاهب التعسف والتأويل ولا ناهج بمقرراته مخالج التكلف والتحريف . ولكن سأسير معها سيرها الطبيعى وأسلك بها مسلكها التحليلي ولم لا يتفق العلم والدين ويكون الأول مؤيد الثانى وناصره ، وحاميه من شائبات الشكوك وموازره ، مادام العلم منتزعاً من أشياء الكون والدين وحى من خالقه ؟ وهل يعقل أن يكون وحى إلهى مخالفاً لوضع طبيعى وكلاهما مستمد وجوده من خالق واحد تتنزه أفعاله عن التناقص ، وتتعالى افاضاته عن التعارض ؟ بل الذى يخشى صولة العلم ويتهيب سطواته . رجل يريد أن يعطف حقائق الكون على خيالاته وان يرى نواميس الوجود مطابقة لوهمياته ، هذا هو الذى يرى العلم عدواً لدوداً فيصد عنه صدوداً ، ويكون أمامه حيوداً شروداً . هذا هو الذى إن ذكر العلم بحضرته عبس وبسر . وأدبر واستكبر ، وقال إن هذا إلا قول البشر ، أما المسلم فمتى عهدناه أحجم عن العلم أو تهيب ورده ، وانى رأيناه

صدف عنه وخاف بطشه » انتهي كلامنا فى المقدمة ومنه يتضح بأجلى بيان أن أسلوبنا فى البحث هو عين أسلوب العلم العصرى وسيري قراؤنا إن شاء الله صدق هذا الوعد بأعينهم .

وقد أورد (المقتطف) جملتين من كلامنا وعلق عليهما ملاحظة نرانا مجبرين على مبادلته الفهم فيهـا . أما تانك الجملتان وملاحـظة المقتطف عليهما فهى :

« أما الآخرون فانغضوا رؤوسهم سخرية وهزؤا ، وهزوا أعطافهم زهواً وعجباً ، ثم رفعوا عقيرتهم كـبراً وصلفاً وقالوا : هذه آثار المـاضين ، وبقية من بقايا الأقدمين فقد حـكم العلم (معاذ الله) بان نواميس الـكون كافية في تعليل كل ظواهره ، وقوانينه قد فسرت أكـثرغوامضه ، فلا داعى لفرض قوى وراء الطبيعة ، ولا موجب لتوهم عالم علوي وراء هذه المرائى المحسوسة . . . . . »

« كل هذه الشبه المتعاصية قد نشأت فى وسط هذا العلم الاوروبى ونبع سمها من بين ذرات دسم هذه المدنية العجيبة فالتاثت أكـثر العقول باقذارها وتسممت بسمومها . »

ثم علق المقتطف على هاتين الجمـلتين ملاحظة فقال : « هذا ومتى رأيت القاضى يسمع احتجاج خصمين فيصف أحدهما بالزهو والعجب والـكبر والصلف وكلامه بالشبه المتعاصية والسم بين ذرات الدسم عسر عليك أن تنتظر منه الانصاف فى حـكمه . ولله در من قال ان الشك أول مراتب اليقين فاذا أقدم كاتب على موضوعه اقدام مرتاب فى صحة كل ماقيل وبحث بنفسه عن صحته أو فساد ماتعذر عليه أن يهتدى الى الصواب ويرشد غيره الى الهدي أما إذا دخل باب البحث وذهنه مفعم بمسلمات

ومعتقدات يتعذر عليه الريب فيها فقلما يرجي من بحثه نفع لنفسه أو لغيره »
انتهى كلام المقتطف نقول : أما ماقاله عن الشك والارتياب وفائدتهما فى استجلاء الحقائق فمما لاريب فيه ولكن بالنسبة لمن يبدأ فى بحث موضوع من المواضيع لا بالنسبة لمن بحثه وسبر غوره وقام ينشر بين قومه نتيجة جهاده الطويل . على أنا متى رأينا شاكا فيما يكتب نجح في دعوته ، أو وصل الى غاية مما يؤمله من هداية قومه ؟ لايجوز للشاك أن يمسك القلم و يؤلف لان تشككه لايفيد قراءه الا حيرة وتذبذه لاينشر حواليه الا ذبذبة وتردداً ، ولا يوجد شيء أضر على خاصة أمة وعامتها من فقدهم الثبات فى مدركاتهم

وعلى هذا السمت التحقيقي الذى جرينا عليه جرى العلماء المحققون فى كل أمة وفى كل زمان وأقرب شاهد على مانقول كتاب (معرفة الله من درس الطبيعة) تأليف الأستاذ (كاميل فلامريون) الذي يصفه المقتطف بأنه من أشهر علماء الفلك في العالم فقد قال هذا العلامة فى مقدمة كتابه هذا الذى طبع (٢٦) طبعة فى وسط أوربا.

« مهما ظهر لنا مبدئياً من صعوبة دحض المذهب المادى دحضاً علمياً فان موقفنا من الآن جميل جداً لاننا فى ذات الميدان الذي فيه خصومنا

« ونحن فى هذه الحرب السلمية للغاية قد تحققنا مقدما بان النصر سيكون فى جهتنا . وبما أن عدونا فى مركز باطل فليس علينا لنوال ذلك النصر الا أن نكشف وجه بطلان ذلك المركز وأن نفقده موازنته فيه. »

انظر كيف حكم لنفسه بالغلبة ولعدوه بالهزيمة ولم يشك فى ذلك لتحققه من قوة نفسه وضعف خصمه .

أما ايراد المقتطف ازراءنا بالماديين واكباره ماوصمناهم به من الزهو والعجب والكبر والصلف وما وسمنا به كلماتهم بالشبه المتعاصية والسم

فما لانرى له فيه حقاً فاننا انما وصفنا بذلك منكرى الالوهية ومن من الناس لم يصم ولن يصم هؤلاء المتهورين بذلك ؟

انا لو أردنا سرد مايصمهم به اخوانهم العلماء من المشائن والمقابح لملأنا سفراً ضخما وان شئت المثال فاليك ما يقوله عنهم العلامة (كاميل فلامريون) فى كتابه المتقدم قال :

« انا حينما نناقش مباني العبارات يجب علينا أن نرجو القاري ءلان يعتقد أننا إن عاملنا بعضاً من خصومنا بشيء من الشدة فلا يجوز أن ينسب الينا تبعة هذا التسامح لاننا لانعتمد على هذه الوسائل الصارمة إلا فى الظروف (وما أكثر هذه الظروف) التى فيها خصومنا يعاندون الحقيقة لكي لا يغلبوا . فى هذه الحالة نكون مجبرين على معاملتهم بنوع من الشدة واجبارهم على التسليم بالبرهان الساطع الصادر من الأفوى منهم لانهم فى الحقيقة الاضعفون فى هذه الحرب القانونية »

وقال : « تراهم يطبقون العلوم الفلكية والكيماوية والطبيعية والفسيولوجية على مسائل لايستطيعون ولا يريدون حلها ولا يكتفون بان يجبروا هذه العلوم على الاجابة عن الاسئلة الخارجة عن اختصاصها فقط بل يسيئون اليها أيضاً كانها عبيد أذلة لكي تقر لهم بدون رضائها وبالزور والبهتان باشياء لم تدر في خلدها . »

وقال : « سترى فى مجادلاتنا الآتية أن هؤلاء العلماء خارجون تماما عن دائرة العلم وأنهم يغشون أنفسهم ويغشوننا معهم وإن براهينهم واستدلالاتهم واستنتاجاتهم فاسدة . »

وقال : « وترى العقول العطشى والمتذبذبة مع أخذها فى كتبهم معلوماتها لاحتياجها اليها تشرب معها سما زعافا يهدم فى أفئدتها جزءا من فضائل المعرفة . »

ثم قال إن نظرياتهم هـذه « ثمرة من ثمرات الأفكار الجامـدة التى يرجوعها على نفسها دائمـا تتوهم أنها مؤسسة على العلم بينما هى لم تقبل من شمسه المضيئة الا شعاعا ضئيلا حائدا عن سيره الطبيعى . »

ثم قال « تراهم يحكمون على مايسكت عنه العلم الصحيح كأنهم حضروا فى مجلس خلق الوجود أوكأنهم خلقوا العالم بأيديهم . »

ثم قال « هؤلاء العاملون المعجبون بأنفسهم الذين يزعمون أنهم يمثلون العلم و يتكلمون باسمه لم يتنزلوا ولا باتباع الأسلوب العلمى الذى يقضي بعدم الحـكم بدون برهان . »

ثم قال « وسترى بالفعل أن الذين يحكمون بأن القوة لاسلطان لها على المـادة إنمـا يأخذون هذه الفكرة من خيالهم لامن العلم . »

ثم قال « انكم قد تهورتم لحد أن نسبتم الى العلم مجموع ضلالاتكم فاذا سمعكم العلم ولابد أن يسمعكم لأنكم أبناؤه لضحك من أوهامكم . »

وقال : « إنا اذا نظرنا من قرب الى حجر الزاوية الذى وضعه مذهب المـاديين بعد صرفه نفقات طائلة تبين لنا أنه ليس الا كتلة من الخشب المسوس وانك إن سبرت ضمائر انصار هـذا المذهب وجدتهم لا يعتقدون متانة صرح الحادهم كما كان لا يعتقد ذلك تلاميذ هيراكليت وايبكور دو و الرؤوس الصلعى . وهم و إن حاولوا أن يجعلونا نعتقد مذهبهم فليس هو الا رأيا أظهر بطلانا وأقل اعتماداً على العلم من كثير من الخرافات العلميـة . وبمـا أنهم يعلنون بذاتهم بأن كل رأى (غير مثبت) يجب طرده من العلم فيلزم أن يبتدأ بطردهم قبل كل شيء . »

ثم سرد الأستاذ الفلكي الشهير بعض بدائع الكون واستعظم انكارها فقال : « هل هذا جنون أو حمق ؟ هل هذا كبر أو جهل ؟ ماذا عسى أن

يكون منشأ هذا الضلال العقلي الغريب وماذا عسى أن تكون نتيجته ؟ ثم قال متعجباً : « لماذا ينكرون الجمال ؟ لماذا يحرفون معنى الرحمة ؟ لماذا يجحدون الحكمة ؟ لماذا يسممون الفضائل الأبدية التي بها قوام العالم ويكسفون النور الناصع النازل من السماء هذا الكسف المحزن » .

هذا مايقوله عنهم الأستاذ (كاميل فلامريون) فى نحو خمسين صحيفة فى كتابه ولو عنينا بترجمة كل ما جاء فى كتابه من عبارات القدح والاستهزاء والازراء والتجهيل بالنسبة لأولئك الماديين لملأنا عشرات من الصحف مع أن الرجل مشهور بين العالم أجمع بدماثة الأخلاق وعفاف القلم . أما ما غصت به الكتب والأسفار من الغميزة بالماديين والنعى عليهم من كبار رجالات العلم والفلسفة قديماً وحديثاً فما لا نسمح لأنفسنا بترجمته هنا الا عند ما نلجأ الي ذلك الجاء ، على أنه ليس بشيء يذكر بجانب ماينفثه هؤلاء الماديون من أفواههم طعنا على العقائد وحطا من كرامة المذاهب ووضعاً من شرف الآخذين بها مما يدل على مبلغ آدابهم ويئم على مقدار أخلاقهم .

نحن لا نقصد بما وصمناهم به من الزهو والعجب والكبر والصلف أن نشتمهم فان ذلك مجال لا نسمح لأنفسنا بمبارزتهم فيه فليرتعوا فى ارجائه وحدهم ، بل قصدنا منه وصفهم و نعتهم . ومن ذا الذى يقف على مناكرهم ويستطيع أن لا يصفهم بذلك مهما كان تزيه اللسان عفيف القلم ؟

هؤلاء الرجال يؤكدون بملء أشداقهم أنه لا خالق للوجود . ولا روح للانسان . ولا خلود له بوجه من الوجوه وانما مثله كمثل النباتات والحيوانات يولد ويغتذى وينمو ويلد ثم يموت وان الوجود كله محكوم بالقوانين الميكانيكية والنواميس الطبيعية وهى قديمة كقدم الكون نفسه . يضعون هذه المبادىء نصب أعينهم ويحكمون من خلالها على كل مدركات البشر

المخالفة لها بحدة وشدة غريبتين ، فيشتمون ويهزءون ويحقرون ويجهلون ، مع أنهم لو نوقشوا فى مبادئهم هذه لرأوا أنهم متمسكون باهداب الخيالات ومعتصمون باوهى من بيوت العناكب . وها نحن نصيح بأعلا أصواتنا بأنه لايوجد برهان ولاشبه برهان على نفى الخالق والروح وأن الفلسفة الحسية المتطرفة لاتقول بذلك قال أستاذها وشيخها (ليتريه) :

« لما كنا نجهل أصول الكائنات ومصائرها فلا يليق بنا أن ننكر وجود شيء سابق عليها أولاحق لها ، كما لا يليق بنا أن نثبت ذلك . فالمذهب الحسى يتحفظ كل التحفظ فى مسألة وجود العقل الاول لاقراره بجهله المطلق في هذا الشأن . كما أن العلوم الفرعية التى هى منابع للمذهب الحسى يلزمها أن تتحفظ من الحكم على أصول الأشياء ونهاياتها بمعني اننا ان لم ننكروجود الحكمة الالهية فلو نتعرض لاثباتها . فنحن على الحياد التام بين النفى والاثبات . »

هذا حكم دستور الفلسفة الحسية المتطرفة أما حكم قانون العلم الطبيعى فهو : قال الاستاذ الطائر الصيت (ميلين أدوار) الانجليزى :

« يجب أن يندهش الانسان لما يرى أن أمام هذه المشاهدات الناطقة المتكررة رجالا يدعون لك أن كل هذه العجائب الكونية ليست الا نتائج الصدفة أو بعبارة أخرى نتائج الخواص العامة للمادة الى أن قال : ان هذه الآراء الباطلة أو بالاولى هذه الاضاليل العقلية (تأمل) التي يسترونها باسم العلم الحسى قد دحضها العلم الصحيح دحضا فان الطبيعى لا يستطيع أن يعتقدها أبداً . » انتهى .

نقول اذا كانت الفلسفة الحسية مع صرامتها وتشددها والعلم الطبيعى على دقته وصولته يتبرآن من منكرى الالوهية ويلفظانهم كما يلفظ الانسان

القـذر و يسميان مدركاتهم أضاليل وأوهاما أفلا يعـد أصرارهم على خزعبلاتهم بعـد ذلك زهواً وعجباً وكبراً وصلفاً . ؟ واذا كنت لا تصم بهذه الاوصاف رجلا تبرأت منـه الفلسفة الحسية والعلوم الطبيعية نفسها ومع ذلك لايرعوي ولا يرجع عن غيه فمن ذا الذي يصح أن تصمه بها بعد ذلك ؟

يقول العلامة (كاميل فلامريون) : « لقـد عجز الاساتذة عن حل مسألة استمرار الوجود ودوامه ولذلك فهـم مقرون بضرورة وجود الخالق و بتأثيره الدائم المستمر ليمكنهم تفسير تعاقب الكائنات وادراك سر أصول الاشـياء أما التلامذة فانهم يدعون أنهم فاقوا معلميهم فقاموا يحرفون نظرياتهم التى يزعمون زورا بأنهم حماتهم ومؤيدوها . » انتهى

نقول إذا كان هؤلاء الملاحدة يسميهم ابناء جلدتهم بالتلامذة و يصيحون بأنهم حرفوا العلوم وزعموا بالزور انهم حماتها فهل يليق بنا نحن أن نحترمهم أو نقيم لهم وزنا .

يؤاخذنا المقتطف على أن وشمنا كلامهم بالشبه المتعاصية والسم فى ذرات الدسم . فنقول واين السم من كلامهم ؟

وضع هؤلاء الرجال تلك النظريات الباطلة بين ايديهم (وقد أريناك مقامهم ومقامها) واستنتجوا منها تعاليم كلها شر و وبال على هذا الانسان الضعيف : انكروا الروح والخلود واروه نفسه نتيجة وظائف اجهزته واجزائه ومثلوه فى نظره بالآلة الميكانيكية ، وطعنوا ماشاءوا على ما كان يعتقده من أن له روحا مستقلة وانها من مصدر عال وأن لها دارا بعد هذه الدار تحيا فيها حياة طيبة وتنجو بها من مضانك هذه التكاليف الارضية ، ثم جحدوا الفضيلة في ذاتها واروه انها اسم لاحقيقة له البتة وأن الباعث

الوحيد الذى يسوق الانسان فى ميادين الحياة هو طلبه النفع لنفسه ليس الا ، أما ما يعتقده من أن هنالك شيئاً يقال له علو نفس وطهارة قلب فليس هو على زعمهم الا أضاليل اخترعها رؤساء الاديان للسيطرة بها على أرواحهم .

نشروا هذه التعاليم وما يتبعها بين ضعاف العقول وصغار الاحلام فنشبت فيها نشوبا وأفرعت فروعا مختلفة على حسب الافهام والمدارك ووجد الآخذون بها من الحرية الضاربة اطنابها في بلادهم مجالا فسيحا فجروا فى أرجائه أشواطا بعيدة طربا بتلك الافكار وفرحا بنتائج تلك الفلسفة الحرة. فانهم لكذلك وإذا بصاخة عظمى تمزقت لها اصمخة آذانهم فالتفتوا حواليهم ليروا ما الخبر وإذا بهم في مشهد تذوب منه فؤاد الانسانية اسفاً وتذرف أعين الفضيلة من مرآه حزناً وكمداً! ماذا رأوا؟ رأوا الاثرة وانشره والطمع والبهيمية لابسة ثياباً من نار المعامل والمصانع ، وبيدها سوط من ظلمة المناجم تسوقهم ليدوسوا بأرجلهم الفقراء والصعفاء من الرجال والنساء والولدان وهؤلاء يجأرون الي الله من ظلم الظالمين وهم بين اشلاء ممزعة ، ومهج سائلة ، وكبود مفتتة وشهقات تتصعد قد أحماها اليأس حتى استحالت شراراً . هذه الصيحة الهائلة لفتت كبار الرجال فى العالم المتمدن إلي البحث فى أحوالهم حتى كادت قواهم كلها تنصرف إلى ذلك . ولقد احس القوم بما هم فيه حتى قال قائلهم :

« ما سبب هذا الانين الذى يرن من كل جانب عند ظهور آخر كتاب فلسفى أو قصة جديدة أو قطعة تمثيلية متقنة ان لم يكن هو الشهيق المالیخولى الذى تسببه حياة قريبة من الفناء وعالم هرم قد أحس أنه سائر الى قبره . و (١)

(١) فلسفة الاديان تأليف الاستاذ (اجوست سباتييه)

يقول الاستاذ (اجوست سباتييه) ماسبب هذا الانين المزعج الذى يرن من كل جانب فيجيبه عن يمينه الفيلسوف (فيير نس جيفايرت) فى كتابه (الغمة الحاضرة) بأن سبب ذلك عـدم الدين وفشو الالحاد بتعاليم أولئك المضللين و يقول : « ان الساسيين والفلاسفة والمنشئين الذين من منذ قرن من الزمان يتكاتفون على اهباطنا إلي حضيض هذا الانحطاط الادبي ليسوا فى الحقيقة الا فواعل ثانوية متأثرين بسبب فرد : وهو عدم الروح الدينية »

هل بعد هذه الحالة المحزنة التى آلت اليها هذه المدنية الزاهرة بتعاليم الملحدين يلاحظ علينا ماوسمنا به أقوالهم من الشبه المتعاصية والسم فى في ذوات الدسم . واين فعل السم مما أحدثوه فى عالمهم من هذه الفتن المظلمة التي يكاد أن لا يكون لها دواء .

وهل علينا من حرج بعـد هذا لو قمنا نكافح الالحاد ونقوض أركان مبادئه صونا لعالمنا من مثل ماوقع فيه سوانا من الحيرة فى العقائد ، والألم من خلو الأفئدة من روح الدين ؟ هانحن نصيح بأعلا صوتنا بأن مدنية أوروبا قد افسدها عـدم الدين ، وأن عـدم الدين سببه تعاليم الماديين ، وأن تعاليم الماديين ضد العقائد خيالات وأوهام لا تؤيدها حجة ، ولا يسندها علم بل العلم برىء منهم ومن تعاليمهم فمن يرى أن الامر خلاف مانقول فليسا جلنا البحث في هذا الموضوع الخطير غيرة على الحقيقة والسلام على من اتبع الهدي .

تنبيه لحضرات قرائنا

انا وصلنلنا بالقارىء بواسطة التحليلات الفلسفية التي عملناها فى مبحث

الانسان الي لباب نظريتنا الـتى وقفنا قلمنا ومحاولاتنا لبلوغ الغاية من تجليتها والاشراف منها على ادوائنا الاجتماعية والذاتيـة واستنزال روح علاجاتنا من قبلها ان شاء الله تعالى .

تلك النظرية هى ان لـكل جيل روحا عمومية تنبعث من أقوى أمة أو من أقوى الامم فى الجيـل فتحتف بسائر الامم الاخري وتصاولها من جهات ضعفها حـتى تستولى على ارادتها ، وتتسلط على اختيارها ، وتديرها فى تيار حركتها ، لتجعلها لاتعيش الالها ، ولا تتحرك الابها ، ولا تستمد الحيـاة الامنها ، ولاتسكن أو تضطرب الا فى صالحها ، وقلنا ان الروح السائدة اليوم على آفاق العـالم أوروبية مختلطة ، أحاطت بالامم الضعيفة احاطة السوار بالمعصم وجرت على سنة كل الارواح العمومية السابقة ، ثم فسرنا بهذه النظرية سائر مانحس به من التناقض فى أحوالنا والارتباك فى شؤوننا ، وقلنا ان الدواء مما نحن فيـه لايمكن تركيبه وتحضيره الا بعد درس مصدرهـذه الروح العمومية درساً علمياً ، والوقوف التام على العوامل الـتى كونتها وأمدتها ، وعلى جهات الضعف فينا التي واجهتنا منها فاحدثت فينا هـذه الآثار المحزنة ثم يضاف الى هذا الدرس البحث الدقيق عن حقيقة هـذه الروح وعن جهات قوتها وضعفها ، وعن عوامل حياتها وموتها ، وعن المسارب الـتى تسربت منها الى أفكار البشر وعقائدهم فقلبت شكل الارض من حال الى حال آخر .

هذا البحث والدرس سيكون طبعا بتشريح حالة الامم قبل حدوثها من جهة الافكار والعقائد والاحوال السياسية والعلمية والاجتماعية ومن الاخلاق والآداب فى أوربا محل نشوء هـذه الروح العمومية ، و ببيان الرجال الذين ظهرت بهم هذه الروح وتسربت من تعاليمهم تدريجاً تدريجاً

وسيكون هذا البيان ان شاء الله بسرد حالة الأفكار فى العصر الذي وجدوا فيه وما أفادوه للناس من الروح الجديدة ، وتوضيح جهات القوة والضعف من تعاليمهم ومجرى تلك التعاليم من عقول معاصريهم ، ثم بيان كيفية انضمام تعاليم السابق الي اللاحق منهم وهكذا حتى نشرف بالقارىء على كيفية تكون تلك الروح الاروبية السائدة اليوم وعلى حالتها من جميع جهاتها الدينية والفلسفية والعلمية والخلقية ، وعلى مراكز قوتها وضعفها من كل جهة من تلك الجهات ، وعلى سر تسلطها على المسلمين من كل تلك الجهات المذكورة . بينما نتابع سلسلة هذه المباحث فى كراسه الانسان ستكون كراسة مبحث خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم شاملة لمحاكمة كل مايرد من تلك المباحث بدستور القرآن الكريم ، فما يكون موافقاً منها لتعاليم القرآن استفدنا منه على وجهين (اولا) من وجه كونه من المعجزات العلمية للمصلح الاعظم صلى الله عليه وسلم (وثانياً) من وجه اتخاذه من الأدلة المحسوسة على صدق نظريتنا من ان الروح الاوروبية سينتهي بها الامر الى مقابلة الروح الاسلامية في أفقها والفناء فيها وترك السلطان لها أما ما خالفها منها فسنثبت للقارىء ان شاء الله تعالى بأنه مخالف للطبيعة والعقل معا وانه من جهات الضعف في الروح الاوربية التي سيتطرق اليها الفناء منها .

بهذه الصفة ستكون السيرة المحمدية بحول الله وقوته على أسلوب جديد حاصلة على الروح المطلوبة منها بمعنى أنها لن تكون سيرة تاريخية محضة بل مرآة تتجلى فيها صورة موجزة من أعمال روح رسول الله صلى الله عليه وسلم فى اصلاح العالم وأثرها فيه لليوم ومستقبل السلطان العظيم الذى سيكون لها بعد حين . والله يهدينا لاقوم سبيل .

ماوراء المادة

وجاءنا من حضرة الأستاذ الموما اليه أيضاً بأننا قلنا في كراسة ماوراء المادة : (فحصها فحصاً علمياً من جهاتها الثلاث تجريبياً وفلسفياً وأدبياً) ويريد أن يعرف مراد الاستاذ فالكومر (صحيفة ٣٤٩ سطر ٩) من الفحص الادبي وما الفرق بينه وبين الفحص الفلسفي » .

(الجواب) — لايخفى أن نظرية الروحيين التي يستدلون عليها فى أوروبا بالحس فى هذه الايام هى أن للانسان روحا هبطت عليه من الملا الاعلى لايصل العقل الى ادراك كنهها وانها متصلة بهذا الجسد الطينى بواسطة هيكل لطيف شفاف على شكل الجسد تماماً ولكنه ليس من طبيعته ولا محكوما بقوا نينه وانه كغلاف للسر الالهى المسمى روحا ، ولعل فى هذا مايشبه قول الامام مالك بن أنس رضى الله عنه عن الروح (هى صورة كالجسد) ويقولون ان الروح وغلافها هذا يخرجان من الجسد عند حصول الموت للشخص الي عالم غير هذا العالم ولكنهما لاينفصلان عنه كل الانفصال بل ارواح الموتى منتشرة حولنا فى كل جهة ولكنا لانراها باعيننا لعدم استعداد اعيننا لذلك ، كما أنها ليست مستعدة لرؤية أشعة (رونتجن) مع أنها موجودة كما تدل عليه الآلة التى صنعها الاستاذ (رنتجن) لها وقد دخلت تطبيقاتها فى علم الطب وافادت العلم الطبيعى فائدة كبرى . ولكن يوجد أشخاص فيهم استعداد خاص به يرون الارواح رائحة غادية وعن ايمانهم وعن شمائلهم رؤية حقيقية وهؤلاء الاشخاص هم الذين يصح أن يتخذوا وسطاء لتجسد الارواح لان ذلك

الاستعداد الذي اتاح لهم رؤيتهم يجعل بينهم وبين عالم الارواح نسبة خاصة يستفيد الارواح من هؤلاء الاشخاص قوة ومادة يظهرون بها أمام أعين الناس . وقد سئل بواسطتها الارواح عن مصدر المادة التى ظهرت بها وعن مصيرها بعد ذهابها فقالت ان فى غلافها قوة خاصة بها تكون لها جسما فى الحال وتتخلى عنه فى الحال كذلك . اما مصدره فهو جسم الواسطة التي تظهر بواسطتها . قالت انكم تتحققون من ذلك لو وزنتموها أو وزنتموه قبل حضورى وفى اثناء تجسدى لتدركوا الفرق الواضح فى وزنها أو وزنه فى كلتا الحالتين . ولما فعل العلماء ما أشارت به الروح وجدوا أن الواسطة يفقد من وزنه في اثناء تجسد الروح قدر النصف فاذا ذهبت عاد اليه وزنه الحقيقي كما كان . ومما يثبت لهم حقيقة ذلك أن الاستاذ الروسى (اكزاكوف) كان يحضر روحا مع ثلة من اخوانه وكانت الواسطة امرأة شهيرة جدا اسمها (مدام دسبرانس) فشاهد أن الروح تجسدت من نصفها الأعلى وأن الواسطة قد فقدت أطرافها السفلى تماما وقد فحصوا ذلك بأيديهم وأعينهم وهم فى غاية الدهشة فلم يجدوا لاطرافها أثرا ثم لما ذهبت الروح عادت اليها أطرافها . وقد شاهد هذه الحادثة التي فيها يفنى جسد الواسطة كله أو بعضه بعض علماء آخرين كما سنبينه تفصيلا إن شاء الله و يقول الباحثون في هذا الفن بهذه التجارب و بواسطة هؤلاء الاشخاص الذين فيهم ذلك الاستعداد الخاص قد أصبح الحد الفاصل بين عالم الاحياء والاموات رقيقا جدا . و يقولون ان هذا العلم ليس بجديد فى العالم أى ليس مبدؤه سنة ١٨٤٧ حين ظهر في أمريكا لاول مرة بل هو معروف ومستعمل من منذ أقدم أزمنة التاريخ المعروفة كما أثبت ذلك الاستاذ (جريمار) وغيره وانه فى الهند أرقى منه فى أوربا بكثير . و يقولون ان هذه التجارب لا يكون من فائدتها اثبات

وجود الروح وخلودها والالمام بأحوالها في عالمها فقط بل سيكون من ورائها حل معميات كثيرة في العالم مثل مسألة الحياة والعقل وغيرها وقطع دابر تعاليم الملحدين الذين مسخوا فطرة الانسانية بتعاليمهم السامة، وسدوا على الافئدة منافذ الرجاء بما نشروه من ظلمات اليأس ، وكسف الباطل .

هذه هى اهم اركان نظرية الروحيين ، ففحصها تجريبيا هو تطبيق الاسلوب العملى عليها والبحث عما اذا كانت مما يمكن اثباتها بالحس كما هو منطوق النظرية فتعد من ضمن العلوم التجريبية وتدخل فى مصاف المعلومات الحقة أم لا ، فتلفظ الى عالم الآراء والفروض التي تتناولها الشكوك وتتحكم فيها الريب ، وأما فحصها فلسفيا فهو مقابلتها بقوانين العلوم المنطقية ليرى هل تتفق مع دستور العقل ولا تجافيه فى شىء ام تتعالي عليه فيكون ذلك حجة للذين يدعون ان المصدقين بهذه النظرية مصابون بنوع من الخلل العقلى كما زعم ذلك في اول ظهورها كثير من رجال العلم ومنهم الاستاذ الكبير اكبر علماء الجرائم (لومبروزو) ثم رجع عن رأيه بعدما فحص المشاهدات التي تؤيدها وكذب نفسه فى كتاب ألفه فى ذلك وقد نقلناعنه فى الفصل الماضى من مبحث (ماوراء المادة) الجملة الجميلة التى ختم بها بحثه . أما فحصها ادبيا فهو النظر فى مبلغ تأثير هذه النظرية على الآداب والاخلاق تعديلا أو تضليلا . فقد زعم فى أول ظهورها كثير من رجال العلم أنها ستعيد سلطة الاوهام والخيالات التى كانت سائدة في القرون الوسطى وستحيي صناعة السحر والطلاسم التى أفسدت عقول العامة والخاصة قرونا طويلة ، وستؤثر تأثيرا سيئاً على العقل الانسانى الذى بذل العلم جهده فى انقاذه من أنياب الاضاليل المظلمة والرموز الحالكة وأخرجه إلى عالم الوضوح

والجلاء . هذا ما كان يثرثر به بعض العلماء ولكن ظهر أن الامر بخلاف هـذا فقد شوهد أنها أنقذت من محارات اليأس نفوسا هلكي وخلصت من غمرات التعاليم المادية الالحادية أفئدة غرقى ، ونشرت على الانسان فى النصف الاخير من القرن التاسع عشر نورا ساطعا أرته به أن للحياة غايات أكمل وأجمل من وقف القوى على الشهوات البهيمية ، وعدم المبالات فى جلب المال بازهاق الارواح البشرية ، وقد قوى هذا الرجاء فى القرن العشرين فاصبح الناس ينتظرون اشراق عصر جديد يسترد الانسان فيه من الدين الحق ضالة روحه ، وتسترجع نفسه باسم العلم من كرائم العقائد أنشودة فؤاده ، حتى يستقيم على صراط الفطرة الصحيحة ، و يستثير من كنوز معناه جماله الانسانى ، وكماله الروحانى ، فيعيش على الارض ملكا فى شكل إنسان ، لا جانا فى صورة حيوان . ومن يعش بر والسلام .

استحضار الارواح والتنويم المغناطيسى

جاءنا من حضرة الوجيه الفاضل ابراهيم حسن أفندى بارود من أعيان (صور) من مدائن سوريا كتاب يقول فيه « من الاطلاع على (الاسلام فى عصر العلم) تبين أنكم نشرتم في (الحياة) كيفية التنويم المغناطيسى واستحضار الارواح و بما أن كثيرين من قراء (الاسلام فى عصر العلم) لم يطلعوا على (الحياة) فقد اقترحوا علينا أن نستمد منكم كيفية حدوث هذا العلم ومن الذى اخترعه ولأى درجة وصل اليها ، وهل حصل سؤال للروح المستحضرة عن البرزخ أى برزخ الارواح و بأى هيئة كانت تحضر الروح الخ »

(الجواب) التنويم المغناطيسى كان معروفا عند المصريين الأقدمين ومستعملا

فى هياكلهم ، وكذلك فى تاريخ الكلدانيين وغيرهم مايدل على وجوده عندهم أما فى أوروبا فلم يظهر الا سنة (١٧٧٥) بواسطة الدكتور الالمانى (مسمر) فقد قرر بأن فى الانسان سيالا مؤثرا سماه (المغناطيس الحيواني) لايعرف كنهه ، ينبعث من الانسان بارادته و يؤثر على الاشياء والاشخاص تأثيرا خاصا . وقرر أن كل الناس متمتعون بهذا السيال المؤثر ولكن على اختلاف فى الدرجات . فلقي هذا الدكتور من ملحدى زمانه ما يثبط الهمم ويهد العزائم لانه كان ضد تعاليمهم ولكنه ثبت فى مركزه وأخذ يطبب بواسطته المصابين بأمراض عصبية بواسطة التأثير عليهم به و إيقاعهم في نوم حقيقى . ولما كثر الكلام فيه قام بفحصه رجال من أهل العلم فصادقوا على قول مسمر ثم زاد أنصاره حتي صار فيه مثل الاساتذة الكبار شاردل و (شانييه) و (ده پوتيه) و (بريون) و (شاركو) ولم يزل هذا الفن يجاهد اضداده حتى فاز عليهم ودخل اليوم فى العلم الرسمى قال (جه . دولن) فى كتابه (المذهب الروحى أمام العلم) : « اما الآن فقد حصل فى صالحه رد فعل عظيم . فانك تري الجرائد على اختلاف صبغها وأماكنها والمحلات الطبية مشتغلة بالمشاهد العجيبة لفن التنويم المغناطيسى . »

وقال الاستاذ (شاركو) وهو العلم الفرد فى العلوم الطبية فى العالم « النوم المغنا طيسى عالم تجد فيه بجانب المشاهدات المحسوسة المادية التى تنطبق على علم الفزيولوجيا أشياء أخرى خارقة للطبيعة لم يستطع أحد تفسيرها للآن ولا تنطبق على أى قانون تشريحى . »

هذه الخوارق للطبيعة التى يتكلم عنها الاستاذ (شاركو) تثبت وجود الروح بطريقة لاتحتمل الشك قال الاستاذ (بيو) فى كتابه (المخاطبات

على المغناطيس الحيوى : « النوم المغناطيسى يثبت وجود الروح وخلودها ويبرهن على امكان اختلاط أرواح متجردة عن المادة بأخرى لم تزل مكتسبة بالمادة »

اليك محاورة بين منوم ومنومة نقلها الاستاذ (شاردل) المذكور آنفا قالت المنومة : هل تسمع مايأمرني به ؟ فقال الدكتور من هو الذى يأمرك ؟ فقالت هو . ألست تسمعه ؟ فقال كلا . لم أسمع شيئا ولم أر أحدا : فقالت : حقيقة ، لانك نائم اما انا فيقظى . فقال لها الدكتور: كيف ذلك ؟ اتدعين انى نائم وانك يقظى مع انك تحت تأثير ارادتي في الحالة المغناطيسية ، انك تتوهمين انك يقظى لكونك تكلمينى وانك متمتعة بنوع من الارادة ولكنك فى الحقيقة لاتستطيعين ان تفتحي جفنيك . فقالت : انى اكرر لك القول بانك انت النائم . وأنا بالعكس اليقظي تماما على مثل الحالة التي سنكون عليها جميعا يوما ما . لافسر لك ذلك : ان كل ذلك الذي تستطيع ان تراه انت ليس الا أشكالا غليظة مادية فلا يمكنك ان تميز الا اشكالها الظاهرة ، ولكن جمالها الحقيقى محجوب عنك تماما . اما انا فى حالة وقوف وظائف اعضائي الآن وفى حالة حرية روحى من علائقها الاعتيادية فانى أرى ماهو مستور عنك واسمع مالا يمكنك سماعه وافهم كل ماهو غير مفهوم عندك . الي ان قالت : وانى بمجرد الارادة استطيع ان اسمع الاصوات البعيدة عني ولو كان بيني وبينها مائة فرسخ وبالاختصار فانى لاأحتاج ان تأتي الاشياء الى بل انا اذهب اليها حيثما كانت وأحكم على حقيقتها بطريقة اضبط مما يحكم به عليها أي انسان آخر لايكون فى الحالة التى انها عليها اه (١)

(١) هذا مما يفسر الحديث الشريف « الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا »

ونقل الاستاذ (اكزاكوف) فى كتابه (المذهب الروحى وفن استحضار الارواح) ان زوجة الاستاذ الانجليزى الشهير (دومرجان) معتادة على تنويم سيدة وجعل روحها تخرج من جسدها وتذهب الي المحل الذى تعينه لها . فقالت لها يوما وهى تحت تأثير المغناطيس : اذهبى الى منزلى الذي كنت اسكنه سابقا . فقالت المنومة : قدفعلت وطرقت الباب بشدة . قالت زوجة الاستاذ : فذهبت فى اليوم التالى لأتأكد من صدقها وسالت عما حصل فى تلك اللحظة فاجابني السكان بأنهم سمعوا طرقا شديدا على الباب فذهبوا اليه فلم يجدوا أحدا فعلموا ان ذلك فعل اشقياء الاطفال. يقول الاستاذ (اكزاكوف) ان هذه الحادثة وامثالها تثبت بطريقة لاتقبل الشك ان للروح وجودا متميزا عن المادة وانها تستطيع ان تعمل مايعن لها بنفسها . (لها بقية)

اقتراح من مجلة المنار

اقترحت علينا (مجلة المنار) الغراء أن نذهب الى أوروبا ونفحص بأنفسنا مسألة استحضار الارواح وقالت ان ذلك امنية الكثيرين ونحن نشكرها ونشكرهم على هذه الثقة بنا الا أننا نرى أن الافضل من ذلك أن نتعقب نتائج ابحاث العلماء فيها ومقارنتها ببعضها كما نفعله فى كراسة (ماوراء المادة) نقلا عن كبار رجال العلم فى العالم لتتجلى لنا ان شاء الله من وراء ذلك حقيقة المسألة من مجموع تلك المجهودات المجتمعة . ولا يظنن القارىء ان بحث هذه المسائل من السهولة بحيث يستطيعه أحدنا فى أثناء سياحة واحدة أو سياحتين الي تلك البلاد . كلا فان الذى يريد أن يطبق عليها أسلوب العلم العملى لاتكفيه فى ذلك السنة ولا السنتان درسا وتجريبا

مع الانقطاع لها تماما ومن العلماء الذين ننقل أقوالهم من بحثها نحوا من ٣٥ سنة مثل الاستاذ الطائر الصيت (وليم كروكس) الانجليزى ومنهم من فحصها في ١٥ سنة مثل العلامة (اوكسن) ومنهم من زاولها اثنتي عشرة سنة مثل الاستاذين (هودسن) و (هيزلواب) واخوانهما من أعضاء جمعية المباحث النفسية . وكتب الاستاذ الجيولوجى الانجليزى (باركس) فى مجلة (اتلينس اوف انفستجيشن انتومودرن اسبيريتو اليزم) يقول : انه قبل ان يعتقد حقية الاسبرتزم قرأ كل كتاب الف للدفاع عنه أو في دحضه وجادل كل متكلم فيه ثم جرب مشاهداته بنفسه مدة عشر سنوات . قال و بعد هذا كله استطعت ان اتكلم فى مشاهداته واخطب بعلم ودراية .

لهذا لا نجد من الفراغ مايسمح لنا ببحث هذه المسائل بانفسنا فلنستفد من غيرنا ممن وقفوا حياتهم لها وليس من الحكمة ان لا يصدق الانسان الا ماير اه بنفسه فان عمره لا يكفى لسبر غور فن واحد فما بالك بمجموع المحاولات الانسانية كلها . واى شهادة على صحة الخوارق الروحية اكبر من نقل اقوال الذين كانوا بالامس يفخرون بانهم ماديون فاصبحوا يصيحون بانهم كانوا مغرورين وانهم أصبحوا مؤمنين بيوم الدين .

باب المسائل

كتب لنا حضرة الشاب المهذب الغيور أحمد حمدى بك أحد طلبة مدرسة الطب المصرية يسألنا رأينا في نتيجة المناظرة التى ثار ثائرها بين متخرجى مدرسة الطب أيام كانت دروسها تلقى باللغة العربية و بين متخرجيها بعد دخولها فى شكلها الجديد أى بتدريس العلوم فيها باللغة الاجنبية . يسألنا

حضرته بصفته أحد المتناظرين فى هذا الموضوع ممن كتبوا فيه المقالات الضافية الذيول فى المؤيد وكان لمقالاته تأثير كبير اختلفت آثاره على الجمهور

نقول اننا تتبعنا حركة تلك المناظرة بين الفريقين تبعاً أتاح لنا الاشراف على جهات القوة والضعف فى كليهما على قدر ماوصل اليه علمنا ونستطيع اليوم بغاية السهولة أن نكتب عنها نبذة انتقادية نسرد فيها صواب الفريقين وخطأهما وندعوهما بعد ذلك إلى الصلح والوئام من أعم غاياتهما كما يفعله الحكم الذى يعين للفصل بين متقاضيين . ولكننا نرى ذلك عديم الفائدة ولا ينطبق على اسلوبنا فى ابحاثنا فاننا لا نود أن نصرف مجهوداتنا الا على العموميات التي تندرج فيها الجزئيات اندراج الفرع في الاصل ، أى أننا لا نحب أن نشتغل من كل مسألة الا بدستورها الاساسي الذي تتنزل منه القوانين التى تسيطر على الجزئيات على كثرة أشكالها وتطوراتها . وبما ان السؤال الذى نحن بصدده يتعلق بالمدارس ونظامها فقد رأينا ان نأتى على فكرنا فى العلم والتعلم والتعليم أى على الدستور الذى يجب أن تنطبق أصوله عليها ، ومنه يعرف قراؤنا رأينا على كل مسألة من هذا القبيل .

لا مشاحة فى أن فى الامة نهضة الى التعليم وحركة تزعجها الي التربية تشبه نهضة المريض الى تعاطى الدواء وحركته لتتسم نسمات الشفاء ولكننا مع اعجابنا بهذه الروح الجديدة نرى أنفسنا واقفين أمامها موقف الوجل وهو تناقض فى الشعور ليس تفسيره بالامر الصعب . فاما الاعجاب فلكوننا أمام نهضة دافقة وحركة سائقة تشير الي أن فينا نوعا من الحياة وأما الوجل فلمعرفتنا بان ما كل دواء بدواء ، وان أنكأ ما يصب المريض في علته دواء لا يلائم حالته ولا يناسب مزاجه لانه لو ترك ونفسه فربما

تغلبت قوة الحياة الكامنة على اعراض المرض وأصوله فاجلتها عن الجسم بدون علاج ، وأما الدواء غير المناسب فانه ان لم يؤخر الشفاء فربما أمد مادة المرض وقوى تيار العلة وأودى بالحياة على صفة لا تنتظر .

في الشرقيين ناس يتهمون نتيجة التعلم ويذمون أثره ويقيمون على صدق مزاعمهم كثيرا من البراهين ويسردون لذلك عدة من الاحصائيات ، يقول قائلهم مثلا : انظر الي البلاد قبل ظهور المدارس وعد ما كان فيها من محلات المسكرات والملاهى والمواخير والقهاوى ثم انظرها اليوم وعد ما شيد فيها من قسور المقامرة والفسوق والشراب وانظر الى القهاوي واحسب ان استطعت من يتردد عليها من ابناء البلاد وما يسيل من جيوبهم فيها من اللجين والنضار وما يستهلك فيها من خلايا الحياة ، تجد الامر مما يذيب الفؤاد اسي ويذهب باللب كمدا ثم يقول لك انظر الي أصحاب الاطيان الواسعة من الفلاحين كيف اسنهواهم زخرف المدارس فحشروا اليها أولادهم زمرا زمرا فنشأوا على صفة لا تتفق مع حالة عائلاتهم فغادروا الزرع والضرع وكلفوا بخدمة الحكومة بدل أن يحلوا محل آبائهم في القيام بتدبير ثروتهم الطائلة وافتتنوا بمعاهد البلاد الاجنبية فأموها افواجا افواجا يذهبون ثقالا فيعودون خفافا حتي اثقل الدين كاهل الاطيان واصبح أكثر من ثلاثة ارباع البلاد رهنا لعدة من المرابين وصارهم الفلاح سواء كان صغيرا أو كبيرا بذل مهجة الفؤاد فى الشغل فى سبيل (البنوك) فكانت نتيجة المدارس والحالة هذه تبديد ما جمعه الاباء والاجداد وازهاق روح البلاد ولو قلت لهذا القائل ليست هذه نتيجة المدارس ولكنها اثر البذخ الهائل الذى سري ميكروبه فينا ودفع الناس لتقليد الاجانب فى زخارف المدنية الجديدة لصاح بك على الفور قائلا : ومن أين سري لنا هذا الميكروب وما هى الخلية الاولي التي أصابها

فعدت الينا عدواها ؟ اليس ممن تربوا فى المدارس وزعموا أن لا حياة لهم الا في التقليد والانطباع بالطابع الجديد هب انهم لا دخل لهم فى ذلك فاين اثرهم فى ايقاف هذا التيار ولماذا نراهم اطوع من الجاهلين الى تقحم هذا العار ؟

هذا مايقوله غير واحد من المغرمين بالبحث في الشؤون العامة ويوافقه عليه الكثيرون . ولكنه لا أثر له فى إيقاف تيار الاندفاع فى التعليم وربما كان ابن هذا المعترض الشديد الشكيمة من ضمن طلبة احدي المدارس وأول المسوقين للتقليد ، مما يدلك على ان فى الامة سوقا قسريا الى الحركة ودافعا ذاتيا يدفعها عن الوقوف . فالامة فى مثل هذه الحالة فى غاية الحاجة الى اطبائها العمرانيين الذين يهدونها الى امثل الطرق التى يجب اتباعها فى حركتها الجديدة لئلا تكون كالمريض يدفعه الكلف بحياته الي تلمس الدواء لعلته فيسلك له الطرق الموبقة ، ويلقى بنفسه بين يدى كل من شام منه بارقة العلم ولم يتئد فى الدواء الذي يعطى اليه ليعلم ان كان معلوم التركيب أم مجهوله ، محضرا على نسب مضبوطة بين العقاقير أم معمولا كيفما اتفق .

إذا دخلت الامم من حياتها فى مثل الدور الذى نحن فيه كان من أهم واجبات أطبائها العمرانيين القيام لقيادة حركتها إلي طريقها الامثل صيانه لها من أن تذهب قتيلة أشرف عواطفها وهى عاطفة طلب العلم وليس هذا بعجيب فرحم الله شيخ المعرة حيث يقول :

أفضل مافى النفس يقتالها * فنستعيذ الله من جنده

هذا الدور من الأمم يشبه دور البدء في الاكل للاطفال وهو دور حرج جدا يودى بحياة أطفال لا يحصى لهم عدد من جراء جهل أهليهم

بقوانين التغذية والامة فى هذا الدور لا تفترق من حيث حرج المركز عن أولئك الاطفال فى شيء . فكما ان الطفل متى دخل فى ذلك الدور ينشأ فيه ميل لتناول كلما يعطى اليه من غير تمييز لما يضره أو ما ينفعه كذلك الامة فى مثل هذا الدور من حياتها تدفعها الضرورة الاجتماعية و يظهر فى افرادها سائق شديد لتغذية أفكارها بالعلم والمعرفة من غير تفرقة بين ما يضرها وما ينفعها منه وتكون النتيجة عليها من جراء ذلك صلاحا أو فسادا مثل نتيجته على الطفل سواء بسواء . فكما ان هذا يلتهم كلما يقدم اليه مهما كان نوعه و يزيده الافراط وعدم التدبير نهما فيفرح بذلك أبواه الجاهلان ظنا ان ذلك مما يكسبه قوة وصحة فيخيب ظنهما عند ما يروا اعراض النزلات المعدية والمعوية قد ساقته إلى أحرج المواقف بالنسبة لصحته كذلك الامة تزداد فى هذا الدور نهما للعلم وشرها للمعرفة فيفرح بذلك محبوها ممن ليس لهم بصيرة فى تربية الامم فلم يلبثوا الا عشية أو ضحاها حتى يروا أن النتيجة قد جاءت على غير ما ينتظرونه من نجاحها فى ميدان الحياة فيقفون حيارى أمام هذا المنظر المدهش و يذهبون فى تعليله كل مذهب ، والحقيقة هى ما نقول من أنه يجب مراعاة التناسب التام بين سن الامة ونوع العلم الذى يلقي اليها . أنا لا أنكر أنه يوجد من الناس من يشك فيما نقول ولكنهم بذلك يمثلون الآباء والامهات الذين يهزأون بقول الطبيب إذا نصحهم بتقليل الاطعمة الدهنية لولدهم أو بقطعها عنه بالمرة لأمد معين و يقولون كيف ينصحنا هذا بعدم اعطاء ولدنا لحما وهو الغذاء المقوى الذى لا يعادله غذاء آخر فى إيجاد القوة والعافية ، فيستمرون على أسلوبهم في تغذيته فتزداد حالته خطرا يوماً بعد يوم ، ولما يحسون بسوء المغبة يودون أن يصدعوا بامر الطبيب و يبتدئون فى قطع ذلك الغذاء عنه ولكن هيهات

فان النهم والشره يكون قد بلغ من ولدهم حدا لا يستطيعون معه منعه بوجه من الوجوه ولا يزالون يتحملون منه أشد العذاب حتى يموت قتيل عدم مراعاتهم التناسب فى تغذيته . هذا حال الطفل ومثال الامم فى مثل هذا الدور لا يفترق عنه فى شيء وهل المصريون اليوم الا أكثر الناس مشاهدة لنتائج عدم مناسبة التعليم لبنيهم لما يرونه يومياً من المرائي المحزنة والآثار السيئه .

فلا غرو بعد هذا ان رأينا الامم الراقية تلقي بنفسها بين يدى علمائها العمرانيين ليقودوها الى الطريق الذى يؤديها الى الحياة الكاملة بما وصلوا اليه من العلم . فان حياة الانسان الشخصية والعمومية تابعة لقوانين ثابتة وسنن مقدرة « قد جعل الله لكل شيء قدراً » وقد وهب الانسان القدرة على البحث عنها ومعرفتها بخلاف الحيوان فانه مطبوع على قوانينه فما دام لا يبحث عن تلك السنن لينصاع لاحكامها فيكون قد أراد أن يشبه الحيوان فيعيش كما يجيء لا كما يجب وتكون حياته سلسلة من حوادث مضطربة وهو بينها كالريشة في مهب العواصف يسخط على بخته ويشكو مصائب الدنيا بينما تكون الامم المجاورة له ممن هدوا الى سنن الحياة فى صفاء من العيش فيذهب فكره المذاهب المختلفة وربما كفر بعقيدته الحقة من جراء ذلك مع أن دواءه فيها . أليس يقول كل يوم « اهدنا الصراط المستقيم » و« لا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون »

لهذا نرى من واجبنا انتهاز فرصة السؤال المتقدم لايراد دستور التعليم قياماً ببعض ما يفترض علينا في مثل هذه الاحوال واذا رآى قارئنا خرجنا عن دائرة الموضوع فلنا العذر البين فى ذلك ولينتظر المقالة لآخرها فربما وجد فيها بلال الغلة وشفاء العلة ان شاء الله تعالى .

باب المسائل

سألنا طالب نجيب عن فكرنا فى موضوع المناظرة التي حصلت فى جريدة المؤيد بين طلبة مدرسة الطب قبل نظامها الجديدو بعدهوقد أجبناه فى الملحق الماضى و وعدناه بايراد دستور التعليم وهو بحث سيرمى الى مدى بعيد و يطوح بنا الى كثير من المسائل العمرانية ولكننا نرجو من و رائه فائدة كبرى ان شاء الله فنقول :

الغرض من تعليم الامة هو هداية أفرادها الى سنن الحياة وتعليمهم أساليب المكافحة والجهاد فى هذا العالم ليصلوا بذلك الى ماقدر لهم من سعادة مادية وأدبية و يؤدوا الامة بمجموع مجهوداتهم الي حالة من الوجود تكون فيه قادرة على حفظ استقلالها وشخصيتها فى وسط هذا المعترك الحيوى الهائل . اذا ثبت هذا فيكون من الواجب أن يعلم القائمون بالتعليم والداعون اليه ماهية الامم وموتها ليكونوا فى تعليمهم الامة على بينة مما يحاولون و يرمون اليه تحامياً من أن يأتوا البيوت من غير أبوابها فلا تكون لاعمالهم نتيجة أولها نتائج مضادة لما كانوا ينتظرون ، ولذلك نقول : أثبت لنا علم العمران أن الامم كالافراد تولد ثم تدخل فى دور الشبوبية وتبلغ أشدها ثم تكتهل فتقف عن النمو ثم تهرم ثم تموت لامحالة « لكل أمة أجل اذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون» وان أردت نص هذا الناموس من علم العمران فاليك : قال (درابر) استاذ بكلية نيو يورك باميريكا « الامة كالفرد تولد على غير علم منها وتموت على كره منها وكثيراً ماتموت وهى تكافح الموت وتقاومه . فالحياة العمومية إذن لا تفترق عن الحياة الشخصية الا في كون مداها أطول ومدتها أفسح .

ولكنها مع هذا لا تستطيع أبداً أن تتخلص من شرب ذلك الكأس المحتم فكل أمة متى نظر اليها من هذه الوجهة التاريخية فلها طفولية وشبوبية وكهولة وشيخوخة ، هذا إذا لم يعترضها عارض فيمنعها من متابعة سيرها الطبيعي في أدوار حياتها . » انتهى

كما أن للفرد الواحد في كل دور من أدوار وجوده شأناً خاصا يستدعي عناية خاصة وتربية خاصة بحيث لو جهله القائم بالتربية لنشأ الفرد على صفة ناقصة أو لمات وتلاشى قبل بلوغ كماله النوعي ، فلا مشاحة في أن للامم مثل ذلك بل خطب الامم أشق وأصعب . وكما أن ادراك دقائق التربية الفردية لا يحسنه إلا رجال انقطعوا لها وتعمقوا فيها يسمون الاطباء ، فكذلك تربية الامم تستدعي أن يكون لها عرفة خبيرون وأطباء نطاسيون وهم كما ثبت من التاريخ الانبياء والمرسلون ومن أخذ أخذهم وحذا حذوهم من كبار أفراد النوع الانساني . هذا من البداءة المسلمة لدي الامم الحية فتراها تحبو أولئك الرجال من رسوم الاجلال والاعظام ، وتؤدي لهم من واجب الطاعة والاكرام ما تضن به على ملوكها وقادة مصالحها ، وفي تاريخ آبائنا الاولين في حبهم لعلمائهم العاملين وما يفعله أمام أعيننا الاوروبيون من أكبار أطبائهم العمرانيين عبرة للمعتبرين .

ماهي حياة الفرد الواحد وما هو موته ، وماهي حياة الامة وما هو موتها؟ يقال ان ذلك الانسان حي اذا كان فيه ذلك السر الالهي المسمى (روحا) ويستدل على وجوده فيه برؤية أعضائه مؤدية وظائفها الخاصة على النحو الذي خلقت لاجله وبأنه اختياراً وارادة . ويقال انه ميت إذا لم يكن فيه ذلك السر الالهي بأن كانت أعضاؤه واقفة عن تأدية وظائفها وإرادته واختياره معدومين .

و يقال ان هذه الامة حية إذا كان لهـا رابطة تربطها وتضم أحادها وتوجه كل أميالهم وعواطفهم الى غاية مشتركة ، و يستدل على وجود الرابطة العامة فيها بشعور كل فرد منها بمجموعه و وجود نفسه مسوقا ومرغما على التفكر فى امته واشتغال باله بامورها الخاصة والعامة ، ومدفوعاً بدافع قاهر للعمل على مايجعلها متمتعة بأرقى مايمكن من سعادة مادية وأدبية . و بالعكس يقال ان تلك الامة ميتة إذا لم يكن لها رابط يربطها لادينى ولا جنسي وكان كل فرد منها مشغولا بنفسه لا يتعدي همه محيط جثمانه ، يائساً من رقيها وفلاحها ، قانطا من عواملها الذاتية وحياتها الكامنة ، ومتهافتاً على التبرؤ من الاعتزاء اليها والانتساب الى أصلها ، وأدل دليل على أن أفرادها كذلك أن لا نري لها اختياراً ولا ارادة ، ومن أين لها ذلك واختيارها هو مجموع اختيارات أفرادها وارادتها هى ملتقى قوى ارادتهم ، فتكون أمثال هذه الامة والحالة هذه مرغمة على الدخول فى كل شكل تقاداليه وتدفع فيه ، وتري نفسها مرغمة على قبول أى حال تساق له وتزج اليه .

وكما أن علوم الطب عاجزة عن اعادة الحياة للشخص الميت فكذلك يعجز علم العمران عن ارجاع الحياة الى الامة الميتة (وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون)

هذا هو معني الحياة والموت فى الآحاد والامم فهل نحن امة حية ؟

(هل نحن أمة حية ؟)

نعم نحن أحياء فى المجموع ولو كان بعض من أعضائنا قد اصيب بشلل اجتماعى عسر الشفاء لأنه مادامت الحياة كما قررنا من علم العمران هى الرابطة فلا يزال شق عظيم منا وهم العامة وأصحاب الخاصة لهم رابطة قوية وهى الدين وان كان مشوبا بما ليس منه ، لأن المدار على وجود الرابطة لا على نوعها .

وفى العلم الاجتماعى ان شرذمة من اللصوص التى تضم آحادها رابطة السلب والسبى أحيا وأصلح للبقاء من أى طائفة أخرى لارابطة لها ولو كانوا من العلم والتهذب فى المكانات العلى . العلم يسم الأولين بالحياة مهما كان نوع رابطتهم و يصم الآخرين بالموت مهما كانت صفاتهم ومزاياهم ، لأن محض انضمام الأولين وتلاصقهم ببعثهم بحكم قانون الترقي لترقية نوع رابطتهم . أما الآخرون فمحض عدم التئامهم يقضي عليهم بالتنابذ والتخالف أو بالأقل يشتت مزاياهم شذر مذر فلاتؤدى لغاية ثابتة وطبيعة الحياة الانسانية تأبي هذا النحو من البقاء فيفنيهم الخالق حفظاً لنظام الوجود وصونا لدستور الخليقة .

إليك مثالا باهراً يصور لك كيف تترقى روابط الامم تحت تأثير ناموس الرقي العام : لما حاصر قدماء اليونانيين فى القرن الثامن قبل الميلاد مملكة تروادة عشر سنين ثم أحرقوها بالنار تفرق أهلوها شذر مذر فجاءت شرذمة منهم الي جهة من ايطاليا على بحر الأدرياتيك وألقوا بها عصاهم ولم يكن يربط آحاد تلك الشرذمة فى ذلك الحين إلا أبسط الضرورات المعاشية التي كانوا ينالونها من الغارات على الامم المجاورة لهم ، ولما اطمأن جانبهم وأمنوا الهلاك جوعا مالوا لأن يكون لهم نساء كما هى سنة الطبيعة فلم يجدوا طريقة أمثل فى نظرهم من السبي فأغلنوا الامم المجاورة بأنهم سيحتفلون بعيد لهم وسيظهرون فيه من عجائب الألاعيب وفنون القروسية مايرتاح اليه البصر وتنبسط منه النفس فهرع الناس الى المكان الذى عينوه نساء ورجالا وأطفالا ، فانهم لمجموعون يتفرجون واذا بفرسان تلك الشرذمة انقضوا على النساء انقضاض النسور على فرائسها واختطفوهن من بين يدى أزواجهن وآبائهن خطفا وفروا بهن إلى معاقلهم وغيرانهم ومضت عليهم القرون فتناسلوا وكثروا

وصاروا أمة أغارت على من حولها فدختهم ولم تزل تلتهم الأمم والشعوب حتي صارت أكبر أمة ظهرت فى العالم بعد الامة الاسلامية وأصبحت تدعى امة الرومانيين التى لم تزل علومها ومعارفها تدرس فى مدارس العالم لليوم .

هذه النظرة التاريخية تدلك دلالة محسوسة على أن المدار فى حياة الأمم على وجود رابطة ماتضم آحادها ولا عبرة بنوعها فانها تترقي على مدى القرون حتى تصل لأرقى ما يتصوره العقل ومن يتصفح تاريخ الامم يرأن كثيراً منها ارتقى من رابطة اللصوصية الي أرقى رابطة اجتماعية جنسية .

إذا أسسنا هذا الاصل ساغ لنا أن نقول ان أحيا طائفة فى أمتنا اليوم هى طائفة العامة فان لها رابطة عظمى هى رابطة الدين وان كانوا دخلوا اليه ماليس فيه أو أدركوه على غير حقيقته وذهبوا به عن نقائه الجوهرى . فهم والحالة هذه أصلح للبقاء من أهل الخاصة الذين انسحروا بزخارف الصناعة الغربية وخلعوا أطواق الدين من أعناقهم وأصبحوا لا يعرفون لهم رابطة تربطهم ولا وشيجة تضم أشتاتهم ، وأضحوا واليأس قرين عقولهم ولزيم عواطفهم . ولو ترك العامة وشأنهم لارتقوا بحكم القانون العمراني الى أرقي درجة من درجات الاجتماع ولكن هل يستطيعون أن ينجوا من غوائل خاصتهم ؟

(العامة والخاصة)

العامة فى كل أمة من أمم المسكونة تبع لاهل الخاصة فى عقائدهم وعاداتهم ومدركاتهم ، ونريد بالخاصة من رفعه العلم أو المال الى منصة ممتازة . أما السبب في كون العامة تبعا لاهل الخاصة فهو لأن هؤلاء بوجودهم فى مقدمة الأمة يكونون عرضة للالتياث قبل غيرهم بالاصابات الاجتماعية

والفتن العمرانية ، والنظر المجرد فى تواريخ الأمم البائدة يرينا أن الداء الذى لاشاها لم يأتها الا من قبل أهل خاصتها . فالالحاد الذى ثل عرش ملك اليونان وفساد الاخلاق الذى نسف صرح الرومان كان منشأه الخاصة ثم سرى منهم الى العامة وقد أشار الله تعالى الي هـذا القانون الاجتماعى الـكبير بقوله « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » وقوله تعـالي « ربنا اننا أطعنا سادتنا وكبراءنا فاضلونا السبيلا »

أما اذا أراد الله أن يتدارك امة برحمته فيعيد اليها الحياة فلا يكون ذلك الا بواسطة العامة لانهم لبعدهم عن مناشيء الفتن الاجتماعية يكونون أبطأ تأثراً بانواع الفساد العمراني من أهل الخاصة ، فانه فى الوقت الذى يكون فيه الترف والبذخ قد استوعب قوى أفراد الطبقة العليا من الشعب تري أنه لم يزل فى الطبقة الدنيا رجال أحياء لم تصبهم جراثيم الفساد مطلقا ويصلحون لأن يكونوا خلايا أولية تنبنى بهم بنية جديدة للأمـة ذات مزاج غير مزاجها الاصلى ، ومن يتصفح تاريخ العالم يرأن كبار المصلحين وخصوصا الرسل عليهم السلام لم يطأمنوا من كـبر الأعلياء ، ويكسروا من شرة الأقوياء الا بالعامة . وبهذا السر العمراني خاطب الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام حينما أراد الخاصة أن يجعل لهم وقتا يجتمعون به فيه دون العامة أنفة من المساواة فقال تعالى « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا » وقد حـكي الله حال الخاصة مع الأنبياء وأنفتهم من الفقراء والضعفاء مع أنهم مادة الحياة وجراثيم الفلاح فقال تعالى عن قوم نوح « قالوا أنؤمن لك

واتبعك الارذلون ، قال وما علمى بما كانوا يعملون ، إن حسابهم الا على ربى لو تشعرون ، وما أنا بطارد المؤمنين ، إن أنا الانذير مبين» وقد اغترف أمير المؤمنين على بن أبى طالب هذه الغرفة الروية من الحوض الالهي الاقدس فكتب في عهده للاشتر النخعى حين ولاه مصر يقول : (وليكن أحب الامور اليك أوسطها فى الحق وأعمها فى العدل وأجمعها لرضى الرعية فان سخط العامة يجحف برضى الخاصة ـ أى لا ينفع رضى الخاصة إذا سخط العامة) وان سخط الخاصة يغتفر مع رضى العامة ، وليس أحد من الرعية أثقل على الوالى مؤونة فى الرخاء ، وأقل معونة له فى البلاء ، واكره للانصاف ، واسأل بالالحاف ، وأقل شكراً عند الاعطاء ، وأبطأ عذرا عند المنع ، وأضعف صبرا عند ملمات الدهر من أهل الخاصة . وانما عماد الدين ، وجماع المسلمين ، والعدة للاعداء العامة من الامة ، فليكن صغوك لهم وميلك معهم)

هذه الحكمة الباهرة رشفة سائغة من بحر العلم الالهى الزاخر الذى أفاضه الله علينا فى كتابه الكريم وغفلنا عنه وسيأتى يوم يرى الناس عموما أن قوانين الاجتماع كلها منعكسة من شمس القرآن ، فسيقولون نواميس قرآنية بدل قوانين عمرانية ومن يعش ير .

(لها بقية)

الحج

جاءنا من حضرة الأديب أمين افندى عمر بنظارة المعارف العمومية كتاب يسألنا فكرنا فى الحج وعن حكمة كونه ركناً من أركان الاسلام ،

وعن الفوائد المادية والادبية التى تعود منه على المسلمين . فنجيب حضرته :

الدين الاسلامى كله أسرار وعجائب ويكفيك دليلا على كونه أكبر آيات الله فى هذا العالم أنه تعالي كون به فى بضع وعشرين سنة امة أحدثت فى الوجود أكبر وأعظم الحوادث الاجتماعية والانقلابات العمرانية، وتربعت فى دست خلافة الله فى الارض قرونا كثيرة كانت فى خلالها أعجوبة العالم الانسانى دنيا ودينا ، ورفعت أعلام الحرية والاخاء والعلم الى أعلا ما يصل اليه امكان البشر ، ولم تزل للبوم حية حياة قوية وان كانت كامنة كمونا وقتياً يظهر من ذلك انتشار نفوذها الروحانى فى كل الامم بصفة تبشر بضرورة رجوعها الى مجدها القديم والقبض على ذمام أمور النوع البشرى كله بتلك اليد الرحيمة التى خلصته بها من قتلة عواطفه من قبل .

كل أصل وركن وفرض وسنة من هذا الدين تحته أسرار وأنوار تعوز الدرس الطويل والشرح الضافى والبحث العميق ، ويدل عليه دلالة محسوسة انتقال العرب بمجرد العمل بها من حالتهم الأصلية الى حالة اخري أقل ما يقال فيها أنهم أصبحوا بها مثلا يضرب فى الفضائل في جميع الامم حتي أعدى اعدائهم . وانا لنرى بأعيننا أن العالم الغربى مسوق بدوافع الطبيعة ونواميس الحياة الى العمل بتلك التعاليم والاهتداء بنورها فى حوالك أحوالهم ، وان كان متطرفوهم قد غالوا فى التشنيع عليها ووصموها بما هى بريئة منه .

هذه مسألة الطلاق التى طالما حاولوا أن يغضوا بها من أبصارنا ، ويحطوا من كرامتنا قد التجأوا أخيراً الى عدها علاجا شافياً لكثير من المفاسد العائلية التى لها أسوأ أثر فى كيان الهيئة الاجتماعية ، وقد أصبح لديهم محاكم مخصوصة للتطليق فى كل بلد متمدنة (١)

(١) انظر كتابنا المرأة المسلمة

وهذه مسألة تعدد الزوجات التى كانوا يتفكهون بترادها على ألسنتهم فى مجالسهم الخاصة والعامة أصبحت الشغل الشاغل لبعض أفرادهم ممن يبحثون فى ذلك الجيش الجرار من النساء اللاتى أصبحن لا عائل لهن وصرن عرضة للفساد الخلقى الشديد الوطاة على النوع البشري (١)

وهذه مسألة الصيام التي كان يعدها سوادهم الاعظم و بعض الاغرار منا من الويلات الكبرى على الجسد والعقل معا أصبحت اليوم لديهم اكسيرا كبيرا يداوون به الجبن الادبي وفقد عزيمة الرجولية وقد ألفوا فى ذلك الكتب الضخمة . اليك ماقاله عنه الدكتور (جبهاردت) فى كتابه (كيف يكون الانسان قوى الارادة) ردا على الذين يتوهمون أن فى الصيام ضررا قال « لا نشك في أن معترضا سيعترض على هذا العلاج الصومى ظانا أن في الاخذ به ضررا على الصحة ، وهو اعتراض لا أساس له البتة . أما من حيث الصحة والطب فان الصيام من العلاجات التى يجب الامر بها والاعتراف بعظم فوائدها » الى أن قال متابعا فى ذلك الدوكتور (ستوهر) : « ان من الناس من كبر وعاش مقتنعا بأن طينته أرق وألطف من طينة غيره من الآدميين ، ومع ذلك فان المراقب لأحوال أمثال هؤلا الناس لتأخذه الدهشة اذا وقف على هذا المعمى الذى لا يحل وهو أنه بينما يرى الواحد من هؤلاء قد يقع على الارض من الضعف والهزال اذا لم يقدم اليه ما اعتاده من كأس المرق يراه قبل بضعة أيام قد احتمل أعباء الرقص وتكاليفه بغاية النشاط والجلد طول الليل لغاية الساعة الاولى صباحا . »

أما الحجج فلم يوجد بينهم فى أي عصر من العصور من يطعن على تشريعه

(١) انظر كتابنا المرأة المسلمة

لوضوح فائدته وسطوع حكمته ولماله من الأثر الظاهر فى بقاء جامعة المسلمين حية لليوم ، وليس أحد يستطيع أن ينكر الفوائد المادية والادبية التى تنجم من اجتماع العناصر المختلفة من أمة كبيرة كالامة الاسلامية فى صعيد واحد . من يريد أن ينكر ذلك فلينظر حتي في كتب أعداء الاسلام وما كتبوه عن الحج من أنه مثار الوحدة الاسلامية والباعث الى نفوس الآخذين بهذا الدين روح الانضمام والتآلف . وبما أنهم لا يريدون وجود تلك الوحدة التى تحول بينهم و بين فصم جامعة المسلمين فتراهم يرون فى الحج خطرا دائميا على مشروعهم فى حل تلك الجامعة حماها الله .

الانسان جسد وروح وهما قائمان على قسطاس من العدل الالهى بحيث أن صلاح أحدهما أوفساده ينال الآخر لامحالة فشرع الله دينه على كيفية بها كل أصل فيه يفيد كلا من هذين الجوهرين فائدة تلائمه ليقوم الانسان بهذا الدستور الالهى الاقوم على صراط الفطرة الصحيحة « مايريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون . »

الحج هو اجتماع الالوف المؤلفة من المسلمين ، المبعثرين فى سائر ارجاء العالم ، المختلفين فى الأجناس واللغات ، فى بقعة واحدة ملبين بالروح والجسم معا نداء ربهم وهم من بساطة الملبس ، والتساوى فى الدرجات على صورة لا توازيها صورة فى أى شرع من الشرائع ولامدنية من المدنيات الارضية . وهم بين أمير ومأمور ، وحاكم ومحكوم ، وعربى وتركي ، وأفغاني وفارسى ، وهندى وسودانى ، وحبشى وصينى ، وأوربى ، وأوقيانوسى وبين أبيض ناصع ، وأصفر فاقع ، وأحمر قانم ، وأسود فاحم . والكل شخوص بالاعين والافئدة الى نقطة واحدة ليس فى ضمائرهم الاموضوع

واحد . تركوا الأهل والوطن ، وهجروا المال والسكن ، خاضوا غمرات البحار الزاخرة ، واقتحموا الصحارى الغامرة ، لعبت هوج الرياح بهم تارة على السفائن ، ولفحتهم لوافح السموم طوراً فى السباسب ، خلعوا عاداتهم وتقاليدهم ، وغيروا لباسهم وماكلهم ، وصعدوا وهم على هذه الصورة التجريدية على سطح جبل يضم أشتاتهم ويلم جمعهم ، فماذا يكون من أثر هذا الموقف المهيب عليهم . وماذا تكون نتيجة هذا المنظر الفخم على أفئدتهم وأرواحهم ؟

لاشك أن تركز كل تلك الأشعة المنبعثة من صميم معانيهم الى غرض واحد ونقطة مشتركة وهم على هذه الصورة من المساواة والبساطة على قمة ذلك الجبل الذى وقف عليه قبلهم بناة مجد هذه الأمة الكريمة من الشهداء والصالحين والعلماء العاملين والأولياء المقربين وفوق هؤلاء كلهم خاتم النبيين محمد الأمين صلى الله عليه وعلى أصحابه وآله أجمعين

كل ذلك يوحى الى سرائرهم ، وينقش فى صميم روعهم ويصور لهم فى لباب فطرهم ، حقيقة معنى (الله أكبر) وناهيك برجل (يعتقد) أن الله أكبر .

من يعتقد أن الله أكبر ، لايرضخ للذل ، ولايستكين للعبودية ، ولايلين قياده فى يد غاشم . من يعتقد أن الله أكبر لايخاف بطش العوادى ، ولا يرهب قرع الحوادث ، ولا ترتعد فرائصه من نازلة مهما عظمت . من يعتقد أن الله أكبر لا يستعظم الأهوياء ، ولايكبر الاعلياء ، ولا يستخذى للكبراء .

من يعتقد أن الله أكبر ، لاينسحر بمدنية ، ولايؤله أى قوة أجنبية ، ولا ييأس من بلوغ أمته أقصى المكانات العمرانية

من يعتقد أن الله أكبر ، كان رجلا صحيحاً ، وانسانا تاماً ، وفاضلا صرفاً ، لان من يعتقد أن الله أكبر لا يستبد ولا يتكبر ولا يتجبر ولا يعجب بنفسه وهى من كبرى مهلكات الانسان ، ثم لا يسرف لان باعث الاسراف حب التفرد وكيف يتفرد والله أكبر ، ولا يقتر لان موجبه خوف الفقر وكيف يخافه والله أكبر . والخلاصة أنه لا يقارف دنيئة سواء كانت معنوية أوحسية لان مثيرها ارضاء الهوى ، وكيف يرضي هواه من يعتقد أن الله أكبر .

نعم من كان يعتقد أن الله أكبر على هـذه الصورة كان مسلما حقا ولو قلت ان الذى سما بهم آبائنا الاولين ، فرفعهم في بضع وعشرين ، الي أعلا عليين هو محض اعتقادهم أن الله أكبر لما كنت مغاليا فى المقال ، ولا ذاهبا بالقارىء مذاهب الشعر والخيال

يقولون اذا كان هذا أثر الحج فأين نحن منه اليوم . قلنا إن أركان الاسلام كلها مرتبطة ببعضها ولا يغني شيء عن شيء منها وقد ترك المسلمون كل تلك الاركان و بعضهم يأتيها صورة لاحقيقة فكيف تؤثر فيهم هذا الاثر الباهر الذى أحدثته فى آبائنا الاولين الذين كانوا يراعونها على حقيقتها ؟ فان قيل وماسبب عدم تأثيرها فينا اليوم فنحيل القائل على مقالتنا فى العوامل العمومية من الجزء الرابع وعلى ماسنكتبه فى ذلك الشأن على التتابع إن شاء الله .

استحضار الأرواح

كتب الينا حضرة الاستاذ الشيخ محمد أحمد الالفى من طوخ القراموص

يقول : « هل مستحضرو الأرواح سألوها عن كنه الروح وعلاقتها بجسد الانسان ؟ هل سألوها عن العذاب والنعيم الاخروى ؟ هل سألوها عن الاديان الصحيح منها والفاسد ؟ هل في امكانهم استحضار أرواح الانبياء والملائكة والجن ؟ هل سألوها عن المباحث الكثيرة التي تجل عن الحصر بين علماء الاديان والعمران ؟ »

الجواب استحضار الأرواح التى ظهرت فى العالم الغربى سنة ١٨٤٧ تعد أكبر مدهشات العلم البشرى فلاغرو ان اسلفت انظار النوع الانسانى باسره وأصبح لها من الأتباع ماينوف عن العشرين مليونا ، ودخل فيها العلماء والكتاب والسياسيون افواجا افواجا مثبتين ابحاثهم وتجاربهم فى أكثر من مائتى مجلة خاصة . هذا عداعما يكتبونه فى المجلات العلمية والجرائد اليومية . وكيف لا يكون لهذه المسألة هذه الاهمية الكبرى وهى التى هدمت أصول الالحاد وقوضت دعائم العناد وصدت تيار العلم المادى فى أشد جماحه وأبطلت بالحس دعوى الماديين الذين انكروا العالم الروحانى والخلود وحشروا الانسان فى مصاف الحيوانات العجماء بل جعلوا مصيره كمصير النباتات يولد و يغتذى و يتوالد ثم يموت وتتلاشى اجزاؤه فى ذرات الأرض ويذهب الي حيث يذهب كل شىء .

هذه التعاليم السامة كم جرحت من فؤاد ، وكم طعنت من حشاشة ، وكم قرحت من عيون واجفان ، كم باتت أم فقدت فلذة كبدها تتلظى على تنور اليأس من عود رؤيته ، وتضطرم على غضا القنوط من احتمال بعثه ، لا جرم قد شوهت هذه التعاليم حياة الانسان تشويها جعل فؤاد المتشبع بها منسابا لذمائم الصفات ، ومسرحا لأقذار الدنايا ، ومرتعا لشياطين الأميال البهيمية التي يستحيل أن تجتمع كلها فى أسفل حيوان .

هذه الصفات كلها وخلو الفؤاد من الراحة والطمأنينة لا تمنع مانشاهده من هذا الرقى الصناعى المدهش فى هـذه المدنية الساحرة بل هى من أقوي البواعث اليه ، لأن النفس متي حصرت فى اقفاص السآمة وأحيط بهـا فى مضائق القلق تتطلب الخلاص بكل حيلة ووسيلة وبما انها يئست من روح الدين وقنطت من السبح فى سبحات أنوار العقيدة فلا تجدلها مناصا الا عالم المـادة باعطاء الحواس الجثمانية غاية ما تستطيع الشعور به من لذة جسدية .

تخيل امما هذا شأن أرواحها من التعطش الى العقيدة ، وتلك حالتها من اليأس من وجود الأدلة لدحض مزاعم الفلسفة الحسية التى اهم أصولها لا تصدق حتي تحس ، قلنـا تخيل أمـما هـذا شأنها من الحرمان من أشرف مسليات النفس وأكرم معـزيات العواطف وهو الدين ثم تصـور كيف يكون حالهـم لو ظهـر فيهـم قائل يقول : ان أرواح الموتى يمكن أن تظهر للاحياء فى شروط خاصة وتأتي من العجائب مالا يمكن الوصول اليـه بالوسائل المحسوسة ولا ينطبق على نواميس الطبيعة . قل لى كيف تكون حال أولئك الغرقى فى لجج اليأس الذين يطلبون مخلصاً ممـا هم فيه من أي سبيل كان ؟ لاشك يحدث فيهم هذا القول رجة كبرى وحركة عظمى تستفز علماءهم لفحصها وبحثها ، أملا فى اعتقادها أودحضها وقدحصل ذلك فانه لم يمض على هذا القائل خمسون سنة حتى أصبح مذهب مكالمة الأرواح من الأهمية بالمـكان الذى وصفناه لـكم وسنزيده وصفاً إن شاء الله .

هذه الملايين العديدة الذين كانوا بالأمس لا يصدقون بشيء لا يكون شأنهم حيال هذه المسأله المدهشة كشأننا نحن معشر الذين نعتقد بعـالم

الأرواح والملائكة والجن أى انهم لا يكون شغلهم فى مبدا الامر الا التحقق من حصول مايحصل بدون غش أو آلات دقيقة كما هو شأن المشعوذين ، ولذلك تراهم صرفوا هذه المدة كلها فى هذا البحث وهو كما لا يخفي الاصل الذى يجب الوثوق به مبدئيا .

هذا هو حال من ننقل عنهم من العلماء الكبار والفلاسفة المحققين وهم الذين نثق بهم ونطمئن لبحثهم لاستبعادنا وقوعهم فى أشراك الحيل ، وا كبارنا غفلتهم عن دقائق الآلات التي يحتمل أن تستعمل لذلك . أما من لا نهبهم مثل هذه الثقة من رجال السياسة والكتاب والمحامين وغيرهم ممن يكفيهم من البراهين مالا يكفي الاولين فلهم بالنسبة لما سألتمونا أقوال يطول بسطها ولكننا لم ننقل عنهم لليوم شيئاً من ذلك لانه لاينطبق على أسلوبنا فى ابحاثنا فاننا بصفتنا مسلمين مخاطبين بهذه الآية الكريمة « وان تطع أكثر من فى الارض يضلوك عن سبيل الله » يلزم أن يكون قسطاسنا أدق من كل قسطاس . فترونا لا ننقل الا عن مثل (فلامريون) و (أوليفيه) و (جيبيه) و (دوروشاس) من الفرنساويين ، و (زولنر) و (أولتريسى) و (بير) و (فيشنر) من الالمان ، و (كروكس) و (وولاس) و (فارلى) و (دومرجان) و (اكسن) و (شمبير) و (حللى) من الانجليز ، و (ماب) و (هار) و (إدمون) و (اليوت) من الأمريكان الخ الخ الخ وكل واحد من هؤلاء ركن من أركان النهضة العلمية الاروبية وعمدة كبير فى العلم الذي يبحث فيه ، ولاهم لهم جميعاً من بحث هذا المذهب الا التحقق المطلق من حصول تلك الخوارق بغير وساطة الغش والتدليس وانها آتية من عالم روحاني محض . على ان منهم من اكتفي بالبراهين التى لديه واعتقد بانها الارواح حقيقة ومنهم من نسبها لعالم روحاني

آخر ومنهم من توقف عن الحكم حتي يتم انجلاء المسالة تماما . ومنهم الاستاذ (كروكس) أكبر كيماوي الانجليز فتراه بينما يؤكد صحة تلك الخوارق وانه لا دخل للتدليس فيها فيخطب فى الجمعية العلمية الملوكية قائلا (أنا لاأقول ان هذا ممكن بل أقول هو ثابت محقق) تراه من جهة أخرى لم ينطق لليوم باعتقاده بانها أرواح الموتى أو ان تلك الروح التي تجسدت أمامه وفحصها في منزله فى تجاربه الخاصة هى حقيقة روح الشخص الذى اخبرته انها روحه مع انه وصف تلك المشاهدة المدهشة في ١٩ صفحة من كتابه الذى ألفه بالانجليزية وطبع اثنتى عشرة مرة بالفرنساوية وهذا نعده من التبصر الجدير برجال العلم .

أما ان اردتم موجزا من أقوال غير هؤلاء القادة فى اعتقادهم فى المسائل التى وجهتموها الينا فاليكم : انهم يعتقدون أن الروح سر إلهى لايدرك له كنه ولكنه متلبس بجوهر نورانى ألطف من المادة على شكل الجسد وهو الذى يربطه به الى حين . ويقولون ان الارواح اذا أرادت الاختلاط بالناس تظهر لهم بهذا الهيكل الشفاف واذا أرادت التجسد تجسدت بواسطته فان فيه خاصية تكوين جسد له فى ساعته وافنائه فى ساعته أيضا وذلك بواسطة المادة التى يستفيدها من جسم الواسطة التى تحضر الروح بوجودها ويكون فيها استعداد لذلك .

أما النعيم والعذاب فهم يعتقدون أنها أمور معنوية محضة ، فالنعيم شعور بسعادة وصفاء والعذاب شعور بألم وتندم .

أما الاديان فقد أرشدتهم تلك الكائنات إلى ما يكاد يوافق الاسلام بأن حذرتهم من عصيان العقل والتعداد فى ذات الصانع تقدس وعلا وأمرتهم بترك الظنون والاوهام فى العقائد وارتهم ان الوحي حق والانبياء

حق بلا تفرقة بينهم من تكذيب أحدهم وتصديق الآخرين وأريد بهذا أن كثيرا منهم آمن بخاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم وهذا ما نعتقد انه أحسن نتائج الاسبرنتزم وسنترجم لكم ان شاء الله فى الجزء المقبل تفصيلات جليلة فى شأن قربهم الى الاسلام وايمانهم بنبينا عليه الصلاة والسلام

النبوة ليست اكتسابية

ورد الينا من حضرة الأديب محمد أفندى كامل بتفتيش الرى باسكندرية خطاب يقول فيه : « اطلعت بصحيفة ٢٦٥ من كتاب حياة خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم على مايفيد أن الروح الانسانية اذا تجرد صاحبها عن الاشتغال بالماديات أمكنها أن تستقى معلوماتها بدون وساطة المشاعر . اليس فى هذا مما يقوى مذهب القائلين بأن النبوة مكتسبة ؟ فنجيب حضرته :

الوجود مراتب كثيرة لا تتناها تعلو وتسفل على حسب مرتبة الشخص من قوة الروح ونور الحياة . اذا نظرت الي صنوف الحيوانات واستعرضت مراتبها من أول الكائنات المكونة من خلية بسيطة الى الحيوانات الثديية التى فى قمتها القردة ترى من الفرق بين هذه وتلك فى الاحساس بالوجود والشعور بذاتها مايطوح بالانسان الي القول بأنها وان كانت على سطح كوكب واحد تنعشها شمس واحدة وتظلها سماء مشتركة الا أنها فى وجودات مختلفة وعوالم متباينة . وشتان بين حيوانين هذا عبارة عن خلية بسيطة تغتذى بتمثيل مايحيط بها من المواد الرطبة ولا أعضاء لها البتة ، وهذا له أعضاء وأجهزة وفكر واختيار وارادة كالقردة مثلا . لا شك ان الفارق

بين هذين الحيوانين كبير جدا لدرجة تسمح لنا ان نقول ان كلا منهما يشعر بالعالم على صفة خاصة به . الأول لاحظ له منه الا الاحساس المجرد بألم أو راحة ولا نصيب له مما فيه من النعم الأخرى ، اما الثانى فقسطه منه اكبر بكثير على قدر مامتع من اعضاء وماسيقت له من اغراض وما متع به من قوى ومواهب . فان من لم يخلق له لسان لا يتمتع بلذائذ الطعوم ، ومن لم يوهب انفا لايكون له حظ من زكيات الروائح الخ ثم لو صعدت من عالم الحيوان الى عالم الانسان واستشرفت سائر اعضائه واجزائه ومواهبه وملكاته وقواه لتحققت ان حظه من الوجود وشعوره به يجب أن يكون أكبر مما لغيره ثم ان ادراكه لاسراره الصميمة والمامه بلطائفه يلزم أن تكون أعلى مرتبة مما منح سواه من ذلك لدقة تلك الاعضاء وتنوعها وقيامها على نظام أكمل مما للحيوانات منها ، ولسعة سلطان مواهبه و بعد مدى قواه أيضا .

هذا بالنسبة للحيوانات والانسان ، اما لو استعرضت أصناف الانسان نفسه وتأملت فى ذلك المتوحش (الهوتانتوتى) مثلا في جهله وعمايته عن الوجود واكتفائه بما يكتفي به الحيوان من أكل ورق الشجر واللحم النيء والاعتصام بذري الاشجار والجبال ثم تركته وتأملت في فيلسوف من المعاصرين لنا أو من الذين سبقونا بالايمان لرأيت فرقا واضحا جدا ربما حملك على أن تقول ان هذين الانسانين وان كانا فى وجود واحد الا أنهما في عالمين مختلفين للغاية . كيف لا وذلك ان نظر الى السماء ظنها خيمة معتمة فيها شرر منثور على غير نظام و ربما لا ينظر اليها ولا يتفكر فيها . أما هذا فينظر اليها وله عليها من حقائق العلم ما يملأ كتبا وله من نتائج سبح فكره فى مناحيها ما لا يستطيع التعبير عنه بالالفاظ المصطلح عليها ، هذا عدا عماله

على كل شيء من أشياء وجوده من العلم المناسب والفكر الواجب .

هذا كله بالنسبة لعالم الاجساد اما عالم الارواح اى العالم الذي وراء هذه المادة ولانريد بقولنا وراء هذه المادة ان له حيزا وراء هذا الحيز ، كلا وانما نريد بوراء المادة الوجود الذى هو ارقي من المادة والمتسلط عليها كتسلط الروح على الجسد فان مراتب الناس فيه تختلف كاختلافهم من مراتب عالم الجسد بل اكثر . وكما اننا مرتبطون بعالم المادة بآلات وأعضاء تمكننا من الاحساس به وادراكه ولاحظ لنا من التمتع بالشعور به الا على قدر ما وهبنا الله من قوى تلك الاعضاء والآلات ، فكذلك لنا ارتباط بعالم ماوراء المادة من جهة روحنا التى هى نفحة منه ولا نصيب لنا من التمتع بالشعور به الاعلى قدر ما منحنا الخالق من نقاء جوهرنا وصفائه . وكما ان القصير النظر والكليل الأعصاب لا يستطيع ان يغير فى خلقه فيهيب بصره وأعصابه قوة فوق قوتها لزيادة متاعه بالعالم المادى فكذلك ليس فى حولنا ان نزيد فى نقاء معنانا الانساني وان نذهب به الى ابعد مما خلق مستعدا له لزيادة تمتعنا بلطائف ذلك العالم ، فكل انسان مرغم على الوقوف حيث وقف به استعداده الفطرى وانتهى عنده مبلغ قوته . فان قلنا بعد هذا ان الانسان بتجريد نفسه عن الشواغل يستطيع أن يعلم علما لادخل لحواسه الظاهرة فيه هو مثل قولنا ان الانسان لو راقب الكواكب وتأمل فى حركاتها يستطيع ان يوجد لنفسه بذلك علما لأن الانسان ممتع بكلتا الخاصتين على السواء ، ولكن لما كان الانسان برصده الكواكب لا يستطيع ان يزيد فى موهبة تصوره الفطري فيذهب به الى أبعد مما أعدله عقله ، فكذلك لا يستطيع ذلك المشرف على عالم ماوراء المادة ان يتجاوز المقام الذي قيس على استعداده . فالانبياء

عليهم الصلاة والسلام أفراد من النوع الانسانى يهبهم الله استعدادا خاصا للسبح فى عالم ماوراء المادة يشرفون به على ماتنقطع دونه انفاس اكبر العزائم وتحسر أمامه عين أعظم البصائر وليس امر هذا الاختصاص بعجيب فان أمام اعيننا رجالا متعهم الله بقوة عضلية لايكاد يتصورها الا من يراهم ، فان كان لايمكن التردد فى ان هذه القوة الهائلة موهبة خاصة لايستطاع كسبها بوجه من الوجوه فاى غرابة فى ان أمر النبوة وهى قوة روحانية من المواهب الخصوصية التي يمتع الله بها افراد من النوع الانساني ليهدوهم الى أقصد المناهج وليحملوا اليهم أنوار الحقائق وأسرار الشرائع . ولاندرى كيف غفل عن مثل هذه المحسوسات أولئك الذين زعموا ان النبوة مكتسبة ؟

(من أين جاءنا الفساد الاجتماعى)

نحن ببحث هذا الموضوع إنما نريد أن نخترق بمسبار الفكر والروية الظواهر العرضية التى تتراآي للناظر فى صورة الامراض والعلل وهي ليست إلا أعراضاً تتغير وتتطور على حسب تغير المرض وتطوره مما لوصرفنا السنين فى درس أشكالها وأحوالها لما وصلنا بعد هذا الجهد الناصب إلا لمثل ما يصل اليه من تزدهيه الألوان الخلابه التى تأخذها السحب عند غروب الشمس أو شروقها فيصرف عمره فى درسها وهو غافل عن أسبابها التى تولدها . لاجرم أنه يظل يبتني النظريات ويدعمها ويبتكر الأسباب ويؤيدها ثم يرى نفسه مجبراً على هدمها وبناء غيرها كلما دله حسه على فسادها حتى يضيع عمره سدي أو يعيش قانعاً بما حصله على غيرهدي. ولكن هذا الباحث لو اهتدى بفكره أن لكل ظاهرة سبباً طبيعياً أوأسباباً

أولو سأل أهل الذكر من الذين أفنوا أعمارهم قبله فى درس الظواهر الطبيعية وعلم بهذه الواسطة أن أشعة الشمس واختلاف كثافات السحب هى السبب الاصلي فى احداث هـذه الالوان الباهرة واستعان على فهم ذلك بالرجوع الى نظريات الضوء وانكسار الاشعة وألوان الشمس لرجع ظافرا بمراده ، فرحانا بفوزه فى اجتهاده وان كان كلفه ذلك أن يصرف عمـره فى درس علم الطبيعة و ينزل إلى درجة صغار المكاتب فان ذلك أولى له من التفيهق بغير عرفان و وزن الاشياء بغير ميزان . يكتب الكاتبون و يصيح الخطباء المفوهون ، باننا مصابون بعلة أو بعلل اجتماعيـة تمنعنا عن الاسـتقامة على طريق التقدم والمدنية وتجعلنا غرضاً لسهام المطامع الاجنبية . يقولون ان تلك العـلة ألمت بعواطفنا فقتلتها ، و بأحساساتنا فاطفأتها ، و بحميتنا فاخمدتها ، و بارادتنا فسلبتها ، وحاصرتنا من مكان قريب حتى جعلت اليأس صفة من صفاتنا ، وصيرته جزءا من طبيعتنا ، وقد أثمر فينا ثمراته المعهودة كالتبرؤ من الجنسية والتقليد للاجنبي والبـذخ والسرف والترف والأثرة والتخاذل والتنابذ الخ الخ من الاعراض التى هى لوازم الياس ومقتضياته ثم ماذا ؟ ثم نقول ان ذلك من عـدم الدين . من عدم الفضائل . من عدم التربية . من عدم التناصر . من عدم التعاطف . من عدم الغيرة . من احجام الاغنياء عن البذل . من قعود العلمـاء عن الارشاد . من سوء سياسة الامراء . ثم ماذا ؟ ثم نقول يجب ان نكون متدينين . . فضلاء . . متربين .. متناصرين . . متعاطفـين . . غيورين . . باذلين . . مرشـدين . . سائسين . . ثم ماذا ؟ نعيد مابدأناه ونبدأ ماأعدناه ولانزال نطوى مانشرناه ، وننشر ما طويناه حتي سئم القارىء والكاتب ، ويئس السامع والخاطب ، وأصبحت النصيحة والهذيان فى مستوى واحد فاغرانا ذلك على ولوج باب

جديد وذلك اننا أبدلنا النصائح بالشتائم ، واستعطاف العزائم بسرد الذمائم ، وتشهير المآثم ، حتى صرنا لا نعد الكاتب نحريراً ، ولا الخاطب شهيراً ، الا اذا ذهب في القذع كل مذهب ، واسهب في شرح المقاذر واطنب ، حتى أنست الاسماع بالثلب واستنامت الافئدة للشتم والسب ، وفقدت الامة بهذا الضرب من التهذيب حرارة الحمية ، وحماسة الرجولية ، فنشأت بين ظهرانيها جرائد لامادة لمقالاتها الا الطعن والهمز ، ولا روح لنصائحها الا الغمز واللمز ، فتري الناس يتحلقون لجريدة من تلك الجرائد فيتلوها عليهم واحد منهم وقد حوت من أنواع الفحش والتقبيح ، بكل تلميح وتصريح ، مايستفز الحمية ، ويقدح فى زند العزيمة ، ولكن الناس لاعتيادهم سماع المقاذر ينشطون القارئ بالثناء على الكاتب ، والترنح لحسن ترادف المثالب ، ثم يقول أمثلهم لقد بل فلان الغليل ، وجاء بما يشفي العليل ، وهلم جرا ، وبذلك فقد فعلنا بالامة بكتاباتنا هذه مالم تفعله ظبي أعدائنا باعناقنا ، ولاختل مناقيينا بمعاقد اجتماعنا ، مع أن وظيفة التحرير ترقيق الاميال ، وتلطيف الشعور ، واحياء الغيرة والحمية وايقاظ الفتوة والرجولية ؟ لا ثلم العواطف ، وتغليظ الاحساسات ، واطفاء الحماسة ، وتعويد النفوس على لاستنامة للشتائم ، وهذا الامر الجليل سببه فيما أرى دائماً اسناد الامر الى غير أهله فان كل من استطاع عندنا ان يكتب العربية صحيحة لا يتأخر عن ندب نفسه لارشاد أمته ، ونعشها من وهدتها ولو كان كل من يكتب بلغة صحيحة يليق لهذا المنصب الخطير اللاق بكل انجليزى ان يكون عمرانياً ، وبكل فرنساوى أن يكون اخلاقياً ، فان أكثر القوم يكتبون لغتهم بغير غلط ، ويستطيون ان يتكلموا فى كل ضرب من ضروب الكلام ، لكن اهيهات ، ذلك منصب يعد أهله على الاصابع ولا يبرز فيه الا الشاذ النادر

فالباحث العمراني فى هذه البلاد قبل أن يفكر فى تاسيس نظرياته وسرد تعاليمه يجب عليه أن يعد الاذهان لقبولها و يهيئها لاحلالها من الافئدة في محلها اللائق بها ولا يتاتى له ذلك الا بتخليص الافكار مما علق بها من تلك المدركات المتناقضة والمبادى المتعاكسة التي نقشها في اذهان الجمهور أولئك الكتاب في مدى سنين كثيرة فانا لم نعلم بلدا من البلاد سهل على أهله بأسرهم معرفة الداء والدواء غير بلادنا كما لم نعلم بلدا من البلاد لم ينتفع بعلمه مثل بلادنا . والناظر البسيط لهذا التناقض المدهش يتاكد ان ذلك الداء لو كان هو الداء بعينه وان ذلك الدواء هو الدواء الشافي منه حقيقة لنلنا اليوم من الصحة ما نرتجي ، فانه لا يتصور ان يتحمل المريض مضاضة الداء ولاعج العلة ، والدواء بين يديه لا ينظر بعينه اليه ، ولا يعول عليه . هذا ضد الطبيعة . هذا خلاف المحسوس . هذا قلب لنظام الوجود . هذا خرق للعادة . اذن فليس ذلك الداء داءنا ولا ذلك الدواء دواءنا .

اليك مثالا يريك كيف اننا من تشخيص دائنا فى خلط عظيم ومن وصف دوائنا فى خبط جسيم . يقولون مثلا ان داءنا (عدم الاتحاد) ودواؤنا هو (الاتحاد) وانا لا اقول اننا لسنا بمصابين بعدم الاتحاد وان من اللازم لنا الاتحاد ولكنى أقول ان عدم الاتحاد ليس هو مرضاً بذاته بل عرض من الاعراض الكثيرة وان اردت ان تعرف كيف اننا واهمون فاليك : ان كان عدم الاتحاد هو الداء والاتحاد هو الدواء فما المانع عن الاتحاد ؟ هل حسن لدينا البقاء على مضاضه المرض وهان لدينا ان نكون لقمة سائغة للامم . يقولون ان عدم اتحادنا ناشىء من سوء التربية وعدم العلم نقول اذن فقد سقط قولنا بان داءنا (عدم الاتحاد) ولزمنا ان نقول انه عدم التربية . ومع ذلك فنحن نجارى المعترض فى فكره ونساله هل

نحن اقل تربية وعلماً من سائر الامم ؟ هل نحن اقل تربية وعلماً من العصابات الثائرة فى مقدونيا ؟ اذا كان الاتحاد يتوقف على التربية والعلم لما قام للنوع الانساني اجتماع قط . والحقيقة بخلاف ذلك فقد تشكلت الهيئات الاجتماعية قبل ان ياتيها العلم والتربية . ويمكنك ان ترى لليوم قبائل فى آخر دركات الجهل على احسن مايكون من التئام واتحاد . هذه ممالك افريقية الصغيرة التى يجتاحها المدفع الاوربي واحدة بعد أخرى كلها متحدة ملتئمة لاتشكو غير الجهل وعدم التربية وتراهم يدافعون عن امتهم باقصى مايتصوره العقل من الصبر والثبات ولولا مقذوفات المدافع والبنادق لما استطاع الاوربيون ان يقربو منهم فضلا ان يحكموهم و يأسروهم

وان كنا نعلق وجود الاتحاد على وجود العلم والتربية فكأننا نود ان نجعل كل الأمة فلاسفة لايتحدون الا بعد ان يضعوا المقدمات المنطقية و يستخرجوا منها النتائج الفلسفية مع اننا نرى باعيننا ان العامة اليوم أصبحوا اكثر تماسكا والتئاماً من اكثر الخاصة وقد كان آباؤنا قبل ان تنتشر بينهم المدارس أشد تلاصقاً واتحاداً منا فى هذا العصر . كل هذا يدلنا بالدلائل المحسوسة ان الاتحاد ليس نتيجة العلم ولا التربية بل هو لازم من لوازم الحياة الاجتماعية فى الامة كما ان اتحاد اعضاء الجسم على اداء وظائفها وتعاضدها فى أغراضها نتيجة الحياة الشخصية ليس الا . وبهذا فقد استحالت المسألة الى ادراك معنى الحياة الاجتماعية وكيفية الاتصاف بها وليس هذا الموضوع من اختصاص هذا الفصل فلنتركه لفصل خاص يأتى ان شاء الله فى هذه العجالة فانظر كيف ان وقوفنا من التشخيص مع الأعراض يصرفنا عن الوصول الى لباب المسألة وكيف يجرنا الى نتائج من العلم فاسدة ولئن بقينا الف عام نقول ونكتب بأن داءنا ﴿ عدم

الاتحاد ﴾ وظللنا نداويه بكل الوسائل فلن ننجح فى ازالته مهما كانت مقاومتنا له كما لا ينجح من يداوى الأدواء الجلدية بالادمان وهو غافل عن علتها الرئيسية فى الدم أو فى المعدة فكما ان هذا الطبيب السطحى لا يزيد المريض الا تعذيبا واقتحاما فى المرض ، كذلك لا يكسب الأمه من يداوى اعراضها الاجتماعية الا تغلغلا فى الفساد وتوغلا فى الانحلال فان الدواء ان لم يصادف المرض انقلب سما زعافا ، وصار مادة تقوى الداء وتمده . وان شئت ضربنا لك الامثال وحشرنا لك الاشباه والاشكال .

نظن أنه لايخفى على واحد من قرائنا ان أعضاء الجسم الحى مرتبطة بعضها ارتباطا عجيبا ووظائفها متعلقة ببعضها تعلقا مدهشا حتي انه قد يشكو الانسان باحتقان في عينه يكون سببه امساك فى معدته بحيث انه لا يستطيع دفع ذلك الاحتقان مهما داواه وعالجه الا بازالة الامساك ، وقد يشكو بصداع في رأسه وتكون علته برودة أصابت قدميه ، وقد يتوجع من ضرسه ويكون مثار وجعه برد أصاب جسمه فيكون علاج الضرس الوحيد تعاطي سلفات الكنين حتى ان الانسان ليندهش من هذه العلاقات البعيدة ولا يسعه الا التسليم بها عند مايرى النتائج مطابقة للمقدمات وهكذا الشأن فى الامراض الاجتماعية ، بل ان تفرعات تلك الامراض وشعوبها تكون أشد ارتباطا وتداخلا بما لايدخل تحت حصر فنحن ان ذهبنا فى تشخيص بعض أدوائنا مذاهب لاتتفق مع ماهو معروف فى العادة فلا نقصد بذلك الاغراب وحب التفرد بالرأى وانما نقصد أن نكون موافقين لعلم العمران متبعين سمته والا فلا فائدة من حشو الصحف بالكلام الذى رددته الناس سنين عديدة ولم يكن من أثره غير اللوث فى الاذهان والخبط فى المدركات .

عنوان موضوعنا اليوم (من أين جاءنا الفساد الاجتماعى) وهو بحث عويص جداً ان اردنا ان نصعد الى جرثومته الاولية وليس هنا موضع هذا التحليل، واما ان رمنا ان نصل الى سببه القريب الذي يقتضيه الموضوع الذي نحن بصدده وهو دستور التعليم فالامر سهل ونستطيع أن نجمله فى لفظتين وهو ان سبب فسادنا الاجتماعى الخاصة . واليك البيان .

كلف الناس فى هذه الأيام بذكر البدع التى انتشرت بين المسلمين والخرافات التي نمت وانتشبت فى أذهان العامة من الامة وينسبون لها كل مانحن فيه من هبوط وتأخر ونحن أولا لا نوافق القائلين بأنها علل يجب مداواتها بل نقول انها أعراض لعلل أخرى ان لم نعرفها ذهب تعبنا أدراج الرياح كما يذهب تعب كل من يداوى الفروع ويترك الاصول . ثانياً اننا لا نقر على أنها سبب هبوطنا وتأخرنا فان البدع فى الدين والخرافات منتشرة فى جميع الامم بل أكثر الامم على دين باطل هى الوثنية بعينها فلو كانت البدع فى الدين تؤخر الرقي فى الحياة لما تقدمت أمة اليابان فى ميدان المدنية ولا قيد شبر . وقد نص القرآن على ذلك فقد قال تعالى « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون اولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ماصنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » . ثالثاً اننا لا نوجه اللوم فى هذه البدع على العامة بل على الخاصة فانهم مادتها وجرثومتها وهم الذين ورطوا العامة فيها تورطاً قسرياً . وإذا أردت الدليل فأسرد إلى أشخاص البدع التي تغالي في تقريع العامة عليها ونحن نثبت لك أنها من افاضات الخاصة عليهم . ان قيل ألا ترى أن العامة قد أصبحوا يؤلهون الصالحين وينسبون لهم مالا يصح نسبته الا لله تعالي وأنهم قد أولوا الدين على قدر عقولهم فأدخلوا اليه ماليس فيه وأخرجوا منه ماهو عنصر من عناصره

الكريمة . نقول ان سبب ذلك الخاصة فانهم هم الذين أبتنوا المقاصير على القبور وهم الذين رفعوا عليها القباب وهم الذين زخرفوا المساجد حتى جعلوها أشبه بسرايات الملوك وهم الذين وقفوا عليها الاموال الطائلة وهم الذين سنوا المواكب والاحتفالات الدينية وهم الذين قعدوا عن ارشاد العامة الي حقيقة الدين . يشكوا الناس من سوء حالة خطباء المساجد ووعاظها و ينددون بهم غاية التنديد و يغفلون عن المسئولين عن ذلك ، أليس هم الخاصة الذين يصرفون عشرات الالوف من الجنيهات في إقامة حوائط المساجد واضاءتها بالكهربائية و يضيقون على الخطيب والواعظ فلا يعطونهما الا ما يرضى به غير العجزة والزمنى من الفقهاء ؟ من الذي قلب حقيقة الدين فجعله فى إقامة القصور على القبور بدل تعيين الأئمة المرشدين والوعاظ الكاملين غير أهل الخاصة من هذه الأمة ؟ من الذى علم العامة امتهان الدين؟ من الذى علمهم احتقار الوطن من الذى علمهم البذخ والسرف من الذى علمهم التقليد الاعمى ؟ من الذى علمهم تأليه الاجنبى ؟ من الذى علمهم الرضوخ والاستسلام للذل والاستكانة ؟ أليس الذين علموهم ذلك بالفعل وبالقدوة هم الخاصة ؟ ماهذا الضرب من الجبن الادبى ؟ ماهذا القلب لنظام الحياة ؟ كيف ننسب فساد الشرق الى عامته دون خاصته ؟ وهل أفنى الرومان وقدماء اليونان ونسف صروح الدول ذوات الشان غير الخاصة ؟ « وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بانفسهم » انا لسنا من أعداء العلم ولا يخطر ببالنا يوما من الايام أن نثبط حركة التعليم ولكننا مع ذلك نقول ان كل حركة لايكون لها وجهة ولا هى مقودة بحكمة وروية تؤدى الى ضرر عظيم فى المستقبل مهما كان ظاهرها حسناً فى الحال . ومن الذى كان يجسر من أهل البصر فى الاجيال التى

كان التنافس بالغاً حده في اقامة جدران المساجد والقباب وزخرفتها وبذل القناطير المقنطرة في أثاثها ورياشها ؟ من الذي كان يجسر في تلك الاحيان أن يقول لاولئك المتبرعين انكم انما تبتنون صروحا لايقاع العامة في اشراك البدع وتبذلون أموالكم لاحالة الدين إلى العبادات الصورية كما حصل في كل الامم السالفة التي اعتاضت عن جمال العقيدة بجمال جدران المعابد وعن نور الايمان بانوار الهياكل ، حتي جهلوا شعائر الدين أشبه باحتفالات الولائم ، وأقرب لاجتماعات المآدب ، لشدة ما تلتهي الاذهان بالنقوش والزخارف ، وما يشطح الفكر في التأمل في سجوف المنافذ وابداع المنابر . مع أن القصد من تلك الاجتماعات كان تجديد العقل من ملهيات العالم المادي . وتخليصه من فاتنات المظهر الطيني والذهاب بالروح على أجنحة ذلك الاجتماع المندمج الى باب الرحمة القدسية لتطرقه بيد التجرد والعبودية الخالصة لترجع الى عالمها بنور من عالم القدس يثبتها في جهادها ويقيمها على صراطها ويحميها عن فتن الدنيا ومداحضها حتى إذا أدت وظيفتها في هذه الحياة عرجت الى عالمها بتلك القوة التي اكتسبتها ودخلت من جنان الفيض الالهي في الحال التي أعدت لها . من كان يجسر أن يقول هذا لاولئك الذين صرفوا أموالهم لالهاء الاعين والقلوب بتذهيب الجدران وصبغ الحيطان كان لا شك يرمى بالالحاد ويوصم بأنه من الساعين في الارض الفساد وانه ممن يمنع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ولذلك نحن اليوم بازاء حركة من الخاصة يتدافعون بها منافسة في فتح المدارس وهي في الجملة حركة نبيلة ومرام شريفة ولا يتصور أن يوجد من توسوس له نفسه بتثبيطها أو ايقافها ولكنا نرفع صوتنا ولا نخاف لومة لائم بأن هذه الحركة ان لم يكن الحكمة رائدها والروية الثاقبة قائدها فتكون فتنتها أنكاء الفتن على البلاد ، ومحنتها أنفذ المحن في العباد . ولكن ربما لا نكاد نقول هذا حتي تتسارع الينا الافكار وتتركز علينا أشعة الانظار عجباً من

هذا القول العجيب واندهاشاً من هذا الفكر الغريب ، وسيذهب كل ناظر الى حيث يقوده ضميره ، ولكننا لانؤبه لمثل هذا القيل والقال مادمنا نريد تقرير حقيقة عمرانية كبرى يعدها الجاهل اليوم بدعة وغدا يجعلها عقيدة وشرعة .

نعم إن لم تكن حركة التنافس فى فتح المدارس مقودة بيد الحكمة والروية لانقلبت شر الشرور ولاً نتجت أعظم الامور وإذا أردت الدليل فاليك التفصيل .

(الجبروت والملكوت والناسوت واللاهوت)

سألنا حضرة الوجيه السيد ناصر بن سليمان بن ناصر بدار السلام بزنجبار عن معانى الجبروت والملكوت والناسوت واللاهوت فنجيب حضرته :

(الجبروت) صيغة مبالغة معناها العظمة والكبر والقدرة والسلطة

(الملكوت) العز والسلطان والملك والعظمة . وهو مشتق من الملك

(الناسوت) طبيعة الانسان ، قيل انها لفظة سريانية

(اللاهوت) أصله (لاه) بمعني اله زيدت فيه الواو والتاء مبالغة كما زيدتا في جبروت وملكوت وقيل هو لفظ سرياني

أما مايجىء فى مباحثنا من مباحثنا « عالم الجبروت » « عالم الملكوت » فانا نقصد بالاول عالم الجلال الالهى الذى لايصله ملك مقرب ولا نبى مرسل فهو سر الاسرار الوجودية ، وكنز الكنوز الغيبية ، مثل الملائكة المقربين بازائه كمثلنا نحن في عدم العلم به ، وانحسار التصور دون سرادقات عزه وحظيرات قدسه ، وقد روي عن النبي صلي الله عليه وسلم ، حديث فى هذا المعني وهو (ان الله احتجب عن العقول كما احتجب عن

الابصار ، وان الملأ الاعلى يطلبونه كما تطلبونه أنتم »

أما الثانى وهو عالم الملكوت فنريد منه فى كتاباتنا عالم الارواح المجردة ومسرح القوى الروحانية ، فهو بالنسبة اليها مثل عالم الشهادة بالنسبة الينا ، وهو عالم ينتهى اليه كل انسان بعد خلعه هذا الجسد ويستطيع الاحياء أن يشرفوا عليه اشرافاً وقتيا فيرون منه مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فيعرفون بتلك الواسطة من الامور الروحانية ، ويجدون فيه أكبر تسلية فى متاعب الدنيا وويلاتها وتوالي أحداثها ومصائبها فلا يؤبهون للحياة ، ولا يحرصون عليها هذا الحرص الشائن ، ويرنون للدنيا بالعين التى تراها على حقيقتها أى دار بلاء وامتحان ، وفرارة أكدار وأشجان ، وان حفت بنا الكبرياء من كل مكان ، وطرنا فى الهواء الى سائر البلدان ، وسكنا قصور اليواقيت والمرجان ، وانه لو اجتمع دكاترة العالم كله مع أكبر كباوى العصر على أن يركبوا على أدق الآلات الصناعية بألطف التيارات الكهربائية على أشعة (رنتجن) اكسيرا يشفي أعظم ملك فى أكبر أمة متمدنة من ظلمة الالحاد لما استطاعوا الى ذلك سبيلا : « ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » .

﴿ الصلاة والصيام فى الاسلام ﴾

مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

إننا قد سبقنا الكلام فى هذه المجلة على عمرانيات الاسلام ومافى اتباع أصوله من السعادة المادية على حسب مقتضيات الحاجات العصرية ولم نلم بما يختص بالروحيات فى هذا الدين المبين الا الماماً لا يشفى علة

ولاينقع غلة . فرأينا أن نعقد في هذا العدد مقالة من تلك المباحث النفسية لمناسبة حلول شهر الصوم الجليل ترغيباً لاخواننا في مداركة أرواحهم باعطائها بعض حقوقها المهضومة وباتقاء الله فيها فانها أحق بالتفاتهم من ذلك الجسم الفانى فنقول والله المستعان : لامشاحة فى أن الانسان مركب من شيئين متباينين أحدهما مادى كثيف مستمد وجوده من أجزاء هـذه الطبيعة المحسوسة يقال له الجثمان والآخر معنوي لطيف مستمد وجوده من النور الالهي مباشرة يقال له الروح ، وهما متحدان ببعضهما اتحـاداً مؤقتاً على حسب قانون ثابت وموازنة محكمة يقف العقل أمامها مبهوتا .

أما الجسم المادى فهو مركب من البسائط الأرضية وتسري عليه أحكامها فهو لاشيء غـير مادة عضوية مركبة من خلايا تشبه خلايا الحيوانات بل والنباتات أيضاً . فالناظر اليه يحكم عليه بالفناء عاجلا أو آجلا ونعنى بالفناء هنا استحالته الى أجزائه البسيطة وذهاب كل من هذه الأجزاء الي حيث أتت من أشياء الطبيعة . وأما تلك الروح النورانية فليست مركبة من بسائط أولية حتى يحكم عليها بالفناء أي بالاستحالة الى تلك البسائط بل هى باقية بقاء سرمديا وتابعة لنواميس خاصة بعالمها مما لانخوض فيه هنا الآن ولكل من الجثمان والروح مطالب تناسب طبيعة كل منهما ودرجته فى مراتب الوجود . فالجسم لا يفترق عن كل أنواع المـادة فى قبوله للنقص والزيادة والضعف والقوة والتركيب والتحلل ولذلك فهو محتاج الي مقومات تقومه من نوعه كالغذاء والمسكن وغير ذلك مما يحفظ شخصه ونوعه . وأما الروح فليست مطالبها من هـذا القبيل فهى تواقة لمقاوم الشرف المعنوى ومنازل الـكمال الادبي . طالبة لأن تلم بأسرار الملكوت كله وتدرك صميم عالم الشهادة وسائر عوالم الغيب ، مغرقة بالاحاطة الـكلية . بجميع أشخاص

الحقائق جليلها وحقيرها صغيرها وكبيرها وتشعر من نفسها بالقابلية لذلك الراقى اللانهائى شعوراً فطريا كأنه لازم من لوازم جوهرها السامى .

اذا كان شأن الروح الانسانية كذلك وكان هـذا الرقى العقلي الذى حصله الانسان من يوم نشأته للآن يدل على استعدادها لتناول أسرار هذا الملكوت غير المحدود فما الذى يمنعنا عن بلوغ أمنيتها هـذه و يضع العقبات أمام رقيها الى عالم الكمال الذى تحس به وتتضرم شوقا اليه ؟ ماالذى يصد بعض الناس حتى عن التطلع الى هذه المنصات العالية و يجعلهم يتسفلون الى مشاكلـة الحمر الوحشية فى نزواتها والهاجات من النعم فى خستها ودناءتها ؟ ولماذا لايكون الناس كلهم بمنزلة واحدة والعلم والمعرفة فيتضافرون على قطع مفاوز تلك العقبات التى تحول بينهم و بين تلك الحالة السعيدة ؟ هل هناك شيء يعارض الروح فى سلطانها و يناوئها العداوة فى مملكتها ؟ نعم قضت حكمة الخالق (ليتم الابداع الذى أراده) أن يجعل الروح والجثمان فى تصارع مستمر فأيهما غلب سادت على الشخص أحكامه وسرى عليه نفوذه وسلطانه ، ولذلك تجد من الناس من غلبت عليه مادته فصار لا يفتكر الا فى أشباع شهواته بكل الطرق و بكل الوسائل ، ولوى عن مطالب روحه كشحاً ، ومنهم من سادت عليه روحه فمحض نفسه للرقي المعنوى من طريق الباطن وضرب بسعادة مادته عرض الحائط . و بين هذين الطرفين مراتب متفاوتة لايكاد يحصرها قلم ولا يجمعها استقصاء .

أى الطرفين يارى قد أصاب المرمى ؟ الذى محض حياته لاشباع نهم جثمانيته أم الذى أوقف نفسه لمشتهيات روحانيته ؟ لاجرم أن كليهما قد أخطأ واليك البرهان : أما أمر الجثمانية فظاهر لانهم لايجنون عادة من الجري فى أعقاب الشهوات الى الخسران وكفي بمثالهم واعظا لمن يريد أن ينتهج

منهاجهم ، وأما الروحيون فليسوا بأقل استحقاقاً للوم من الاول فان اضرابهم عن الماديات هضم لحقوق جثمانهم وتعطيل لنظام ارادة الله أن يتم فى هذا الوجود فانه تعالى قد سخر كل هذه الطبيعة للانسان واستخلفه عليها وليس مثل هؤلاء الا كمثل رجل أودعه آخر بستانا له ليستغله وينتفع به فغلب عليه الورع فهجر الحديقة المودعة اليه حتى تصوحت أزهارها وماتت أشجارها وجفت أنهارها وأصبحت قاعا صفصفاً تأويها الافاعى ، وتسكنها الوحوش الضوارى . كلا . ليس فى طرف من هذين الطرفين مثال يجوز للانسان احتذاؤه لان في كليهما عصياناً لامرية فيه لخالق الطبيعة ومبدعها وتعطيلا لنظامها . اذن يجب اختيار خطة الاعتدال والتوسط : فنعدل مع جسومنا فنكملها ونحفظها ، ومع أرواحنا فنهبها أمانيها مع عدم الاجحاف بمطالب المادة . هذا هو الكمال الانسانى الذى مات الفلاسفة دون الوصول الى تحقيقه وهذا هو غرض الاسلام ومرمى نظره . قال الله تعالى : « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة » وقال سيد الأنام صلى الله عليه وسلم (ليس خيركم من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه بل خيركم من أخذ من هذه وهذه)

اذا تقرر هذا نقول لما كان الجسم يحتاج في قوامه وحصوله على تمام سعادته الي نظام خاص يتبعه الشخص فى مطالبه الكثيرة مما سمى بقانون الصحة الذى تكفل الأطباء بسن أصوله وفروعه ، كذلك تحتاج الروح لقانون تسير عليه فى جريها وراء مطالبها العالية حتي لا تصادف أمامها من العقبات مايحول بينها وبين عروجها الى المنازل التي تشرئب اليها . وهذا القانون يسنه الله تعالى بنفسه بواسطة أنبيائه على حسب قابلية كل زمان ومقتضياته . وليس ماجاء فى الدين الاسلامى من أنواع العبادات بصعب

التفسير على من أحياه الله بالعلم ونور بصيرته بالمعرفة وذلك أن العبادة الاسلامية يمكن تقسيمها الى قسمين : عبادة اجتماعية وعبادة شخصية . فالاجتماعية كالزكاة والحج وغيرهما مما تعم فائدته الشخص وسائر أفراد جمعيته وسنتكلم على ذلك إن شاء الله فى فصول أخرى . وأما العبادة الذاتية فهي كالصلاة والصوم وهما اللذان نريد أن نتكلم عليهما فى هذه المقالة بايجاز مناسب فنقول : لما كانت الروح كما قلنا مستمدة وجودها من النور الالهى مباشرة فلا يجوز لصاحبها أن يجعل جسمه الكثيف حجاباً غليظاً بينها و بين محتدحياتها ، بل يجب عليه أن يعرضها آنا فآنا لفيوضات ذلك النور الأقدس حتي تكتسب نشاطاً جديداً وتقوى على مصارعة مقتضيات الجسد فلا يكون له عليها سلطان كما هو شأنه عند كثير من الناس حتى صاروا أقرب الى الحيوانية النازلة منهم الى الانسانية الكاملة . ولذلك جاءت الديانة الاسلامية آمرة بالصلاة وهى ليست شيئا سوي تخلية الفكر من الشواغل المترددة عليه والتوجه بالقلب الي الله مباشرة توجها صحيحا بتعطش تام لتتمكن الروح من قبول الامداد القدسى مباشرة فتكتسب حياة جديدة طيبة تستطيع بها أن تكبح جماح شهوات البدن فترده الى نقطة الاعتدال وتذوده عن موارد الضلال ، والي هذا يشير الله تعالي بقوله « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » و بناء على هذا فالصلاة بالنسبة للروح يمكن تشبيهها بالغذاء بالنسبة للجسم . ولما كان لا يجوز للانسان بوجه من الوجوه أن يحرم جسمه من الغذاء حتى يموت جوعا كذلك بل بالاولى لا يجوز له أن يهمل روحه من غذائها الروحانى حتى يتغلب عليه صفات الحيوانية و يضارع الوحش فى حياتها البهيمية فلا ينفعه بنطلونه المزركش ولا قميصه الملمع ، ومن الاسف أن نرى أكثر

الناس لايأتون الصلاة الامن قبيل العادة فلا يلاحظون هـذه الحقائق الساطعة فيدخلون المحراب وصدورهم مفعمة بأنواع الشواغل ، ويخرجون منه وقد كسبوا الويل والثبور كما قال الله تعالي « ويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون » ومن الناس من يبتديء فى الصلاة بعد هجرها طول حياته ولا يلاحظ ماقلناه من التجرد والتخلى فلا يذوق لها أدنى لذة فيتركها ويستمر على لغوه ولهوه حتى يأتيه القدر المحتوم وهو على أسوأ حالة بهيمية نعوذ بالله من عدم التبصر فى أسرار الدين .

وأما الصيام فهو بالنسبة للروح كالرياضة السنوية بالنسبة للجسم وذلك أنه لما كان قانون الصحة الجسمية يحتم على كل عامل يريد حفظ صحته أن يريض نفسه شهرا كاملا في السنة يقلل فيه من غذاء النفس (أى الاشتغال بالعقليات) ماأمكن كذلك قانون الصحة الروحية يحتم على كل انسان أن يقلل شهرا فى السنة من غذاء جثمانه ولما كانت حجة أطباء الاجسام فى ضرورة الاقلال من أغذية النفس وهى المعقولات شهرا فى كل سنة هو لزوم تعويض مافقده الجسم من القوة مدي الاحدي عشر شهرا من جراء اشتغالاته العقلية كذلك يحتج أطباء الارواح بأن القصد من الاقلال من الطعام مدى شهر فى كل سنة هو تعويض مافقدته الانسانية من حياتها من جراء اشتغال الانسان بالماديات فى اثناء العام كله . وليس قصد الاسلام من هذا الاحصول الموازنة بين حقوق الروح وحقوق الجسم حتى يكون الانسان انسانا كاملا معتدل المزاج متوسطا فى مطالب طبيعيته حاصلا على تلك السعادة التي مات غطاريف الفلسفة دون الوصول اليها . أليس من أعجب العجائب أن يعتقد الانسان أن له روحا باقية ثم هو يهمل أمرها ويهضم حقوقها ويمنعها من غذائها ويلتفت الى جسمانه الفاني بكليته

فيهبه سائر حقوقه وزيادة حتى تتغلب بهيميته على إنسانيته فتقوده من لحيته الي مفارقة الخسائس ومعاطاة الدنايا والمقاذر نعم وأعجب من هـذا ألف مرة من يتوهم أن الصيام والصلاة يضعفان البدن ويمنعان الانسان عن مزاولة أعماله . . . وهو وهم فاسد سببه ضعف الاسلام وعدم شعور القلب بلذة الايمان . كيف لايكون قائل هذا واهما وأمام عينه تاريخ آبائه الأول (الذين كانوا أكثر الامم صلاة وصياما ونسكا) يشـهد بجملته وتفصيله بأن عبادتهم لم تزدهم الا قوة ونشاطاً وجداً وجلداً سواء فى استغلالهم لقواهم العقلية أوفى استخدامهم للنواميس الطبيعية . ومن كان فى ريب من ذلك فليرنا أمة من الامم نبتت بين الشعاب الجبلية والصحارى القاحلة الرملية ثم امتدت فى مدى ثمانين سنة الى مالم تبلغه أمة الرومان فى ثمانمائة عام مع علمك بأن (أمة الرومان كانت سلطانة العلم بأسره) . هنا يمكن أن يتهمنا بعضهم بالميل الى الخيالات والشعريات قائلا فى نفسـه : ماهذه الغلواء . كيف يدعى هذا أن العبادة لله تبعث الى المعانى الدنيوية وتسوق للسبق فى باحات المدنية ؟ هل يقصد من العبادة الا لتزهيد في هذه الدار الفانية والترغيب فى تلك الدار الباقية ؟ هذا ماقد يقوله بعضهـم غفلة منه عن أسرار الديانة الاسلامية وذهولا عن عجائبها التى لايحيط ببعضها الا الراسخون فى العلم ونحن لا نتكبد كثير مشقة في الرد على أمثال هؤلاء الواهمين بل نقول لهم بصوت يسمعه كل من كانت له أذن : يارعاكم الله اذا كان الامر كما تظنون وكانت العبادة لم تجعل الا لمحض صرف العقول عن أمور الدنيا فكيف تعللون أفعال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفعال أصحابه رضى الله عنهم من بعده وهم بناة مجد هذه الامة وواضعو أساس عظمتها حتي أسموها على سائر أمم الارض عسكريا واداريا علميا وصناعيا ماليا

وتجاريا وزراعيا بحيث صارت كعبة المعالى والعرفان ومنارا يهتدى بهديها بنو الانسان ؟ أليست هذه النظرة البسيطة تكفى لان ترينا انا فاهمون من آثار العبادة غير ما كان يفهمه أباؤنا فيها ؟ أليست ترينا هذه النظرة وحدها اننا قد عكسنا الامر عكسا كليا لغفلتنا عن التبصر فى الدين والاهتداء بهدى رسول رب العالمين ؟

ليعلم المسلمون أن العبادة فى دينهم لم يقصد بها التذليل والاستكانة بل هي للروح كقواعد الصحة بالنسبة للجسم لكى يحصل التوازن بين طبيعتي الانسان المختلفتين حتي لايكون ماديا محضا ولاروحيا صرفا بغلبة احدي هاتين الطبيعتين عليه فيتجلى فى العالم انسانا كاملا أعنى روحيا ماديا معتدلا فى مقتضيات جوهرية المكونين لشكله البشرى . فيا ليت شعرى متى يلتفت المسلمون الى ذلك السر الالهى الذى هو بين أيديهم بعض التفاتهم الى سواه لينتفعوا به كما انتفع به آباؤهم من قبل حتي لايحشروا فى زمرة المقضى عليهم فى هذه الآية « فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا . » ويا ليت شعرى متى يصغون الى خالقهم الذى لم يزل يناديهم من سماء الرحمة ليخرجهم من الظلمات الي النور قائلا « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق . »

مذهب داروين والدين

جاءنا من حضرة الشاب النجيب أحمد حمدى بك الطالب بمدرسة الطب المصرية خطاب يقول فيه :

« انى لا أكاد اطالع كتابا علميا جديداً ، أو أى بحث من المباحث »

« الفرعية الأخري الا وأجد الكاتب قد اتخذ مذهب داروين قاعدة »
« أساسية له ، أقام عليها ماهو بصدده . ومن يطالع هذا المذهب بامعان »
« ويرى البراهين العلمية المبنى هو عليها فلا يكاد يجد له ردا من جنس »
« اثباته .

« ولقد أردت ان أقف على رد علمى مقنع فلم اعثر على شيء من »
« ذلك ، وغاية ما احتوته الردود عليه هو التقبيح والسب فى أصل هذا »
« المذهب وناشريه .

« لايخلو الحال اذن من أحد أمرين : فاما أن يكون هذا المذهب »
« القائل بترقي الانسان عن القرد صحيحا وعندذلك كيف يمكننا أن نفسر »
« أصل الخلقة كماهو مذكور في القرآن الكريم . واما أن يكون فاسدا »
« فما هى الردود العلمية التي تكون من جنس قضاياه والتي يمكننا الاستناد »
« عليها فى رفض هذا المذهب ؟

الجواب

لم يكن فى عزمنا أن نتكلم عن مذهب داروين فى الملحق لولا أن وجه الينا حضرة أخينا المشار اليه هذا السؤال . فوجب علينا أن نسعفه بكلمة فيه صغيرة تاركين الشرح والتفصيل لكتاب الانسان فان الكلام على مذهب داروين باصوله وفروعه وحقائقه الثابتة ومسائله الظنية سيكون موضوع أبواب كثيرة في مبحث الانسان فهو أليق به وأولى من هذا الملحق .

الحركة الفكرية التى احدثها مذهب داروين فى العالم العلمي الغربى لم تقدر قدرها تماما فى بلادنا هذه ، ولم يعرف متعلمونا عنه الا أنه مذهب علمي من جملة المذاهب الأوربية ، فيلوون الكشح عنه ويصدون عنه صدوداً ، وهم أمامه على قسمين : قسم اعتقد صحته بدون امتحان ولاقياس

فجرى عليه في عقيدته وسلوكه واراح نفسه من حيث تعب الكرام . وقسم علق بذهنه وزاحم نور العقيدة فى فطرته فأحرجه الوقوف عند حد الشك والذبذبة فقام يفحصه ويبحث فيه فان التوي عليه الامر ، واعضل عليه الفهم ، سأل عنه من يتوسم فيه الخير في امثال هذه المواضيع العويصة . وقسم سمع بهذا المذهب وادرك كنه تأثيره علي عقيدته فهرب منه هروبا واقتنع بأن يكون حظه من العقيدة أن يحافظ عليها محافظة صماء بالوهم لا بالحقيقة . لانه فى الحقيقة شاك وانما هو يوهم نفسه أنه معتقد . وعندنا أن أفضل هذه الاقسام الثلاثة القسم الذى اصطدمت مزاعم هذا المذهب فى نفسه وشعر بخطرها على عقيدته فقام يسأل ويباحث ، لايهدأ له بال اولا يقر له حال حتي يقف على الحقيقة الثابتة التى لاجمجمة فيها ، (وماذا بعد الحق الا الضلال)

يقول سائلنا المحترم انه لم يفتح كتاباً علميا الا رأى أن كاتبه قد اتخذ مذهب داروين قاعدة أقام عليها بناء موضوعه ، وشيد علي اسها أركان بحثه . ونظنه يريد بالكتب العلمية ماهو بصدده من كتب الطب ، ولكننا نزيده أننا لم نطالع كتابا فلسفياً ولا أدبياً من الكتب الاوربية الا ونرى أثر ذلك المذهب باديا عليها، ظاهرا فى مقدماتها ونتائجها ، مما لم نعهده لاى مذهب غيره من المذاهب العلمية الاخرى .

كل منا يعلم المجافاة الشديدة التى يتظاهر بها الأوروبيون للاديان الرسمية ، والخشونة الصارمة التى يعاملون بها زعماءها اذا بدا منهم بارقة العمل لتأييد مذاهبهم ، فلا نقول ان ذلك سببه مذهب داروين ، فان الشكوك والشبه ألمت بافئدة أهل أوروبا منذ القرن الخامس عشر كما اثبتنا ذلك فى بعض فصولنا المتقدمة فى مباحثنا ، وانما نقول ان مذهب

داروين اكسب تلك الشبه صبغة ثابتة ، وامتلخ من يد العقائد الرسمية ملايين تعد بالعشرات في سنوات قليلة ، وجعل التكذيب بمقررات الاديان أمرا طبيعيا علميا فى نظرهم

مذهب داروين موضوعه الفزيولوجيا كما هو معلوم فكان المنتظر أن يكون تأثيره محصورا فى عالم العلم الطبيعى ، ولكنه لمساسه بمسألة خلق الانسان خرج عن دائرة العلم الطبيعى ، وأغار على الفلسفة العقلية والفلسفة الحسية ، والعلوم الادبية والاخلاقية ، وجاز كل تلك الدوائر حتى النهم العلم السياسى أيضا وعلي هذه الصورة انتشر بين الطبقات الاجتماعية حتي وصل الي عامة الناس ودخل فى معاملاتهم ومجاملاتهم وصارت مباديه قاعدة أساسية لاخلاقهم وعاداتهم ، حتى أصبح عامة الشعوب الاوروبية داروينيين فعلا وان لم يحسنوه علما . ثم فاض هذا المذهب من الشرق الى الغرب وكان الموصل له الى هذه البلاد طائفة من كتاب السوريين أصحاب المجلات العلميه فلم ينجحوا فى بثه فى اذهان الناس من قبيل العلم قدر ما نجحت عدوى معاشرتنا للاوروبيين ، فأصبح الناس هنا اليوم داروينيين بالعمل وان كرهوا ذلك قولا ووهما .

نعم انك لو واجهت انسانا وقلت له ، هل لك ان تعتقد ان الانسان حيوان مترق عن القرد وان بينه وبين الكلاب والسلاحف آواصر قريبة من القرابة ، وان كل الاحياء اصلها خلية واحية واحدة ، وان كل ماتراه من صور الكائنات واشكالها ، كله نتيجة الوسط المناسب والفواعل الجوية ، وضروب المعيشة ، وانه بناء على ذلك ، لا يليق بالانسان أن يوهم نفسه بعذاب ولا بعقاب فى دار غير هذه الدار ، وماعليه الا أن يعلم أن السعادة هى سعادة هذه الحياة الارضية ، وانها معقودة ببعض نواميس معدودة على

الاصابع ، لو توخاها الانسان ، ووفق سيرته عليها فاز بمراده من أكبر قسط من السعادة المرجوة . من تلك النواميس : (الكائنات الارضية كلها متنازعة في البقاء) و (القوى منها يغلب الضعيف و يبيده) و (لا يبقي الا الاصلح للبقاء) فان أحسنت المنازعة وسلكت فيها مسالك المهارة والدقة وأمكنك بذلك أن تقوى نفسك وتبدد كثيرا من الضعفاء وتمتص مادتهم صرت اصلح منهم للبقاء فبقيت انت وأخلوا لك الجو وهذا ما يعبر عنه بالسعادة البشرية العليا ، لو قلت لانسان مثل هذه المقالة لحوقل واسترجع ، وتألم وتأفف ، و رماك بالمروق من الدين والبعد عن الفضيلة ، بينما تكون هذه المقالة برمتها ترجمة سيرته بين قومه بل وأهل بيته ، فتراه مثلا كالليث الضاري ، بالنسبة لصغار الفلاحين يقرضهم دريهمات قليلة و يبتز بها محصولات كثيرة ثم لا يزال ينازعهم بحيله و وسائله تارة بالاقراض وأخري فى السقى والصرف والبناء حتى يلجئهم لان يبيعوا ارضهم و ينجلوا من محلته بالمنازعة الى حيث يدعوهم الهم الناصب والفقر المدقع . ولا معنى لهذا العمل كله الا تحقيق مذهب داروين فعلا فان ذلك الرجل نازع مجاوريه وتقوى عليهم بقوته ثم بقى بعدهم لانه أصلح منهم للبقاء و ربما كان على هذه السيرة كثير الصلاة والصيام دائم التلاوة والتسبيح و يحتمل ان يكون بعد ذلك سبط اليد يبذل المال و يقرى الضيفان ! !

الا ترى معى بعد هذا ان مذهب داروين اكثر شيوعا مما يظنه اكثر الناس ، وادخل فى مسارب اميال هذا الجيل من أى مذهب على آخر ؟ فاذا كان الأمر كذلك فكيف لا نسأل عن هـذا الأمر الجلل ، وكيف لا نفحصه فحصا دقيقا لنرى ما كنه هـذا الامر الهائل الذي ألم بالناس عموما بالقول والعمل ، وكان موجوداً بالعمل من يوم خلق العـالم الى الآن

لا يقال ان الانسان ما عرف التنازع ولا تغلب قويه على ضعيفه ، ولا بقى الا صلح للبقاء ، الا بعد ظهور هذا المذهب . فان خبر الطوائف الانسانية كلها ينبئك بتأصل هذه النواميس فى طبيعة الخلقة البشرية تأصلا تاما . ومن المعلوم بالبداهة ان الانسان ارسل اليه رسل من الله و بعث فيه انبياء يعدون بعشرات الالوف . فماذا كان شأنهم بازاء هذه النواميس وماذا كان تاثير العقائد عليها ؟

هذه النظرة التاريخية تدلك دلالة صحيحة على ان الدين وجد وعمل به مع وجود هذه النواميس ولا سبيل للقول بضد ذلك . بل ان هذه النواميس التى اكتشفها داروين وعدها قاعدة اقام عليها صرح مذهبه موجودة فى القرآن الكريم بالنص من ضمن قوانينه العمرانية ، وان أردت بعض البيان فاليك :

يقول داروين ان بين الطبيعة والكائنات الحية حربا مستعرة من يوم ولادتها الى يوم بلوغها قمة كما لها فالكائنات التي تبقي مع وجود هذا الحرب الدائمة تكون بلا شك اقبل للبقاء من سواها ، بل أحق بها من كل ما عداها و يضرب لذلك الامثال فيقول مثلا : ان عدد البيوض والجراثيم التى تولدها الاحياء اكثر بكثير من عدد الأحياء المتولدة منها . وهذا دليل محسوس على ان اكثر هذه الجراثيم يهلك فى اوائل حياته ولا يسلم من العطب الا النزر القليل الحاصل على صفات تمكنه من اجتياز هذا الطور الحيوى الابتدائي . ثم لو قابلت عدد الاحياء الكثيرة الجراثيم بعدد الاحياء القليلة الجراثيم تجد أن من الصنف الاول مالا يكاد يذكر من جهة عدد افراده بجانب أصناف من الصنف الثانى مع انه لا يبيض الا بيوضا قليلة .

وما تراه هنا في عالم الحيوان تراه بعينه في عالم النبات فان أشخاصاً كثيرة من الفصيلة الثعلبية يولد ألوفا من الجراثيم وهو مع ذلك قليل العدد وأمامه أصناف من فصائل أخرى قليل البزر ولكنه كثير العدد جداً .كل هذا يدل على ان عدد الاشخاص التي تبقي لايتوقف على عدد الجراثيم بل على صفات تلك الاشخاص الذاتيـة وحالة الوسط التى تحيا فيـه . فما كان منها املك لصفات البقاء والمقاومة سلم من العطب و بعى ، وما كان عير ذلك هلك وتبدد وانقرض .

هذا الناموس عام أيضاً فى الاحوال الانسانية فان الامم فيما بينها فى تنازع مستمر وتزاحم عنيف ، فمن كانت منهن حاصلة على صفات الحياة ومتمتعة بخصائص أكمل من جاراتها سادت عليها ونازعتها أسباب حياتها واستأثرت بها دونها ، وهذا التنازع كما يقول الدارو ينيين من أكـبر البواعث على الترقي والتقدم فى باحات المدنية وساحات الحياة العقلية فانه أقوى وازع للانسان عن الاهمال والتواني ، وأحجى هادله الى بذل الوسع لنيل الامانى ، وأعمل محرض له الى صقل قواه الفـكرية والعقلية . هذا الناموس فى عرف (داروين) يسمى ناموس (تنازع البقاء) ونصه في الـكلام الالهي « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض » وقد أشار الله تعالي الي سر الغلبة فى هذا التنازع وهى القوة بقوله تعالى (وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة)ولما كانت الصفات المؤهلة للغلبة والفوز فى العالم الانسانى لا تستمد دائماً من القوة العضلية بل يستمد أكـثرها من خلال الـكمال النفسانى ، وسجايا الشرف الخلقي . أشار الله تعالى الى ذلك بقوله تعالى : « ولايجرمنكم شنآن قوم على أن لاتعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى »وقوله(وقاتلوهم حتى لاتـكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلاعدوان الا على الظالمين) وقوله

تعالى بعد ذكر القتال (واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين) بهذه الآيات الكريمة جمع النبي صلى الله عليه وسلم الى صفات القوة الجسدية أعلى صفات الكمالات الانسانية وبثها فى أفئدة أصحابه فاصبح الواحد منهم وكأن المتنبي يعنيه بقوله :

قسا فالاسد تفزع من يديه ورق فنحن نفزع أن يذوبا

فدانت لهم الدنيا دينونة لم تسبق لامة سواهم والسر في ذلك حصولهم على ينبوعى القوتين : الجسدية والخلقية ، ووصولهم الى باحات الرتبتين البشرية والملكية . ثم للنبي صلى الله عليه وسلم هذا الفوز مع قلة عدد أصحابه وفقرهم ، وانخذل أعداؤه على كثرة عددهم ، ودوام مددهم ، وشدة حميتهم ، لانهم لم يعتمدوا الا على قوة الساعد ومضاء الحسام ، وهما لا يحدثان فى العالم الانسانى الا أثراً يشبه فقاقيع الصابون لا يرغى حتي يخمد ، ولا ينتفخ حتى يتمزق . والي هذا السر الكبير يشير الله تعالى في كلامه القديم : (إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فانزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها) .

يقول (داروين) وأحزابه إذا سلمت بأن تنازع البقاء ناموس من نواميس الكون فلا مناص لك من أن تسلم بحصول غلبة لبعض المتنازعين وخذلان للبعض الآخر ، ومعني تلك الغلبة وذلك الخذلان بلسان علم الحياة البقاء والتلاشى . بمعنى أن الحزب الغالب يبقى متمتعاً بما افتتحه بقوته ومهارته وأما الحزب المغلوب فلا يجد ما يقيم اوده فيضعف ثم يزول و يتلاشى ويدع الجو خالياً لخصومه . وهذا الناموس في عرف (داروين) و (روسل ولاس) يسمى (بالانتخاب الطبيعى) ومعناه لا يبقى الا الاصلح . وقد

أشار الله تعالى إلي هذا الناموس الكبير بقوله جل شأنه « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » والمراد بالصالحين هنا المستكملون شرائط الفضائل الجسدية والعقلية ، كأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلا في جمعهم بين فخامتى الدنيا والدين ، لا كما اصطلح عليه بعض الناس من أن الصالحين هم الضعفاء المنزوون . ولقد كانت غلبة أصحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم على كافة أعدائهم من رومانيين وفارسيين مع ما كانوا فيه من قوة الشوكة وعدد الجند وانتظام الاحوال دليلا محسوساً على صحة ذلك الناموس الكبير ، فانهم عليهم رضوان الله لما كانوا أصلح للبقاء من كل من ذكروا ورثوا أرضهم وديارهم وصار ما بقي من اولئك الاقوام رعايا لهم يدفعون لهم الجزية ويعتزون بحمايتهم .

لداروين عدا عن هذين الناموسين (ناموسا المطابقة والوراثة) أما ناموس المطابقة فمقتضاه ان لنوع الاغذية وطرق الوصول اليها دخلا كبيراً في احداث الاختلافات بين الانواع . وأما ناموس الوراثة فمقتضاه أن الصفات العرضية التى تحدث فى الآباء بواسطة اختلاف الاحوال والاوساط تنتقل الي الأبناء فتنشأ تلك الابناء مختلفة فيما بينها ، ولا يزال هذا الاختلاف يقوي بينها على ممر الاجيال والقرون حتى تستحيل تلك الاختلافات العرضية الى اختلافات جوهرية توهم الرائى لها أنها اختلافات نوعية من أصل الخلقة ، وهى فى الحقيقة اختلافات بسيطة فى مبدإها توالت عليها الاحقاب حتي ازدادت تأصلا فى الحيوان ونمت فيه فأدته الى مباينة الاصل الذى نشأ منه تمام المباينة ، حتي أن الرائى لهما يظنهما من نوعين مستقلين وهما من نوع واحد . كما ترى ذلك بين الحمار والحصان فانهما على مقتضى مذهب داروين نوع واحد وانما اختلف الحمار عن الحصان هذا

الاختلاف تبعا لمقتضيات الوسط الذى عاش فيه والجهاد الشديد الذى بلى به .

هذان الناموسان : ناموس الوراثة وناموس المطابقة لا يجوز التردد فى صحتهما فان المحسوسات بجملتها وتفصيلها تدل عليها . إذا تقرر كل هذا فهل مذهب (داروين) صحيح ؟ وهل الانسان كما يقول مرتق عن القرد ؟

أكبر الاعتراضات على هذا المذهب تنحصر فى ثلاثة أمور : (أولا) عدم مشاهدة أي ارتقاء من أى نوع كان فى الاحياء الارضية من عهد الوف عديدة من السنين (ثانياً) عدم وجود الصور المتوسطة بين الانواع اللازمة لمذهب التسلسل كأن يوجد مثلا حيوان أرقي من القرد رتبة واحدة وأدنى من الانسان رتبة واحدة أيضاً (ثالثاً) طول الزمان اللازم لحصول الترقي بين الاحياء . فان عمر الارض كما قالوا لا يكفى لاحداث كل ما يرى من هذه الاشكال المختلفة غاية الاختلاف .

يرد الدارونيون على هذه الاعتراضات بقولهم أما عدم مشاهدة أى ارتقاء في الاحياء المرئية فلا يصح دليلا على عدم الارتقاء عموماً . ومن يسلم بناموس تنازع البقاء ثم بناموس الانتخاب الطبيعى أى بقاء الاصلح ، فلا مناص له من التسليم ببقاء البعض وتلاشي البعض الآخر ، ونتيجة ذلك كله الارتقاء عموماً .

أما عن اعتراض فقدان الصور المتوسطة فيجيبون بأن ذلك غير صحيح وان علماء الطبيعة لفى حيرة وارتباك في تقسيم أنواع الحيوانات والنباتات لتقاربها فى الصفات والاعضاء . وما خفيت الصور المتوسطة منها فذلك سببه شدة تنازع البقاء على حسب اختلاف الاوساط والاحوال . ولذلك لم يكن صور متوسطة بين الصفوف التى هى في حالة الانقراض أو الوقوف كالنعام

والفيل « فانها لاتولد تباينات جديدة ولذلك فهى تؤلف أنواعا مستقلة بخلاف طوائف الحيوان التى في حالة النمو فانها تنحل الى عدة أنواع جديدة بالتباينات التي تنشأ منها ولذلك يوجد فيها صور متوسطة كثيرة يحار فيها المرتبون »

أما عن اعتراض طول الزمان اللازم لصحة التسلسل فيجيبون بأن من العبث الاعتماد على قول من يزعم بامكان تحديد عمر الارض . وقد حسب الاستاذ طمسن الانجليزى الزمن الذى لزم ليبس القشرة الارضية فوجده لايقل عن عشرين مليوناً من السنين ولا يزيد عن أربعمائة مليون سنة ، وانه يقتضى أن يكون بين ثمانية وتسعين مليون سنة ومائتى مليون سنة . وهذا الزمن كما يقول داروين نفسه لايكفى لبلوغ الحياة الاطوار التى ترى عليها الآن. لهذا رأى الاستاذ طمسن أنه من الضرورى أن الحياة لم تنشأ على سطح الارض بل وردت اليها من أحد الكواكب ، بان سقطت على الارض بعض الجراثيم الحية محمولة على نيزك من النيازك الساقطة من بعض الاجرام العلوية .

لايكاد الانسان يواجه الداروينيين باعتراض حتى يقابلوه باشكالات طبيعية لايمكن تفسيرها على مايقولون الا بمذهبهم . كأن يقولوا مثلا :

لماذا تختلف الحيوانات والنباتات باختلاف شكل المعيشة وأحوال الوسط الذى هى فيه اذا لم يكن فيها قابلية لمشاكلة الاحوال ، والتطور على حسب المقتضيات ، أليست هذه القابلية للتغير دليلا على أنها دائمة التغير والتحول ؟

ألست ترى أن هذا التنازع بين الاحياء يكسب بعضها دون البعض خواص وجودية تخالف بها اخواتها فتكتسب بذلك مركزا ليس لسواها؟

اذا لم يكن الانتخاب الطبيعى قانوناً طبيعياً فلماذا نشاهد أن نوعا يقوى على مقاومة العوارض دون النوع الآخر. ولماذا نرى أن بعض الانواع يضعف أمام خصمه ثم يتلاشي ؟

ألا تري أن الوراثة وهى ذلك القانون الطبيعى الشهير صالحة لنقل الصفات المكتسبة الي النسل وتلك الصفات تنقلب جوهرية ذاتية فيهم متي صادفتها أحوال موافقة وظروف مناسبة ؟

اذا لم يكن للعادة أثر كبير فى احداث التغير في الانواع فلماذا تضعف الاعضاء والصفات فى الاحياء وربما تلاشت بالمرة متى أهمل أمرها وتركت، ولماذا تقوى وتشتد بالاستعمال والتمرين ؟

نرى فرقاً كبيراً بين الاحصاآت المختلفة التى عملها العلماء عن الانواع، حتي أنهم ليختلفون بالمئات الكثيرة. تري أحدهم مثلا يعد انواع الطيور في قطر أقل من أربعمائة وترى الآخر يعدها فى ذات القطر تسعمائة. فلماذا هذا الخلاف الهائل اذا لم يكن الفاصل بين الانواع دقيقاً جداً. ولماذا كان هذا الفاصل بين الانواع دقيقاً جداً ان لم تكن الانواع حدثت من التباينات في شكل المعيشة والاحوال المكانيه ؟

لو كانت الأنواع نتيجة خلق مستقل للزم أن لا يكون فيها أعضاء أثرية تدل على أنها كانت قبل كثير من الاجيال ذات فائدة للحيوان أوالنبات فى أحواله المعيشية ثم لما تغيرت تلك الأحوال صارت عديمة الجدوى وبالتالي بطل استعمالها فضمرت حتى صارت أثرية لايرى الا أثرها فقط ؟

هذه أكبر المعضلات التى يقدمها أنصار داروين في كتبهم لكل من يحاول أن يعترض عليهم أو ينتقص مذهبهم فهل نسلم معهم بعد هذا أن الانسان مترق عن القرد وان بينه وبين الكلاب قرابة ورحما ؟

هب أن مذهب داروين صحيح فماذا يكون شأننا أمام الدين وأمام الفضيلة وأمام العادات والقوانين ؟ بل كيف نطبق ماورد فى كتبنا عن أصل الخليقة وأصل النوع الانسانى على مقررات هذا المذهب إن كانت حقة ؟ وكيف يكون شأننا في عقيدة الروح والخلود والنعيم والشقاء الأخرويين ؟

إذا كانت العادات المتأصلة والتقاليد الموروثة تجعل الانسان يشمئز ويتبرم من سماع مالا ينطبق على عقيدته الخاصة فيدفعه دفعا بدون امتحان ولا اختبار ويوسع قائله وسائله شتما وسبا ، فليس المسلم من هذا الصنف من الناس . فان الاسلام لله معناه التجرد اليه تعالى من كل ماسواه والتوجه الي ذاته توجها خالصا منقطعا عن كل العلاقات والنسب الحيوية الصناعية أريد من هذا أن أقول ان المسلم ليس جامدا على مذهب خاص حتى يخشى صولة مذهب آخر ، بل المسلم مذهبه الحقيقة المطلقة دون سواها ينشدها فى كل مكان فان وجدها ولو على لسان عدوه حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، وان لم يجدها بحث عنها جهده حتي يجدها أو يموت في سبيلها وهو فى سبيل الله ، مستسلم لمولاه

كل إنسان يدافع عن مذهبه جهده ، ويسعى فى تأييده ولو بالخداع والحيلة ، لانه معتمده الوحيد وركنه الذي يعتصم اليه ، ولكنه رغما عن هذه المدافعة والاستبسال فى سبيله يجد نفسه فى نهاية الأمر مسوقا الى تركه وهجره متي لاح له بالحس أنه لا يقاوى زوابع الشبه وأعاصير الشكوك المنصبة عليه من كل مكان . هذا مثل أصحاب الأديان فى هذا الزمان أمام صولة العلم وجبروت أهله . أما المسلم فلا يحس بهزيمة ولا يشعر بألم خيبة ، لأن أنشودته الحقيقة ذاتها فما كان حقا أخذه على الرأس والعين وهو دينه وما كان باطلا عمل على زواله ، وان كان ذلك الباطل عقيدة كانت له منذ أربعين سنة ، فان

المسلم خلق ليرتقي كل يوم ، ولا تجده يتبرم من ترك عقيدة كانت له من أربعين سنة بل تراه يفرح بحكايتها حيث يقول : أخذت عن تسعة وتسعين شيخا ولومت قبل أن يدركني المتمم للمائة لمت على غير الاسلام (١)

الخلاصة أن المسلم لايضره مذهب علمى ، ولا أسلوب فلسفى مادام من ورائه الحقيقة التي لامراء فيهافان دين المسلم الحقيقة لاغير . وأنالا أقول هذا تصديقا لمذهب داروين ولكن من باب تهدئ أفئدة من علقت باذهانهم مقررات هذا المذهب من اخواننا المسلمين لينتظروا منا ان شاء الله التحليل الدقيق لمبادئ هذا المذهب وبراهينه ومستنداته ونتائجه على الدين والعلم والاخلاق والسياسة ومبلغ أصوله من الحقيقة . وكنه فساد الفاسد وسلامة السليم منها كل ذلك بالتحليلات الفنية والتدقيقات الفلسفية حتى نصل الى نهاية الموضوع فنحاكمه المحاكمة الدقيقة فى كتاب خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ان شاء الله تعالي .

نظرة على ماسبق

لايوجد واحد من الشرقيين لم يحس بألم التأخر فى مجال الحياة وميدان الوجود عن مناظريه الغربيين . ذلك الالم حل بالافئدة وأحدث فيها آثاراً تختلف باختلاف الناس وأمزجتهم ودرجاتهم من المال والعلم . فانقسم الناس إلى جملة أقسام : قسم هاله الفرق بين حالتنا وحالتهم فاستكان لليأس ، واستنام له ، فلاءم أحواله عليه ، فان كان غنيا هام بالتقليد والمحاكاة ، وغالي في التحكك والالتصاق بهم حتي لو استطاع أن يبدل وجهه

(١) هذه الكلمة الكبرى تروى عن أبى يزيد البسطامى وهى أجمل مثل على معنى الاسلام

غريبا لفعل ، وجرى وراء الثروة جريا جنونيا ، لانه تحقق مع يأسه أنها ركنه الوحيد فى دنياه ، وعونه الفريد فى إيفائه مقتضيات هواه . وأما ان كان فقيرا فعل اليأس به أسوأ الافعال ودفعه لطلب المال من سائر وجوهه بلا فرق بين مشروع ومحظور ، وأعطى أولاده بذلك أسوأ الدروس الحيوية . فاذا أنس ان جهاده صادف مرعى خصيبا ، وجنابا ممرعا ازدادنهما وشرها ، وغلا كلبا وجشعا ، وصار لاهم له الا المال دون سواه . واما ان قادته الظروف الى مجال ضيق ومحلة خشنة ، ضاق صدره ، وهلعت نفسه ، واستوعب النكد فكره وتصوره ، وصار عبرة لنفسه فكيف لا يكونها لغيره ؟

وقسم رأي ذلك الفرق الهائل بين شأننا وشانهم فظنه سحابة صيف ، وحسبه عرضا زائلا ، فجال به ذلك التوهم فى مجالات التصورات الوهمية ، والاقيسة الظنية ، وأخذ يسرح من سراب حلم ، إلي فضاء وهم ، منتظرا وقوع الاحن بالغرب واهله يوما بعد يوم وهلم جرا . . .

هذا القسم يشن غارته هذه على الغرب وهو سابح فى زخارف مدنيته وراتع فى أرجاسها من حيث مأكله ومشربه وملبسه ، وهو يحس بذلك كله و يعترف بان ذلك الجديد المستعار أحسن مما فيه قومه ، ولكنه اعتراف لايجاور شغاف قلبه ، ولم يصعد الى مركز تعقله لشدة ماأخذت الاوهام بمخنق ادراكه ، وأمسكت با كظام تصوره .

وقسم لم ييأس من مساواة مناظره ، ومسامانه فى مفاخره ، ولكنه يرى أنه خير الذرائع للحاقه هى تقليده ومحاكاته فى صنائعه واختراعاته ، فهو يدأب فى بث هذه الفكرة جهده . من هذا القسم أكثر كتاب الصحف ! ومؤلفي الكتب .

هناك قسم رابع ساووا القسم المتقدم فى عدم اليأس ، وزادوا عليهم فى سد مساربه بالعلم والعمل ، ولكنهم يرون ان الترقي الصناعي والعلمي (مظاهر روح عالية) تحل بالامة كما تحل الحياة بالجسم الميت فتسوقها الي مقاوم العلاء والشرف سوقا طبيعيا منتظما .

أفراد هذا القسم يرون ان دواء الشرق هو رد روحه اليه بالوسائل الحيوية التي سنها الانبياء وتبعهم فيها كبار المصلحين ، لا بالدعوة الى مظاهر المدنية أو فتح المعامل الصناعية . هؤلاء هم أصحاب العقول العالية والافئدة الكبيرة ولكنهم أقل من ان يعدوا على الاصابع .

اذا تقرر هذا فقل لي أي شيء هو هذا الامر الجلل الذى انصب علينا من العالم الغربى تحت اسم المدنية الغربية ، وسلبنا من أنفسنا سلبا لجيئة لكل واحد منا من جهة ضعفه وشطر مقتله ، فلم يدع غنيا ولا فقيرا ولا شيخا ولا شابا الا ودخل إلى سويداء قلبه ، ونفذ إلى صميم كيانه ؟

لا يمكن أن يكون هذا الامر حالا عرضيا ، أو مظهراً سرابيا ، أتت به الحوادث جزافا ، وكونته الظروف صدفة ؟

النفوذ الى حقائق هذا الأمر الجلل ، والسريان الى سره من حق و باطل ، وطبيعى ووهمى ، وصحيح وفاسد ، لا يتم الا بتحليل كل ما يردنا من تلك المدنية تحليلا فلسفيا دقيقا وامعان النظر فيه بعين الحزم والاناة . وهى وظيفة (الاسلام في عصر العلم) فانه لن يدع ان شاء الله مذهباً فلسفياً ولا رأيا علمياً ولا ناموسا عمرانيا ولا أساً نفسيا مما أنتجته تلك المدنية الا فحصه فحصا دقيقا وحلله تحليلا شافيا ان شاء الله تعالى بنور القرآن وحال الرسول عليه الصلاة والسلام صيانة لايماننا فى هذا الجيل العجيب الذى

يصبح الرجل فيه مؤمنا و يمسى كافراً الا من عصمه الله بالعلم .

إذا تقرر هذا فمذهب (داروين) و إن كانت نتيجته تضاد ماذهب اليه الا انه لايخلو من حقائق وجودية كبرى لها أكبر الآثار فى ترقية فكر الرجل العصرى وتهذيب ملكاته ، فان رفضناه من أول وهلة بدون امعان النظر فيه ، ودرس ظاهره وخافيه ، كنا غاشين لانفسنا ، مزرين بعقولنا ، لان شبهه علقت بالاذهان ، وقوانينه أصبحت جزءا من سيرتنا فعلا ، فما معنى أيهام انفسنا بعد ذلك باننا من أعدائه الالداء ، وخصومه الاشداء .

ان هؤلاء الناس الذين يعادون قوانين مذهب (داروين) كله لاجل نتيجته لايدرون أنه قد أقام أقوى البراهين الحسية على حقائق قرآنية كان الغربيون لولاه يتوهمون أنها جهاتنا الضعيفة التى يبرهنون بها على عدم حقية ديننا كما سيمر بك تفصيلا إن شاء الله تعالى .

فهرست

الملحق لكتاب الاسلام

	صحيفة
(١) رأينا فى داء الامة ودوائها	٣
(٢) داء الامة ودواؤها	١٢
(٣) الاسلام فى عصر العلم ملاحظة على ملاحظة المقتطف،	٢٢
(٤) تنبيه لحضرات قرائنا	٣٢
(٥) ماوراء المادة	٣٥
(٦) استحضار الارواح والتنويم المغناطيسى	٣٨
(٧) اقتراح من مجلة المنار	٤١
(٨) رأينا في المناظرة فى موضوع تدريس الطب بالعربية أو بلغة أجنبية	٤٢
(٩) باب المسائل	٤٨
(١٠) هل نحن أمة حية	٥٠
(١١) العامة والخاصة	٥٢
(١٢) الحج	٥٤
(١٣) استحضار الأرواح	٥٩
(١٤) النبوة ليست اكتسابية	٦٤
(١٥) من أين جاءنا الفساد الاجتماعى	٦٧

صحيفة

(١٦) ماهو الجبروت والملكوت والناسوت واللاهوت ٧٦
(١٧) الصلاة والصيام فى الاسلام ٧٧
(١٨) مذهب دارو ين والدين ٨٤
(١٩) نظرة على ماسبق ٩٧

﴿ تم الفهرست ﴾

الخطأ والصواب الواقع فى الجزء الأول

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٧٣	٩	هم الغالبون	هم المفلحون
٢٥٦	٢	فى رحمة منه	فى رحمة منه وفضل
٢٥٨	٤	فى رحمة منه	فى رحمة منه وفضل
٢٦٠	٩	وقولوا	قولوا
٢٧٦	٧	ومن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا ومالهم فى الآخرة من خلاق	فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وماله فى الآخرة من خلاق
٢٧٦	١٤	قال له صاحبه أكفرت	قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت
٢٧٦	١٨	لكن	لكنا
٢٨٥	٣	يكسبون والذين	يكسبون فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين
٣٠٠	١٤	ومن يعمل من الصالحات	من عمل صالحا
٣١٦	١٧	مستقيم	مستقيما
٣٢١	٢	الغالبون	المفلحون

297.15:W14iA:v.2:c.1
وجدى ،محمد فريد
الاسلام فى عصر العلم
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01005108



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT